رحلة حب بين إنسية وجني

رواية

"WHEN A MUSLIM JINN FALLS IN
LOVE WITH A HUMAN GIRL."

بقلم: ضحى قزولة

رحلةُ حُبّ بين إنسيّة وجنّي

حقوق الطبع والنشر والتأليف

جميع حقوق الطبع والنشر والتأليف محفوظة © للمؤلف:
ضحى قزولة سنة 2026م.
هذه النسخة الإلكترونية مخصصة للقراءة المجانية والتداول غير الربحي.
يُسمح بمشاركة هذا الكتاب ونشره مجانًا، بشرط الاحتفاظ بمحتواه كاملًا دون أي تعديل، مع الإشارة الصريحة إلى اسم المؤلفة.
لا يجوز إعادة طباعة هذا العمل، أو بيعه، أو استغلاله في أي نشاط تجاري أو ربحي إلا بعد الحصول على إذن كتابي مسبق من المؤلف، وتُعدّ أي مخالفة لهذه الشروط انتهاكًا لحقوق الملكية الفكرية، مما يعرّض مرتكبها للمساءلة والملاحقة القانونية وفقًا للقوانين والتشريعات المعمول بها.

قُدّر لها أن تكتشف أن الأمان لا يأتي من الأشياء
الملموسة بل من تلك الارواح الطيبة التي تظل
تحيط بها دون أن تراها..

تقول: حين إتحدنا زادت بصيرتي وزاد دهاؤه، فأخذت بعضًا من وعيه، وأخذ بعضًا من كينونتي،فصرت أنظر إلى الأمور ببصيرة قلبية و صرنا الواحد حين يقرر..

كانت همسة في حلمٍ قديم، ثم إستيقظت
كنبضٍ جديد يسري بين السطور، إلى ذلك الذي
تجاوز المنطق وتخطّى حدود العوالم، ليجعل
من المستحيل احتمالًا و من الغياب حضورًا
خفيًا لا يُنسى..

بسم اللّٰه الرحمان الرحيم

مقدمة:

في عالمٍ لا يُقاس بالمسافات، بل بالذبذبات الخفية التي تعبر بين الأرواح، حيث لم يكن هناك موعدٌ للقاء ولا وعدٌ بأن تُفتح الأبواب بين عالمين مختلفان.. ومع ذلك، حدث ما لم يكن في الحسبان.

هي لم تكن تبحث، وهو لم يكن يظن أن شيئًا في عالمها قد يلمسه.
لكن هناك حنينًا وُلد بين الغيمات، سار بين الحجب و تسلل إلى القلوب قبل أن تراه العيون.

هل كان قدَرًا أم اختيارًا؟ هل الحبّ حين يأتي من العالم الآخر يكون خيرا أم شرا؟ يكون خلاصًا أم امتحانًا؟

كانت "إيليانا" قد خرجت لتوّها من مقاعد الدراسة في طور الإكمالية تتأرجح أحلامها على أرجوحة الأمل،لم تلبث أن إلتحقت بمدرسة قرآنية حيث الأمان في ترتيل والسكينة في صوت يُتلى.

كانت تسميها "حلقات الحب" تلك المجالس التي تلتفّ فيها القلوب حول كتاب اللّٰه، تتدارسه برفق، وتحفظه بشغف. لم تكن تغيب عن حلقة، قلبها يتنفّس هناك بين رفيقاتٍ يلهثن مثلها في سباق الحفظ والإتقان يتسابقن إلى الجنة من بوابة التجويد تُسمع لمعلمتها بفرح الطالبة المُجتهدة، بين آياتٍ تحفظها منذ الأمس، وأخرى يتردّد صداها في قلبها منذ سنوات. تُعيد وتكرّر، عشر مرات وأكثر، وكلّما تعثّر لسانها أو أثقلتها قاعدة من قواعد التجويد، تذكر أنها ستكون من حفظة القرآن الذين هم أهل اللّٰه وخاصته فتزهر في صدرها حماسةٌ جديدة.

"المدّ، التفخيم، التّرقيق، الإدغام، الإقلاب، الإظهار،الاستعلاء.. كلمات لم تكن مجرد قواعد، بل كانت مفاتيح لأبواب من الإتقان وكانت هي تشد العزيمة في الحفظ والتعلم، وفي المساء تعود مع صديقاتها إلى المنزل..

الطريق إلى المنزل بسيط، لكنه ممتلئ بأحاديث دافئة، رائحة الخبز من البيوت ظلّ الأشجار على أرصفة الحيّ، شفق شمس الغروب بلونه الوردي..

وأحيانا أخرى يصطحبها أبيها في سيارته المتواضعة لتعود إلى البيت حيث يبدأ فصل آخر من يومها لا يقل جمالاً عن وقتها في الحلقة.. وغالبا ماتجد أمها تعد العشاء لم تكن تنتظر نداءً أو طلبًا بل بروح المحبة كانت تُسابق نفسها لتساعد في ترتيب الطاولة أو جلي الأواني أو أي عمل تساعد به أمها تنوي بذلك أن يكون من "العمل الصالح"فهي تعلم جيدا أن كل الأعمال

إن احتسبتها لوجه الله وحده فسيكافئها الله لا محالة، مستدلّة بقوله صلى الله عليه وسلم: «اتّقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة».

وبينما كانت الرائحة تتصاعد من القدر، رُفع أذان المغرب.. صوت الإمام وهو يؤمّ المصلين، وتلك الأجواء المسائية التي تغسل من روحها تعب الساعات، ثم مسحت يديها بطرف مئزرها وراحت تتوضأ لتؤدي فرضها، وكما هو المعتاد بعد الصلاة فتحت دفترها الذي امتلأ بالحواشي ورسوم الأحرف المشكلة لتراجع أحد أبواب المتن، وهكذا كانت تقضي أيامها الروتينية على هذا النحو الدافئ دون أن تعلم أنها ستكون جزءًا من قدر استثنائي، سيأخذها لأبعد من حدود عالمها.

♡♡♡

حينما رآها القلب من وراء الحجب

كانت المساجد مكانه المفضل، يجول في الأركان صامتًا ويتفيّأ ظلال حلقات القرآن، ينصت للتلاوات ويمتع بها أسماعه وروحه.
لم يكن يُرى ولم يشعر به أحد، لكنه كان يراهم بوضوح... يرى وجوههم، حركات شفاههم، ارتعاشات ذبذباتهم حين تستقرّ الآية في القلب.

وهناك في أحد تلك المساجد لمحها... كانت تجلس في مقعدها ترتل بخشوع، وقد وصلت قبل الوقت الذي تصل فيه المعلمات والطالبات. هي دائمًا ما تفضل أن تختلي بنفسها في المراجعة لذلك تتعمّد الذهاب قبل الوقت.
وبينما كانت مغمضة العينين ترتل بصوت هادئ، كان هو يراقبها مستمعًا لها دون أن يتخطى حدًا، ينصت لتلاوتها كأنها خُصّت له ويحدّث نفسه أن يعود أدراجه لكنه لا يفعل. أصبح دائمًا يتردد إلى ذلك المسجد تخصيصًا، فقط ليسمع تلاواتها التي كانت مختلفة عن الباقيات، فترداتها وهالتها جعلتها مرئية له بشكل مبهر. حاول أن يقاوم ما شعر به، يعلم أن الاختلاط بالبشر محرّم عليه و أن الظهور لهم مخلّ بنظام العالمين، لكنّ شيئًا فيها استولى على نياط قلبه وأصبحت مراقبتها شيئًا ضروريًّ ا لا اختياريًّ ا.
ومنذ ذلك اليوم صار المسجد ليس فقط موطنًا للسكينة بل مكانًا للقاء الصامت الذي يشدّه دون أن يطلب ويعيده دون مكابح.. ربما أشعلت فيه شيئًا لم يُجربه من قبل!

كانت تمارس يومها كسائر الأيام تحفظ آيات من الجزء التاسع والعشرين بصوتٍ خافتٍ و الكتاب بين يديها وقد التفت حوله أصابعها بعناية، جالسةً على سجادتها الوردية بعد صلاة العصر مسترخيةً بطقمها الأبيض، يغمرها ضوء الشمس المتسلل من النافذة، وتترنّم بترتيلها كما هي عادتها..
كان كلّ شيء عاديًا حتى تغيّر الهواء فجأة، لم يكن هناك صوت ولا حركة لكن شيئًا ما في الجو تغيّر، نسمة خفيفة داعبتها مرّت كأنها تمسّ روحها لا جلدها، قشعريرةٌ غريبة شعرت بها في أطرافها، توقفت عن الترتيل ونظرت حولها، لكن لا يوجد إلا السكون!
همست في نفسها: «إنها مجرد تخيّلات لكي يصرفني الشيطان»حاولت إقناع نفسها بذلك لكن الإحساس لم يذهب، شعور بأنها ليست وحدها ما زال مسيطرًا!
أعادت ترتيب جلستها وأخذت نفسًا عميقًا، ثم أكملت ترتيلها.. لكن صوتها هذه المرّة اهتزّ قليلًا، فحين قرأت قوله تعالى: (10) وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (11) من سورة الجن_
سمعت كلماتها تخرج منها وتعود إليها بأثرٍ مُضاعف..
هناك من قالها معها بصدى!
وضعت يدها على صدرها، تسارعت نبضات قلبها، فتلك أول مرة تُحِسّ بحضور غريب لشيء ما!

سُحبت من مكانٍ آمن إلى هاويةٍ بلا تفسير، سخونة غريبة تزحف على ظهرها مع أنّ الجوّ لم يتغيّر.. لا يزال الهدوء يعمّ المكان لكن الهدوء نفسه كان مخيفا.
«هل هناك أحد في الغرفة؟» لم تنطق بها لكنها تساءلت في نفسها والحذر بدأ ينسج خيوطه حول عقلها، لم يكن رعبًا بل ذلك النوع الغريب من الخوف الذي يُربك العقل ولا يُقنعه بشيء.

استمرت في التحديق حولها، ورغم الخوف الذي تسلّل إلى قلبها كنسمةٍ باردة في أمسية دافئة فتحت المصحف من جديد، تقنع نفسها أن «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، أخذت ترتّل، تستجمع سكينتها بين الآيات، تتحصّن بها، وفجأة..

انفتح باب الغرفة.. دخلت "مِيلينا" ضاحكةً تركض هنا وهناك تنثر الفرح أينما مرّت، رفعت إيليانا نظرها نحوها وسألتها بابتسامة:
– هل عادت أمي؟
– نعم، عادت. وانطلقت مسرعةً نحو الباب بعدما أخذت دميتها، لتتبعها إيليانا تاركةً خلفها شعورها الغريب، فدخول أختها الصغيرة أعاد إلى قلبها الطمأنينة.. في الخارج كانت السيدة "ليلى" تقف عند المدخل تحمل أكياسًا كثيرة، وإلى جانبها زوجها السيد "خالد" يساعدها في إنزال المشتريات.
قالت ليلى فور رؤيتها ابنتها:
– تعالي يا ابنتي ساعديني في تفريغ الأكياس.. اشتريت ما نحتاجه لإعداد الحلوى، سنأخذها معنا إلى بيت والدتي.
شهقت إيليانا بفرح:
– أووه أمي.. حقًا سنذهب إلى بيت جدّتي؟

_نعم، لا بدّ أن نذهب.. لكن لليلةٍ واحدةٍ، أنتِ تعلمين أنني لا أحبّ أن أغيّبكِ عن الحلقات، أمامكِ حفظ ولا أريد تأخيركِ عن المعلّمة وتسألكِ عن غيابكِ.
تدخّل والدها مازحًا:
– إذًا لا تذهبي وانتهينا، دعي أخاكِ محمود وأختكِ الصغيرة يذهبان أما أنتِ فابقي معي في البيت واطبخي لي... أفضل من أن أطبخ وحدي!

أتبع كلامه بضحكات، في حين قالت ليلى معاتبة:
— لا يا خالد، لا يصحّ ذلك!.. لا بدّ أن تذهب معنا، فهي لم تزر والدتي منذ فترة، ثم إن أختي هاتفتني صباحًا وقد أوصتني بأن تأتي إيليانا، فقد اشتاقوا إليها كثيرًا، بالإضافة إلى أن جميع خالاتكِ وبناتهنّ سيجتمعن الليلة، لا يعقل ألا ترافقيني!
ابتسمت إيليانا وتألّقت عيناها بفرح: اشتاقت!... نعم، اشتاقت لحكايات جدها القديمة وخبز جدتها، وحلوياتها التقليدية التي تصنعها لهم كلما اجتمعوا، اشتاقت لأجواء البيت الكبير بكل تفاصيله، لأحاديث البنات التي لا تنتهي في الليل... ولتلك الأسمار التي تمزج بين الأنوثة والأسرار.

♡♡♡

في بيت الجدة

كانت الليلة تعبقُ بدفء العائلة وضجيج الأصوات،روائح الطعام تتسلّل من المطبخ إلى أرجاء البيت الكبير، اجتمعت الأحبّة كنجومٍ تجمّعت في سماء واحدة.
جلست إلى جوار جدّتها، التي كانت تسألهم عن حالهم وأجوائهم، بينما الجدّ يرحّب بهم، يبتسم رضًى، ويشارك الأحفاد دعاباتهم.
ليلى وأخواتها انشغلن بإعداد العشاء، وهنّ يتبادلن الأحاديث عن تفاصيل الحياة، ما بين الدراسة والأسواق والزيارات.
غربت الشمس وأسدلت الظلمة أستارها، فيما امتدّت مائدة بسيطة يغنيها الحب أكثر مما يغنيها الطعام. وعلى وقع صخب الأواني التي كانت تُجهّز، نادى الجدّ:
– أين أنتنّ يا بنات؟! الطعام يبرد، وسرعان ما ينقضّ عليه الصغار!
ضحكت إحدى خالات إيليانا مردفة:
– إنّهنّ في الأعلى، يخطّطن للاستيلاء على إحدى الغرف، كما هي عادتهنّ كلما اجتمعن!

♡♡♡

في الطابق العلوي، كانت إيليانا قد صعدت برفقة ابنتي خالتها، سوسن وبسمة، الثلاثي الذي لا يفترق، تجمعهنّ صداقة نقيّة من الطفولة.
سوسن وهي تتأمل الغرفة:
_ما رأيكما؟ لنمضِ ليلتنا هنا! هادئة بعيدًا عن ضوضاء الأطفال.
أومأت بسمة بحماس:
_فكرة رائعة.. سنكون أكثر راحة هنا.

توافقن الرأي ثم تمددن على الأسرّة وأخذن يتبادلن الأحاديث، خاطبتهم إيليانا وقد لمعت عيناها بشيء من الفخر:
_أما عني فأجمل قرار اتخذته هو الالتحاق بالمدرسة القرآنية، أحمده أنه وفقني لذلك، بالإضافة إلى أن معلمات المدرسة يدعون الطالبات إلى حضور حلقات في المسجد كل عصر، أُمضي وقتًا ممتعًا في ظل تلك الأجواء.
نظرت إليها سوسن بإعجاب:
– أجمل شيء... أنا أيضًا حاولتُ الحفظ، لكنني أفتقر إلى الصبر.
لتقول بسمة باستياء:
– وأنا التحقت بإحدى مجموعات التحفيظ، لكن لم أستطع التوفيق بين الدراسة المكثفة والحفظ.
وفجأة، دخلت عليهنّ ميار ابنة خالهم مشاكسة الجماعة ومحبوبة المغامرات، تمسك بهاتفها وعلى وجهها ابتسامة ماكرة، لتقول وهي تلوّح بالجهاز:
– كفوا رجاءً عن كل قصصكم.. الآن وقت المرح، بحثت مطولًا عن قصة مرعبة ووجدت أخيرًا.. بالإضافة إلى أنها طويلة وتدور أحداثها عن العالم الآخر.
رفضت بسمة فورًا:
– أرجوك لا تضيعي عنا هذه الليلة في الرعب، أنا ليست لدي الجرأة.
قاطعتها سوسن:
– ما رأيك أن تحتفظي بها لنفسك.. سأحلم بكوابيس حتمًا وهذا لا يروقني البتة.

لكن إيليانا بقيت صامتة، ثم ابتسمت وقالت:
— دعونا نجرّب، سنستمع قليلًا، وإن شعرنا بالخوف نشغّل مقاطع قرآنية وننام بكل بساطة.
ثم نظرت ميار إليها، وأخيرًا وجدت من يؤيدها ويشاركها متعتها:
— أحبّك إيليانتى أنا وأنت دائمًا ما نتفق، إذًا اثنتان مقابل اثنتين، والمنتصرتان نحن بالطبع.. لا مجال للمراوغة.
وانطلق المقطع.. صوتٌ عميق يروي حكاية جنيّةٍ تسكن بئرًا مهجورًا...
ساد الغرفة صمتٌ ثقيل، كل واحدةٍ منهنّ تمسّكت بغطائها وتتابع الحكاية بأنفاسٍ محبوسة.
كان الصمت قد خيّم على الغرفة، والفتيات يحدّقن في شاشة الهاتف حيث الصوت يزداد غموضًا، والحكاية تأخذ منعطفًا مخيفًا.. وعلى حين غرّة انفتح باب الغرفة بصرير حادٍّ مباغت، ارتدّ صداه في أرجاء الطابق العلوي.
صرخن جميعًا دفعة واحدة، متعلقات بالأغطية كدروعٍ حامية ترتعد قلوبهن من الفزع، إلا إيليانا التي انفجرت بالضحك وهي تشير نحو الباب قائلة:
— كفّوا عن الصراخ، إنّه أخي محمود!
دخل محمود وهو يضحك بصوت عالٍ، تقدّم بخطى واثقة وشقاوة واضحة في ملامحه وقال بنبرة منتصرة:
— كنت أعلم أنكنّ تستمعن إلى قصص الرعب، لذا جئت بهدوء... أردت فقط أن أراكنّ ترتعبن!
أمسكت بسمة بوسادة صغيرة، وركضت نحوه تضربه بها وهي تهتف:
— يا لك من مشاكس! تخيفنا ثم تهزأ بنا؟!
تراجع خطوة إلى الخلف وهو يرفع يديه ساخرًا:

_كلّ هذا لأنني أردت قليلًا من المرح؟ أنتنّ جبانات... ليس لديكنّ الشجاعة لتُكملن، أنصحكنّ بعدم توريط أنفسكنّ في هذه القصص.. لستنّ أهلًا لها، صدّقنني..

ثم تابع وهو يدير ظهره:

— انزلن إلى العشاء يا بطلات الرعب الورقي.

نزلت البنات وهنّ يتبادلن الضحكات، وبسمة لم تفوّت الفرصة، وظلّت تلاحق محمود تلكمه كلما سمحت لها الفرصة، وهو يتصنّع الهروب. نزل الجميع إلى طابق العائلة.

المائدة كانت عامرة بالحب قبل أن تكون عامرة بالطعام.

جلس الجميع في البهو الكبير، حيث الجدّ على رأس الطاولة يسكب الحساء في صحنه وهو يبتسم بحنوّ للفتيات:

— تأخرتنّ علينا، أيّ قصة خطفتكنّ هذه المرّة؟

ردّت ميار مازحة:

— قصّة جنيّة في بئر مهجور، لكنّ النهاية كانت ظهور محمود..

ليردّ الجدّ ملاطفًا حفيداته:

— الجنيّة المسكينة لم تتوقع أن يخطف محمود دور البطولة منها!

قُدّم الطعام، وتبادلوا الحكايا وذكريات الطفولة، وكان كل فردٍ من العائلة يُنصت حينًا ويتحدث حينًا في تناغمٍ جميل.

الطعام دافئ، القلوب أدفأ، والمكان مليء بضحكٍ لا تفتعله الكاميرات، بل تصنعه الألفة.

وحينما انتهى الجميع من الطعام، قامت الفتيات على اتفاق غير منطوق، فأخذن يجمعن الصحون ويساعدن بعضهنّ في التنظيف.

دخلن إلى المطبخ وبدأن العمل كفريق صغير بين الغسيل والترتيب، وخلال ذلك كانت سوسن تغني بأنغامٍ مضحكة، وميار تغيّر كلمات الأنشودة إلى نكات فينفجرن ضحكًا. بعدها جهّزن دِلّة القهوة وسكبنها في الفناجين وقدّمنها في صينية عتيقة، وبعدما انتهين صعدن مجددًا إلى الطابق العلوي إلى الغرفة نفسها، وعطر القهوة لا يزال عالقًا في أطراف شعرهن.

♡♡♡

انتصَف الليل على أطراف القرية، وساد الهدوء أرجاء البيت، وهناك في الزوايا ضوء خافت يتسلّل من إحدى النوافذ فيضيء بشكلٍ خافت الغرفة التي توزّعت فيها الفتيات، كل واحدةٍ منهن على ركن من أركانها، تغمرها وسادة ولحاف، بينما تُمسك بهاتفها تارة وتشارك الأخريات بلعبة أو تعليقٍ مرح تارة أخرى. كانت لعبة "فري فاير" تدور على الشاشات، تعلو معها الصيحات المتحمّسة، ثم تهدأ لتبدأ جولة من الحكايا الدافئة عن أول إعجاب، أو عن موقفٍ مُحرج في المدرسة، أو حتى عن حلمٍ غامض لم يفهمنه معناه بعد.

إيليانا بابتسامتها التي كانت تشعّ من وجهها وتُضفي سحرًا على كل من حولها في نظر "أحدهم"، كانت أكثرهن صخبًا وضحكًا، وميار تلك الفتاة الشقيّة التي لا تهدأ، كانت تتقلّب على فراشها تبحث عن فكرة جديدة تُثير القلوب من حولها، رفعت رأسها فجأة وقد لمعت عيناها ببريق المغامرة:
— يا بنات... لم نكمل القصة المرعبة، ما رأيكنّ أن نشغّلها الآن! نظرت إلى إيليانا تستنطق رأيها، فابتسمت الأخيرة بخفّة وقالت:

— لكن الوقت تأخّر، والجميع نِيام إلا نحن! أظن أنه وقتها، أليس كذلك؟ كذلك يا ميار؟

ضحكت ميار بصوتٍ مكتوم وهي تبحث عن القصة في هاتفها:

— وقت قصص الرعب، وقتها الثمين!

بسمة وسوسن رمقتاهما بعيون نصف نائمة ونصف مذعورة، وقالتا بصوتٍ واحد:

— قلنا لا نريد، وكُنّا خائفات من البداية!

ولكن من يقاوم إيليانا وميار حين تتّفقان؟

بكلمة هنا وغمزة من هناك، وجدت الفتاتان نفسيهما قد وافقتا، وإن كان قلباهما ما زالا في تردّد.

التففن تحت الأغطية كأنهنّ في كهفٍ صغير، جلست إيليانا وسطهنّ تتربع بأريحية، شعرها منسدل على كتفيها وعيناها تلمعان بحماسٍ لا يخلو من الحذر. فتحت ميار الفيديو وبدأ الصوت يهمس:

"في قريةٍ نائية، حيث كان هناك بئر تسكنه جنية تظهر في الليل متشكلة على هيئة قط اسود أو امرأة ذات شعر طويل..

سكن المكان وسكنت الأنفاس، سوى من خشخشة البطانيات، وكان هناك في زاويةٍ لم تلتفت لها أعينهم، ظلٌّ ما زال يراقب.

كان الصوت في الفيديو يعلو وينخفض، تنبعث منه نبرةٌ رخيمة محشوّة بأسرار الظلام،تتحدّث عن بيتٍ مهجور أمام ذلك البئر الذي لا تلامسه أشعة الشمس، وعن مرآةٍ عند مدخله لا تعكس الصور، بل تحتفظ بها في أعماقها...

وبينما الفتيات متسمّرات يتابعن بأنفاسٍ متقطعة، كانت إيليانا قد بدأت تُحسّ بشيءٍ غريب! لم يكن نابعًا من القصة ولا من صوت الهاتف.

بل من مكانٍ أعمق خفيّ، هواءٌ ساخن نوعًا ما، انزلق على عنقها وانسلّ إلى قلبها بأثرٍ غريب.

لاح بصرها نحو الزاوية المظلمة من الغرفة، وهناك لمحت شيئًا، حاولت أن تقنع نفسها أنه ظلّ ثيابٍ معلّقة عكسه ضوء النافذة الخافت...

لكن قلبها لم يخطئ؛ ذلك الإحساس الخفي الذي يطرق باب الروح بلا مقدّمات كان حاضرًا. لم تكن القصة وحدها ما يوتر الأجواء، بل شيءٌ آخر... شيءٌ لا يُرى لكنه يُشعَر.

إلّا أن الفضول الذي يريد تفسيرًا مقنعًا لا ظنًا دفعها للنظر مرة أخرى بتمعّن، وهذه المرة لمحت في الزاوية القصيّة من الغرفة ومضةً عابرة تشبه عينين تتوهّجان في الظلام. ظهرتا، لكن في طرفة عين اختفتا. تسمرت في مكانها وشلت حركتها.

لم تكن واثقة مما رأت، لكنها شعرت أن ثمة من يُنصت إليهن.

نظرت إلى صديقاتها اللاتي كنّ مطمئنات على عكسها تمامًا، أعينهن مشدودة نحو الهاتف الذي تُروى منه القصة. لم تُرِد أن تُربكهن ولا أن تنقل إليهن رعشة قلبها، فتسللت من بينهن إلى فراشها، سحبت الغطاء فوقها وكتمت اضطرابها بهدوء، كأن شيئًا لم يحدث.

لكن بسمة نادتها متعجّبة:

— إيليانا!.. أتنامين الآن؟ القصة لم تكتمل و السهرة في بدايتها!

أجابت وهي تبتسم ابتسامة جانبية:

— أشعر ببعض الإرهاق.. تعلمين أن مسافة الطريق طويلة، لا بدّ أن أنال قسطا من الراحة.

قاطعتها ميار ضاحكة:
— أظن أن الخوف قد فعل فعلته بكِ!
أجابت بنبرةٍ مكسوّة بشيءٍ من التوتر:
— لا تظنّي، بل تيقّني... إذا كان هذا الجواب يرضيكِ.
أطرقن جميعًا برهة ثم عدن إلى قصتهن، وحدها إيليانا كانت تحت غطائها تغالب إحساسها. بقيت عيناها مفتوحتين نحو الظلام، تستعيذ بلمعوّذات، وتنتظر أن يغفو قلبها قبل أن تغفو جفونها.
لكن قلبها ما كان ليتوهّم، فقد خفق خفقةً لم تعرفها. ذاك الإحساس، ذاك الحضور الذي لا يُرى لكنّه يُشعَر... قد عاد.

زائر الحلم

كانت تحت وطأة شعورٍ مبهم مِن الخوف، لم يكن خوفًا صريحًا من شيءٍ محدّد، بل رهبة غامضة تنبعث من المجهول، تتلبّسها في جسدها وتلامس أعماقها كلّما أغمضت عينيها. ولما غلبها النعاس أخيرًا، لم يكن نومها عميقًا، لا هي في الحلم تمامًا ولا في اليقظة حقًا.
رأت نفسها في حقلٍ تعرفه جيدًا، حقل جدّها، غير أن ما رأته لا يشبه الواقع تمامًا. الحقل كان أخضر نديًا تغمره الحياة، على خلاف حقيقته الآن التي تلفحها الشمس الحارقة ويطغى عليها جفاف الصيف.

كانت تمشي فيه مسرورة مع صديقاتها ميار، سوسن، بسمة... أولئك اللاتي شاركنها سهر الليلة. كنّ يضحكن ويلعبن ويتبادلن المزاح، غير منتبهاتٍ إلى أن شيئًا ما خارج المألوف قد طرأ! لكن الغريب في الامر...

كانت الفتيات يرتدين نفس الملابس حتى إيليانا نفسها في ثوب النوم ذاته الذي ارتدته قبل أن تنام، وشعرها منسدلٌ تمامًا كما هو، وكأنّ الحلم لم يأتِ بها من عالمٍ آخر، بل فقط كشف لها ستارًا رقيقًا يفصل بين الحقيقتين.

ضحكاتهنّ كانت تتعالى، ترنّ في فضاء الحقل الفسيح، تتردد على أغصان الأشجار حتى وقعت عيناها على منظر لم يلاحظه غيرها.

كان هناك، واقفًا تحت شجرة التين العتيقة، شابٌ غريب الهيئة طويل القامة عريض المنكبين، غامض الوجه، وله شعرٌ أسود ينثال بانسياب على جانبي وجهه الذي لم يتضح، تُداعبه الريح فيتماوج مع الرداء الأسود الذي ارتداه. كان يضع ذراعيه فوق صدره ويتكئ بظهره على جذع الشجرة، يراقب الفتيات بصمتٍ، طرأ في بالها أنه يحمل نية خفيّة.

توقفت في مكانها، وشعرت بانقباضٍ في قلبها لم تعرف سببه، لم يكن الرجل قبيحًا بل وسيمًا بطريقةٍ غريبة مهيبة، لكن الخوف هذه المرة غلب الفضول. كانت تخاف الغرباء، فكيف إن كانوا يظهرون في الأحلام بهذا الشكل الغامض؟

نظرت إلى صديقاتها... كنّ ما زلن على حالهنّ ملتهيات لا يرينه.

لا يشعرن بشيء غير البهجة، ربما هو غير مرئي إلا لها!

أغمضت عينيها بشدة ثم فتحتهما لتجد نفسها قد استيقظت من ذلك الحلم، كان الهدوء يعم المكان، الفتيات نائمات حولها بطمأنينة، أنفاسهن هادئة، والليل مستغرق في صمته... إلا تفكيرها الذي يضج بأجواء الحلم وصورة الرجل الغريب تحت شجرة التين.

صباح اليوم التالي..

أدّت صلاة الظهر وقد هدأ صوت العالم من حولها، لكن في داخلها ظلّ الحُلم يدقّ بجناحيه يبعثر تفكيرها بغموضه، بينما كانت تردد أذكار بعد الصلاة، حتى خطر في بالها أن الجدة ربما تُدرك من الحُلم أكثر مما تدري هي.

توجهت نحو صالة البيت حيث كانت الجدة جالسة على كرسيّها المعتاد، تنقّي التمر بحرص، وإلى جانبها صينية القهوة التي لم تُسكب بعد. الهواء كان يحمل عبق الهيل، وصوت التلفاز خافت في الخلفية.

اقتربت إيليانا وجلست عند قدميها، وقالت بصوت منخفض:

— جدتي، أريد أن أسألك.

_تفضلي حبيبتي... لكن قبل ذلك أخبريني أولًا، هل نمتِ جيدًا؟

— مممم... نمت جيدًا! لا أظن.

_ ربما لأنك غيّرتِ مكان نومك المعتاد فاستثقلتِ النوم؟

— بل لأنني رأيت حلمًا غريبًا هذه الليلة، استثنائيًا عن كل الأحلام السابقة.

ركّزت الجدة بعينيها عليها، وأشاحت بيدها عن التمر، ثم قالت بهدوء:

_قُصي لي يا ابنتي... ما الذي رأيته؟

بدأت تسرد تفاصيل الحلم والحقل وصديقاتها، وهيئتهن التي لم تتغير في الحلم الذي بدا جزءًا من حقيقة، وذلك الشاب الغريب الواقف تحت شجرة التين وكيف لم تنتبه له ولا واحدة منهن سواها.

أصغت الجدة دون أن تُقاطع وعيناها تنخفضان من حين لآخر نحوها.

وحين فرغت من حديثها، ظلّت الجدة صامتة للحظات ثم قالت بنبرة عميقة:
ـ بعض الأحلام تمر برموز ذات ألغاز لا يدركها إلا من أوتي عقلًا يفكّر خارج الصندوق.
_ممم ماذا تقصدين جدتي.. أشعر أنكِ زدتِ الغموض على الحلم ولم تفسّريه!
أضافت الجدة بعدما شردت فيها قليلًا:
ـ ليس كل غريب يحمل سلاحًا خفيًا، أحيانًا يحمل وردة في شكل أجوف وبعض الأحلام لا ينبغي لها إجابة معجّلة، فقط حينما تتهيأ ويحين وقتها المناسب.
شعرت أن الجدة تعلم أكثر مما قالت، لكنها لم تُصرّ، كانت نبرتها مُحمّلة بظلال من المعاني غير المُفسّرة.

وفي تلك اللحظة دخل محمود:
ـ جدّتي! لقد جاء أبي! لقد حان وقت العودة إلى المنزل.. سنشتاقكِ.
ضمّته الجدة وهي تستودعه اللّٰه، ثم التفتت نحو إيليانا وقالت بابتسامة هادئة، وهي تربت على يدها:
ـ هيّا، قومي يا صغيرتي واحفظي قلبكِ من الذعر، فليس كل غريب عدو.

خرجت إيليانا مع محمود، يتعاقبان الخطى نحو السيارة، وجدهما يُحمّل الأمتعة في صندوق الخلف، فيما كانت ليلى تودّع أمها وعائلتها.
حملت إيليانا حقيبتها الصغيرة، ولوّحت بيدها نحو النوافذ العتيقة التي شهدت ضحكات تلك الليلة، تودّع صديقاتها وعائلتها الكبيرة.

الشمس مالت نحو المغيب، ترشّ اللون الذهبي على الطريق. كانت تنظر من نافذة السيارة، وصدى الحلم يتردد في ذهنها يُحاول أن يطفو على سطح الذاكرة. لماذا أثر فيها الحلم لهذا الحد؟ شعور غامض يلازمها منذ أن استيقظت منه. صورة الغريب الذي كان يحدّق إليها دون غيرها انغرست في أعماقها بلا سبب ظاهر.

مرّت الأيام ببطء غريب، وبعد أن عادت إلى بيتها وأيامها وإلى عادتها في تلاوة القرآن كل مساء قبل النوم، لكنّ شيئًا ما تغيّر. لم تكن متيقنة مما تحس به، مما جعلها ترجّح أنه توهّم عابر. أصبحت تشعر بأنفاس ساخنة تشبه حرّ اللهب تمرّ إلى جوارها حين تنطفئ الأنوار، أو همسة خفيفة لا تدري إن كانت من داخلها أو من حولها.

ذات ليلة كانت جالسة تراجع ما حفظته، ودون مقدّمات انطفأ ضوء الغرفة. لم ترتعب كثيرًا ظنّت أنها مجرد كهرباء انقطعت وستعود، لكنها حين نظرت من نافذتها رأت باقي بيوت الحيّ مضيئة، بل حتى مصباح باب منزلهم في الأسفل مضيء!

تقدّمت إلى زر تشغيل المصباح، وحين مدّت يدها وقبل أن تضغط على الزر عاد الضوء فجأة. استغربت بعض الشيء، لكنها اتهمت المصباح بشرارة كهربائية.

وفي يومٍ آخر حينما كانت تساعد أمها في المطبخ، مرّت عليها نسمة عليلة أشعرتها بقشعريرة. نظرت صوب الباب المفتوح وشعور المراقبة عاد مجددًا.

ــ ما بكِ إيليانا؟_سألتها والدتها، هزّت رأسها بابتسامة مترددة: ــ لا شيء... فقط شعرت ببرودة في أطرافي.

مرّت اللحظة.. لكن الشعور لم يمر!

كانت تُدرك أن شيئًا ما يرافقها، يراقبها، فالأشياء التي تحصل معها مؤخرًا غريبة حدّ الضياع.

الثالثة ليلاً بتوقيت رعشة القلب

قرأت ما تيسّر من القرآن، ثم وضعت المصحف بجوار الوسادة وأطفأت الأباجورة، تاركة الغرفة تغفو معها.
لكنها لم تغفُ طويلًا...
استفاقت وانفتحت جفونها وهي تنظر إلى السقف، كما لو أن شيئًا ما أيقظها من عمق النوم.

صوت عقارب الساعة في ذلك الهدوء كان صاخبًا، مما جعلها تنظر إليها لتجدها تشير إلى الثالثة وسبع دقائق.
خفق قلبها بإحساس غريب، إحساسٌ غامض بأن هناك من يراقبها ليس قريبًا وليس بعيدًا، فقط هناك... ساكن لكنه حاضر.
أمسكت هاتفها تتصفح نتائج البحث الذي كتبت فيه: «هل يوجد مرض نفسي يجعل الإنسان يشعر بأنه مُراقَب طوال الوقت؟»

ثم وقفت على مهل واقتربت من النافذة، سحبت الستارة بطرف يدها المتردد ونظرت نحو الخارج، لتجد سكونًا ليليًا وقمرًا معلّقًا في السماء مثل عين لا تعرف النوم.
لا حركة، لا صوت، فقط الصمت يتنفس بثقلٍ غامض.
وفي اللحظة التي استدارت فيها لتعود إلى سريرها، لمحت على طرف مكتبها ورقة غير مألوفة لم تكن هناك قبل النوم!

أصابتها ريبة، ثم تقدّمت وأمسكت بها بأصابع مرتجفة فتحتها بسرعة، وإذا بخطٍ غريبٍ بأناقة بين سطور ضيقة كُتب...

«و كَتَمْتُ مَا فِي القَلْبِ حَتّى لَمْ أَعُدْ أَدْرِي إِذَا مَا بُحْتُ كَيْفَ أَقُولُ، لَكِنَّكِ أَحْكَمْتِ مُعْتَقَلِي بِتَرْتِيلِكِ الَّذِي يُدَاوِي عَلِيلَ الرُّوحِ، فَلَا تَجْزَعِي»
ركضت نحو سريرها واختبأت تحت الغطاء، وهي تدفن وجهها في وسادتها، تردد المعوّذات ودموعها تسيل في صمت تتخللها شهقات متقطّعة مكتومة.

لم تعلم كم مرّ من الوقت وهي على ذلك الحال، حتى صدح صوت الأذان: "اللّٰه أكبر... اللّٰه أكبر..." ثم جاء الموضع الذي طالما أشعلٍ الطمأنينة في قلبها: "الصلاة خيرٌ من النوم."
ارتاحت قليلًا، بل اطمأنت تمامًا حينما سمعت صوت ماء الحنفية يتوضأ به أحدهم... إنه والدها، ثم لحقت به أمها إلى الحمام.
صوت خطواتهما وصرير الأبواب، كل ذلك بدّد قليلًا من خوفها.
تنفّست بعمق، وشجّعها ذلك على النهوض.

أزاحت الغطاء بعيون مترقبة ونهضت بخطى سريعة، أضاءت مصباح غرفتها بيدٍ مرتجفة، ثم نظرت مباشرة نحو مكتبها حيث كانت الورقة، لكن لا شيء... الورقة اختفت!

حدّقت بدهشة، فتّشت بعينيها كل التفاصيل، ثم انحنت تبحث تحت السرير، رفعت الوسادة، فتحت أدراج مكتبها، لكن لا يوجد أثر للورقة!
تسارعت أنفاسها، والتساؤل يفتك بعقلها:
_أيُعقل أن ما حدث كان هلوسة؟ هل كنتُ نائمة فعلًا؟ أم أن شيئًا آخر حدث...؟
باتت تجهل إن كان حلمًا أم أن الحلم قد بدأ الآن!

مناجاة العاشق الوجل

في حديقة القصر الكبيرة، كان نِيوار يسير وحده مشتّت الفكر، تائه الخطى، عيناه تلاحقان انعكاس الكريستالات الزمرّدية المتدلّية من بوابة الحديقة الضخمة.

كلّ شيء من حوله يسير كعادته؛ الحرس يؤدّون مهامهم، والخدم كلٌّ منهم منهمك في عمله برتابة...
لكنّه هو لم يكن كذلك.
جلس تحت شجرة «الأنيورا» العتيقة، تلك التي لا تُزهر إلا إذا ابتهج قلب ساكني القصر من ذوي الرتب العليا، هكذا عُرفت في عالمهم..
وكان هو من غرسها بيديه حين كان صغيرًا قبل" ثلاثة قرون "، يوم انتقلوا إلى القصر أول مرة.
تأمّل أغصانها اليابسة، ثم ابتسم بسخريةٍ مكسورة:
— ما زلتِ جافّة... تمامًا كقلبي.
أغمض عينيه بقوة وزفر تنهيدة عميقة:
— ليس وقتكم... ليس الآن.

ثم أغلق تردّده الأثيري الذي يستقبل عبره الندات، وتأفّف بملل، فقد وجّه إليه مجلس الشؤون التكليفية نداءً، لكنه لم يستجب هذه المرّة.
طاقته ومزاجه لا يسمحان، فهو الآن غارق يبحث فقط عن حلٍّ لما وقع فيه، ثم أردف:

أحقًّا تلك الإنسية حرّكت في قلبي شعورًا لا ينبغي أن يتحرّك إلا لبنات جنسي؟ ولِمَ أطاردها في الوقت الذي يجب أن أؤدي فيه أعمالي وعباداتي؟ أم هي التي تطاردني دون أن تعلم؟

أطرق برأسه، يحاول قمع صراع تمرّد في قلبه.

عقله يرتعد من هذا الشعور، مخاطبًا نفسه برجاحة عقل:

«اعقل، اعقل! والذي نفسي بيده، لا ينبغي لك أن تنحرف! صدّقني، أنت لست سُفليًا تجري وراء أهوائك وشهواتك ولست ممن يتعدّون على محارم الله، أنت تعرف ما لك وما عليك، ارجع إلى رشدك أيها القلب لا ديننا يبيح، ولا قوانيننا تسمح.. جعل الله بيننا وبينهم حجابًا، فلا تخرقه امتثالًا لأمره في خلقه».

لكن القلب المتمرّد أبى إلا أن يكابر، ويوقع صاحبه في الحبّ المحرَّم. ثم رفع وجهه إلى السماء، متضرّعًا إلى الله أن يصرف عنه هذا الشعور:

«أخشى أن يكون قلبي قد تجاوز الحد... وأخشى غضبك. اللهم إنك ربي وأنا عبدك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك. اللهم أعنّي على نفسي التي سوّلت لي. اللهم اجعلني صالحًا عالي الشأن بطاعتك، عزيز النفس بعزّ الإيمان. لا أنحني إلا لك، ولا أرضى إلا بما يرضيك ويليق بكرمك الذي أكرمتني به، اللهم أغنني بحلالك عن حرامك، واغنني بفضلك عمّن سواك.اللهم افتح لي أبواب الخير كلّها، ويسّر لي أجمل الأقدار.واختر لي ولا تُخيّرني، وارضني بما قسمت لي، واجعل حظّي من الدنيا ما يقرّبني إليك ويزيدني طاعةً ورضًا.

اللهم قوِّ قلبي بالإيمان، وثبّت روحي على الحق، وزيّنّي بحسن الخُلُق، واجعلني راقيًا بتقواك، ثابتًا في الشدائد، شاكرًا في الرخاء، صابرًا في البلاء.

كانت شمس الصباح تتسلّل بخيوطها الدافئة إلى مطبخ بيت السيدة ليلى، حيث جلست ترتشف قهوتها على مهل، تراقب زوجها وهو يتناول فطوره استعدادًا ليومٍ جديد في العمل.
محمود كان قد لفّ قطعة خبزٍ بالجبن وفي يده الأخرى محفظته، بعد أن لوّح مودّعًا:
– أراكم مساءً.
بقيت ميلينا تمسك كوب الحليب بكلتا يديها، تغنّي بلحنٍ عشوائي وتحرك رأسها يمينًا ويسارًا، تتراقص بين جمل الحديث العابر لوالديها.
لكنّ اللحظة الرتيبة كسرتها إيليانا حين دخلت بوجهٍ شاحب وعينين بهالة سوداء تفضح ليلةً قضتها لم تكن كسابقاتها.
أمها متعجبة:
– استيقظتِ باكرًا!.. ما اعتدناكِ تستيقظين إلا قبيل الظهر؟
ضحك الأب وهو يرتدي سترته:
– يبدو أن النشاط قد زارها هذا الصباح.
اكتفت إيليانا بابتسامةٍ باهتة تُخفي اضطرابها الداخلي، لم تكن ترغب في إقلاق والديها فكلّ ما يحدث معها في الآونة الأخيرة، وبالأخص ما جرى معها ليلة البارحة، كان يفوق قدرتها على الفهم أو البوح.
وما إن خرج والدها برفقة الصغيرة إلى الروضة، حتى بدأت تساعد والدتها في أعمال المنزل لكنّ ذهنها كان مشغولًا تُحرّك يديها في اللاشيء، بينما عقلها يتخبّط بين أسئلةٍ لا أجوبة لها.
لاحظت الأم شرود ابنتها، لكنّها آثرت الصمت، وهمست في نفسها «ثمّة أمرٌ غريب يشغل بالها» لم تطق إيليانا البقاء أكثر، فاستأذنت من أمها للذهاب إلى صديقتها سارة القاطنة في نفس الحي، لتسمح بذلك.

في منزلٍ قريب، طرقت إيليانا الباب بلطف ففتحت لها أمّ سارة مرحِّبةً بها، بعد أن سألتها إن كانت صديقتها مستيقظة:
– كلا، ما تزال نائمة كسولة كما هي دومًا.
ابتسمت إيليانا قبل أن تردف:
– هذا أمرٌ نادر، أنا عادةً من تنام حتى الزوال... لكنني جئت اليوم لمراجعة السور التي سنعرضها على المعلمة مساء اليوم.
– حسنًا.. سأوقظها من أجل ذلك، تفضّلي بالدخول.
جلست إيليانا في صالة الضيافة، وعيناها تائهتان في النقوش المذهّبة على حواف الطاولة، ولم تمر دقائق كثيرة حتى دخلت سارة بوجهٍ باسم:
– أهلاً إيليانا، ما هذه المفاجأة الجميلة.. أحب هذا النوع من المفاجآت.
تبادلا الترحاب والضم، وجلستا تتبادلان أطراف الحديث، وقبل أن يغوصا في لبّ المقصود، دخلت الأم وهي تحمل صينية فيها منقوع البابونج الدافئ:
– اشرباه، سيساعدكما على الحفظ والتركيز.
– شكرًا لكِ خالة.
وما إن غادرت الأم وأُغلق الباب، حتى تغيّر وجه إيليانا، نظرت إلى صديقتها نظرة مشوبة بالقلق، وعيناها لا تشبهان عيني فتاة جاءت للمراجعة، لتقول بنبرة منخفضة لكن مضطربة:
– سارة... أنا لم آتِ للحفظ كما أخبرتُ أمكِ.
تغيّر وجه سارة، واقتربت منها بقلق:
– حتى أنا لم تقنعني حكاية المراجعة هذه، أخبريني ماذا حصل.
ابتلعت إيليانا ريقها، تقاوم خوفًا يتربّص في صدرها:
– منذ أيام تحدث معي أشياء غريبة وأنا مستيقظة، يقينًا مستيقظة...
وبعد أن قصّت لها كل ما حصل معها، تشنّجت ملامح سارة لتقول بنبرة تزيد الطين بلّة:

– بسم اللّٰه أرقيك من كل شيءٍ يؤذيك، هذا شيطان إيليانا، يبدو أنه يتربّص بكِ!
توسّعت عيناها وارتعشت يداها فجأة:
– لا تقولي ذلك، بالله عليكِ! ولماذا قد يتربّص بي وأنا محافظة على أذكاري وصلاتي؟
مدّت سارة يدها تمسك بكفّها بقوة:
– يجب أن تخبري والديكِ يا إيليانا، أخبري أمك فورًا لعلّهم يساعدونك بجلسة رقية ويطردونه، صدّقيني، الشياطين إن تربّصت بشخص تدمّر حياته وتعقّدها.
لمعت عيناها بشيءٍ من الحزن ممزوجٍ بخوف:
– كنت سأفعل... لكن الأمر تشابك عليّ حينما وجدت تلك الورقة التي لم تكن هناك من قبل، وأيضًا اختفاؤها بعدما قرأتها...
رفعت سارة حاجبيها تنتظر التفاصيل، فتابعت إيليانا:
– كانت الورقة تحمل كلماتٍ غريبة بخطٍّ كذلك، يتحدث عن صوتي حين أرتّل، وعلى ما يبدو أنه يسمعني منذ فترة دون أن أشعر به، كانت كلمات غزل بارد يخفي شيئًا مرعبًا.
شهقت سارة بخفوت:
– غزل!.. عن الترتيل!.. منذ متى تحبّ الشياطين القرآن؟
نظرت إليها إيليانا بعينين حائرتين:
– وهذا ما أرعبني أكثر... أيّ شيطانٍ هذا الذي يحب صوتي حين أقرأ القرآن!
ساد صمتٌ ثقيل، شعرت فيه إيليانا أن العالم من حولها توقّف، إلا عن تلك الرسالة التي لا تزال بين عينيها.

في مساء اليوم التالي، كانت إيليانا تفكّر مليًّا في حديث سارة:«هل يُعقل؟ أيمكن أن يكون ما يحدث لي من شيطان؟»

كعادتها ذهبت إلى الحلقة القرآنية بعد صلاة العصر، وعرضت ما حفظته من سورة البقرة على معلمتها.

استمعت المعلمة بإصغاء، تارة تصحح لها الأحكام، وتارة تذكّرها بآيات اختلطت عليها. وبعد أن أنهت التسميع، حصلت على تقدير: حسن.

– لا بأس، بقي عليكِ الترسيخ، إن حاولتِ معها جيدًا في البيت.

غدًا ستنتقلين معنا إلى سورة آل عمران، لكن قبل أن نختم اليوم، اعرضي عليّ جزء عمّ، لنتأكد من أنكِ لم تنسيه أو إن كان بحاجة إلى مراجعة.

كانت إيليانا تجد راحة كبيرة في تلك الحلقة بين المعلمات والرفيقات، وبين أصوات التلاوات التي تملأ القاعة طمأنينة؛ المسامع تستكين والقلوب تلين.

لكن رغم كل تلك السكينة، لم تكن قادرة على نسيان ما يحدث معها. لم تخبر والديها بعد! مخافة أن تقلقهما أو يظنا بها الظنون. تتصبّر حينًا بأنها مجرد وساوس وتوهمات، وحينًا آخر تبحث عن حقائق ما يدور.

وحين انتهت الحلقة وهمّت بالخروج، توقفت فجأة وقررت أن تسأل معلمتها، وأن تفتح قلبها لمن تثق بدينها وطمأنينتها. روت لها ما يحدث معها بتردد أولًا، ثم بانسيابٍ محموم.

استمعت المعلمة بهدوء، ثم أمسكت بيدها برفق، وقالت بنبرة حنونة:

– أوه إيليانا.. أنتِ فتاة بارة تقية، تحافظين على صلاتك وعلى حجابك الشرعي وتقرئين وردك اليومي وأذكارك، أليس كذلك؟

أومأت برأسها بخجل:

– كذلك... نسأل اللّٰه الثبات والقبول.

ابتسمت المعلمة وقالت بحزمٍ لطيف:

– إذن، من أين ستأتيكِ الشياطين لتتربص بكِ؟! لا يا حبيبتي، لا داعي للقلق ما تمرين به مجرد وساوس عابرة، ربما لأنكِ لا تنامين جيدًا وربما لأنكِ شاهدتِ فيلم رعبٍ فأثّر فيكِ نفسيًا. تعالي أهمس لكِ في أذنك: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ...﴾

وتركت إيليانا تواصل قراءة الآية:

– ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾من سورة الأعراف.

– أحسن اللّٰه إليكِ، إذًا استعيني بالله واطمئني ولا تدعي أي شيء يلهيكِ عن الحفظ.

شعرت إيليانا بدفءٍ غريب يتسلل إلى صدرها، كلام المعلمة هدّأ من روعها على عكس حديث سارة الذي زرع فيها الخوف والريبة. بل بدأت ترى في كلام سارة تناقضًا غير منطقي... أيّ شيطانٍ هذا الذي يحبّ الترتيل؟

ضحكت في سرّها باستهزاء وهي تطرد تلك الفكرة وهكذا مرّ أسبوعٌ كامل دون أن ترى حلمًا غريبًا أو يحدث لها شيء غير مألوف، وبدأت تنسى الأمر رويدًا رويدًا، تقنع سريرتها أن الأمور التي حصلت كانت عابرة وليس كل شيء يحدث يجب أن يُفسَّر.

في حضرة الحلم

وجدت نفسها وسط مروج خضراء تنساب تحت قدميها جالسة على بساط فيه سكينة غريبة ، بثوبٍ لا يشبه ما ألفته جعلها تبدو كأميرة من زمن قديم وفي يدها شيئ صغير، يلمع كأنه ليس من ورق بل من ضوءٍ مصفى لكن فكرتها عنه أنه مصحف.
كانت تتلو من سورة آل عمران، رغم أنها لم تحفظها بعد!
وجلس قبالتها رجل غامض الملامح على كرسيٍ خشبي..
كان يردّد الآيات معها يصحّح لها مواضع المدّ، ويرشّدها بلطفٍ حين تخطئ في الإدغام.
أما عن صوته فإنه تسلل إلى روحها لا إلى سمعها فقط، نغمة حانية بين الحرف والحرف، بدا لها كتراتيل من عالم آخر..
لكن ما أثار دهشتها أنه نفس الرجل الذي رأته في الحلم السابق حينما كانت في بيت جدتها ، بنفس الرداء الأسود و بنفس الشعور الذي يرافقه.
إستيقظت إيليانا على نور خافت يلف غرفتها، جفونها نصف مغمضين لكن قلبها مستيقظ بالكامل ظلت، ساكنة في فراشها تكرر في ذهنها تفاصيل الحلم الذي كانت فيه الآن وكل مشاعرها متداخلة. بحركة لا إرادية ألقت نظرة على الساعة المعلقة في الحائط والتي كانت تشير إلى الثالثة تمامًا، نفس الساعة التي تستيقظ فيها في الأيام الأخيرة عدلت من جلستها وهي تضع يدها على صدرها.. صوته مزال يتردد صداه في ثنايا مسمعها ،ذلك الوُد تلك العناية.
وبينما كانت تتأمل في ذاكرتها هذا الذي يزورها في المنام رددت ما كانا يقرآه سويا وإذا بها تقرأ من سورة آل عمران تناولت مصحفها لتتأكد من ذلك.. لتجد أربع صفحاتٍ كاملة من ذات السورة! حفظها عن ظهر قلب، وضعت يدها على فمها الذي إنفرج من فرط ما يحدث ثم إبتسمت بخجلٍ ونشوة..

فأيًا كان هذا الذي يحدث فقد رافقه شعور مجهول الهوية إجتاحها للحد الذي جعل فضولها يشتعل أكثر حول زائر الحلم هذا.

في اليوم التالي..

ذهبت إيليانا إلى الحلقة وهى متحمسة كانت واثقة الخطى، وطلبت من معلمتها أن تعرض عليها ما إتفقو عليه سابقا..
جلست تقرأ فتدفقت الآيات من لسانها بدون خطأ أو تعثر، أنصتت المعلمة وكلما تقدّمت إيليانا في التلاوة إزداد إندهاشها وحين إنتهت، قالت بدهشة لا تخفى:

- أربع صفحات بلا خطأ! لا في القلقلة ولا في الإدغام، ولا حتى في أحكام المد!
طيب اللّٰه أنفاسك، حفظٌ متقَن ماهذا الإجتهاد يا إيليانا! بوركتِ يا ابنتي، هذا فضلٌ كبير.. لكن أخبريني كيف أتممتِ كل هذا في ليلةٍ واحدة؟
تبسّمت بتواضع يتخلله بعض الاضطراب فماذا ستجيبها؟
لكن من المؤكد لن تحكِ لها ما حصل لأنها لن تصدقها وستعتقد أنها أُصيبت بالهذيان للذلك قالت:

- إستعنتُ بتطبيق فيه المتون وبعض الأحكام.. ساعدني كثيرًا.
ثم أطرقت بعينيها و قلّبت الكلمات في صدرها...لم تكن كاذبة لكنها لم تقُل كل الحقيقة ، فالحقيقة لم تكن مفهومة حتى لها.
ذلك الصوت الذي صحّح لها الأحكام ورسّخ الأيات في عقلها ذلك المكان الذي كانت فيه معه، جلسته كل التفاصيل التي علقت في رأسها، لا تزال تسكنها كضوءٍ يمرّ من قلبها دون أن تُبصر منبعه.
شيءٌ فيها أراد أن تحتفظ به طيَّ السر، ربما خشيت إن باحت به "يختفي"

عادت إلى بيتها مع والدها، في آخر اليوم وبعدما حدثته على تقدير المعلمة لها، لمع في عينيه فخرٌ لم تُبصره منذ زمن..
فور دخولها المنزل لاحظت ليلى إشراقة إبنتها وزوجها فسألتهما عن السبب:

– خير إن شاء الله.. بشّرانِ ما الذي يُسعدكما؟
أجابت إيليانا بهدوءٍ متردّد، كأن الفرح الذي فيها لا يعرف كيف يُقال:
– أبشري أماه فقد عرضتُ ما حفظتُ على المعلمة وأعطتني تقدير إمتياز بل قالت أنني في تحسن ملحوظ.
فرحت الأم وربّتت على كتفها بحنان وهي تشجعها، قاطعتها إيليانا بحماس:
_إذن هيا أمي.. أنا في إنتظار كعكة البرتقال كما تفعلينها دوما حينما أحفظ حزبا جديدا!
–طبعا... وهل يعز عليّا تحضير كعكة إبنتي المفضلة.

رفعت إيليانا حاجبا دون الآخر وهي تقول:
_إذن لما تمتنعي عن تحضيرها حينما أطلب!
_لأني أعلم أنك تحبينها كثيرا لذلك أخصصها فقط حينما تحفظين حزبا جديدا، لا لشيئ فقط لتجتهدي.

في تلك الليلة، كان في قلبها إتساعٌ لا يُشبه ما قبله.
حملت عن طيب خاطر أطباق العشاء، وراحت تساعد أمها في الجلي والتنظيف لتقول أمها مبتسمة وهي تراقبها بحب:
_لست من تنظف المطبخ مساءا بل تتركينه لي وتذهبين متكاسلة!

لترد عليها بمزاح:
– إن تركتُه قلتِ عني كسولة وإن نظّفتُه قلتِ: ما عهدتُكِ هكذا، فما العمل معكِ يا أماه؟
شاركهما والدها الحديث وهو يومئ بإشارة مزاح :
– دعيها يا ليلى، فإيليانا تنظف متى تشاء وتنام كيفما تشاء هي في منزل أبيها ويحق لها الدلال كما يحلو لها.
تأففت ليلى وهي تقول:
– وهل قلتُ شيئًا يخالف...

بعدما انتهت سهرة الليلة دخلت إيليانا غرفتها واستقبلت سجادتها وطقم صلاتها بشوق.. صلّت بعض الركعات وقرأت ما تيسّر، ثم أذكار النوم تتحصن بها بنية أنه إذا كان شيطانٌ ما يبتعد عنها ولا يستطيع أذيتها. لكن قلبها أصرّ على أمنية واحدة... وهي أن يتكرر عليها حلم ذلك الرجل الغريب.
ثم نظرت إلى سقف الغرفة وإلى زواياها الصامتة وتساءلت مع نفسها، بصوت لا تسمعه إلا هي:
«أيمكن أن يكون ملاكًا؟ ربما!.. سمعتُ من قبل أن الملائكة تحب أن تسمع القرآن وهو يُتلى، أو ربما هذا الحضور الخارق في المنام جاء ليساعدني على الحفظ! هل يعقل أنه معي الآن؟»
لم تكن تفهم ما يحصل معها بالضبط، لكنها كانت مؤمنة بشيء واحد أن ذاك الكائن، أيًّا كان يشعرها بالأمان وأعانها على الحفظ.
عطّرت شعرها وسرّحته بعناية، ارتدت بيجامتها واستلقت على فراشها بقلبٍ فيه شيء من الحماس، عسى أن ترى الحلم مجددًا.

تسلّل النسيم العليل من شقّ النافذة يلاعب ستارتها البيضاء بلطف،لكن الليل يحمل أسرارا وخبايا كثيرة وليس دائما ما يكون للنوم بسلام..

الساعة تشير إلى الثالثة ليلا لكن هذه المرة ليس تماما، بل إلا ربع إنبعث صوت خافت رجوليّ عميق الرنّة، وبعد التركيز تبين أنه يقرأ من سورة النور:

"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... حتى وصل إلى ، نُورٌ عَلَى نُورٍ..."

دبَّ الخوف في أوصالها، وتاهت للحظاتٍ لا تعلمِ أهي تحلم أم أن ما يحدث حقيقة، بل لم تدرِ حتى أكانت نائمةً قبل ذلك أم لا ورغم أنها وجدت صعوبة في التنفس من أثر الخوف الذي سيطر،إلا أن الصوت فيه من الطمأنينة ما يربك القلب أكثر مما يخيفه.

وبجرأة غير مسبوقة إلتفتت والعرق يتصبب من جبينها..

فهذا الذي يحصل خيرا أو شرا، يلزم قلبا شجاعا بما يكفي ليواجه المجهول.

جالسًا على الأرض عند سجّادتها تحديدا، يمسك كتابًا بيده ويرتل.. كان لايزال وجهه لا يظهر بوضوح، خصلات شعره المنسابة بعفوية و ملامحه التي خبأها الظلّ أعطته مهابة وغموضًا ساحرًا.

لم يكن ينظر إليها بل كان غارقًا في التلاوة، جالسًا بوضعية التربع وضوء القمر ينساب من نافذتها يلامس كتفيه العرضتين تجمّدت عيناها عليه وشُلت حركتها، إرتجف قلبها لكنه ليس خوفًا صريحاً إنه شعور غريب ليس له تفسير إلا في عالم الأحاسيس. فأحيانا يصيب الواحد منا شعورا ليس له تعبير وإن حاولت شرحه دهرا، وهذا ما حصل معها.

لم يكن في إستطاعتها فعل شيئ سوى التأمل والإصغاء حتى إنتهت التلاوة و سكن كل شيء.. و في اللحظة التالية فتحت عيناها على مهل لتجد نفسها في سريرها كما هي، لكن النافذة مغلقة،لا نسيم ولا ضوء قمر نافذ، ولكن بطريقة ما شعرت أن الحلم كان حقيقيًا فهواء الغرفة كان ذاته و السكينة نفسها.

نهضت و الابتسامة تُضيء وجهها:
– للمرة الرابعة أراه... وأريد مرة خامسة وسادسة وعاشرة أتسمعني؟ أريد أن أراك كلما أغمضتُ عيني.
لوّحت ببصرها عشوائيًا وهي تخاطبه، ثم راحت تدور في غرفتها بخفة، وبينما هي كذلك إنتبهت لوجود رائحة!
أغمضت عينيها تستنشق ببطء، تتأكد من تلك الرائحة الغريبة التي غمرت الغرفة، كانت رائحة مسكٍ ثقيل لكنه طيب..
وبدون تفكير كثير، ركضت إلى نافذتها و سحبت الستارة وأطلت على شارع حيّهم الحالك إلا من وميض أعمدة الإنارة التي تضيئ حينًا وتخفت حينًا...
وهناك في الأسفل لمحته، ماسمته في سرها زائر الحلم.. كان يقف بردائه الأسود ينظر نحوها بملامحه الغامضة ومع ذلك كانت متأكدة أنه يراها، بينما الريح تعبث بطرف ثوبه أغلقت هي الستارة بسرعة وضعت يدها على فمها،لا تصدق ما رأته للتو!
حاولت أن تستجمع شجاعتها وأطلت مرة أخرى لتتحقق مما رأت...لكن لم يكن هناك سوى الفراغ، تساءلت في نفسها «هل أصبحت الأحلام تتجسد على أرض الواقع؟»
فتحت النافذة ومالت برأسها إلى الخارج تتفقد الشارع أكثر لكن لا أثر له.. بقيت نظراته عالقة في تفكيرها رغم أنها لم تدم طويلا لكنها سكنت أعماقها.

خلف قضبان قلبها بدأ ينبت شيئ ما!

كان البيتُ غارقًا في سكينةٍ وادعة، تنفّس الصباح بأنفاسٍ هادئة بعد أن غادره الجميع إلى شؤون يومهم.
محمود إلى جامعته يحمل حقيبته بكسلٍ مألوف، وميلينا بشريطها الزهري يزيّن ظفيرتها إلى روضتها برفقة أبيها الذي ذهب إلى عمله، لتبقى ليلى مع قطتها البيضاء المدلّلة التي اتخذت مكانًا لها على نافذة المطبخ، تستحمّ بأشعة الشمس وتراقب العصافير بعيونٍ فضولية.
كل شيءٍ في البيت كان نظيفًا، مرتبًا بعناية؛ ستائر بيضاء ناعمة تلامس أطراف النوافذ، ورائحة المنظف بعبق الخزامى عالقةً في زوايا الغرف، تهمس بأن الأم مرّت من هنا ونظّفت بحب.
في مطبخها كانت ليلى تفرش العجينة، ورائحة الجبن الذائب تملأ المطبخ مع صوت صريرِ الفرن، وكانت سيمفونية الهدوء والسكينة منتشرةً في أدقّ التفاصيل.
خرجت إيليانا من غرفتها متأخرةً بعد نومٍ غزيرٍ لا يشبه سواه، وسارت بخطى ناعسة إلى المطبخ، وفور أن وطئته استقبلتها رائحة البيتزا الطازجة وضوء الشمس الذي لامس أطراف الطاولة الخشبية.
— صباح البيتزا، يا أجمل ما في هذا الصباح...
لتردّ عليها ليلى مازحة:
— ها قد استيقظتِ الأميرة النائمة وعادت من عالم الأحلام.
تقدّمت نحو الطاولة، وجلست قبالة أمّها تراقبها بابتسامةٍ تخبّئ خلفها ما تعايشه.

جلست أمام فطورها، تأكل وتحدّق بالأم ثم بالنافذة ثم إلى حيث لا أحد...
ظلت واجمة للحضات تتذكر ذلك الشخص الغامض الذي يزور أحلامها أو يقضتها لاتعلم تحديدا إن كان حقيقي أو مجرد هلاوس أو أي شيئ بدون تفسير، ثم هزّت رأسها تطرد الفكرة وتخفيها في قلبها.

– أمي... البيتزا اليوم تبدو أطيب من العادة..
__و هل حدث أني لم أحضر بيتزا لذيذة؟
_لا طبعا في كل المرات تفعلين، لكن اليوم أظنها خاصة.
__لا أفهم مالذي يجعلها خاصة لكن جهزي نفسك لنذهب إلى السوق، لديّ بعض المشتريات."
لتردف إيليانا بتلك الابتسامة التي تجمع بين الدلال والكسل:

– حسنًا أمي... لكن لن أتحرك من مكاني حتى أنعش معدتي من تلك البيتزا اللذيذة التي تعدينها!
لترد ليلى بدعابة:
__ومن قال إنني أدعوك الآن؟ أولًا.. إذهبي إلى غرفتك عطّريها ونظّفيها واجعليها تلمع كالنجوم ولا تنسي ترتيب سريرك... وبعدها سأخمن إذا ما سأعطيك حصة أم لا، ففي الأخير أنا التي حضرتها وأقدمها لمن أشاء.

قهقهت إيليانا وهي تتمايل ثم وقفت تحتضن أمها من الخلف، فبادلتها الأم بدفعة خفيفة وهي تضحك بشقاوة:
__إبتعدي عني.. كفى! اذهبي ونفّذي أوامري كي نلحق على السوق.

إنسحبت إيليانا نحو غرفتها وهي تشعر بدفئ حضن أمها في أطراف روحها، وقفت أمام مرآة خزانتها تتأمل وجهها الحالم وشعرها المنسدل بخجل على كتفيها، وما هي إلا لحظة حتى زار خاطرها صورة زائر الحلم، ذاك الكائن الغامض الذي كان يجلس في حلمها عند سجادتها..

فتحت النافذة فاندفعت الشمس تملأ الزوايا بأشعتها الصفراء..
و بدأت برويّة ترتب سريرها ،ثم انحنت على الأرضية و جمعت أغراضها إلى أن وصلت للسجادة التي كانت في ذات المكان الذي جلس فيه في حلمها، أمسكتها وهي تحادث نفسها :
– أيّ دفئ هذا الذي يملأ قلبي.. أهو من الحلم أم من رائحة البيتزا؟
جلست على طرف السرير تغمرها لحظة بين الحقيقة واللاواقع، بين تفاصيل الأمس وملمس اليوم.

♡♡♡

الشوارع تضجّ بالحياة، الباعة ينادون بعضهم بمكبر الصوت و أصوات مختلطة بين ضحكات وصراخ أطفال.

كانت تمشي بجانب والدتها، تُمسك بذراعها ويتبادلان الأحاديث بينما الأم تنشغل بتوجيهها نحو محلٍ أو بائعٍ لفت إنتباهها.

وصلتا إلى محلٍّ كبير يعرض أواني المنزل، عيون الأم لمعت بمجرد دخولها:

– سأجد هنا ما أحتاجه.

دخلتا و جالت عيناها بين الأواني، تسأل البائع وتُقلب القطع بينما إيليانا إتجهت إلى الجهة الخلفية من المتجر.

هناك، بين رفوفٍ مليئة بأكواب مزينة وصحون مزركشة وقعت عيناها على كأس قهوة صغير عليه رسمة "هيلو كيتي" بلون ورديّ حملته بود فيه شيئ يشبه طفولتها، وسرعان ما أسرعت إلى والدتها:

– "أمي... أيمكننا شراء هذا؟ إنه جميل جداً."

ابتسمت الأم بأسف:

– "النقود تكفي فقط لما جئنا لأجله يا حبيبتي، لكن لا بأس في المرة القامة.

أخفت خيبة صغيرة في صدرها، ثم قالت مبتسمة:

– لا عليكِ، يا أمي.

واصلتا جولتهما حتى دخلتا دكانًا صغيرًا لبيع الحلوى، كانت ليلى تعرف أن قلب إبنتها يرقّ أمام الحلوى، فأرادت أن تُفرحها بدون أن تنسى ميلينا.

بدأت تُحادث البائع تسأله عن الأنواع والأسعار، أما إيليانا فكانت تتأمل الطاولة الممتلئة بالسكاكر والألوان.

لكن عينيها توقفتا فجأة عند زاوية المحل قرب البائع، كان هناك رجلٌ جالسٌ على كرسي، نظرت إليه بذهول كأنه زائر الحلم نفسه! لكن هذه المرة ظهرت لها ملامحه بوضوح.

شعرُه الأسود المجعّد انساب على جبينه وحدقتا عينيه كانتا بخضرةٍ لم يسبق لها أن رأت مثلها، فالبؤبؤ الكبير الذي توسّطهما يسبح بسوادٍ عميق يبتلع الضوء باتساعٌ غريب...
نظر إليها مباشرةً بمجرد أن وقع بصرها عليه، لكنها شعرت أن نظراته لم تكن مصادفة ولم تكن بريئة.. استرسل في النظر إلى عينيها دون حراك.. بصره شاخصٌ عليها بغرابة..

وما زاد الأمر غرابةً ذلك الاتساع في بؤبؤه الذي منح عينيه وقعًا غريبًا، للحظةٍ شعرت أنه يخترقها أو ربما يرى ما خلف عينيها، خفق قلبها بقوّة..

وقفت لحظتها تواجه مرآة الحلم مشدوهة، متسائلةً في داخلها: «هل يُعقل أنه هو نفسه، أم أن عقلي يخدعني نتيجة تفكيري الزائد به؟!»
لم تجد طريقةً لإبعاد عينيها عنه كانت مأخوذةً بسحره وبذهول النظرة، وبهيئته التي لا تختلف عن تلك التي رأتها في الأحلام، الفرق الوحيد أن هذه المرة رأت ملامحه بوضوح لون بشرته كان شديد البياض، ولم يبقَ إلا أن ترى عروق جلده.
كان يتأملها بنوعٍ من الفضول المتأمل المشدوه.
وبينما هي واقفةً تسرح في تفاصيله الغريبة جاء صوت أمّها ليعيدها إلى واقعها.

_هياا.. إيليانا هي لنذهب.

أفاقت من شرودها و إلتفتت بسرعة لأمها، رافقتها بخطى متسارعة نحو الخارج لكن شيئًا فيها لم يعد كما كان.
طريق العودة لم يكن كطريق المجيء...
لاحظت ليلى صمت إبنتها وسكوتها الغريب، إختفت حكايتها وأحاديثها، تمشي بجانب أمها و عقلها غائب:

_ما بكِ؟ وجهك ليس على ما يرام.
حاولت التماسك، وردّت بصوتٍ متوتّر:
_لا شيء أمي... فقط شعرت بتعب مفاجئ، وتذكرت أنّ عليّ المراجعة قبل لقائي مع المعلمة هذا المساء.
إستغربت الأم وقالت مستنكرة:
_وهل هذا سبب للقلق؟ حتى لو لم تحفظي جيدًا فلا بأس وإن أردتِ ألّا تذهبي اليوم، فلا مشكلة.

إكتفت بصمتٍ ثقيل ظلّ يُرافقهما طوال الطريق وعقلها يضج بالأسئلة «"هل هو حقًا؟ أهو نفس الذي زارني في رؤياي؟ لكن كيف؟ ولماذا؟ ما الذي يربطني به؟ ولماذا بادلني نظرات كأنه يعرفني؟»

وصلتا إلى المنزل ودخلت غرفتها موصدة الباب خلفها، ثم بدّلت ملابسها على عجل دون أن تشعر بما تفعل إستلقت على سريرها وتفكيرها يُنهكها ويثقل صدرها بشعور غريب..
أمسكت هاتفها وبدأت تبحث، تتصفح وتقرأ بجنون تُفتّش عن إجابة أو تفسير: "هل يمكن للملائكة أن تظهر بهيئة بشر؟"ثم انتقلت لبحث آخر "هل الجن يتشكل في هيئة إنسان؟"
إطلعت على بعض المقالات مفادها أن الجن أمم أمثال بني الإنس مُكلفون ومأمورون بعبادة الله وحالهم كحال البشر منهم الصالح والطالح، ولهم القدرة في التجسد على أي شكل يريدونه حيوان أو إنسان كلٌّ حسب قدراته..

توغّلت في القراءة، وعيناها تتّسعان كلّما وجدت معلومةً جديدة...
لكنّ شيئًا ما جذب انتباهها بقوة؛ فوقعت عيناها على فقرةٍ ضمن أحد المقالات تقول:

"يرى بعض الباحثين في هذه الأمور: أن الله قد يأذن لبعض عباده من الجنّ الصالحين بمرافقة بعض البشر لحكمةٍ يعلمها سبحانه، ويستدلّ أصحاب هذا الرأي بقدرة الجن على التشكّل والتواصل بأشكالٍ مختلفة، وقد ثبت في السنة أن الجنّ قادرون على التشكّل في صور البشر؛ ففي قصة حراسة تمر الصدقة، جاء رجلٌ يسرق الطعام فلما أمسكه أبو هريرة رضي الله عنه ادّعى أنه ذو عيال وشكا إليه فقره، فتركه.
وتكرر ذلك ثلاث ليالٍ، ثم أخبر أبو هريرة النبي ﷺ بما حدث، فقال:
«أما إنه قد صدقك وهو كذوب، أتدري من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟» قال: لا. قال: «ذاك شيطان».
كما ورد أن الشيطان جاء لقريش في صورة رجلٍ يُقال له سراقة بن مالك، ثم تبرّأ منهم عند القتال. واستدلّ الباحثين بهذه الروايات على إمكان تشكّل الجن في هيئة البشر..

توقّفت إيليانا عند الكلمات، وسرت قشعريرةٌ خفيفة في أطرافها وكأنّ تلك الجمل لم تكن عشوائية، بل كُتبت لها.
وضعت الهاتف بجانبها وأحسّت بخفقٍ مختلف مزيج من الدهشة والإرتياب..
بدأت عيناها تسرحان في السقف تستعيدان في خيالها ملامحه التي حفظتها عن ظهر قلب، وبينما هي على تلك الحال أصاب جفنيها ثقل وبدأت أنفاسها تهدأ...
نفس الزاوية في الغرفة، نفس السجادة، ونفس النور الخافت.
انقشع الضباب ليظهر لها زائر الحلم مجددًا.. لكن هذه المرة لم يكن لقاؤهما محدودًا، بل اقترب بخطواتٍ هادئة جعلت قلبها يضيق بين أضلعها ظهر أمامها، ولم يفصل بينهما سوى نظراته بذلك البؤبؤ الكبير الذي بدا مخيفًا على نحوٍ آسر، ثم قال بصوتٍ عميق يتردد في عقلها دون أن تسمع كلماته:
— عرفتِني الآن، أليس كذلك؟
بُهِت لسانها في حين ترقرقت عيناها بالحيرة واليقين معًا.
ليتابع بنبرةٍ أكثر قربًا:
— قد تُصابين بالذعر، لكن تذكّري ما قالته لكِ جدتك.
حدّقت فيه بتردد قبل أن تسأله:
— وماذا قالت جدتي؟
— ليس كل غريبٍ يحمل سلاحًا خفيًا أحيانًا يحمل وردةً في شكلٍ أجوف.
صمتت لحظاتٍ تتذكر كلام جدتها وفعلاً كان هذا هو الحديث ذاته الذي قالته لها في ذلك اليوم حين سألتها عن الحلم.
تنبّهت إلى أنه يجب أن تسأله أكثر، وبجرأة انهالت عليه بالأسئلة:
— وأنت، كيف سمعت ما دار بيني وبين جدتي؟ ثم كيف تستطيع أن تزور أحلامي بهذا الشكل؟ وهل ما يحدث الآن لقاءٌ حقيقي معك أم مجرد حلم؟ ماذا تريد مني؟ ومن تكون؟

استمع لكل أسألتها المبعثرة بدون أن يقاطعها، وبعد أن أنهت اختفى وتجسد في لحظة خاطفة قرب سريرها، ثم بابتسامة غامضة أجابها:
_أنا لست كما عرفتِ من الناس ولا ممن خُلق من طين، فقط كعابر استظل تحت ظل شجرة وعجز عن الرحيل.
لتخاطبه في حيرة من أجوبته المشفرة:
_إذن مَن تكون.. ملاكٌ؟ جنيّ؟... أم ماذا؟
ابتسم ثم قال:
_مجرد عابر دقّ قلبه على غير عادته، فتهادى في دروب لا يعرف فيها سبيلًا إلا إليكِ.
وبينما كانت تحاول النطق مجددًا تبدّدت صورته مع نسمة ساخنة لفحت وجهها، وسمعت صوته يتلاشى وهو يقول:
_سأعود... حين يكون الوقت قد آن.
استفاقت من حلمها الذي لم تكن متأكدة منه إن كان حلمًا يقينًا أو بين الحلم واليقظة، ولكن هذه المرة لم تكن مشوّشة، فالأمور بدأت تتضح لها، أو على الأقل اطمأنت أن ما تراه ليس هلوسة.

بين الحيرة واليقين

استيقظت على صوت أمّها يناديها وهي تفتح عينيها ببطء، لم تكن تدري كم مرّ من الوقت منذ أن غفت، لكن ظلال الليل كانت قد غطّت الغرفة. جلست على السرير متثاقلة، مسحت وجهها براحة يدها، وتنفّست بعمق.
_حسنًا أمي... قادمة.
ذلك الحضور الذي ذاب في الحلم ظلّ يتردد في داخلها، وجملته الغريبة: «سأعود... حين يكون الوقت قد آن».

تناولت العشاء مع أسرتها بصمت، أجابت باقتضاب، وضحكت مجاملةً.
مضت ليلتها ثقيلةً خفيفةً، تمددت على سريرها آخر الليل تتوه في دوامة عقلها وتتمسك بالصورة الأخيرة بين عينيها كلماته، نظراته، والشعور الذي رافق حضوره، والذي لازمها حتى بعد أن استيقضت...

النوم كان عنيدًا هذه الليلة فقد هجر جفونها قسرًا، تقلبت على جنبها الأيمن ثم الأيسر وغطّت وجهها بالوسادة، تنهدت وهي تهمس:
«أنا بحاجة لأن أراه مرة أخرى، أريد أن أستفهم منه عدة أشياء.»
لكن الهدوء كان يلف الغرفة ونبضها بدأ يعود إلى وتيرته العادية.

حينما يئست من النوم، مدت يدها إلى الدرج القريب من مكتبها، وأخرجت دفتر مذكراتها المزين بزهور حمراء في زواياه.
فتحته على صفحة جديدة وأمسكت بالقلم:
«مَن أنت؟ وهل يزورنا العالم الآخر على هيئة حلم؟»
راحت تكتب، تفرغ حيرتها على الورق.. كتبت عن كل ما شعرت به؛ كل الحيرة، وكل الرجفة، وحتى تلك الطمأنينة الغريبة التي ترافق حضوره، وكيف استطاع أن يهز يقينها دون أن يلمسها في العالم المادي.
«وهل أنا مخطئة لأنتظرك مجددًا، رغم أنني لا أعرف اسمك؟»
سطرًا بعد سطر، كانت الكلمات تخرج من قلبها لا من عقلها...

وحين أنهت صفحتها نظرت إلى السطور، ثم أغلقت الدفتر بحركة سريعة، ربما لتحبس سره بين صفحاته.
وضعت رأسها على الوسادة مجددًا، وهذه المرة لم تطلب عودته فقط أغمضت عينيها بهدوء، لعلّ الحلم يأتي من تلقاء نفسه.

رنّ هاتفها وكانت رنّة رسالةٍ وليست اتصالًا.. تفقدت شاشته لتجد دعوةً للانضمام إلى لعبة فري فاير من أخيها محمود
وبتنهيدة ملل قالت:
_لا رغبة لي الآن.
لم تلبث حتى وصلها الرد بنبرة ساخرة تعرفها جيدًا:
_أصلًا أنتِ مجرد ذبابة يمكنني القضاء عليها بمجرد رشّة مبيد!.. وتعلمين جيدًا أن الخصم قوي، لذلك لا تجرؤين أيتها الجبانة.
ابتسمت بفتور، لترد عليه:
_من الأحسن لك أن تستسلم للنوم حتى تستيقظ نشيطًا لدراستك.
ثم وضعت الهاتف جانبًا كما لو كانت تودّ الهرب من كل شيء حتى من نفسها.
لكنها لم تستطع، فذلك الكيان الذي يتردد لها في الحلم وفي أفكارها وفي كل مكان ما زال يحتلّها.
رفعت الهاتف مجددًا ولكن هذه المرة لتبدأ رحلة بحث جديدة: قصص حقيقية، أرواح تظهر، أنواع الجن، تجسدات للشياطين، ولماذا قد يظهر أحدهم لنا...
تنقّلت بين صفحات لا حصر لها، وكل معلومة تشدّها إلى عمق جديد، وكل قصة تشبه ظلّ ما تعيشه.
شيءٌ ما كان يتهيأ داخلها لم تكن خائفة بقدر ما كانت متسائلة، مأخوذة بذلك الحضور الذي ترك بداخلها أثرًا لا يشبه شيئًا مرّ عليها من قبل، وفي قرارة نفسها كانت تعلم أن ما حدث لم يكن مجرد حلم، بل بداية.
مضت أيامها مبلّلة بالحيرة، بين عقلٍ ما زال يقتات على تفاصيل تلك الأحلام، وقلبٍ يتأرجح بين يقينٍ وتساؤلاتٍ لا تهدأ.
في الطرف الآخر من المدينة كانت سارة تعدّل ملابسها للخروج من المنزل استعدادًا لحضور حلقة تحفيظ القرآن، عند الباب ناولتها والدتها نقودًا وهي تقول:

__لا تنسي أن تشتري معكِ كريمة الشوكولا، تذكّريها يا سارة.
_حسنًا ماما لن أنسى بإذن الله.
وفي الطريق التقت بصديقتيها ميساء وميادة، اللتين كانتا تسيران بخطى نشيطة نحو المسجد..
تبادلت الفتيات الثلاث تحياتٍ دافئة ثم راحت ميادة تتأمل السماء قائلةً بابتسامة:
__الطقس رائع هذه الأيام... ما رأيكنّ بنزهة إلى الحديقة العامة غدًا؟
ردّت سارة بحماس:
_فكرة ممتازة.. اشتقنا لبعض الهواء النقي بعيدًا عن صخب المدينة.
أومأت ميساء بالموافقة وأضافت بابتسامة مترددة:
__فعلًا... أتمنى فقط ألا تمانع أمي.
ذهبت الصديقات يتبادلن الحديث حتى وصلن إلى المسجد، حيث بدأت الطالبات بالتوافد شيئًا فشيئًا استعدادًا لبدء الحلقة.
هناك كانت إيليانا جالسة بهدوء تحاول تثبيت ما حفظته في ذاكرتها، غير أن نظراتها كانت تفضح شرودها البعيد.
تبادلت الفتيات التحايا معها، ثم قالت سارة وهي تجلس قربها:
_قررنا الذهاب غدًا إلى الحديقة العامة تعالي معنا، ستكون نزهة مبهجة وسط الأشجار والعشب الأخضر.
لتردّ بحماس:
__أممم... سأوافق فقط إن ذهبنا للجهة التي تمتد للغابة.
قطع حديثهن دخول المعلمة وهي تلقي السلام، فعمّ الصمت وانضبطن جميعًا في أماكنهن، وتوزعت الطالبات بين الحفظ والترتيل والعرض...
في ذات المساء، توجّهت إيليانا إلى أمها وهي تتململ في حديثها بشيء من المراوغة:
ـ أمييي... الفتيات اتفقن على الخروج في نزهة غدًا.
لتقول الأم ينبرة جافة:
_وما شأنك بهم.

_أرجوكِ أمي، اسمحي لي بالذهاب معهن.
رفعت الأم نظرها إليها بنصف ابتسامة: ــ وهل هذه النزهة ضرورية؟
ترددت إيليانا قليلًا، ثم أجابت وهي تُخفي ما يتقلّب في داخلها:
ــ إن كنتِ ترين أنها ستُسعدني وتخفّف عني شيئًا من التعب... فهي ضرورية جدًا.
لتقول الأم بتسليم وهي تمازحها:
ــ حسنًا، لكن استيقظي باكرًا... حضّري بعض المملّحات وضعيها في السلة التي تأخذونها معكم، أيتها الكسولة النؤوم أدخلي السرور إلى قلب صديقاتكِ بشيء من صنع يديكِ.
ــ أمييي، أنا لست كسولة!
في اللحظة التي أنهت جملتها التفتت نحو نافذة الصالة وقد لفت نظرها شيء غريب... عيونٌ كانت تراقبها من بين ستائر الليل وما إن لمحتها حتى اختفت.
تجمّدت ملامحها واستأذنت من أمها، دخلت إلى غرفتها وفتحت النافذة بأنفاس متسارعة، كان شيءٌ في صدرها يريد أن يهرب قبلها...
هبّت نسماتٌ دافئة تداعب خصلات شعرها وفي الأفق تسرّبت رائحة مسكٍ ثقيلة، لكن... إنها نفس الرائحة، نفس العطر الذي عمَّ غرفتها آخر مرة بعد الحلم!
أطلت من النافذة لتجد الأشجار تهمس، والعتمة ساكنة وأضواء الشارع تُنير الغموض بلونٍ باهت.
أسندت ظهرها إلى الحائط وانزلقت ببطء حتى جلست على الأرض. تذكرت آخر زيارةٍ لها برفقة أمها إلى السوق حين دخلتا دكان الحلوى، ورأت ذلك الرجل الغامض نفسه الذي يزورها في أحلامها. بل إنها كانت تشعر بحضوره في كل مكان... لكنها لم تكن متأكدة بعد إن كان هو ذاته، أم أن عقلها بدأ يربط بين كل شيء.

ـ لا بد أن أتكلم معه مرة أخرى ... غدًا سنمرّ من هناك من نفس الدكان، وإن رأيته وإن تكرّر المشهد، فلن أراوغ سأسأله بهدوءٍ أو إرتباك.. لا يهم.. أُريد أن أعرف من يكون وما علاقته بأحلامي، وماذا يريد مني!

♡♡♡

في بيت العائلة صباح يوم عطلة:

كان محمود جالسًا على الأرض، قابضًا على جهاز التحكّم غارقًا في عالمه الرقمي، يقاتل بشراسة في إحدى جولاته..

أمامه جلس والده فوق الأريكة يطالع الجريدة بصمتٍ ووقار، يتنقّل بين أخبار السياسة والاقتصاد، يرفع حاجبه حينًا وينفخ أنفاسه أحيانًا.

ركضت ميلينا الصغيرة حولهما، تضحك وتغنّي أغنية غير مفهومة تحمل دميتها وتدور بها في الصالة.

ليقول الأب دون أن يرفع نظره عن الصحيفة:

ـ محمود، منذ الصباح وأنت على تلك الشاشة ... ألم تملّ من قتل الأشباح؟

ضحك محمود وهو لا يزال مغموسًا في شاشته:

ـ ليسوا أشباحًا يا أبي إنهم خصومي وسأفوز عليهم كالعادة

أردف الأب وهو يطوي الصحيفة:

ـ كان الأجدر بك أن تفوز في دراستك أولًا، فالعطلة لا تعني السُبات.

قاطعتهم ميلينا بضحكتها الصغيرة وهي تقفز على الأريكة:

ـ أبي، أبي، أريد أن ألعب أنا أيضًا..

ردّ الأب وهو يرفعها إلى حجره:

_.لعبك في البرائة أجمل ياحلوتي..أتركي لهم الحرب والضجيج .

ضفة النهر والحضور المادّي

فَ في الطابق العلوي كانت قد إنتهت من ترتيب غرفتها وعطرتها برائحة الورد، صباحٌ مبهج للغاية.. وقفت أمام المرآة لحظة تأمّلت وجهها و حدثت نفسها:
«سألتقي بصديقاتي عند مفترق الطرق كما اتفقنا، وسنمضي إلى الحديقة العامة... ولكنني، أنا وعقلي سنتجه إلى مكانٍ آخر» أغلقت حقيبتها و وضعت السلة الصغيرة التي أعدّتها، بها فطائر ومملّحات وألقت نظرة أخيرة على الغرفة ثم خرجت بخطوات هادئة..
تقدّمت نحو والدتها تقبّل يدها بلطف:
ــ أماه سأذهب الآن لا تقلقي عليَّ.
أجابتها وقد بدا في عينيها شيء من الحنين:
ــ عودي قبل المغيب يا ابنتي فالليل لا يُؤتَمن لا على الطرق ولا على الأرواح.
وبعد أن غادرت إلتقت بصديقاتها كما تواعدن، تعانقن بحرارة والفرح على وجوههن..
قالت ميساء، وهي تتأمّل عباءة إيليانا لبنفسجية الفضفاضة:
ــ وردة بنفسجية تجسدت على شكل فتاة.
ضحكت بخجل وهي ترد:
ــ وهل هذه مجاملة لطيفة، أم حقيقة تُقال؟
لتقول سارة:
ــ بل مجاملة خالصة، لا تصدقيها.
وانفجرن ضاحكات... قاطعتهن ميساء بحماس:
ــ أعددت لنا والدتي شايًا دافئًا وكعكة البرتقال سنستمتع بها في الحديقة.
علّقت إيليانا بفرح:
ــ أووه..أنا أعشق كعكة البرتقال.
وبين الأحاديث والحماس.. إيليانا فجأة:
ــ يا فتيات.. ما رأيكن أن نمرّ بالسوق قبل أن نكمل طريقنا؟

رفعت ميساء حاجبها بدهشة:
ــ ولِمَ السوق الآن يا ؟
أجابت وقد أخفت تلهفها خلف ابتسامة:
ــ أريد فقط شراء بعض الحلوى.
ميادة بتعجّب:
ــ أكان من الضروري أن نُطيل الطريق ونتوغّل وسط الزحام؟
يمكنك شرائها من أي متجر على الطريق.
لكن بعد لحظات إستسلمن لطلبها، وسرن جميعًا نحو قلب السوق وبعد أن وصلن أخيرًا إلى الدكّان المقصود، تقدّمت إيليانا تطلب من البائع بعضًا من الحلوى إلا أن الحلوى لم تكن السبب الحقيقي لمجيئها بل كانت مجرد ذريعة لحاجةٍ تخفيها في نفسها..
بحثت بتمعّن، نظرت في كل زاوية، غاصت في موجة من التفكير بين التساؤل أو ربما شيئ من الحنين الذي تبخر بمجرد أنها لم تلمح له ظلا..

وبعد مسافة طريق وصلت الفتيات إلى الحديقة، بدا المشهد كلوحة فنية مفتوحة على وسعها لتحتضن خطواتهن.
الحديقة في طرف الغابة لكنها جزء من محمية طبيعية، تمازج فيها جمال الخضرة بهيبة الأشجار المعمّرة، وعبق الأرض الرطبة بصدى الحياة الهادئة.
كان بعض الناس هنا وهناك، يمشون أو يتوزعون على المقاعد إيليانا بطبعها الهادئ الذي يأنف الضجيج، إقترحت:
_هيا نغوص أعمق... حيث السكون يُنصت لنا، لا نحن إليه.
تقدّمن داخل الغابة والطريق صار أكثر إنفرادًا الأشجار كثفت ظلالها، والعصافير تزقزق فوقهن بأعذب الألحان، إنخفضت الأصوات مع تقدمهن حتى لم يبقَ سوى خرير ماء النهر ينساب بين الحصى وجذور الشجر، توقّفن في بقعة يلفّها السكون مفروشة بالعشب وبعض الأزهار الحمراء والبنفسجية، مدت سارة يدها وأشارت قائلة:
_هنا... هنا نضع رحالنا. جلست الفتيات و تحلّقن حول مفرشٍ بسيط زيّنته أطباقهن الشهية تنوّعت المأكولات بين المملّحات والحلوى.

كانت إيليانا وسطهن تمازح هذه وتداعب الأخرى وتلتقط صورة مع تلك، لكنّ عينها سرقت إلى زاوية النهر هناك، عند الضفة المقابلة لمحت رجلاً يجلس مع شاب، والذي تبين لها أنهما ربما يصطادان السمك، لم تكن المسافة قريبة لكنها ليست ببعيدة أيضًا ما شدّ نظرها لم يكن المشهد بحد ذاته، بل أحد الرجلين! شيء فيه بدا مألوفًا.. بل مدهشًا حدّ الرجفة. أيمكن أن يكون نفسه الذي يشغل بالها؟
تساءلت في سرّها وقد بدأت الحيرة تتسلّل إلى صدرها.
 ثم هزّت رأسها كمن يلوم نفسه:«لعلّني أتوهّم فالعقل حين يُفرِط في التفكير يخلق رؤى تشبه الحقيقة» هذا ما كانت تقنع نفسها به دائما، لكن القلب لم يطمئن ولم يقبل التبرير بل زاد اضطرابه كلما أطالت النظر نحوه.
فجأة، قطعت شرودها ميادة:
_إيليانا هل أنت بخير؟
أجابت بنبرة هادئة تخفي إضطرابها:
_لا شيء... فقط أريد أن أتمشّى قليلاً.
قالت ميساء مازحة وهي تملأ كأسها بعصير الليمون:
_إجلسي، لا يزال الوقت مبكرًا.. لدينا الكثير لنفعله.
أضافت سارة:
_لا تُفكّري بالهرب من اللعب الجماعي!
إبتسمت مُدارية لتقف وهي تنظر إلى النهر من جديد:
_أريد فقط أن أقترب من الضفة، لن أبتعد كثيرًا.
ميساء بتحذير لطيف:
_فقط لا تذهبي بعيدًا عنّا.
_وهل أملك الجرأة أن أبتعد ولا أراكن بعيني؟
راحت تقترب بهدوءٍ، تحاول أن تطفئ فضولها الذي إشتعل كلما اقتربت...

زادت وضوحًا صورة الرجل الجالس، حيث رأت ظهره واستقرّت عليه بعينين قلقتين.. وفي لحظة مباغتة، التفت موجها بصره نحوها مباشرة
تيبّست أطرافها، فنفس النظرات التي تزورها في المنام وسكنت ذاكرتها في السوق.
شعرت بتحديقاته تخترقها، تسلّلت إلى قلبها وأيقظت رعشة في الجلد ونبضًا سريعا في الصدر.
بدأت ضوضاء الفتيات تتلاشى من خلفها، كأن العالم إنكمش وبقيت هي ونظراته في مشهدٍ لا صوت فيه إلا نبض قلبها الذي بات يصرخ:
_هذا ليس توهم... هذا هو نفسه!
وبينما كانت واقفة هناك مسمّرة الحركة والبصر، سمعت صراخ ميادة وهي تناديها:
_إيليانااا تعالي... تعالي تذوّقي الشاي يبدو أن سارة ستشرب حصتك أيضاً!
إلتفتت نحو الصوت كأنها تعود من عالمٍ آخر، سمعت كلمات صديقتها تتردّد بصدى بعيد،رمقمتهم بشرودٍ وابتسامةٍ باهتة لتعود أدراجها إليهن حيث كانت سارة تهاجم ميادة في مشهدٍ مضحك تدافع فيه عن نصيبها من الشاي وسط قهقهات وصراخ مرح.
جلست بينهن تحاول أن تهدّئ من شغبهنّ، وتفرّق بين المشتبكتين بلطفٍ ودعابة.
لكن ذهنها ظلّ يرتحل بين كلماتهن وضفّة النهر، تسأل قلبها بصمت:«يا إلهي... ما هذا الذي أراه؟! ولماذا نظراته أحسست أنها تخترقني وتراني من الداخل!»
فجأة، أطلقت ميساء صوتها:
_هسّ... يا بنات؛ أنظرن هناك... عند الضفة المقابلة
التفتت العيون جميعها حيث أشارت، وبدأت الهمسات تتصاعد بين الفتيات...

تعلّقت أعينُهنّ بالشابَّين الجالسَين هناك واللذَين لم يظهر منهما سوى ظهريهما.
إيليانا، بصوتٍ مضطرب قالت:
_أنا أولُ من لمحَهما.
علّقت ميساء متفاجئة:
_غريب... هل كانا هناك قبلنا؟ لم ألحظ وجودهما إلا الآن.
لتردف سارة وهي تحدّق:
_ربما يصطادان السمك، تبدو وضعيتهما كذلك.
قهقهت ميادة قائلة:
_ماذا لو قدَّما لنا سمكة!
لعقت شفتيها وأضافت وهي تراقب الشابَّين من جديد:
_لو قدَّماها لنا مشويةً على الجمر، ستكون لذيذة فعلًا سمكٌ طازج وشواءٌ في هذا النسيم، أممم...
تابعت سارة الدعابة:
_يا سلام يا سلام... حفلة سمك.
لكن ميساء قاطعت الحديث وهي تحاول ضبط الأجواء:
_شششت، دعونا منهما الآن لا تُحدثوا ضجيجًا، اخفضوا أصواتكم سنُزعجهما ويظنّان أننا قليلاتُ أدب! كُنَّ عاقلاتٍ ولو مرة.
أخرجت من حقيبتها لعبة الورق وبدأت توزّع الأوراق على الفتيات بانضباط، وراح الجميع يندمج شيئًا فشيئًا في اللعب.
إيليانا وحدها كانت تشاركهنّ بجسدها بينما بقى قلبها مشدودًا نحو الضفة.
كلما تظاهرت بالتركيز، اختلست نظرة و التفتت إليه، لتجده ما زال هناك مستقرًّا وكانت الأسئلة تتزاحم داخلها:
«هل أذهب وأتكلم معه؟ هل أواجه هذا الحلم المتجسّد؟»
لكن الجرأة هذه المرة خانتها رغم أن شيئًا غامضًا كان يجذبها إليه بقوة، كما لو أن خيوطًا غير مرئية تربطها به.

عادت بنظرها إلى اللعبة أخيرًا، إذ بدأت الفتيات يضحكن ويمازحنها:
_ها أنتِ!.. معنا أم مع السمكة؟
ابتسمت بخجل، واندمجت في اللعبة بينما كانت الفتيات منشغلات باللعب، يتبادلن التحديات والتهديدات الظريفة بين من تتباهى بالفوز ومن تخشى الهزيمة. كانت هي تراقبهن بابتسامة هادئة، وتتابع مجريات اللعب بانتباه.
فجأة، قُطع سكون الأجواء بصوتٍ رخيم:
_السلام عليكم.
التفتت الفتيات بفزع وارتسمت الدهشة على وجوههن، حين ظهر رجل يحمل بين يديه سمكةً مشوية، قدّمها إليهن قائلًا:
_تفضلن، هذه هدية بسيطة لكنَّ.
وقف الجميع مذهولين، إلا إيليانا التي ظلّت جالسة في مكانها. أما الفتيات فكنَّ تحت وقع الصدمة، لا يفهمن ما يحدث. حاولت ميساء استعادة توازن الموقف، فوقفت بثبات وأمسكت السمكة من يديه، وردّت:
_وعليكم السلام... شكرًا لك، هذا من كرمك.
بادلها بابتسامة لكن نظره ظلّ معلّقًا بتلك الجالسة التي كانت تراقبه بدهشة تغلّفها مشاعر متداخلة. في عينيه الغريبتين كان هناك شيءٌ ما متجهٌ نحو عينيها اللتين لم تحرفهما عنه.
ثم قال، والابتسامة ما تزال على شفتيه:
_لا شكر على واجب، اعتبرنها هديةً بسيطة.
عاد أدراجه نحو مكانه بهدوء وبعد أن ابتعد، همست الفتيات باندهاش وكل واحدة منهن تطرح سؤالها في ذهول.
قالت سارة:
_كيف ظهر فجأة دون أن نشعر بخطواته؟ هل شعرتم بذلك؟
ثم هل يُعقل أنه سمع حديثنا عن السمكة، أم أنها محض صدفة؟

ردّت ميادة:
ــ لا، لم أشعر بشيء... لكن كيف شوى السمك ولم تداعبنا رائحة الشواء؟ سبحان اللّٰه، أمرٌ غريب.
أضافت ميساء التي كانت أكثر هدوءًا وعقلانية:
ــ لا شيء غريب، ربما أراد أن يهدينا صدقةً نسأل اللّٰه أن يجعلها في ميزان حسناته. أهذا جزاءُ من يُحسن إلينا؟ تنعتونه بالغرابة!
بقيت إيليانا شاردة، تتبع خطواته وهو يعود إلى مكانه وهمست لنفسها:
«نفس رائحة المسك التي تملأ المكان حين أشعر بوجوده.. نفس النظرات ونفس الملامح، بل حتى الرداء الأسود نفسه.»
نبض قلبها لم يهدأ، وابتسامةٌ ترتسم على شفتيها كانت تُخفي وراء عينيها بحرًا من الحيرة.
قاطعتها ميادة بصوتٍ حاد:
ــ إيليانا، هل لاحظتِ نظراته إليك؟ ألم تشعري بغرابةٍ في تلك النظرات؟
ردّت بابتسامة علت وجهها وقد بدا أنها تستر شيئًا خلف كلماتها:
ــ أبدًا... السمكة تبدو شهية، ورائحتها لذيذة.
أقبلت الفتيات على الأكل وفعلاً كانت السمكة طيبة المذاق. تناولت إيليانا منها لقيماتٍ قليلة، ثم بدأت توزّع معهن بقية المأكولات.
حملت بعضها في إناءٍ صغير، وهمّت بالقيام.
سألتها ميساء بدهشة:
ــ إلى أين؟
فأجابت بثقة، وعيناها تلمعان:
ــجزاءُ الإحسان إلا الإحسان!
ــ صدقتِ ووفيتِ.

تقدّمت نحوه ببطء، وقلبها يقرع كطبول المهرجانات.
عزمت على أن فرصتها قد تهيأت، و عليها ألّا تُفوِّتها..
تقدّمت نحوهما وحين أوشكت أن تصل، ازداد عبير المسك الحاد في الأرجاء وسرعان ما التفت ذو الرداء الأسود إليها. تلبّسها شيءٌ من الخوف، لكنها تماسكت وتقدّمت بثبات.
كان شاخصًا ببصره إليها، وما زاد ارتباكها عيناه كأنهما بوابةٌ إلى عالم آخر.
تلاقت نظراتهما وسرت قشعريرة في جسدها كله.
وحين وقفت أمامه عجز لسانها عن النطق؛ فقط عيناها كانتا تتحدثان.
أخيرًا، قالت بأنفاسٍ متقطعة:
ــ أردت أن أقدّم لكم بعضًا مما أحضرناه معنا...
ردّ عليها:
ــ يا مرحبًا بالكريم الودود.
طأطأت رأسها خجلًا وتبعثرت كلماتها؛ فحديثه هذا عزف على أوتارٍ قلبها.
تابع مردفًا:
ــ إن رغبتِ في لقائي مجددًا، فلا تبحثي عني كثيرًا...
ستجدينني هنا.
غريبٌ كلامه! يدلّ على أنه يعرف ما تُسِرّه! لكن كيف له أن يعرف أنها كانت تبحث عنه وتريد لقاءه مرةً أخرى؟
هذا ما دار في خاطرها.
وضع يده على صدره وانحنى برأسه قليلًا، بحركةٍ مهيبة تشبه انحناءة الملوك القدامى.
وبقيت هي واقفة تحدّق فيه غير قادرة على استيعاب ما يجري.. هل هذا واقع، أم أنها لا تزال تحلم؟

ثم أدار وجهه نحو رفيقه الذي كان يراقب الموقف، وبدا أن بينهما حديثًا بلا كلمات.
جلس ثم عاد بنظره إليها مرةً أخرى، كأنه يخزّن صورتها في ذهنه.
تراجعت بخطواتٍ بطيئة، وقدماها لا تطاوعانها، عادت إلى مكان الفتيات بأنفاسها مضطربة وملامح حملت شيئًا لم يفهمنه.
لاحظت الفتيات شحوب وجهها وارتباكها الذي لم تفلح في إخفائه، فتسابقن في سؤالها:
ــ إيليانا، ماذا حصل؟
لكنها لم تُجب كان الصمت يملؤها وكأن شيئًا احتبس في صدرها.
مرت لحظات قبل أن تستعيد هدوءها الظاهري، لتقول وهي تتلفت نحو الأفق:
ــ الليل اقترب ولم يتبقَّ سوى سويعة على المغيب... هيا يا بنات لنجمع أغراضنا ولتعد كلٌّ منا إلى بيتها.
نظرن إلى الساعة ورغم أن سارة كانت لا تزال ترغب في البقاء، فإنهن وافقنها.
بدأن يجمعن الأغراض وينظفن المكان.. ودّعنه بصخبٍ يُخفي ما جال في خواطرهن من تساؤلات.
وحين هممن بالمغادرة استوقفت إيليانا رغبةٌ غامضة،
فالتفتت خلفها نحو المكان الذي جلس فيه الغريبان، لكنهما اختفيا كالسراب.
كان الفراغ الذي خلفه غيابهما يزيد انقباض قلبها.
تسارعت خطواتها للحاق بالبنات ولم تشأ أن تقول شيئًا...
كنَّ يمشين في طريق العودة بين ضحكاتهن العالية وحديثهن المتداخل، وحدها من كانت تمشي بصمت في وادٍ غير واديهن. ولم تلحظ واحدةٌ منهن أن صديقتهن كانت شاردة لا تنتمي إلى تلك اللحظة.

عادت إلى البيت، وضعت حقيبتها ثم جلست على سريرها بصمت...
كان الغروب يرسم ظلالًا برتقالية على جدران غرفتها، بينما ظلّ قلبها عالقًا هناك في الغابة على ضفة النهر، عند لحظة لقاءٍ لم تكن عادية.
أوصدت الباب على نفسها ووقفت أمام المرآة، مدّت يدها إلى عنقها تتحسّس قلادةً صغيرة اعتادت أن تضعها دومًا..
ابتسمت لانعكاس وجهها، ثم ارتمت على سريرها تطوّق وسادتها بذراعيها، وقلبها يدقّ على إيقاعٍ ما.
لا تعرف اسمه، ولا تدري أهو جنيٌّ أم مَلاك، أم كائنٌ آخر لا ينتمي إلى هذا العالم، لكنها كانت متأكدة من شيءٍ واحد فقط: أنه أودع فيها خليطًا غريبًا من الخوف والطمأنينة، ومن الارتباك والفضول وشعورٌ لا يُفسَّر يتغلغل في أعماقها.
ابتسمت بلا سببٍ واضح وأعادت في رأسها مشاهد ذلك اللقاء الغريب... وشيئًا فشيئًا غفت دون أن تشعر.
صوتُ طرقاتٍ على الباب!
ـ أمي... ادخلي!
قالتها بنعاسٍ خفيف، دون أن تفتح عينيها والباب فعلا انفتح... سبقت الداخلَ رائحةُ المسك التي باتت مألوفة، بل محفورةً في ذاكرتها.
ـ لا... مستحيل!
تمتمت وهي تفتح عينيها وتستعدّ للجلوس..
لتجده يقف عند باب غرفتها، بطوله الذي كاد يلامس سقف المدخل، وبنفس كل تفاصيله التي حفظتها ذاكرتها جيدًا.

استقرّ عليها بنظره لحظات طويلة جعلت توتّرها يتضاعف..
وبعد أن ألقى عليها السلام، خرج صوتها مترددًا:
ــ ممــ.. ماذا تريد مني؟ وكيف استطعت الدخول إلى غرفتي؟
اقترب خطوةً واحدة،ثم قالٍ بصوت يتردد من كل الاتجاهات :
ــ على أن تردّي السلام أولًا.
تشنّجت حركتها قبل أن تقول:
ــ هل أنا... أحلم؟
ردّ بصوت يشبه الهمس، وكأن كلماته تنسلّ إلى وعيها دون أن تلامس سمعها:
ــ بل هذه يقظةٌ خاصة بيننا.. جئتُ إليكِ لأنكِ دعوتِني!
__لا لم أدعك؟
_بل دعوتني بتفكيرك، وكان لا بدّ أن ألبي النداء.
صمتت تحدّق في تفاصيله، غير قادرة على التصديق،فيما اقترب منها حتى بات أقرب من أي وقتٍ مضى:
ــ حين ترغبين في لقائي مجددًا، يمكنكِ مناداتي باسمي..
نِيوار.
لم تُبدِ أيّ ردّة فعل، وكان صمتها سيّد الموقف.
ليتابع مردفًا:
ــ سأنتظركِ عند ضفة النهر.
فتحت عينيها لتدرك أنها كانت في حلمٍ تبدّد، لكن شيئًا ما كان مختلفًا فرائحة المسك ما زالت عالقةً في الجو.
أخذت تردّد اسِمه بتعثّرٍ:
ــ نَوار... نـــــَـ... نـــــُـ.. نِيوار... أحقًّا هذا اسمه؟ يا إلهى، ماذا يحدث معي؟ هل عليّ أن أخبر أمي؟
وقفت ببطء وعيناها تبحثان عن تأكيد عن أيّ علامة، عن أيّ شيءٍ يثبت أنه لم يكن مجرد حلم.
وفجأةً، لمعت في عقلها جملته الأخيرة:
"سأنتظركِ عند ضفة النهر."

ترددت لكن الفضول جعلها تبتسم،وهي تُشاطر على أن تذهب.

♡♡♡

في صباح اليوم التالي كان السيد خالد جالسًا في مكتبه يُنهي معاملات اليوم بدقةٍ متناهية، يختم أوراقه واحدةً تلو الأخرى، ويضع كل توقيع في مكانه بعناية.
لم يكن هدوء المكتب يقطعه سوى صوت الأوراق وصوت القلم وهو ينساب على الصفحات.
وإذ بطرقاتٍ خفيفة تُسمع على الباب. فُتح بعد استئذان ودخل "ربيع" زميله، يحمل فنجان قهوته وابتسامةً تجمع بين الكلمة وضدها.
قال بنبرةٍ مرحة:
ــ صباح النور يا أبا محمود... رأيتك غارقًا في بحر الأوراق فقلت أبحر إليك قبل أن تغرق في لجّة البيروقراطية.
ابتسم خالد من دون أن يرفع بصره:
ــ صباحك ورد يا ربيع... كما ترى غارقون في العمل، كما هو لا جديد يُذكر ولا قديم يُعاد.
جلس ربيع على الكرسي المقابل، ثم مال بجسده قليلًا إلى الأمام، وقد خفَّت ملامح مزاحه وقال بنبرةٍ جادّة:
ــ في الحقيقة هناك جديد... أتتذكر المشروع الذي تحدثنا عنه قبل أشهر؟ مشروع التعاون مع شركة الريّان للمقاولات؟
رفع خالد عينيه ببطء وقد بدا عليه شيءٌ من الاهتمام:
ــ أذكره جيدًا... ما أخباره؟ لم أظن أنه سيُطرح مجددًا.
ابتسم ربيع وهو يهزّ رأسه إيجابًا، ثم قال:
ــ لم يُطرح فقط، بل اتصل بي المدير التنفيذي هذا الصباح بنفسه.. قال لي بالحرف: "نريد خالد ليشرف على المشروع ولا نثق بغيره لمراجعة العقود النهائية بنفسه."

صمت خالد للحظة، وكأنّه يستمع إلى صوتٍ داخلي:
– هذه رائحة صفقةٍ ضخمة... أو ورطةٍ عميقة.
ضحك ربيع وضرب على المكتب بخفة، وقال:
– وفي كلتا الحالتين أنت لها يا أبا محمود إنها فرصة والفرص لا تأتي إلا نادرًا، وكل ما عليك هو أن تقبلها وتوقّع على التعاقد.
لم يُجب خالد على الفور، قام من مجلسه وهو يعقد كفّيه وراء ظهره ، اتجه نحو النافذة يحدّق في الساحة الهادئة التي يلفّها صمت منتصف النهار ثم قال:
– بالمناسبة... بعد الظهر سأمرّ على قسم المشتريات، ثم أزور الموقع الجديد في الحي الجنوبي. إن رغبت بمرافقتي فمرحبًا بك.
__ كنت أودّ ذلك، لو لم يكن لديّ أمرٌ أكثر إلحاحًا.
ثم استأذن ربيع تاركًا خلفه أوراق الصفقة وآثار الحوار في ذهن خالد.
في طريقه إلى سيارته كانت فكرةٌ تدور في رأسه، لا تُشبه أيّ مشروعٍ أو صفقةٍ اعتاد التفكير فيها. كانت فكرةً هادئةً دافئة تشبه ليلى زوجته ورفيقة دربه تلك التي ما انفكّت تنظر إلى أثاث صالون البيت بعينٍ حزينة، وتهمس بين الحين والآخر بأن الزمن قد أكل من عمره وأنها تحلم منذ سنواتٍ بتجديده لكنها كانت تتراجع دومًا أمام حساب المصاريف وتتفهّم حجج زوجها عن الأولويات.
أما اليوم فقد قرر خالد بلا تردد أن يمنحها تلك الفرحة المؤجّلة.
قاد سيارته نحو متجر الأثاث المفضل في قلب المدينة وتجوّل بعينٍ نصفها خبير ونصفها الآخر محبّ، يحاول أن يقرأ ذوق ليلى من ذاكرتها.
كان يلمس قطع الأثاث ويتخيّل كيف ستبدو في صالونهما وكيف سترتّبها هي، وكيف سيشعّ وجهها حين تراها لأول مرة.

اختار بعناية، وأتمّ إجراءات الشراء ثم أعانه فريق المتجر على نقل الأثاث إلى شاحنة التوصيل.
جلس في المقعد الأماميٍ بجوار السائق وقلبه يكاد يسبق الشاحنة إلى البيت، حاملًا لهفة صبيٍّ لا رجلٍ خمسيني ورغبةً في رؤية الفرحة المرتسمة على وجه ليلى.
الطريق إلى البيت هذهٍ المرة لا يشبه الطرق المعتادة.. كان معطّرًا بالذكريات ومبللًا بوعودٍ صغيرة لم تُنسَ وكان خالد يحدث نفسه في سرّه: «كم من الفرح خبّأناه عن أحبّتنا ظنًّا منّا أنّ الوقت لم يحن بعد، حتى انقضى العمر وتحولت السنين إلى أعوامٍ عجاف، ولم يبقَ من العمر إلا ذكرياتٌ تطعننا.»

♡♡♡

رائحة الكعك تفوح في أرجاء البيت، تبشّر بيومٍ طيّب ممزوجة بعبق الشاي الأخضر الذي زاد الأجواء سكينةً ودفئًا.
وقفت ليلى في مطبخها تنتظر نضوج الكعكة التي أعدّتها بحبّ، علّها تُسعد بها صغارها وزوجها الذي سيعود بعد يومٍ طويل من العمل، حاملًا على كتفيه تعب الكدّ وسعي الرزق الحلال.
كانت تقف أمام نافذة المطبخ تتأمل أزهارها التي اعتادت أن تسقيها وتدلّلها، بينما قطتها تقف على الحافة تراقب يديها تتحركان بين أوراق النباتات وتحاول أن تصطاد ظلّها.
دخل محمود مرتديًا قميص كرة القدم، يلبس جواربه على عجل:
– أمي.. أنا ذاهب الآن لديّ موعد مع أصدقائي..
__ انتظر قليلًا، فالكعكة قاربت على النضج!
لوّح بيده وهو يهمّ بالخروج:
– لا أستطيع أصدقائي بانتظاري ولن أتأخر أكثر، إلى اللقاء.
– كما تشاء..في حفظ اللّه.

ثم ودّعته قبل أن تغلق الباب خلفه.
استيقظت ميلينا من قيلولتها، تفرك عينيها بنعاسٍ:
– أمّي، أريد ماءً...
سكبت لها الماء قائلة:
– يبدو أنكِ نمتِ طويلًا يا حلوتي، وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على أنكِ لن تنامي باكرًا الليلة!

وفي تلك الأثناء دخلت إيليانا إلى المطبخ.. كانت قد أمضت اليوم كلّه حبيسة غرفتها متعلّلة بزكامٍ خفيف، وما كانت تخفيه عن أمّها أكبر من مجرّد وعكة...
– أمي... رائحة الكعك تملأ البيت، تبدو شهيةً جدًا.
جلستا تتحدثان عن النباتات وتفاصيل اليوم.. ولم يمرّ وقتٌ طويل حتى سُمع صوت الأمان؛ صوت مفتاح الباب دخل خالد يلقي السلام وفي عينيه حماسٌ ظاهر:
– ليلى... لقد أحضرتُ لكِ هدية.
ابتسمت بدهشةٍ وفرح:
– حقًّا؟ وما هذه الهدية؟
أجابها وقد أشرق صوته:
– مفاجأة! آن أوانها أخيرًا... لقد اشتريتُ لكِ أثاثًا جديدًا لغرفة الضيوف.
اتّسعت عيناها سرورًا، وقالت بفرح:
– حقًّا أوه أتمنى أن يكون على ذوقي وحتى إن لم يكن فجزاك الله خيرًا يا خالد... أنا ممتنّة لك من قلبي.

– حسنًا.. لكن لا يمكنني حمله وحدي، أين محمود؟
__ للأسف، خرج قبل قليل... ذهب إلى مباراة مع أصدقائه.
تنهد وهو يضع يده على جبينه:
– أوه لا... لا تقولي ذلك.. الآن من سيساعدني في تنزيله من الشاحنة؟
تقدمت إيليانا بسرور واقترحت:
– ربما تجد أحد الشبان في الشارع يساعدك!
خرج خالد يلقي نظرةً علّه يجد أحد المارة، لكن الشارع كان خاليًا تمامًا لا أحد في الأفق...
كانت إيليانا ووالدتها تقفان عند الشرفة، تراقبانه وقد ترجل من الشاحنة يتلفّت يمنةً ويسرة يبحث بعينيه عن شخصٍ يساعده. ارتسمت على وجهه ملامح الحيرة والقلق..
في خطواته استعجالٌ ممزوجٌ بالحماس فهو يريد أن يُتمّ المفاجأة سريعًا ويُسعد قلب زوجته.
قالت ليلى وهي تمسك بحاجز الشرفة:
– يا إلهي... يبدو أن الشارع خالٍ تمامًا.
__حقًّا... أبي بحاجةٍ إلى من يساعده.
مرّت لحظات حتى ظهر رجلٌ من آخر الشارع يسير نحوه..
توقفت أنفاس إيليانا حين رأته!
– السلام عليكم، هل تحتاج إلى يد العون؟
التفت خالد نحوه، وقد بدا عليه الامتنان:
– وعليكم السلام ورحمة الله... نعم، تالله لقد جئت في وقتك الشباب اليوم مشغولون وكأن الشوارع هجرتهم.

بخفةٍ وقوة لافتتين، ساعده في تنزيل الأثاث قطعةً تلو الأخرى، دون أن يبدو عليه تعبٌ أو صعوبةٌ في حمل القطع الثقيلة.
كان مهذبًا يسبق أفعاله بالاستئذان ولا يُكثر من الكلام.. أمّا خُطاه فكانت واثقةً كأن الأرض تمهّد له طريقًا. راقبته ليلى وابنتها من الشرفة بدهشةٍ وإعجاب.
ليقول خالد وهو يضع إحدى القطع على الأرض:
– ما شاء الله... تبدو رياضيًّا؟
فردّ عليه مبتسمًا:
– ربما...
وحين انتهيا، طلب الإذن ليغادر قائلًا:
– سعيدٌ أنني وصلت في الوقت المناسب، أستأذنكم الآن.
فقال خالد وهو يفتّش في جيبه:
– لا، لا تذهب... اسمح لي بمكافأةٍ بسيطة.
لكنه رفض وهو يهزّ رأسه نفيًا:
– لا حاجة لي بذلك.
ـــ إذًا، على الأقل ضيافة قهوة...
لكنه اكتفى بابتسامة وغادر سريعا.
ركض خالد خلفه نحو الشارع، يلتفت يمينًا وشمالًا:
– ما بالك مستعجلًا؟ انتظر لحظة!
لكنه لم يجد له أثرًا كأن الأرض قد ابتلعته...
عاد إلى البيت مدهوشًا وهمس وهو يصعد الدرج:
– من هذا الرجل؟ من أين جاء؟
ظلّت إيليانا صامتة تنظر نحو المدى بعينٍ زائغة وفي داخلها يقينٌ بأنه لم يكن مجرد عابر سبيل...
تنقّلت ليلى بين قطع الأثاث الجديدة بعينين تلمعان بالفرح تمرّر أناملها على الوسائد المزركشة وتتحقق من جمال حلمٍ تحقق أخيرًا. ثم جلست قرب زوجها يتبادلان الحديث.

وبينما كان والدَاها يتحاوران، كانت هي جالسةً على طرف الأريكة تنظر إليهما وتبتسم بشرود.. جسدها معهم لكن العقل ظلّ معلّقًا بذلك الغريب الذي ظهر فجأة وساعد أباها..أم أن زائر الحلم بات يقتحم واقعها بهدوءٍ وهيبة؟
ظلّت عيناها شاردتين نحو المكان الذي وقف فيه تتساءل بصمت.
لم تستطع أن تخبر أحدًا بما يدور في داخلها فحتى والدها بدا معجبًا بما فعله، إذ قال:
– أتعلمين يا ليلى؟ ذلك الرجل الذي ساعدني... كان في غاية الأدب والرقي.. صدقًا تلامس قلبي الناسُ المهذّبة التي تتعامل بأدب، وكأنّ كلّ تصرّفاتهم محسوبةٌ لتقع في القلوب.. تجعلك تدعو لهم كلما تذكرتهم.
قال ذلك وهو يملأ كوب الشاي.
رفعت ليلى حاجبيها بفضول:
– نعم صحيح... أهو جارٌ جديد أم أحد معارفك؟
__ لا، لا أعرفه قط كأنه خرج من العدم وحين أردت أن أشكره اختفى بطريقةٍ غريبة!
تجمّدت يد إيليانا على فنجان الشاي فحديث والدها أكّد لها غرابة ما يحدث. ثم قامت بهدوء واستأذنت منهما لتصعد إلى غرفتها، تخشى أن تنطق عيناها بما عجز لسانها عن قوله.
وقفت أمام نافذتها تنظر إلى الشارع الذي خلا من كل شيء إلا من أثره.
جالت بعينيها في أرجاء غرفتها وكلُّ ركنٍ فيها يشهد على اضطرابها الصامت. وفجأةً تذكّرت الحلم:
"أنتظرك على ضفة النهر."

طرأت العبارة في أذنها كما لو أن أحدًا قالها للتو.
نزلت إلى الأسفل بعدما تجهزت للخروج حيث كانت أمها تتبادل الآراء مع والدها بشأن الأثاث الجديد.
– أمي!.. سأذهب إلى سارة، وعدتُها أن نراجع معًا مساء اليوم.
وافقت على طلبها دون تردد وخرجت من البيت بخطواتٍ متسارعة يمتزج فيها ارتباك قلبها بصوتين متضادين؛ طمأنينةٌ غريبة، وخوف يتملك قلبها.
كانت تلتفت يمينًا وشمالًا كلما تقدمت، لا تدري لِمَ لكنها كانت تشعر بأنها مُراقَبة.
طيلة الطريق و الأسئلة تحاصرها:
«هل يجب أن أذهب أم أعود أدراجي إلى المنزل؟ هل سيصيبني مكروه؟ ماذا لو كان شيطانًا يريد أن يستدرجني؟»
لكن الفضول كان أقوى حتى جعلها تمضي في طريقها وقد سلّمت أمرها لله، فطبعها المندفع كان دائمًا يستولي عليها في كل أمورها.
تصبّب العرق من جبينها رغم برودة الطقس وسرت في جسدها قشعريرة كلما تعمّقت في الحديقة العامة.
كانت الحديقة شبه خالية والطريق المؤدي إلى أعماقها يبدو مهجورًا.. تمتمت بالمعوّذات تتحصن بها ودعت الله ألا يُريها إلا خيرًا.
وصلت إلى ضفة النهر أخيرًا...
هدوء غريب رغم أصوات العصافير وخرير الماء، حفيف الأشجار الذي كانت الريح تُراقصه، أصدر صوتا ضغط على أعصابها. تقدّمت بخطواتٍ بطيئةٍ مترددة وقلبها ينبض بعنف لكنها قاومت خوفها بأنفاسٍ متقطعة، تحدّق حولها في كل الاتجاهات لكن لا أحد...
ظنّت أنها كانت تتوهم، أو ربما أصابها الذهان وعليها أن تراجع طبيبًا بدلًا من تصديق ما يحدث.. خانت دمعتها عينيها قبل أن تستدير راجعة، لكن صوتًا سمعته من قبل ألقى عليها السلام...

كاد صوته يخترق صدرها،التفتت ببطء...
فرأته يقف هناك بين الأشجار، يتفيّأ بضوء النهار المتسرّب من بين الأغصان بقامته الطويلة وردائه الأسود الذي يتماوج مع النسيم العليل. كان يرمقها بعينين يطلّ منهما عمقٌ غريب وجاذبيةٌ لا تُفسَّر.
استرسلت في النظر إليه وكلُّ شيءٍ حولها لم يعد خاضعًا للزمان والمكان... لم يعد هناك سوى سؤالٍ واحد يتردّد على لسانها::
– من أنت؟ وماذا تريد مني؟
ابتسم لها ابتسامةً أصابت قلبها ثم قال بهدوءٍ يملأ المكان طمأنينةً:
– شخص خانه قلبه حين نبض لفتاةٍ ليست من عالمه...
تجمّدت وأحاط بها الخوف حتى شحب وجهها ثم قالت بتلعثم:
– مـ... مـاذا تعنى؟
أراد أن يهدّئ من روعها، فقال:
– لا تخافي... لا أريد أن أزرع الخوف في قلبكِ.
ترددت ثم قالت بصوتٍ متقطّع:
– فسّر لي... لماذا تزور أحلامي؟ وكيف ظهرت لي؟ وكيف ساعدت أبي اليوم؟
ضحك بهدوء كأنما يحمل سرّ الكون كلَّه:
– أظنّكِ عندما ترتبكين وعندما يخيّم الخوف عليكِ تلجئين إلى الترتيل!
نظرت إليه بدهشة، هذا يعني أنه كان يراقبها طيلة الطريق وحتى حين شعرت بالخوف وقرأت المعوّذات!
غطّت وجهها بكفّيها وبدأت دموع الخوف تنهمر من عينيها وهي تقول:
– إن كنت تريد أن تؤذيني فأرجوك لا تفعل!

كان بكاؤها مرتجفًا ينبعث من أعماق خوفٍ طفوليٍّ عتيق...
صوتها المخنوق تكسّره الرجفة، وأنفاسها تتعثّر بين كل شهقةٍ وأخرى كأنها تركض بلا قدمين في دربٍ مجهول.
دموعها توسّلاتٍ صامتة لأن يحتضنها الأمان من حيث لا تدري.

ومن بين سكون الغابة، ارتقى إلى مسامعها صوتُ ترتيلٍ شجيٍّ يهزّ أوتار الفؤاد بجماله.

تعثّرت دموعها ورفعت يديها عن وجهها لتراه جالسًا بهدوء يواجه ضوء المساء ويتأمّل النهر بوقار، كفّاه مستقرّتان على ركبتيه وينساب من شفتيه ترتيلٌ صافٍ لأوائل سورة البقرة.
خطت نحوه بخطواتٍ تخوّف لكن كلُّ خطوةٍ كانت تزيل شيئًا من رهبتها وتملأ قلبها طمأنينةً حتى جلست إلى جانبه بحذر.
ثم شيئًا فشيئًا، بدأت تردّد معه الآيات بنبرةٍ مهتزّة في أول الأمر لكنها سرعان ما استقرّت واطمأنّت.

كلُّ آيةٍ تتلوها معه كنسمةٍ تلطف الأجواء وتأخذها بعيدًا عن كل ظلامٍ وخوف.
نظرت إليه فبادلها النظر والتقت عيناهما في نظرةٍ فاقت الكلام والزمان.
في تلك اللحظة لفّ قلبها سلامٌ داخلي وارتياحٌ مدهش.
قطع الصمت بنبرته الهادئة قائلًا:
– إن شئتِ، أذهب الآن.. وأعود حين تهدئين.
انتفضت من رجفة الخوف وقالت بسرعةٍ امتزجت بارتعاش صوتها:
– لا... لا تذهب وددتُ أن أخبرك أن صوت ترتيلك بعث في قلبي طمأنينةً!
ابتسم، ثم قال:
– أأخبركِ عن صوتكِ... وما فعله بقلبي؟

قالت مستغربة:
_أحقًّا ا فعل؟
__إيييه... فعل الكثير.
انسكبت ضحكتها وتبعتها كلماتٌ متلهفة:
_أريد أن أفهم... من أنت؟ وماذا تكون؟ وكيف تأتي إلى أحلامي؟ أريد أن أعرف كل شيء عنك... الآن!
قاطعها بلطف:
__تمهّلي، يا ابنة الإنس.. ستعلمين كلَّ شيءٍ في حينه.
كانت طريقته في الحديث معها لبقةً، آسرةً إلى حدِّ الذوبان في كل لفظٍ ينطق به، وفي كل إيماءةٍ تسكن حركاته.
وفي لحظةٍ خاطفة هدأ ارتجاف قلبها واحمرَّ خدّاها خجلًا فرفعت كفَّها لتُخفي بها فمها كعادتها كلما ارتبكت.
قالت بصوتٍ خفيض، وهي تعتذر:
_أنا آسفة... لكنني ما زلت لم أفهم، ماذا تعني بابنة الإنس؟!
ابتسم ابتسامته العفوية التي لم تُفارق حديثه منذ أن ابتدأ ثم قال:
__أنتِ... ابنةُ الجن إذن؟
_لا... ليس كذلك، لكن...
ثم قطعت جملتها بضحكتها الخجولة، تلك التي سلبت آخر ما تبقى له من مقاومته..بقي ينظر إليها بعينين تعتنقان حضورها
بينما شعرت هي بالارتباك، لا تدري كيف تُقابل هذا الفيض العرم من الكلمات وذلك الحضور الذي يخاطب روحها لا أذنيها.
ودَّت لو تسأله أسئلةً كثيرة، لكنَّ معيَّته في تلك اللحظات كانت تُغنيها عن كل سؤال.

سلبت من عقلها القدرة على ترتيب الحروف.
قالت بهمسةٍ مرتجفة:
– هل أنا... أحلم؟
رد عليها قائلًا:
– وهل في يقظتكِ ما يفوق هذا الحلم؟
ثم مدَّ يده يدعوها لتُصدِّق ما تراه...
فابتسمت تلك الابتسامة المترددة التي تقع بين الدهشة والأمان، وقالت بصوتٍ خافت:
– حتى إن كنتَ وهمًا، فلا أريد صحوةً تُقصيني عنك.
ثم أردفت بصوتٍ مبحوح، تشوبه رهبة اللحظة:
– حسب ما تبيَّن لي... أنك... من القوم الذين لا يُرَون؟
سكت قليلًا قبل أن يقول:
– صدقيني، إن قلتُ لكِ: "نعم" فليس هناك ما يدعو للخوف.
– أيُعقل أنني أُحادث... مخلوقًا من غير طينتي؟
أجابها بهدوء:
– نعم... هذا ما وقع.
قالت وقد اتسعت عيناها دهشةً:
– إذن كنتَ تراني من حيث لا أراك؟
هزَّ رأسه إيجابًا:
– بالفعل... لكن لستُ أدري أهذا بلاءٌ أم رحمةٌ، فلكلِّ أمرٍ حكمةٌ يعلمها الله.

سألته مرةً أخرى بحماس:
– هل هذا شكلك الحقيقي؟
__ ليس تمامًا... لكن لو كنتُ على شكلي الحقيقي، هل كنتِ ستريننني أمامكِ وتتناقشين معي بهذه الطريقة؟
– ليست لديَّ فكرةٌ عن ذلك!
__ لو كنتُ على شكلي الحقيقي، لكنتِ تسمعين كلامي بصورةٍ حسِّية؛ إما همسًا أو في أغلب الأحيان كلامًا يُترجم في رأسكِ، وليس بهذا الشكل المادي.
– بعيدًا عن كل شيء... ما السبب الذي جعلك تظهر في أحلامي، ثم تظهر لي في اليقظة؟
أخفض رأسه وخرج صوته كاعترافٍ لم يعد يريد كتمانه:
__ لا أعلم تحديدًا، لكن... أحدثتِ في قلبي شيئًا لم يكن ينبغي له أن يكون.
ضمّت حاجبيها وقالت:
– وما هو هذا الشيء؟
ابتسم قائلا:
__شيءٌ داخلي... لم يكن متوقعًا ولا مخططًا له.
هربت منها كل الكلمات فالحقيقة التي كانت تلاحقها في الأحلام قد اتخذت شكلًا ماديًا، وتجرّدت من كل الشكوك.
وارتبك قلبها بين رهبة الإدراك وحلاوة اليقين.
وبينما كان حديثهما يمتد، كانت الشمس تغيب بخجلٍ خلف الشفق الوردي، تُلثِّم الأفق، والزمن يمرُّ على أطراف الأصابع دون أن يشعر به أحد.
رفعت عينيها، فتنبَّهت إلى أن الضوء الأخير يوشك أن يرحل وأن الغابة من حولها تستعدُّ للعتمة.
عادت أنفاسها تتسارع وارتجفت نظراتها بين الأغصان والظلال، امتزج في نبرتها الذهول بالحذر والرهبة بالدهشة وهي تقول:

– يا إلهي... لقد تأخَّر الوقت كيف سأعود وحدي؟
والطريق خالٍ وطويل... طويلٌ جدًا.
بدأ قلبها يقرع أبواب الخوف، ليخترق صوته ارتجافها قائلًا:
__ اهدئي... يمكنني أن أنقلكِ إلى منزلكِ.
– ماذا؟! يستحيل ذلك، كيف أعود مع رجلٍ غريب؟هل فكَّرت في عاقبة الأمر وتوابعه؟
__ لن يراكِ أحد... ولن يراني أحد.
تشابكت حيرتها مع السماء التي أوشكت أن تكتسي بالعتمة.
– كيف؟!
__ هي لحظات وستكونين في غرفتكِ... إن وافقتِ.
نظرت إليه لا تفهم تمامًا ما يعنيه، لكن رفضها سبق مواقتها..
مدَّ يده نحوها برفق:
__ أتأذنين؟... أعدكِ، ستكونين في برِّ الأمان.
تفرَّست ملامحه لكن عينيه لم تعودا تُخيفانها.
ببطءٍ وضعت يدها بين يديه فاحتواها بردائه، وبين غمضة عينٍ وفتحها وجدت نفسها في غرفتها.
كانت الستائر تُداعبها نسائم المساء، وضوء المغيب يتسلَّل خافتًا من النافذة. نظرت حولها بذهول، رافضةً تصديق ما حدث؛ فهذه المرَّة لم تكن نائمة،هذه المرة كانت مختلفةً تمامًا.أخذت تتحسَّس الوسادة والسرير والجدران بأطراف أناملها... كلُّ شيءٍ كما تركته إلا قلبها فقد عاد متغيِّرًا ولم يعد ينتمي إلى هذه الغرفة وحدها.

هرعت إلى الحمّام تتوضأ، ورمت بحفناتٍ من الماء على وجهها لعلَّها تستيقظ من حلمٍ طال!
فرشت سجادتها وأقامت صلاتها، تلك التي كانت بمثابة بوصلتها؛ تُلملم شتات روحها وتحفظها من كل ضياع.
وفي سجودها أكثرت من الدعاء تسأل الله أن يصرف عنها كل مكروه وأن يجعلها دائمًا في عنايته، فلا يضرُّها مخلوق ولا يُبكيها قدر.
وبعدما أدَّت فريضتها جلست ترتِّل القرآن، تُطيل المدَّ في البدل بخشوعٍ يُرتِّب نبضات قلبها بينما كان عبيرُ مسكه لا يزال عالقًا بأنفها...
وفجأةً انفتح باب الغرفة بعنف فإذا بوالدها واقفٌ أمامها وقد ارتسمت الدهشة على ملامحه.
__ متى عدتِ أمكِ في المطبخ تكاد يُغمى عليها من القلق! تقول إن الوقت قد تأخَّر وأنتِ لم تعودي بعد..
كانت ستبعث محمودًا ليصطحبكِ من عند صديقتكِ سارة لكنه رفض حتى يستحم أولًا.
نظرت إليه كمن فُجع بكشفٍ غير مقصود.
__ لا... لا حاجة لذلك... أنا.. أنا هناعدتُ منذ نحو نصف ساعة لكن يبدو أنكم لم تنتبهوا لعودتي.
قالتها بتلعثم تحاول أن تُقنعه وتُقنع نفسها أكثر، بأنها لم تقطع مسافات الطريق في لحظة.
تجنَّب والدها الإكثار من الأسئلة ثم أغلق الباب بهدوء.
ارتجفت وهي تُحدِّث نفسها:
«يا إلهي... ما هذا الذي يحدث معي؟ هل يجب أن أخبرهم؟ أم أتكتم على الأمر؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟!»

نزلت درجات السلم بخفة فراشة قلبها لا يزال يرفرف بما لا تستطيع تسميته.
دلفت إلى المطبخ، حيث كانت أمّها تنشغل بتحضير العشاء ووالدها يقف جوارها يواسيها بصوته الحنون:
_إطمئني يا ليلى لقد صعدتُ منذ قليل ووجدتها في غرفتها، يبدو أنكِ لم تنتبهي لعودتها.
تنهدت ليلى بارتياح وهي تمسح يديها وقبل أن تنطق بكلمة دخلت إيليانا تفيض منها بهجةٌ غير مفسَّرة.
_أمِـــــــي... أنا في غرفتي، وأنتِ هنا قلقة عليّ؟
نظرت إليها أمها بدهشة ممزوجة بفرح وقبل أن تسألها متى وكيف عادت، سبقتها إيليانا قائلة :
_لم تريْني حين عدتِ؟.. لكنني ألقيت السلام ومررتُ من البهو كأي أميرة تدخل قصرها... يبدو أن فرحتكِ بالأثاث الجديد أنستكِ وجود العالم!
أتبعت كلامها بضحكات تخفي حقيقتها،لتشاركها ليلى الضحك:
_واللّهِ لست أدري.. لكن هذا وارد!
في تلك اللحظة دخل محمود وهو يُجفف شعره وما إن وقعت عيناه على أخته حتى صاح قائلا:
_إيليانا أيتها الحقيرة، أنتِ هنا حقًا؟!.. أمي كانت على وشك إرسال بعثة إنقاذ من أجلِك!
قهقهت وهي ترفع حاجبيها تمثيلًا للدهشة:
_أنا هنا منذ نصف ساعة يا سيّدي، لكن يبدو أن الماء في أذنيك منعك من سماع خطواتي!

في سكون الليل، وبعدما استعدّ الجميع ليحطّوا بأجسادهم على الأسِرة ويستسلموا للنوم، كانت هي في غرفة أختها ميلينا مستلقيةً إلى جوارها تحت الغطاء ذاته. احتضنتها بذراعها برفق وضمّت جسدها الصغير إلى صدرها...
كان ضوء الأباجورة الخافت ينساب على ملامحهما يرسم ظلّيهما على الجدار ويُشارِكهما قصةً قبل النوم...
مرّرت إيليانا أصابعها بين خصلات شعر أختها وهي تقول:
— الليلة سأقصّ عليكِ قصة الأميرة ورفيقها السري.
أومأت ميلينا بنعاسٍ طفولي وهي تسأل كلماتها المعتادة:
_ كم تحبينني؟
__كعدد النجوم في السماء..
وبصوتٍ هادئ يُغنّي الحكايات للنجوم بدأت تسرد لها:
"في قديم الزمان، كانت هناك أميرة تسكن في قلعةٍ تقع في أعماق غابةٍ خلّابة وهادئة. كانت تحب الجلوس وحدها كل مساء، تجمع الأزهار، ويتهدّل ثوبها فوق الأعشاب. لم يكن جمالها يختلف عن جمال الزهرات والفراشات التي كانت من حولها..."
قاطعتها ميلينا بعينيها المتّقدتين فضولًا:
— ولمَ كانت وحدها؟ أما كان لها صديقات؟
ضحكت إيليانا قبل أن تقول:
— كانت تحب العزلة يا حبيبتي قلبها ميّالٌ للوحدة... والآن دعيني أُكمل، فقد وعدتِني ألا تقاطعي.
أمالت ميلينا رأسها بدلال:
— حسنًا، آسفة... أكملي، لن أقاطِعكِ، أعدكِ.
ابتسمت ومسحت على شعرها، ثم تابعت:
كانت الأميرة تعشق الفراشات... تلك الكائنات الرقيقة التي تحوم حولها كل مساء، تملأ وحدتها بحفيف الأجنحة، وتهمس لها بألوانها أن الجمال لا يكون شكلًا فقط.

لكن ما لم تكن تعلمه الأميرة، أن هناك من كان يراها من بعيد..
عينان خفيتان تراقبانها بصمت وقلبٌ مجهول ينبض بها دون أن يعرف اسمه أحد.
لم يقترب، لم يفصح، لم يُزعجٍ سكونها، كان فقط هناك..
مثل ظلّ شجرة يحتضن زهرةً في الظهيرة.
أحيانًا كانت تشعر به... بنظرة تلامس روحها، حتى جاء اليوم...
اليوم الذي قرر فيه ذاك الغريب أن يتقدّم خطوة، أن يلوّن أيامها ويجعل فصل الربيع ينزل على قلبها ويعلن عن وجوده بالحضور."
وحين وصلت إلى هنا لم يُكمل الصمت الحكاية كانت أنفاس ميلينا قد هدأت... غفت في حضن أختها.
قبّلتها على جبينها وغطّتها بعناية ثم نهضت ببطء وغادرت الغرفة.
عقلها وقلبها كانا مسلوبين منها... يبدو أن هناك من قام بسرقتهما، بل بلطفٍ أغراهما على الرحيل إليه دون مقاومة تُذكر.
كل شيء من حولها كان ساكنًا إلا تلك الجلبة التي تعصف داخلها... توقّفت عند عتبة الشرفة نظرت إلى السماء
المرصّعة بالنجوم وداخلها يضجّ بأشياء كثيرة، ربما جاء الوقت الذي تُصبح فيه الحقيقة أعجب من الخيال.
دلفت إلى المطبخ الذي كان شبه معتم، وألقت نظرة سريعة نحو الزوايا، تناولت قارورة الماء وسكبت قليلًا في كأسٍ زجاجي ثم شربت منه على مهل... صعدت إلى غرفتها
وأسندت ظهرها على الباب فور أن أغلقته، ارتسمت ابتسامة شرود على محياها لتعود بذاكرتها إلى ما جرى على ضفة النهر قبل ساعات... عبير المسك الذي غلّف الهواء، رغم أنه ثقيل إلا أنه طيب...

صوته حين ألقى السلام، الطمأنينة التي غمرها بها حين ارتبكت وتلك التلاوة الشجيّة، رغم الغرابة كان ذلك اللقاء أجمل ما مرّ في حياتها.
قفزت على السرير مستلقية على بطنها التقطت هاتفها بسرعة بدأت تبحث مرة أخرى لتُشبع فضولها، والابتسامة العريضة لم تفارقها.
وبينما هي كذلك تتوه بين أفكارها وضوء شاشة الهاتف ينير وجهها رفعت عينيها نحو الساعة لتجدها الرابعة فجرًا!
_ياللهول مبال الوقت يمر بهذه السرعة!..-شهقت بخفوت- لدي عرض للمعلمة غدًا.. لم أراجع، وتأخرت على النوم.

أغلقت الهاتف على عجل، ضبطت المنبّه على وقت صلاة الفجر، واحتضنت بطانيتها....وبمجرد أن أغمضت عينيها وقبل أن يسرقها النوم العميق شعرت بعودة تلك الأنفاس الساخنة لكن هذه المرة قريبة جدا لدرجة أنها لامست أذنها ورقبتها من الخلف...حبست أنفاسها و شُلّت حركتها عاد شعور الخوف مجددا ولم تجرؤ على الإلتفات.
سمعت همسا حثيثا يقول «ليس هنالك مايدعو للخوف»
ظلّ قلبها يدقّ بقوة ..
ثم شعرت بأنامل طويلة تنسحب على خصلات شعرها ربما تهدهدها أو تتوسل إليها بالثقة والنوم المطمأن.
أغمضت عينيها أخيرًا.. لا لأن الطمأنينة سكنت قلبها بل لأن التعب من الاضطراب غلبها.وما إن غفت حتى بدأ الحلم، أو هكذا ضنت..
كانت تمشي بثوبٍ طويل مزيّن بخيوط ذهبية تجره خلفها

الغابة من حولها لم تكن تُشبه ما ألفته من قبل؛ أشجارٌ شاهقةٌ بأوراقٍ ضخمة تتوهَّج بضوءٍ أخضر زمرديٍّ يتخلَّلها وزهورٌ بألوانٍ وأشكالٍ لم ترَ مثلها قط، تفوح منها رائحةٌ عطرة تعبق المكان.
أمَّا خطواتها فلم تكن تُحدث أثرًا ولا صوتًا وكانت تمشي وحيدةً، ليس برفقتها أحد.
وبعدما شيئًا من الكثير، امتدَّ بصرها حتى استقرَّ على كهفٍ في الأفق.
كان يبدو منحوتًا في قلب الجبل، تُحيط به صخورٌ كبيرة تصطفُّ كدرجاتٍ نحتها الزمن، طبقةً فوق طبقة متفاوتة الارتفاع بلونٍ رماديٍّ يميل إلى الأزرق الباهت وتكسو بعضَ مواضعها خيوطٌ من الطحالب الخضراء.
ومن بعيد بدا لها مدخله مفتوحًا لا يُخفي نفسه بل يُلوِّح لها. انبعث شعورٌ غريب دفعها نحو الكهف دون مقاومة..
خطت بحذر ولم تلبث أن اقتربت حتى وقع بصرها عليه جالسًا عند عمق المدخل.
كانت أشعةُ الضوء النافذة من فتحةٍ في سقف الكهف تُضيء ملامحه، وتتسلَّل بانسيابٍ هادئ فوق كتفه ووجهه بينما ظلَّ النصف الآخر من جسده مغمورًا في الظلال.
كان يجلس على صخرةٍ عريضة كأنَّ الطبيعة اختارتها بعنايةٍ لتليق به.
قامته منتصبة في هيئةِ من استِراح بعد عناء، ورداءٌ أحمر طويل ينساب فوق الحجر وتتدلَّى من كتفيه شرائطٌ سوداء قاتمة تتحرَّك برفقٍ مع النسيم.
كانت هيئته تُشبه محاربًا من زمنٍ سحيق، يرتدي درعًا يكسو صدره.

يلمع على درعه رمزٌ أحمر وعلى ركبتيه سيفٌ طويل، يُمرِّر عليه قطعةً من القماش في عنايةٍ واضحة، ومع كلِّ مسحةٍ كان السيف يزداد بريقًا حتى بدا وكأنه لا يكتفي بعكس الضوء، بل يُطلق من داخله وميضًا غريبًا.

رفع نظره إليها بنظرةٍ تُربك القلب قبل أنٍ تبلغ العين.

أمَّا عيناه هذه المرَّة فكانتا مختلفتين قليلًا؛ يتوسَّط كلًّا منهما بؤبؤٌ ضيِّقٌ وطويل، يشبه الشقَّ العمودي في عيون القطط يحمل حدَّةً لم تُخفِ جاذبيته الآسرة.

وقفت عند الحدِّ الفاصل بين الظلِّ والضوء ولم تكن تفصلها عنه سوى خطوةٍ واحدة لكنه بقي ساكنًا لا يدعوها ولا يصدُّها.

وبإرادةٍ مسلوبة منها اقتربت منه أكثر، وحين توقَّفت أمامه أعاد السيف إلى غمده، ثم بسط كفَّه نحوها قائلًا:

__ أهلًا بك.. تفضَّلي.

أشار إليها أن تجلس أمامه، ففعلت ثم نظر إلى يديها المرتجفتين وقال وهو يمدُّ يده:

__ أتسمحين؟

بعد أن سلّمته يدها شعرت بطاقةٍ دافئة تنساب عبر كفِّها وتستقرُّ في أعصابها بهدوءٍ ساحر، سرى وخزٌ خفيفٌ من أنامله حتى بلغ قلبها.

رفع يدها برفق ووضعها على صدره ثم قال:

__ لم أقصد اقتحام عالمك... وليس من عادتي ذلك.. كان الفضول وحده ما شدَّني إلى اكتشافك لكي كلَّما حاولت الابتعاد وجدتُ نفسي مصابًا بداءِ الشوق الذي لم يكن له أن يُصيبني.

طأطأت رأسها وارتبك طرفها، ليتابع:
— أخبريني!... لِمَ التزمتِ الصمت؟.. أنا أريدُ علاجًا للداء الذي أصبتِني به!
استغرقت في صمتها ليجيب نفسه على نفسه:
— أما أنا، فلم أجد دواءً سوى نظر العيون إلى العيون.
قالت محاولة التملّص من الحديث:
— لا زلت لا أعرف الكثير عنك... الغرابة ما زالت تلازمني، لكن... يسرّني أن أكتشف المزيد!. ثم تابعت والخجل يصاحب ملامحها:
— اعذرني... ليست من عادتي محادثة الأشباح بهذا الشكل ولا حتى غِرباء عالمي.
قهقه ثم مال قليلًا نحوها وقال بعينين تلمعان بدهاء العارف:
— وهذا ما أسرني... أنكِ تخافين من الأشباح ثم تجلسين أمام واحدٍ منهم بكل هذه الشجاعة!.. لكن أعدكِ أنني لن أُصدر أصواتًا غريبة في الليل، إلا إن شربتُ شايًا قويًّا!
ارتبكت وعضّت شفتها السفلى، تردّدت الضحكة على شفتيها ثم أفلتت منها:
— على الأقل لا تشرب الشاي ليلًا.. أرجوك!
انحنى قليلًا كأنّه يسرّ لها بسرٍّ صغير وقال:
— أعدكِ... لكن لا تلوميني إن بدأتُ بالغناء في منتصف الليل!، تبادلا الضحك ثم ساد بينهما صمتٌ دافئ..
تراجع خطوة ليقف منتصبًا ومدّ كفّه إليها قائلًا:
_والآن... أتسمحين لي أن آخذكِ في نزهة؟
مدّت يدها بتأنٍ، وهي تقول:
— حسنًا... يااااا...

قاطعها بلطفٍ وهو يضمُّ أصابعها إلى راحته:
ـــ رغم أنني أخبرتكِ باسمي سابقًا، لكنني سمعت أن البشر كثيرو النسيان... نِيوار، اسمي نِيوار.
تلعثمت وهي تحاول تكرار اسمه، كأنها تتذوّقه للمرة الاولى.
ابتسم قائلا:
ـــ نعم... نِيوار. أحسنتِ نطقه رغم تردّدكِ، أعجبني كيف لامس شفتيكِ.
نظرت إلى يده التي بدأت ترتفع بها، فإذا بقدميها لم تعودا تلامسان الأرض.
كان الهواء أخفَّ والدهشة أثقل من أن تُفسَّر.
ـــ اسمك... لم أسمع به من قبل.
ردّ مازحًا وهو يرفعها إلى الأعلى، حيث السحب:
ـــ ربما لأنه نادر... وأنا لا يليق بي إلا النادرون أمثالكِ.
رفرفت جفناها وهي تراقب العالم من علوّ:
ـــ وهل تعرف اسمي أنا؟
ترك إجابته معلّقة في مهبِّ احتمالٍ لذيذ:
ـــ ما رأيكِ؟.. هل من الممكن أن أكون أعرفه؟
ردّت بحماسٍ يزيّنه الفضول:
ـــ لا أدري...
نظر مباشرةً في عينيها ثم قال:
ـــ اسمكِ لا يُقال... بل يُؤنَس به ويُسكَن إليه... لكن نعم أعرفه.
كان لكل كلمةٍ ينطق بها وقعٌ خاصٌّ على قلبها، لكنها سرعان ما قطعت السكون الذي خيّم بينهما بسؤالٍ مفاجئ:
ـــ لحظة... لحظة! قلت إن اسمك نادر ولا يليق بك إلا النادرون أمثالي... ماذا تقصد بهذا؟
ثم أطلقت ضحكةً قصيرةً يغلب عليها الاستغراب وقد بدا فضولها أكبر من دهشتها.

وقبل أن يجيبها، عاجلته كعادتها حين يتقدّم قلبها على أفكارها:
__ لكن مهلًا... هل نحن نطير؟!
كانت تتلفّت حولها وعيناها تزدادان اتساعًا من أثر الدهشة:
__ يا إلهى... نِيوار... أنا أطير! ما هذا؟.. هناك... ما ذلك الذي يلمع! وهناك... أهو بحر؟ أم... سماءٌ مقلوبة!
كان يراقبها بصمت يحدّق فيها، تائهًا في كل تفاصيلها.
وبين السحاب والغيوم لاح جبلٌ شاهق،صخوره ضخمةٌ ومهيبة يغطي قمته ضبابٌ كثيف.
ثم خمد صوت حماسها قليلًا وارتفع عواء الريح حولهما وهما يلامسان السحاب فوق قمّة الجبل.
نظرت إلى حيث أشار نِيوار فإذا بها ترى قلعةً ضخمة تلوح في الأفق، قبابها تتلألأ بلونٍ أحمر واهج.
قالت بانبهار:
__ يااااه... سبحان من خلق فأبدع... لم أرَ شيئًا كهذا من قبل... أيُّ عالمٍ هذا الذي تُخفونه عنا؟
نظر نِيوار إليها دون أن يلتفت إلى القلعة ثم قال بنبرةٍ هادئة أقرب إلى السرّ:
__ قلّةٌ فقط يرونها من هذا المكان.. إنها محجوبةٌ عن أعين كثيرين، لكنكِ الآن ترينها.
التفتت نحوه وعيناها تطرحان أسئلةً أكثر مما ينطق به لسانها.
تابع وقد اقترب منها خطوةً أخرى:
__ ليس لأنكِ عبرتِ الجبل... بل لأنكِ دخلتِ شيئًا أعمق.
ساد بينهما الصمت ولم يبقَ سوى عواء الريح يحرّك رداءه ويعبث بخصلات شعرها.

ثم قطعت السكون بسؤال:
— وهل تسكنها وحدك؟
هزّ رأسه مبتسمًا، ونظر بعيدًا نحو القلعة:
— لا... بل أعيش بين عشيرتي وحاشيتي، وكبار قادة الجن ذوي السلالة والمقام. لكن رغم ذلك دائمًا ما أفضل مكانًا لا تطاله الضوضاء ولا يصل إليه الرفاه أو ما شابه.
ثم تابع، وكان يُفترض أن لا يتابع:
_أقضي أوقاتي على نداء المهام،أقود الجيوش، أواجه، أُخطّط.. فحروبنا مع الشياطين لا تنتهي، الحياة عندي سلسلة على هذا النحو.. ولا بد أن تكون لي مواقيت للعبادة لا تُشبِه زمن عالمكم.. فالإجتهاد في العبادات والتقرب من اللّٰه هو النور الذي يشحن طاقتي وأتقوى به.
سكت قليلًا، ثم أكمل:
_لا أتردّد كثيرًا إلى عالم الإنس.. المسافات فيه مشوبةٌ بكثافة الطين، لكن حينما أزورها أنجذب نحو ذكر أو دعاء، أحب أن أرى تلك الترددات التي تنبعث منكم حينما تدعون بدعاء صادق وقلب حاضر وخاشع، أستطيع أن أميز ذلك فالدعاء الصادق نراه نحن كجن مثل سهام من نور يصعد إلى السماء،وحتى تلك الدموع التي تنزل من خشية اللّٰه في عتمة الغرف أو في المساجد، وأكثر ما يروقني حينما أسمع آيات اللّٰه تُتلى، فتلك الترددات النورانية التي تنبعث من كلام اللّٰه تشحنني طاقةً وسكينةً..
قالت مذهولة:
_أحقا هذا ما تراه؟
_نعم.. ماحدثتك عنه يعادل ذرة مما أراه..
_لكن نحن لا نرَ شيئا من هذا.
_بالطبع لن ترَوْ، فلحجاب الذي خلقه اللّٰه لكم يجعل نظرتكم تقتصر عن العالم المادي فقط.

_ماذا تقصد بالحجاب؟
_أقصد أنكم ترون جزءًا واحدًا من الوجود، بينما هناك وجود آخر لا تستطيعون إدراكه بحواسكم، أي خارج حدود الإدراك البشري.
فيما كانت لا تزال تستوعب كلامه، ابتسم بخفةٍ يعترف بشيء لم يُفصح عنه تمامًا:
_لكنني... رغم كل ما أُوكل إليّ، لم أتذكر يومًا أني شعرت باضطرابٍ في قلبي ولا برقّةٍ تُربكني حتى مرّت لحظة من الزمن ليست كسابقاتها..
رفع كتفه بتنهيدة لم تكن شكاية بقدر ما كانت وصفًا لحقيقةٍ خلت من التلوين:
_كلّ شيء في يومي محسوبٌ بدقة الوقت التنقلات، الحركات.. لم يكن في قلبي للونٍ خارج الأبيض والأسود..
لكن..
قالها ببطءٍ يعترف بشيءٍ لنفسه أولًا:
_بخطوات غير مخطط لها مررت بأنثى ما، لا تحمل سيفًا أو رمحًا فسددت في أكثر الأماكن حراسةً دون أن تستأذن.
ترك عبارته تنزلق برفق نحوها دون أن يسمّيها.
خفضت بصرها تخشى أن ترى ما يتكشّف فيه من صدقٍ لا يمكن مداراته لتقول:
_ما فهمتُه من حديثك أنّك تتحدث كثيرًا بالكلام المشفّر، وأنا لست ممن يكثرون التحليل لذلك أفضّل الكلام الواضح غير المغلف حتى يتسنى لي الفهم داخل حدود عقلي البشري.
مدَّ يده نحوها مجددًا.. وبينما كان يحملها محلّقًا بين السُحب، حتى رنّ المنبّه لتستيقظ لصلاة الفجر فتحت عينيها بهدوء، لتجد نفسها في غرفتها وضوء القمر يتسلّل عبر

النافذة، ثم توجَّهت إلى الحمّام ووقفت أمام المرآة تتأمل وجهها وشعرها المتناثر، ثم ابتسمت ابتسامةَ مَن عاد من عالمٍ آخر، لا من حلمٍ عابر.
وبعد أن أدّت صلاتها رفعت يديها بتضرّع:
«اللهم بصِّرني بخير الأمور وشرِّها وطمئنِّني إلى ما اخترته لي. يا رب لا تتركني لعقلي وحده ولا لخوفي ولا لهواي، خذ بيدي برحمتك ودلَّني عليك كما تُدلُّ نملةٌ ضريرةٌ إلى حبَّة سكر، فمن دللتَه لا يضيع، ومن رضي بك لا يخيب.»
وبعد أن أتمَّت دعاءها، داعب وجنتيها هواءٌ دافئ وانزلقت إلى أذنها همسةٌ بصوتٍ مألوف تردِّد:
ـــ آمين...
نظرت حولها يمينًا ويسارًا، لكنها لم ترَ أحدًا. غير أن الخوف هذه المرة لم يزرع نفسه في صدرها؛ فقد تيقَّنت أن نِيوار لم يعد حلمًا عابرًا.

♡♡♡

في عالم لا يصل إليه إلا مَن وُهِب البصيرة أو حُمل إليها بقدرٍ مكتوب.
وتحديدا في قلعة" الملك الأحمر مِلكابا " خادم يوم الثلثاء الذي يرتدي زيا ملكيا أحمر قاني مع تاج متألق بأحجار لامعة تومض بنور يشبه ألسنة اللهب، في دستوره لا يُرفع صوتٌ إلا بالحكمة ولا يُتخذ قرارٌ إلا بعد مشورةٍ مع شيوخ النخبة في مجلسٍ يُهاب حضوره ويُخشى تغيّبه.
تسير الأمور وفق توازن صارم ويُحاسب كل جنيّ على مهامه وتحركاته..
ولأول مرة منذ قرون...تُثار الهمسات حول أحدهم، ورغم أنه من صغار النخبة إلا أن تغيبه في الفترة الأخيرة يُحسب عليه .

داخل القاعة الكبرى التي تُعقد فيها الاجتماعات المصيرية وقف نِيوار أمام مجلس الحكماء، بين أعمدة شاهقة نيران حمراء خافتة ونقوش غائرة تمثل أختام السلالة، كان الهواء مشبعًا بهيبةٍ قديمة و عيون المستشارين مُثبتة عليه تراقب وتقرأ كل ذرة من انفعاله، حيث كل كلمة يجب أن تُدرس جيدا قبل أن تُلقى على المسامع.
أحدُ الحُكّام بصوتٍ باردٍ نافذ، قال:
_ لقد لاحظنا تغيّراتٍ طرأت على تصرّفاتك في الآونة الأخيرة، تغيّبت كثيرًا عن مجلسك، وتخلّفت عن المهام الموكلة إليك حسب ما وصلنا من تقارير، وكأنك لم تعد معنيًّ ا بالأمر! نريد توضيحًا عمّا جرى.. لك الإذن، نحن في الاستماع.
أخفض نِيوار بصره لحظةً، يخفي في داخله ارتجافًا لم يُظهره، ثم رفع عينيه بثباتٍ مدروس وقال:

_لم أتغيّب إلا حيث لم أُدعَ... وما كان مني إلا إلتزام الصمت حين لا يُطلب الكلام.

قال أحدهم بصرامة:

_ لكن ما عهدناك هكذا.. دائمًا ما كان حضورك قويًا وجليًا بيننا وحتى دون استدعائك!

راقبهم بعينين يخفي خلفهما آلاف الصور لوجهٍ بشريّ، تلك التي بدأت تُغيّر إيقاع الزمن داخله. لم يكن يستطيع البوح، فالقوانين صارمة والتواصل مع الإنس دون إذن يُعدّ تعدّيًا صارخًا يُعاقب عليه ولا يُسمح به إلا في حالاتٍ خاصة.

ولذا اكتفى بأن يصمت في ما يجب أن يُقال وبرّر بما يجب، وإن لم تكن تبريراته غير كافية.

خرج من القاعة وترك صدى الهمسات يتردد خلفه:

_هناك خطب ما في هذا الفتى!

لكنّه كان يعلم أنه وإن لم يُكشف بعد، فإن العاطفة التي اشتعلت داخله لن تبقى سرًا إلى الأبد.

♡♡♡

كانت تمضي أيامها بين الواقع واللاواقع... في الفترة الأخيرة لم تعد ترى الأشياء كما يراها الآخرون.

الوجوه المألوفة صارت باهتة، قلبها يستدير نحو نداءات ولقاءات تخصها وحدها، "نِيوار" ذاك الاسم الذي بات يطرق بابها ويزورها في الحلم واليقظة.

في إحدى الليالي الروتينية التي اعتادت فيها أن تُنهي يومها على قراءة وردها، جلست على مكتبها الخشبي الصغير تُعيد مراجعة متون التجويد من الكُتيّب الصغير الذي أحبّته منذ أن أهدته لها معلمتها.

صفحاتٌ ذابت من كثرة ما لامستها أصابعها.. وحين انتهت من المراجعة، إتكأت بظهرها إلى الكرسي وأغمضت عينيها بخشوع ترتّل من سورة آل عمران، تلك السورة التي أتمّت حفظها مؤخرًا بمساعدة من لم يكن عابرًا، ذاك الذي لم يعد غريبًا بل صار جزءًا من تفاصيلها اليومية، صوتًا يُسكن سكونها وحضورًا تعرفه قبل أن تراه.

تابعت ترتيلها بصوتٍ خفيض، لكن نسمة دافئة باغتتها فجأة هزّت خصلات شعرها، ففتحت عينيها ببطء لتجده واقفًا هناك في الزاوية، كأنّه خرج من سطرٍ كانت تكتبه للتوّ في خيالها.

أسند ظهره إلى الحائط، ذراعاه متقاطعان ونظراته مثبتة عليها بهدوءٍ غامر.

قفزت بسرعة نحو الباب وأحكمت إغلاقه بالمفتاح، ثم عادت لتجلس على الأريكة القريبة منه متنهّدة:

_نيوار... أصبحتَ تظهر عشوائيًا! ألا تخشى أن يدخل أحد من عائلتي فيراك؟

جلس قبالتها على الأريكة نفسها، ثم مال برأسه نحوها وعيناه تلمعان مازحًا:

_أممم... وإن رأوني يا تُرى ماذا سيفعلون بكِ؟

ثم أضاف بعد أن جحظت عيناها تفكر:

_اطمئني إيليانا، لن يراكِ أحد كما أراكِ... فكيف يرونني؟

سكتت.. فالإجابة بعثرت حيرتها، ثم قالت بدهشة:

_أيعني هذا... أنك لا تظهر إلا لي؟

__ربما أستثنيكِ في الظهور لأنّكِ الوحيدة التي أيقظتِ شيئًا لم يكن مسموحًا له أن يستيقظ.

عيناها راحتا تجولان في الغرفة،نظرة إلى المصباح الخافت أخرى إلى كتيب التجويد على الطاولة،و أخيرًا عادت إليه بنظرة من رتّبَ أفكاره ليتكلم من جديد. ثم بدأت تقص عليه تفاصيل يومها وكيف مضى.
كانت هذه هي عادتها منذ أن دخل عالمها وألفته.
بينما كانت تثرثر عن كل شيئ وحتى عن أصغر التفاصيل، كان هو جالسًا أمامها ويداه متشابكتان برخاوة في حجره، يمتعها بحسن الإصغاء كأنها القصيدة الوحيدة التي يُجيد فهمها. يبتسم لا حين تُضحكه كلماتها فقط بل حين يتسلل الفرح إلى صوتها فيضحك هو لأجلها.
كلما اتسعت عيناها حماسًا اتّسعت عيناه أيضًا، حكت له عن صديقاتها في حلقة القرآن وأحاديثهن وعن معلمتها التي أثنت على أدائها وكيف تشعر بأنها تتقدم أكثر في الحفظ.. حركت يدها وهي تشرح فتتبع حركة يدها بعينيه، لا لأن الحركة غريبة عليه بل لأن من قامت بها تُعد فاتنة قلبه ولأن كل شيء منها أصبح يملك طريقًا خاصًا إلى انتباهه. وحين انتهت من حديثها قالت بنبرة بريئة لا تعلم أثرها عليه:
_الفضل لله أولًا ثم لك.. نيوار.. أشعر أنك عون حقيقي، سخّرك الله لِي، أنا ممتنة لك كثيرًا.
سكنت قليلا ثم رفعت بصرها إليه بخجل لتجد عيناه معلقتين بها، لم يقل شيئًا لكن صمته كان اعترافًا لا يحتاج إلى كلمات.
أومأ ولم يُجب إلا بابتسامة هادئة. ليستأذنها قبل أن يختفي، لكنها لم تُسعف نفسها بالسؤال:
_لماذا الرحيل الآن؟

لا تزال تودّ الحديث.. لا تزال تريده إلى جوارها، إلا أنه غاب قبل أن تكتمل على لسانها كلمات السؤال،تتسرّب شيءٌ من الحزن إلى قلبها كنسمةٍ باردة.. سارت إلى سريرها وابتسامة صغيرة تعانق ملامحها.
ومع مرور الشهور أصبح حضوره أمرًا روتينيًا بل ضروريًا بالنسبة لها..
أحيانًا تلمحه في الطرقات، في الزوايا الهادئة من يومها، في الأماكن التي كانت تعبرها وحدها، كان يغيب عنها فقط حين يُستدعى لأداء مهامّ ما في عالمه لكنّه لا يلبث أن يعود، دائمًا يعود..
أتقن العناية بها دون أن يُشعرها بثقلها، يساندها في حفظ القرآن فصارت الآيات تنساب على لسانها بسهولة وعذوبة وكان يُحذّرها من الصديقات اللواتي يُخفين الغيرة خلف المجاملات وما تخفيه نواياهنّ.. كثيرٌ من المواقف حدثت وكان نِيوار فيها بطلها، مُنقذها والصوت الذي يرشدها حين تَضل والنور الذي يسبقها إلى الفِطنة.
حتى مع شقيقها محمود حين شعرت بأن أصدقاءه لا يُبشّرون بالخير نبّهته، لكنه لم يُصدّقها، وحين انكشفت له حقيقتهم لاحقًا عاد يُحدّق فيها بدهشة، وكيف أن كلامها أصاب..
وفي موقفٍ آخر مع والدتها حين بدأت تُقارب جارةً جديدة. سكنتْ حديثًا، تبدو مهذّبة ولطيفة، لكن نِيوار أخبر إيليانا أنها يجب عليها أن تصرفها من البيت وتقطع علاقتها مع أمّها على الفور، فهي تمارس السحر، ودخولها إلى البيت سيجلب خُدّامها من الشياطين.
لم تُخبر أمها بالحقيقة كاملة، إستخدمت الحذر والحكمة في الإقناع وأصرّت بأدب ألا تدخل الجارة إلى البيت. ومع الأيام بدأت السيدة ليلى تلاحظ أمرًا غريبًا!

نساءٌ كثيرات يترددن على بيت تلك الجارة، وأقاويلٌ انتشرت في الحي تؤكّد ما لم ترد تصديقه.
فاكتشفت أن ابنتها كانت محقّة في شعورها تجاهها.

♡♡♡

في مساءٍ دافئ كانت عائدة من المخبزة، تحمل في يدها كيس الخبز الذي أرسلتها أمها لأجله
وبين زحام المارة وضجيج المدينة، كان نِيوار يمرّ على بالها بل لم يغادره أصلًا. كيف له أن يحضر كلّما اشتاقت؟ كيف يظهر حين يشتد حنينها إليه رغم أنها لا تبوح به، فقط تردد اسمه سرًّا؟ وما إن يحضر حتى يختفي فجأة، ويترك لها سوى الأسئلة.
تساءلت مع نفسها: أين يذهب؟ ولماذا لم يزُرها منذ يومين؟ شيءٌ في قلبها بدأ يقلق،
كانت تنسى أن تسأله حين يزورها، تنسى في سكرة حديثه ودفء حضوره.
وفي غمرة شرودها لم تنتبه أنها بلغت باب المنزل.. وبعد أن فتحته تعالت أصوات قهقهاتٍ عالية من الداخل.
في البيت ضيوف! اتجهت إلى المطبخ تضع المشتريات، وإذا بأختها ميلينا تركض صوبها لتعانقها، تتبعها ضحكات "إلين" قريبتها التي لا تفارقها كثيرًا.
بابتسامة قالت إيليانا وهي تضم الصغيرة إليها:
— أوه،.. إلين هنا.. إذن خالي في البيت؟-ردت الطفلة بحماس:
— نعم! أتيتُ مع أبي لنأخذكم في نزهة إلى مدينة الملاهي.
لمعت عيناها فرحا:
_حقا !

تركت المطبخ وتوجهت نحو غرفة الضيوف، حيث كان خالها يمان يجلس مع أخته ليلى وإلى جوارهما محمود غارق في هاتفه.

رحّبت بخالها وهي تقول:

— منذ زمن لم تزُرنا! ... كيف حالك؟ وكيف حال ميار؟ لمَ لم تأتِ معك؟

قال وهو ينظر نحو ليلى:

— جئت خصيصًا لآخذكم إلى مدينة الملاهي.. وبالنسبة لميار فهي عند جدتها اليوم.

إلتفتت ليلى إلى ابنتها تسألها:

— هل أنتِ موافقة يا إيليانا؟

— بالطبع.. سنقضي وقتًا ممتعًا.

يمان بمزاح:

— لكن يبدو أن محمود لن ينضم إلينا.

محمود وهو يومئ رأسه إيجابًا:

— أعتذر يا خال، لدي موعد مع أصدقائي لن أستطيع أن أخلفه.

لتقول إيليانا بسخرية:

_صدقني يا خال.. كل مواعيده عبارة عن جولات إلكترونية مع ألعابه الرقمية.

ضحك الجميع باستثناء محمود الذي بدأ يتوعد إيليانا.

واستقلّوا السيارة باتجاه مدينة الملاهي.

كان حماس البنات في أعلى درجاته، غير أن إيليانا كانت تتأمل الغروب وقلبها في مكان آخر.

لم تمر ساعة حتى وصلت السيارة إلى أطراف المدينة حيث كانت الشمس قد غابت لتسجد تحت العرش، والليل قد بسط عباءته الزرقاء المزدانة بالنجوم، فيما بدت الأضواء المنثورة في أرجاء المكان تظهر لهم.

المكان يعجّ بالحياة، ضوء الألعاب الدوّارة يدور وأصوات أناشيد الأطفال تعانق الضحكات، صفارات الانطلاق تملأ الأرجاء بحماسة، عربات القطار الصغير تمرّ مزينة بالألوان، والخيول الخشبية يمتطيها الأطفال بمرح، تتطاير رائحة حلوة "غزل البنات" من أحد الأكشاك ممزوجة بعطر الفوشار الطازج.

توقفت سيارة الخال يمان عند البوابة وقفزت ميلينا وإلين بفرحٍ عارم.. ركضتا نحو الداخل لتنزل إيليانا بهدوء وبعينين متسعتين بهجة.

كانت أنوار اللعبة الدوّارة تنعكس في عينيها تُشعل فيها رغبة قديمة في الضحك والركض والحياة، شعرت للحظة أن الطفلة التي بداخلها استيقظت فجأة ووقفت تنظر لكل شيء بدهشة وبراءة.

اقترب منها خالها يمان مبتسمًا:

— إلى أين أولًا يا آنسة إيليانا! دوّامة الخيول؟ أم قصر الرعب؟

لترد عليه بابتسامة:

— أينما تريد ميلينا وإلين.

تقدّمت نحو الكشك الصغير وابتاعت غزل بناتٍ زهريًّا، ثم جلست على أحد المقاعد قرب خالها تحت عمود إنارة يكسو المكان بضوءٍ ذهبي، أمامها كانت ميلينا وإلين تقفزان بين الألعاب وتركضان من لعبة إلى أخرى.

وبينما كانا يراقبانِهما، قال يمان:

— الطفولة هي أجمل مرحلة في عمر الإنسان؛ لا خوف، لا انتظار، لا قلق من غدٍ لا نعرفه.

أجفلت قليلًا من وِحشة كلماته، لِتقول:
— هل كنت تفكر بهذا الشكل دائمًا؟
ضحك بلطف وهو ينظر نحو ابنته التي كانت تتأرجح عاليًا:
— عندما كنتُ بعمرك، لا.. لكن بعد أن أصبحتُ أبًا تعلّمت أن أراقب الحياة من عيون طفلتي وأن أفهم الطمأنينة من ضحكتها.
صمتت لحظة، قبل أن تردف:
— أحيانًا... أظنني نضجت قبل الوقت المناسب.
إلتفت إليها:
— بالرغم من ذلك لم تفقدي طفلتكِ الصغيرة. والدليل هذا الغزل الذي تذوبينه بطرف لسانك دون أن تنتبهي.
ضحكت وهي تنظر إلى عود الغزل الذي نسيته في يدها:
— أوه، صحيح... يبدو أنني عدتُ صغيرة دون إذن مني.
خالها مبتسمًا:
— اسمحي لها أن تلعب قليلًا، طفلتكِ لاتزال تريد اللعب..
ما رأيك أن نجرب؟
— نجرب!
تقدّمت بتردّد نحو العجلة الدوّارة الطائرة ثم تراجعت بخطوة وهي تقبض على طرف عباءتها:
— أظنّني سأنتظر هنا... المرتفعات ترهبني.
دفعها يمان على كتفها برفق:
— وأنا لن اسمح بذلك.. هي إيليانا، نخاف لنَتحدّى الخوف لا لنتراجع.
تمالكت نفسها وصعدت معه.. جلست إلى جواره في المقعد المعلّق، بينما جلست إلين و ميلينا في المقعد المجاور

بدأت العجلة تدور أولًا ببطء ثم راحت ترتفع في الهواء شيئًا فشيئًا حتى صار الناس صغارًا في الأسفل، والأنوار تتلألأ بعيدًا.. شعرت بنبضات قلبها تتسارع فمدّت يدها لتشابك بيد خالها وشدّت عليه بقوة، ليقول بمزاح ممزوج بالصراخ:
_رجاءً..يكفي أن تتمسّكي فقط، لا تشدّي كثيرًا... تكادين تخلعين أصابعي.. ليس هناك ما يدعو للخوووف!
الجملة الأخيرة «ليس هنالك ما يدعو للخوف» ذكّرتها به..
كان دائمًا يرددها على مسامعها في زيارته الأولى!
بينما كانت تطير في الهواء على العجلة انسلّت من ذاكرتها صورة ذلك الحلم، حين طار بها نيوار بين السُحب، ذات الهواء، ذات الخفة، ذات الشعور بالانفصال عن قوانين الأرض.
العجلة بلغت ذروتها، وحملت معهم صيحات الأطفال وضحكاتهم.. لينزلوا بعد دقائق مفعمين بالبهجة.
جلسوا جميعًا حول طاولة خشبية مستديرة تحيط بها مقاعدٌ ملوّنة في ركنٍ هادئ من الحديقة المضيئة، كان الأطفال يتبادلون الأحاديث حول كعكة قطنية وردية اللون، وتدور بينهم أكواب العصير.. كانت إيليانا تمسك كوبها بشيء من التردد، تنظر إليه دون أن تشرب، أخذت عيناها تهيمان في الأفق لا تبحث عن شيء محدد... حتى توقّفت فجأة.
هناك بعيدًا عند زاوية عربة بيع الحلوى، وقف رجل يحمل طفلًا صغيرًا بين يديه، لم تكن تراه بوضوح، لم يكن قريبًا منها لكنه كان واقفًا بطريقة مألوفة.
قامته الطويلة، حركاته الهادئة، تلك الجاذبية الغامضة التي تلفّه، كلها أعادت إلى قلبها صورة نِيوار.
رفّت عيناها وحدّقت كأنها تحاول أن تنفذ من خلاله لتراه حقًا.

أيمكن أن يكون؟
توالت الأسئلة في ذهنها ولم تكن تملك إجابة.
تنظر إليه بشرودٍ عميق، لا من خوف بل من شيء لم تفهمه...
مزيج بين الاشتياق والحنين، أو نداءٌ صامت من روح إلى روح.
لاحظ يمان شرودها، فتتبع نظرها ليصل نحو الرجل وابنه، ثم التفت إليها وقد ارتسم على وجهه تساؤلٌ:
— هل تعرفينه؟
انتبهت فجأة كأنها أُعيدت من عالم آخر أخفضت عينيها سريعًا قائلة:
— لا... لا أظنّني أعرفه فقط... ظننته يشبه شخصًا.
أومأ إيجابًا، وابتسمت هي بخجل.. ارتشفت أخيرًا من كوب عصيرها، تُخفي إرتباكها بابتسامة واهنة.
أما ذاك الرجل فقد حمل ابنه وابتعد بخطى ثابتة...

♡♡♡

في طريق العودة
كانت لا تزال تهيم بنظراتها بين المارة، تبحث عن ظله أو تشكّلًا له.. تزاحم الناس حولها ضوضاء السيارات، وأضواء المصابيح تلمع على بلاطات الطريق لكنها لم ترَ غير وجوهٍ غريبة.
وصلت أخيرًا إلى البيت، وهي تحمل ميلينا بين ذراعيها التي نامت على أصوات الصخب.. ودّعت خالها ثم دلفت إلى المنزل الذي كان هادئًا بأضواءٍ خافتة تخترق أركانه، لم يلقَ بصرها إلا محمود مستلقيًا على الأريكة وضوء شاشة هاتفه

ينعكس على وجهه، نظر إليها بلامبالاة وقال بنبرةٍ لا تخلو من المزاح:
_ظننتُكم لن تعودوا هذه الليلة فردّت بابتسامة جانبية ساخرة:
— وماذا لو تأخرنا، هل كنتَ ستغلق علينا الباب؟
اتجهت نحو غرفة أختها، وضعتها على سريرها وغطّتها بعناية بعد أن طبعت قبلة على جبينها، أغلقت الباب خلفها بهدوء.. وذهبت إلى غرفتها.
جلست على طرف السرير ثم فتحت هاتفها، تصفّحته على عجل و أغلقته بتنهيدة.
مدّت يدها نحو المصحف وراحت ترتّل همسًا، تنثر آيات الطمأنينة على قلبٍ لم يعد يهدأ منذ غيابه.
بعد ذلك تقدّمت إلى نافذتها لترى الشارع غارقًا في الظلمة لا صوت، لا ظلّ، لا طيف فقط سكونٌ يصفع الانتظار ببرود. قلّبت نظرها في أرجاء الغرفة حيث كانت معتادة على حضوره، لكنّ هذه الليلة كانت مختلفة! الليلة الثالثة ولا أثر لحضوره!
إنكمشت على طرف الأريكة كطفلة فقدت دفءَ العالم، ساقاها مطويتين نحو صدرها تحتضنهما بذراعيها، رأسها مائل على ذراع الأريكة وعيناها مغمضتان تحاول أن تغفو ودخلت في غفوة مرهقة متسائلة عن غيابه الذي طال لثلاثة أيام لأول مرة منذ أن دخل حياتها.
وبين الغفوة واليقظة شعرت بأنفاسٍ حارّة تمرّ جانب وجهها،كانت كاللهب لكنها لا تحرق بل تُزلزل الروح دون أن تؤذي الجسد، أصابع طويلة تمرّ على خصلات شعرها.
فتحت عينيها ببطء...

فإذا به جالسٌ أمامها، يملأ الغرفة بسكونه وبهيةٍ لا يشوبها غيابٌ، ولا يشكّ فيها قلبٌ يعرفه.
شهقت دون أن تشعر، الحياة اندفعت مجددًا في رئتيها، لتقول:
— أين كنت؟... لم تظهر لي ثلاثة أيام؟
واندفعت نحوه من غير تفكير، احتضنته بكل ما فى قلبها من اشتياق، لم تنتظر سماع الإجابة، فقط شدّت عليه أكثر، وعيناها مغمضتان بقوة تخشى أن يختفي إن نظرت فيهما أكثر من اللازم، ليضمّها هو الآخر إلى صدره.. دقائق خرساء، لكنها أبلغ من أي كلام.
أبعدها قليلًا عن حضنه ليمسح على وجنتيها براحة كفه، وهو يرفع حاجبًا وينزل الآخر بنصف ابتسامة فيها شيء من المكر:
— ما كل هذا الحنين؟ هل اشتقتِ إليّ لهذه الدرجة؟ أم أنّ غيابِي سبّب لكِ أزمة وجود؟
خفضت عينيها بسرعة، تحاول أن تُبعد نفسها عنه قليلًا، لكنها لم تستطع إخفاء ابتسامتها المرتبكة، لترد وهي تفتعل التهكّم:
— ممّ ذا.. لا تغترّ بنفسك كثيرًا... أنا؟.. أنا كنت مرتاحة فعلًا... قليل من السكون، لا أحد يطير بي ويزاحمني في أحلامي.
ضحك وهو يقترب منها أكثر قائلًا:
— أحقًا؟ وهذا الحضن الآن... هل هو عُرف ضيافة؟
إنقبضت كتفيها..لتقول وهي تشيح بوجهها:
— أنا فقط... تفاجأت، لا أكثر.
— تفاجأتِ بي أم بلهفتكِ عليّ؟
غضّت بصرها تمامًا، وتظاهرت بالانشغال بطرف قميصها.

إنسى كل شيء.. وأخبرني الآن عن سبب غيابك، أريد أن أعرف كل شيء عن اختفائك المفاجئ؟ عن ظهورك العشوائي؟ أريد أن أعلم كل شيء يخصك! بدا عليه شيء من التعب والتفكير قبل أن يجيبها:

— كنت مضطرًا، لقد بدأوا يلاحظون تغيّبي المتكرر، وهذا وحده كفيل بأن يُثير الريبة. قطّبت حاجبيها بحيرة:

— لكن... لم أفهم، ما شأنهم بغيابك؟ ابتسم ابتسامة تحمل في طيّها شيئًا يشبه الألم، ثم قال:

— لا، ليس كما تظنين يا إيليانا... ليس لنا أن نكسر الحواجز هكذا. ظهوري لكِ، اقترابي منكِ، وحتى أخذكِ إلى عالِمٍ وإن كان أثيريًا، كلّها أشياء تُعد خرقًا صارخًا للقوانين. ثم اعتدل في جلسته ومرّر يده في شعره كما يفعل حين يحتار، وقال مراقبًا انعكاس نور القمر على وجهها:

— هل تعلمين؟... لو عَلِم أحدهم أنّي كسرت القوانين وظهرتُ لكِ مرارًا، بل وتجرأت على إطلاعك على بعض الأسرار.. فإن عقوبتي ستكون... سكت قبل أن يواصل:

— قاسية... جدًا. رفّت رموشها في اضطراب:

— لمَ تفعل ذلك إذًا؟ لماذا تُخاطر بكل شيء لأجل التواصل معي! نظر إليها نظرة طويلة سكنت فيها كل الإجابات، ثم اقترب ببطء ورفع يدها إلى شفتيه:

_لأنكِ... كُنتِ القانون الوحيد الذي جعلني أتجرأ على العصيان.

كانت لا تزال تنظر في عينيه الغريبتين اللتان تحملان شيئًا من السحر شيئًا من الغموض و شيئًا كثيرًا من الطمأنينة.

لم يكن الحديث ضروريًا فقد انسحب بصمت ليترك العيون تتحدث.. وبعد لحظات قطعت السكون بفضول:

— نيوار... لماذا تختفي دائمًا بتلك السرعة؟ أين تذهب؟ وأين تقضي وقتك حين لا تكونِ معي؟
لم يُجب فورًا، ابتسم أولًا قبل أن يقول:
— لأنهم ينادونني... وعليّ أن ألبّي النداء.
رفعت حاجبيها:
— ينادونكِ وأنت معي! كيف تسمعهم؟
ضحك مردفا:
— بالطبع.. تتردّد إليّ ذبذباتهم، بطريقتهم الخاصة... طريقة لا يمكنكِ فهمها!
تأملته بصمت، ثم وقد غلب عليها العجب:
— غريب... لكن قل لي، لماذا أنا؟.. لماذا تخاطر بكل شيء من أجلي؟ لماذا تُظهر نفسك لي وتخرق قوانينك؟
بدأت تتحدث بسرعة، يتلاحق سؤال وراء سؤال، فلم يتمالك نفسه من الضحك، وقال وهو يرفع كفّه يطلب مهلة:
— حسنًا، تمهّلي قليلًا.. كأنني في استجواب سرّي! لكن قريبًا.. قريبًا جدًا ستعرفين كل شيء.. كلّ شيء يا إيليانا.
ثم غيّر نبرته إلى بعض الحزم:
— والآن حدّثيني.. ما أخبارك مع الحفظ؟ لا تتهرّبي.
حاولت أن تعترض أن تغيّر الموضوع، لكنّه سبقها مبتسمًا...
— شششش... يكفي أعذارًا. نراجع أولًا، ثم نعود لأسئلتكِ التي لا تنتهي.
أحضرت مصحفها وراحت تُقلّب صفحاته بتأنٍ، ليرمقها هو بترقّب.. أغمضت عينيها وبدأت تتلو، وما إن وقعت في خطأ حتى صحّح لها بصوت خفيض يشبه الهمس:
— رويدكِ يا إيليانا... لا بأس لنُصلح هذا معًا.
ثم أشار إلى الكلمة التي أخطأت فيها:
— أودّ أن أنبّهكِ على أحكام الميم الساكنة، أن لها ثلاثة أحكام وأولها الإدغام.

رفعت نظرها إليه باهتمام ليتابع:
— إذا جاءت الميم ساكنة وتلاها ميم متحرّكة فإنّ الميمين تندمجان فتصيران ميمًا واحدة مشدّدة، ويُسمى هذا إدغامًا شفويًّا ا... ويُلازم ذلك غنّة لطيفة تُلفظ من الخيشوم.
ابتسمت وهي تهزّ رأسها إيجابًا، فقال:
— هلّا جربتِ تلاوتها من جديد؟
أعادت القراءة فاستقامت التلاوة، لا عثرة ولا تردّد. ما كان يحتاج أن يُعيد التنبيه أكثر من مرة فبمجرد أن يُشير إلى خطأ ينزاح عنها تلقائيًا ثم تمضي إلى الصفحة التالية بسهولة، لا تلتفت ولا تتعثّر.
يجبرها على الانتقال إلى صفحات جديدة لم تحفظها بعد!
— لا بأس.. اقرئي معي فقط..
وحين تردد خلفه الآيات يستجيب لسانها بسهولة، تتلوها دون تلعثم، إلتقطتها ذاكرتها من عمق آخر، لا تدري كيف لكنها ترسخ وتستقر.
تقول إيليانا:
— لا أُدرك كيف يحدث هذا، لكنّي كلما قرأت معه أشعر أنّي أحفظ دون جهد.

♡♡♡

مرت سنة

ونِيوار لا يزال ملاذها الذي لا بديل له.
نصف صديق، شيء من الأهل ومدينة من الأمان تلوذ بها كلما ضاقت الدنيا أو اتّسعت.
تشاوره في كل صغيرة وكبيرة حتى في ألوان ملابسها في الحفلات أو المناسبات..
تتقاسم معه يومها كما لو كانت تكتبه بيده، حتى في الأيام الباكية التي يصمت فيها كل شيء، كان هو بلسم قلبها يجيد تحويل الغصّة إلى ابتسامة والضيق إلى اتّساع.
وفي ليالي رمضان، حين تذهب رفقة عائلتها لأداء صلاة التراويح تلمحه واقفًا بين الزحام يوزّع قوارير الماء على المصلّين بابتسامة وادعة.
يروي ظمأ العطشى ويوزّع ابتسامات يحتسبها صدقات..
وحين تمرّ بجانبه، يخصّها بنظرة تتبعها ابتسامة فغمزة تُنعش قلبها وتجعله نابضًا بالسعادة، هي وحدها من كانت تعلم حقيقته.

♡♡♡

كانت رائحة الطبخ تفوح من قدر السيدة ليلى، تعبق بها أرجاء المنزل..
في البهو، كانت القطة تلتقط تلك الروائح الشهية بأنفها تراقب محمود الذي يلعب بالكرة بعفوية وصخب.
رغبت في الانضمام إلى اللعب، لكن صديقه الذي يشاركه الضجيج جعلها

وتكتفي بالمراقبة. في المطبخ كانت ميلينا تلهو بدُميتها وتغنّي لها، ثم رفعت عينيها نحو والدتها وسألت ببراءة:
— متى تعود إيليانا! لقد وعدتني أن تُحمّمني، ونُحمّم دُميتي أيضًا! أجابت ليلى وهي تمسح يديها المبتلّتين وتلتفت نحو الساعة:
— هذا وقتها، لا تُكثري من الأسئلة يا ميلينا... ستعود الآن، فلا تزعجيني. ثم التفتت إلى البهو، وصرخت بنفاد صبر:
— محمـــــود! كفى ضجيجًا.. خذ صديقك واخرجا إلى الخارج! حمل كرته وتوجّه نحو الباب. وما إن فتحه حتى وجد إيليانا واقفة أمامه، تعتلي وجهها ابتسامة دافئة.
— السلام عليكم. قالتها وهي تنزع حذاءها.. ركضت ميلينا نحوها بفرح:
— إيلياناااا ثم عانقتها بقوة لتبادلها العناق، وتوجّهت لأمها تقبّلها كعادتها كلّما دخلت البيت. سألتها ليلى:
— أين والدكِ؟ ألم يُوصِلكِ بسيارته؟ أجابت وهي تخلع عباءتها:
— بلى..أتيت معه، لكنّه توقّف عند دكّان الحي لشراء بعض الأغراض وقدٍ أطال المكوث... فسبقته سيرًا، أفضل من الانتظار طويلًا. علت ملامح ليلى نظرة استغراب لكنها لم تُطِل الحديث. جلستا يتحادثان عن الحِفظ وأخبار الصديقات، وتلك النقاشات الدافئة التي لا تخلُو من التفاصيل..

ثم صعدت إلى غرفتها و ميلينا تتبعها وهي تحمل دميتها تنتظر منها أن تفي بوعدها..
بينما دخلت الحمّام برفقة أختها ودُميتها، راحت تملأ الحوض بفقاعات الصابون والماء الساخن يرسل بخاره يتراقص في الهواء.

صوت الضحك والمرح يتسلّل من تحت الباب، أصواتهم صارت بخورًا يُعطّر أركان البيت..
في الأسفل، كان قد دلف خالد إلى المنزل:
— ليلى... أيمكنكِ إحضار فنجان قهوة؟ أودّ أن أُحادثكِ في أمر.
جاء صوته كما يأتي الهدوء قبل المطر، لا استعجال فيه بل نبرة رجلٍ يخطو نحو قرار كبير.
على أريكته المعتادة، وعيناه تتابعان خيوط البخار المتصاعد من فنجان القهوة الذي أتت به ليلى، جلست بجواره على الطرف الآخر تتحسس نبرة صوته قبل أن يتكلّم.
قال وهو يحرّك فنجانه:
— كنت في الدكّان... وأطلت المكوث، أعلم أن إيليانا أخبرتكِ لكن لم يكن السبب قهوة أو سكرًا ناقصًا.
نظرت إليه ليلى باستفهام قبل أن يواصل:
— كان هناك شاب طيّب، ابن إحدى العائلات التي نعرفها من زمن، دعاني إلى سيارته ليحدثني عن إيليانا..
سكت لحظة، ثم تابع:
— قال.. إنها فتاة من بيت كِرام، وفيها من الصفات الصالحة ما يُقرّ العين، ويجعل من كان يبتغي العفاف بالحلال يتمنّى مثلها.
تنهّدت ليلى بخفة، وكأنها التقطت أوّل خيط من خيوط الحديث.
أضاف خالد بصوته الواثق:
— لم يأتِ بعد لطلبها رسميًا، لكنه يستعد... أراد أن يأخذ إذني أولًا وأن يعرف رأيي في الأمر.

رفعت ليلى عينيها إليه لا بدهشة ولا انفعال، بل بنظرة أمّ

بدأت تُدرك أن ابنتها الصغيرة لم تعد صغيرة لتقول:
— وإيليانا.. هل هي مستعدّة لخطوة كهذه؟
ردّ وهو يطرق بإصبعه على حافة الفنجان:
— ربما... وربما لا.. لكنّي شعرت أن الوقت قد جاء لنسألها.
ارتشف من قهوته ثم عم السكوت، كأنّه ينتظر من البخار المتصاعد أن يحمل عنه ما يودّ قوله.. ليُردف:
—اسمعيني يا ليلى... ما كنتُ يومًا لأفتح في وجه ابنتي بابًا إلا بعد أن أتحرّى، وأسأل، وأستخير الله فيما أُقدِم عليه.
هذا الشاب يستأنس به وفيه من الطبع ما يُطمئن القلب.
سيرته بين الناس طيبة، يعمل مع والده في شركتهم الخاصة، وله والدٌ كريم أعرفه من زمن الصبى، عائلة محترمة وبيتٌ ما طُعن في عرضه ولا خُدش ستره.
أسند ظهره إلى الأريكة، ثم أضاف:
_كلّمنا كما يُكلم الرجل الرجال... بكلام واضح، ما رأيتُ في عينيه إلا صدق النية ولا في قوله إلا رجاحة عقل.
كانت ليلى تحدق فيه تستوعب ما يقوله، وفي نظرتها حيرةٌ سرعان ما خمدت تحت جفن ساكن.
حوار الليلة مع زوجها، زَرع في قلبها بذرة تفكّر.

في الأعلى كانت إيليانا تضحك مع أختها تُلبسها ملابسها بعناية بعد حمّام مليء بالبهجة والحب... لا تدري أن العالم على وشك أن يُبدّل صفحة من صفحاتها.

قاطعت ميلينا نقاش الوالدين وهي تركض نحوهما، شعرها مبلّل ووجنتاها مورّدتان من أثر الحمام، وفي ملامح وجهها تحمل من الشبه بأختها ما يجعلها كنسخة مصغّرة عنها.

كانت تبعثر ضحكاتها في أرجاء البيت، التفت إليها الأبوان وقد تسلّل السرور إلى وجهيهما، ففتح الأب ذراعيه مرحّبًا:
— أهلاً بالقمر إذا اكتمل، ما أجملك بعد الاستحمام! ضمّها إلى صدره، يشمّ عبيرها الطفولي ويمازحها:
— رائحتكِ ورد وياسمين... لا، لا، بل أنتِ زهرة بنفسك!
سألتها ليلى:
— أين إيليانا؟
أجابت وهي تحرّك رأسها:
— دور دميتي ستحممها... قالت يجب أن أخرج، لأنّ دميتي ستخجل ويصبها الحزن إذا رأيتها من غير ملابس... وإذا حزنت، لن تنام! أمّا هي فستغمض عينيها حين تغسلها، ثم يأتي دور إيلينا لتتحمم هي أيضًا.
ابتسم الأبوان وهما ينصتان ويتبادلان النظرات على براءة الحكاية بدأ خالد يلاعبها ويسألها عن يومها ويحتضنها كما لو يضمّ اليوم كله. لكن سرعان ما لاح بصره إلى ليلى، التي بدت أنها انفصلت عن اللحظة. كانت تهزّ قدمها في شرود وفي عينيها أثر تفكير لم يغادر بعد. لم يُخطئ خالد السبب فاقترب منها وقال بصوته الهادئ:
— لا تتركي للقلق طريقًا إليكِ، يا ليلى... الخير كلّه فيما اختاره الله. والنية الطيبة لا تأتي إلا بخير.
أمسكت بيد ابنتها:
— هيا يا حبيبتي، لقد حان وقت النوم... لأجفّف شعركِ وأمشّطه ثم إلى السرير. لكن ميلينا توقفت في مكانها وملامحها بدأت تتغير للبكاء ثم تمسّكت بثوب أمها:
— لاا... سأنتظر إيليانا! هي من ستمشّط لي شعري!
تنهدت ليلى:

تنهدت ليلى:
— قامت بتحميمكِ، وهذا يكفي... الآن دوري، أنا سأجفف شعركِ وأسرّحه.
_لكنها لم تخبرني جملة قبل النوم!
_حسنا سأخبرك بدلا عنها «هي تحبك بعدد النجوم في السماء»
أصرت ميلينا على الرفض وهي تمشي بجانب أمها رغمًا عنها..
تابع الأب المشهد من بعيد وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مطمئنة، كأنّ هذا الجدال الصغير من طقوس المساء.
لحظات.. ثم سُمِع طرقٌ على الباب، ليقوم خالد ويفتحه:
— مرحبا أبي.
— أهلا.. أخبرني، هل اعتنيت اليوم بخمسك؟
— أكيد.. وماذا إذًا؟
— وماذا عن صلاة الفجر، هل صليتها في وقتها؟ سكت محمود ولم يجب، دقق فيه خالد بحنق قبل أن يقول:
— نم مبكرًا الليلة... ليس من اللائق أن تترك صلاة الفجر كل مرة وكأنك في سبات لا ينتهي! لقد سئمت من تكرار إيقاظك. ردّ محمود بنبرة فيها بعض الممازحة والتململ:
__نعم يا أبي، تعليماتك الليلية محفوظة جيدًا..
رد خالد بنبرة جادة:
— نعم؟ كقولك بالأمس أنك صليته في وقته، ثم اتضح أنك لم تستيقظ إلا والشمس قد ارتفعت؟ تنفّس محمود بضيق وأشاح ببصره، ليقول خالد بصوت فيه شيء من العتاب:
— محمود... مشكلتك ليست أنك تجهل، بل أنك تحفظ النصيحة وتُهمِل العمل بها.
ثم أشار إليه أن يقترب، وقال:
— يا بُني، الصلاة ليست تكرارًا أملِيه عليك كل ليلة... هي عهد

بينك وبين اللّٰه، فمن أضاع الفجر، بمَ يلقى ربَّه؟
التزم الصمت ليتابع خالد:
_ألم يقل صلى اللّٰه عليه وسلم «العهد الذي بيننا الصلاة، فمن تركها فقد كفر»؟
_بلى يا أبي!
_ألم يذكر اللّٰه في محكم تنزيله وهو يخاطب أهل النار: «ما سلككم في سقر»؟ ماذا قال أهل جهنم؟
رد محمود وهو مطأطئ الرأس:
_قالوا «لم نكن من المصلين»
_إذًا لا تتحجج أنك تصلي وأنت تُضيّع الفجر، فمُضيّع وقتها وتاركها حكمهما واحد، يا بني «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا».. اللّٰه اللّٰه في صلاتك يا بني، فمن ضيّعها ضائع.. نم مبكرًا الليلة، ولا تدع السهر يسرق منك ما يُقيم دينك ورجولتك.

لم يعلّق محمود واكتفى بالنظر إلى الأرض، زفر خالد ثم توجّه لغرفة ميلينا وقد بدا عليه الإرهاق.. حيث وجد ليلى مستلقية بجوار الصغيرة وقد غفت بهدوء، وقف عند الباب هامسًا:
— نامت؟
أجابته ليلى بنفس الصوت:
— نعم، للتوِ.
— تعالي إذًا.
غطّت ابنتها وخفّضت الإنارة حتى كادت تنطفئ، ثم خرجت وأغلقت الباب بهدوء.
— ما الأمر يا خالد؟
قال وهو يخطو إلى السلالم:
— هيّا نصعد إلى إيليانا... نخبرها بشأن الخاطب.

ترددت ليلى:
— لكنها تستحمّ الآن... لِمَ العجلة؟ دعنا نؤجّل الأمر إلى الغد.
إبتسم قائلا:
— لقد أنهت حمّامها... والموضوع لا يحتمل تأجيلًا.
توقفت ليلى أمام الدَّرج، متفاجئة من إصراره:
— لكن، ما بالك مستعجل؟
— لستُ مستعجلًا، لكن... حسنًا، نؤجّله.
وانسحب دون أن يقول أكثر، وترك في قلبها تساؤلًا لم تطرحه، لكنه ظلّ عالقًا بين السلالم والمساء.

♡♡♡

قلبٌ بين عالمَين

بعد أن انتهت إيليانا من الاستحمام، ارتدت بجامتها السوداء الحريرية ووقفت أمام المرآة تمشط شعرها المبلول..
رشّت على شعرها من عطرها المفضّل فامتزج برائحة الشامبو.
حركاتها ناعمة ومتأنّية، تنتظر موعدها السري بحماس.
لكنّ يدها توقّفت فجأة، حين لمحت بزاوية عينها ظلًا واقفًا في ركن الغرفة.
استدارت بسرعة لتجد نيوار واقفًا في ذات الركن الذي اعتاده، لكن سكونه هذه المرة لم يكن مألوفًا.
اتّسعت ابتسامتها وقلبها خفق بهجةً ثم أسرعت وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح، كمن يؤمّن سرًّا ا لا ينبغي أن يتسلل إليه أحد
وضعت مشطها على الطاولة، واقتربت نحو الأريكة، حيث جلس هو مطرق الرأس، وقد ضمّ كفّيه إلى بعضهما وركّز عينيه إلى الأرض.
جلست بجواره تنتظر كلماته، ابتسامته، نظرته... لكن لا شيء!
تأملته بدهشة، عيناها تبحثان عن عينيه لكنه لم ينظر إليها.
سكون لم تعهده منه!
قالت وهي تميل بجسدها قليلًا نحوه:
— نيوار... أما ترى أن قلبي يضطرب حين لا تبتسم لي؟
بقي على حاله لا يجيب ولا يلتفت، رفعت يدها تلمس ذراعه برفق، فارتجف قلبها إذ شعرت بشيء ثقيل في حضوره...
شيء لم يُعلن بعد.
نظر إليها أخيرًا... لكن نظرته كانت غريبة، بعيدة، كأن فيها ألف طريق لا يُفضي إليها. انطفأ وهج العادة في عينيه... وبدا فيهما وجعٌ مغطّى بهدوء جليل.

ليقول:
— إيليانا.. جئتُك الليلة لأحدّثك عن أمرٍ لا بدّ أن يُقال، وإن ثقل عليّ وعليك.
توقف وكأن الكلمات تخونه، ثم تابع وهو ما زال يشيح بنظره عنها:
— جاء خاطبٌ... يطلب يدك من أبيك.
ساد صمتٌ ثقيل، لا يُكسره إلا صوت أنفاسها التي راحت تتسارع شيئًا فشيئًا، تحاول اللحاق بما لم تتوقع سماعه أبدًا.

تراجعت قليلًا، رفعت رأسها تنظر إليه بدهشة كمن صُفع بقلبه لا بوجهه.
— خاطب... أيّ خاطب ومتى؟ ولماذا لم يُحدّثني أبي...؟ لم يذكر لي أحدٌ شيئًا!
قال وكل حرف منه يُقصّر العمر بينهما:
— علمتُ قبل قليل.. والدك كان في حديثٍ معه، وعلى ما يبدو أن أباكِ قد رحّب بالفكرة.
لم تنبس ببنت شفة، فقط نظرت إليه طويلًا.. ثم رفعت يدها تعدل شعرها بتوتّر، عقلها يبحث عن ترتيبٍ لكل ما تهدّم في لحظة.
و بصوت يشوبه إنكار داخلي:
— لكن... أبي وأمي لم يقولوا لي شيئًا!.. أتُراهم...؟ لا يمكن... أبي لا يُخفي عني مثل هذا!

التفتت فجأة نحو الباب تفكّر بالذهاب إليهما لتسأل، لكنها ترددت ثم التفتت إليه من جديد، وهي تقول:
— وهل... هل يعني هذا أنك جئت لتودّعني؟
_ ليس تمامًا.. لكنّ قلبي يشتعل بين أمرين: أن تكوني لي أو أن تكوني لي من بعيد، في صمت الدعاء فقط، وفي حماية غير مرئية لكِ.
سكت، لكن الكون كله توقف في عينيها عند تلك الجملة.
راحت تدور في غرفتها كمن تاه في دوّامة لا تُفضي إلا للحيرة، قدماها تذرعان الأرض جيئة وذهابًا، وقلبها يلهث وراء فكرة لا تكاد تصدّقها.
كرّرت تحاول إقناع نفسها:
— لا... لا يمكن... لا يمكن أن أتزوج الآن! نيوار... سأُنهي الأمر غدًا، سيُخبرونني وسأرفض، سينتهي كل شيء بسهولة... سينتهي، أليس كذلك؟
توقّفت تنظر إليه برجاء، ثم اقتربت خطوة تمسّكت بزاوية مكتبها تتشبث بثباتها، قالت بصوت متهدّج:
— نيوار، أنا لا أريد الزواج الآن..
تساقطت دموعها دمعة تِلوَ الدمعة، ولمّا رأى ذلك وقف بهيبته الصامتة، و ردائه الذي انسدل خلفه فدموعها دائما ما تُضعفه.
اقترب منها خطوة فخطوة حتى أصبح حضنه ضرورة لا اختيارًا، حاول أن يحتوي هذا الألم دون أن يذوب فيه.
— لو كان الأمر بيدي، لخبّأتكِ عن العالم، وقلتُ: هذه لي وحدي. لكنّ الحقيقة مخالفة لكل شيء.. إن لم يكن هذا الخاطب، فسيأتي غيره.. وإلى متى ستظلين ترفضين؟ أتظنين أن بإمكانكِ أن تؤجّلي قدركِ لأجلي؟

رفعت رأسها تنظر إليه بدموعها، ليكمل:
— لا يجوز إيليانا، لا يجوز أن أكون أنا السبب في عزوفك عن الزواج، أنا... أنا لستُ شيطانًا كي أمنعكِ من العيش مثل بقية أترابك، يتزوجن وينجبن بينما أنا أكون السبب في عزوفك، هذا ليس عدلًا، هذا ظلم.. في الأخير أنا لستُ من عالمكِ ولا أصلح أن أكون زوجًا لكِ، وأنتِ تعلمين هذا جيدًا، حتى وإن أحببتكِ فالحبّ لا يعني أن أقيّدكِ بي.
شهقت بكاءً، ولكمت صدره بلكماتها الصغيرة مقابل اتساع صدره وهي تقول لأول مرة:
— لكنني أحبك... أنا لا أريد غيرك!
مسح على رأسها وقال ممازحًا يحاول كسر حزنها:
— عفوًا سيدتي.. لكن أنا ممتن لهذا الخاطب كثيرًا.
نظرت إليه تقطب حاجبيها بوجه مُحتقن ودموعٍ تبلله، ليتابع ممسكًا ابتسامة:
— أقصد أنه كان سببًا في جعلك تبوحين بكلمة أحبك، رغم أنني رأيتها في كل تصرفاتك إلا أنني وددت أن تقوليها وقد نُزع عنك ثوب الكبرياء.
كررتها للمرة الثانية، لكن ليس وهي تنظر إليه بل حينما اندست في حضنه، سمعها ترددها بصوت مخبوء بين الحنايا.
تماما كقول الشاعر: "أعلنتُ حُبِّي أو كتمتُ مشاعري مفضوحةٌ عيناىَ إذ ألقاكَ!"
أمسك بكفّيه الكبيرتين وجهها الصغير، يريد لو يُثبّت الزمن في مكانه، أن يمنعه من سحبها بعيدًا عنه. نظر بثباتٍ مخيف إلى عمق عينيها الدامعتين، وتملّكت قلبه رجفة لم يجرّبها من قبل، لم تكن من الحزن بقدر ما كانت من الضعف الحقيقي أمام اختلاف خِلقتهم وعالمهم.

وهو يقاتل كي لا تنهار كلماته، قال:
— اجعلي قلبكِ قويًّا بالله... لا تسمحي لمشاعركِ أن تهزمكِ، ولا تسمحي لأي شيءٍ في هذه الحياة أن يكون نقطة ضعفكِ، علّقيه فقط بالله، فحبه يغنيكِ عن كل المحابّ. ما رأته إيليانا آنذاك أن وهج عينيهِ بدأ ينطفئ ليتحوّل بؤبؤ عينيه إلى السواد المعتم، ليواصل قائلًا:
— مهمّتي أن أكون عونًا، ظلًّا عابرًا، أساعدهم إذا ما احتاجوا ثم أرحل دون أن أترك أثرًا، وكلٌّ في عالمه... لكن معكِ حدث ما لم يكن متوقعًا. لا أعلم كيف حصل هذا، ربما بلاء ربما اختبار، وربما لأني لم أستطع كبح حدودي وتتبعت هوى النفس حتى نسيتُ أني لا أملك البقاء، بل تناسيت أن وجودي في عالمكِ لا يُسمح أن يتجاوز الحدود المادية. خفض عينيه، يخشى أن يرى في عينيها شيئًا لن يستطيع مقاومته، ثم تنهد وقال:
— يا ليتني لم أظهر لكِ يومًا. ثم نظر إليها من جديد، يلملم منها كل ما سيشتاقه بعد الرحيل:
— إيليانا... سامحيني. وأرجوكِ لا تُحمّليني وِزر قلبكِ، فإن رأيتِ في هذا الخاطب ما يُطمئن فؤادكِ ويسرّكِ، فلا تردّيه من أجلي، لا تجعلي وجودي سببًا يحول بينكِ وبين حياتكِ.
نظرت له بمزيجٍ من الرفض والرجاء، لا تصدّق أن فمًا اعتادت منه كلمات الطمأنينة ينطق الآن بالخذلان. وبحنينٍ ذُبح على عتبة الفقد،جثت بركبتيها على الأرض وأمسكت بكفيه اللتين كانتا على وجهها:
— تطلب مني ألا أرفضه لأجلك؟ تقول لا تُحمّليني وزرك وأنت أثقل الأقدار على قلبي! أغمضت عينيها والدمع يعتصر منهما:

_نيوار، أنا لا أرفضه لأجلك، لكني أرفض الحياة من بعدك.. ليس لأني أحببتك بل لأنك الحقيقة الوحيدة التي عشتُها بصدق.

بعد لحظاتٍ من صمتٍ ثقيل، لم يقطعه سوى أنفاسها المتقطّعة كانت منطفئة النظرة، تترنّح بين الصدمة والانكسار لتقول:

— إذًا... ستنتهي قصّتنا هنا؟

الكلمات صفعته، لكنّه لم يردّ إلا بعد لحظات:

— ليس سهلًا عليّ قول ذلك، لكن منذ البداية كان كلّ شيءٍ واضحًا. فقط نحن تجاهلنا الحقائق التي لا تتغيّر.

قاطعته، ولأول مرة تحدّثه بنبرةٍ فيها شيء من الألم والحدّة:

— أفهم أنك ندمت على ظهورك والتواصل معي! ويبدو أني صرتُ عبئًا عليك... لكن لا تقلق، يمكنك الخروج من حياتي الآن ولن أُفشي سرك لأحد... ستبقى سرًّا ا مدفونًا في مقبرة قلبي.

قال موضّحًا:

— صدّقيني... لو كنتُ شيطانًا يعوّل على أذيتك، لأغويتكِ عن أمر والديك، ولأغرَيتُكِ بالعصيان، وذهبتُ إلى خاطبكِ ذاك وأرعبتُه، أو صوّرتُ له كوابيس وظهرتُ له في هيئةٍ مخيفة... لفعلتُ ألف طريقة لأُبعده عنكِ. بل كنتُ لأُوسوس لأبيكِ ليطرد فكرة تزويجك، لكني لستُ منهم ولن أُغضب الله لأجل حبٍّ مهما اشتدّ بي.

ثم تنفّس بعمق قبل أن يواصل:

— الآن دعي قلبكِ يهدأ بعد هذه الرَّجّة.

تأمّل ملامحها الباكية الخالية من أي ردّة فعل ثم اقترب منها وحملها بين ذراعيه ليضعها على السرير برفق الوداع. جلس قربها يُمسّد أطراف شعرها وبدأ يتلو من سورة القصص وتحديدا

من الآية 7:﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

قاطعته، وعيناها تبحثان عن اليقين في عينيه:

— نيوار... هل هذه آخر مرة تزورني فيها؟

صمتٍ قبل أن يقولٍ بهدوءٍ حزين:

— سأجيبكِ بعد أن أنهي الترتيل.

واصل القراءة حتى بدأت أنفاسها تتباطأ، لتُغمض جفنيها دون إرادتها، وآثار دموعها لا تزال على خدّها... حدّق فيها مليًّا، ثم غادر لا إلى قرارٍ ولا إلى استقرار.

صباح جديد في مكتب السيد خالد:

كانت أشعة الشمس تتسلّل من ستائر النافذة الكبيرة تلك التي تطلّ على شارعٍ مزدحم تغمر زاوية الطاولة وتنعكس على كوب القهوة نصف الممتلئ، فيما كان خالد جالسًا على كرسيه الجلدي وأمامه أوراقٌ مبعثرة وحاسوبٌ مفتوح لكنه لم يكن يرى شيئًا منها. كان شاردًا، لا عن العمل بل عن الحياة التي تمضي أسرع مما ظنّ.

إيليانا طفلته التي صارت شابة، وها هو اليوم الذي ستخبرها أمها فيه عن ذلك الرجل الذي سيتقدّم لخطبتها.

— هل كبرتِ حقًا إلى هذا الحد؟ ألستِ أنتِ من كانت تنام على كتفي في سفراتنا الطويلة؟ من كانت تكتب لي رسائل حبٍّ بخطّها الأعوج وتخفيها في جيبي؟

تأفّف ثم نظر إلى فنجان القهوة أمامه وتحسّس حرارة الكوب بيده، لكن البرد الذي كان بداخله لم تدفئه القهوة ولا شمس هذا الصباح...تذكّر الشاب الذي جاءه بتواضعٍ وأدبٍ وصوتٍ واثق، كلماته قليلة لكنها كانت كافية لتترك انطباعًا طيبًا.

ثم خطر على باله سؤالٌ لا يعرف إجابته: «هل حقًا هو الشخص المناسب و هل سيحمي رقتها كما فعلتُ أنا كل هذه السنوات؟ هل سيرعاها إن مرضت؟ هل سيصبر على صمتها الطويل إن حزنت، ويقرأ حزنها دون أن تقول؟ هل سيحافظ عليها كما أرجو وكما أطلب في كل سجدة؟»

ضغط بأنامله على طرف الطاولة، يحاول أن يمنع نفسه من التفكير كثيرًا لكن صورة إيليانا بفستان الزفاف، وهي تغادر بيته إلى بيت رجلٍ آخر، ظلّت تُحاصره من الزاوية التي تسلّلت منها الشمس، لكنه ما عاد يملك سوى أن يُسلّم قلبه لله ويُرجو أن يكون القادم خيرًا.

أما عن ليلى فكانت تقف على سطح منزلها تنشر الغسيل على الحبل، لكن النسيم العليل الذي كان يدُبّ حملها إلى مكان أبعد من فناء الدار، إلى قلب أُمٍّ يقف على أعتاب تغيير لا يُستهان "زواج ابنتها".

إيليانا كانت في غرفتها مُثقلة، جسدها يرفض النهوض ليس كسلًا وإنما من حزنٍ لم يُشفَ بعد. السواد تحت عينيها فضح بقايا بكاءٍ لم تهدأ نيرانه بعد، كانت تنظر من النافذة حيث خيوط الشمس تلامس وجهها الحزين، في عينيها الناعستين بحرٌ من الشرود إلا أن أنفها لا زال يلتقط أثر رائحته، ربما مرّ للتوّ من هنا حضوره لا زال عالقًا في تفاصيل الغرفة... على وسادتها على حواف ستارتها، في هواء هذا الصباح المختلف..

ضمت الغطاء إلى صدرها، ثم همست لنفسها:

« سأسمع ما يخنقني حقا ...لن أستطيع أن أسمع عن رجلٍ غيره... دون أن يصرخ قلبي» شعرت بخطواتٍ تقترب من باب غرفتها،وكانت ليلى تحمل فنجانًا من الحليب الساخن بيدٍ، وفي الأخرى قلبًا مليئًا بالحيرة والرجاء.

طرقت الباب:
— إيليانا.. هل أنتِ مستيقظة؟
_ نعم، أمي... أنا مستيقظة.
ترددت ليلى لحظة، ثم قالت:
— أأدخل؟ معي حليب وفكرة أود أن أُحدّثكِ عنها.
شدّت الغطاء عليها أكثر وفتحت ليلى الباب ببطء، تعرف أن الحوار القادم لن يكون سهلًا لكن لا مفرّ من الطرق على باب القلوب، حتى لو كان الخوف هو ما يفتح أولًا.
وضعت فنجان الحليب على الطاولة الصغيرة بجوار السرير ثم جلست بهدوء على طرفه، تُراقب ملامحها الشاحبة وعينيها المرهقتين.. مرّت لحظة صمت ثم قالت وهي تمسح على يدها:
— تبدين متعبة يا ابنتي... هل نمتِ جيدًا الليلة الماضية؟
_ ليس تمامًا... فقط بعض الأرق.
أومأت ليلى بتفهم قبل أن تقول:
— ثمة أمر أردت أن أُحادثكِ فيه أنا ووالدكِ كنا ننتظر الوقت المناسب لطرحه عليكِ.
_ ما هو أمي؟
نظرت ليلى إليها، تزن ملامحها... شيءٌ في ردّ فعلها بدا لها غريبًا هادئًا أكثر مما يجب، لكنها لم تُظهر شكّها وواصلت حديثها:
— جاء رجل لوالدكِ يطلبكِ للزواج... وقد تحدث معه مطولًا وبدا له جادًّ ا ومحترمًا، ولا بد أن نستشيركِ قبل أن

نمضي خطوة أخرى.
أومأت برأسها ببطء:
— فهمت.
لم تسأل من يكون، ولم تستوضح شيئًا، وهذا تحديدًا ما جعل ليلى تراقبها بدهشةٍ صامتة.
— نحن لن نُجبركِ على شيء، رأيكِ هو الأساس يا ابنتي، المهم أن تأخذي وقتكِ في التفكير.
أومأت مجددًا، لتخرج ليلى من الغرفة بعد أن تركت خلفها صمتًا ثقيلًا يملأ المكان ويضغط على القلب.
إيليانا بقيت جالسة في مكانها تحدّق في النافذة، تنتظر من بدا وداعه الأخير يبدو حقيقيًا لا وعدًا مؤجلًا.
اليوم مضى باهتًا...
صوت صنبور الماء، ضوء الشمس، صوت المذياع، روتينها... كل شيء بلا روح.
الصلاة فقط هي من كانت تهدّئ روعها. لم تكن تبكي لكنها لم تنجُ من الإنهاك، تجرّ نفسها من ساعةٍ لأخرى دون معنى.
ومع اقتراب المغيب جلست في غرفتها على طرف السرير تراقب غروب شمس وقتها المُحبّب، حتى طرق والدها الباب:
— إيليانا... هيا يا ابنتي، العشاء جاهز.
أجابت تحاول أن تُخفي اضطرابها:
— شكرًا أبي... أكلت قبل قليل، لا رغبة لي.
لكنه لم يكتفِ بالرد، دخل الغرفة وجلس بجانبها، واستنتج من نبرة صوتها أن شيئًا يُثقلها؛ شُحوب، نظرات ساكنة، والبريق المعتاد في عينيها غائبٌ تمامًا.

ليقول:
— أعلم أن ما سمعته اليوم ربما أربككِ، لكن الزواج يا ابنتي سُنّة اللّٰه في خلقه. الفتاة لا تبقى صغيرة إلى الأبد، ولا تبقى تحت جناح والدها. في النهاية يأتي رجل ويطرق الباب، لتمارسي دور الزوجة بعد أن كنتِ في دور الابنة، مثل أمكِ، مثل جدتكِ، ومثل ومثل... هذه المراحل يا ابنتي لا بد أن تمرّ بها كل أنثى ونحن لا نُرغمكِ، بل نفتح لكِ بابًا لتؤسس حبيبتي عائلةً طيبة، وتنجب ذرية صالحة تعبد اللّٰه وتخدم المجتمع في الخير والخيار بيدكِ.
سكت قليلًا، ينتظر منها ردًّ ا، لكنها اكتفت بهزّ رأسها إيجابًا ونظراتها عالقة في نقطة بعيدة، لا ترى أمامها إلا الغياب.
كل ما كان يسكنها سؤال واحد: «ألن يعود؟»
لاحظ والدها صمتها الطويل وشحوبها، ثم قال بنبرة يغلبها اللين:
— أعلم أنكِ متعبة اليوم... ولم أُرد أن أُثقل عليكِ لكن دعيني أقول لكِ شيئًا عن هذا الرجل، لعلّكِ تطمئنين.
رفعت نظرها إليه، لا شيء في عينيها سوى الإرهاق، ولا رغبة لها في أي نقاش لكنها لم تقاطع والدها.
تابع خالد، وهو يضع يده على ركبته:
— هو شاب محترم على خُلق، يشهد له الناس بذلك. يعمل بجد وله سيرة طيبة بين من يعرفه، ولم يُسمع عنه إلا الخير.
تأمل وجهها مرة أخرى، ثم أردف:
— لم يطلب رؤيتكِ عبثًا... بدا عليه الاحترام والنية الصافية. لم ألحظ فيه تصنّعًا ولا غرورًا، تحدّث بأدب وأظهر رغبة جادة... وأنا كأب، لا أبحث عن الثراء ولا الألقاب بقدر ما أبحث عمّن يصونكِ ويخاف اللّٰه فيكِ.

لم يكن في حديث أبيها ما يُسيء، بل كله طيب، لكنه في نظرها ليس نِيوار الذي لم يعرفه أباها ولن يعرفه أحد.
— سأفكّر يا أبي... فقط، أعطني بعض الوقت.
ربّت على كتفها برفق، وقال:
— لكِ كل الوقت يا ابنتي... لكن لا تضيّعي على نفسك خيرًا قدّره الله لكِ.
خرج وترك الباب مواربًا، والصمت خلفه يهبط كستارة على قلبها المثقل.

♡♡♡

كان الليل قد لفّ أرجاء المكان بلونه الأزرق، فيما ظلّ نيوار واقفًا في فناء البيت عند الشجرةٍ التي لطالما غافلته ليقطف منها لحظة قربٍ معها، يمدّ بصره نحو نافذة غرفتها التي لا تزال مضاءة بخفوت.
لم يكن بإمكانه أن يقترب أكثر... لم يأذن له المقام ولا الظرف، ولا قراره.
اكتفى بأن يراقبها بصمتٍ من البعيد، وعيناه تتوسّلان للنافذة أن تكشف له أكثر، أن تمنحه لمحة أطول. كانت هي جالسةً على مكتبها بنظرات تائهة وحركة جسدها بطيئة، مرهقة.
رآها تمسح خدها كأنها تُبعد أثر دمعةٍ جديدة، أو أثر دمعةٍ قديمة لم تجف بعد.
ليتها تعلم كم هو هنا، كم يشتاق، وكم يُمنع. لم يعد قادرًا على التواصل معها كما كان، فالقرار قد اتُخذ والحدّ قد وُضع، وعاهد نفسه أن يتركها لعالمها وحيث تنتمي. ظلّ واقفًا هناك ساكنًا يردد: «كم من العذاب أن تراها تتألم ولا تُعانق، كم من الجمر أن تسمع نداء قلبها... ولا تُجيب، لكنني وعدت... ولن أحنث.»
تراجع خطوة ثم أخرى... وظلّ يحدّق في نافذتها من بعيد حتى اختفى الضوء المنبعث، وعلم أنها نامت.
عندها فقط غادر الفناء بصمت، وهو يحتضنها بدعواته.

في الطابق العاشر من مبنى زجاجي أنيق، كانت المصابيح تنعكس على مكاتب شركة "أصول التجارية"، حيث اعتاد "إلياسيف" أن يقضي نهاره بين الملفات والعقود ومقابلات العملاء.

ذلك اليوم كان يعمل إلى جانب والده، السيّد "إيهاب" المؤسس والمدير التنفيذي، رجل ستينيّ يحمل في وجهه وقار التجربة.

في منتصف النهار بعد أن فرغا من اجتماع طويل مع أحد الشركاء جلسا سويًّا في غرفة الاجتماعات الصغيرة يشربان قهوتهما المعتادة بعد الغداء.

قطع الأب الهدوء بنظرة جانبية سريعة، وقال:

— هل تحدّثت مع والدها؟

رفع إلياسيف نظره مجيبًا بثقة:

— نعم، تحدّثت إليه.

_ إذًا آن أوان الرؤية الشرعية.

تأمل إلياسيف فنجانه قليلًا قبل أن يقول:

— أريد أن يتم الأمر بما يليق.. لقاء رسمي بكامل الاحترام.

أومأ الأب بإعجاب:

— وهذا ما يليق بعائلة مثلنا...

ثم أضاف :

— لكن أخبرني، ما الذي جذبك إلى هذه الفتاة؟ أنت لا تتكلم كثيرًا عن النساء.

ابتسم إلياسيف وقال:

— ربّما لأنها لم تحاول أن تلفت انتباهي. كانت مختلفة... فيها شيء من البساطة، من الاتزان. أحسست أنها مثالية لبناء أسرة متكاملة معها.

تمعّن الأب في ملامح ابنه، ثم قال:
— أحيانًا يا إلياسيف يكون القلب أصدق من أي منطق... لكن تذكّر دومًا أن الاختيار ليس لحظة إعجاب، بل بداية مسؤولية.
_ وأنا مستعد لها يا أبي.
قام إيهاب من مقعده، وهو يلتقط هاتفه:
— جيّد، إذًا سنحدّد موعدًا مع والدها..

غادر إلياسيف المكتب في آخر اليوم وقد اشتدّ به التفكير...
تُرى هل أخبرها والدها؟ هل ستوافق؟ كيف سيكون شكلها عن قرب؟
لم يكن يدري أن في المدينة المجاورة كانت هي تقف خلف نافذتها، تعدّ ساعات النهار الطويلة وفي قلبها عاصفة هوجاء..
مرّ اليوم الأول، ثم الثاني، فالثالث... وإيليانا ما تزال على حالها وكأن الزمن اختار أن يمرّ من حولها دون أن يمسّها أو يُنقذها.
تمضي أيامها في روتينٍ باهت تستيقظ، تؤدي صلاتها، تذهب إلى حلقة التحفيظ، تعود تساعد أمها بصمت ثم تنسحب إلى وحدتها وتذوب شيئًا فشيئًا في غيابٍ مرير.
حتى في الحلقة التي طالما كانت فيها نجمة بين الطالبات أصبحت تنطفئ.
كانت تحفظ بيسر، بوجهٍ مشرق، بعينين تلمعان حين تضبط موضع الآية، أما الآن فكل شيء تغيّر. تتعثّر عند أول آية، تُكرّر دون أن تحفظ وتتراجع عمّا كانت تحفظه من قبل.

المعلمة التي لطالما أثنت عليها، بدأت تنظر إليها بشيء من القلق. لم تعد تلك اللمعة ولا ذاك الحماس؛ صوت قلبها لم يعد يسكن معها، غارقة في صمتٍ لا يسمعه أحد.

نيوار لم يظهر لا رسالة، لا همسة، لا طيف.

اشتياقها ينهشها كل لحظة. تحاول أن تداري الحزن أمام والديها تنسحب فور ذكر "الخاطب"، مجرد ذكره يُنهك روحها.

وفي إحدى الأمسيات، حلت جدتها ضيفة على المنزل.

كان الجوّ لطيفًا والسهرة دافئة، وقد أعدّ خالد وليلى مائدة عشاء عامرة بالأطباق، ترحيبًا بالأم العزيزة التي جاءت خصيصًا لحضور جلسة التعارف بشأن ابنة ابنها.

جلس الجميع في السهرة يتسامرون ويتبادلون الحديث بودّ، حتى قال خالد وهو يسكب الشاي بابتسامة:

— زيارة الغد ستكون جلسة تعارف أولى، لا أكثر.

رفعت إيليانا رأسها ببطء، وقد ارتسمت على وجهها دهشة صامتة:

— زيارة؟ أي زيارة؟!

نظرت إليها ليلى، بدهشة أكبر:

— إيليانا... ألم أخبركِ بالأمر مساءً، ونحن نُحضّر العشاء لجدتك؟ قلتُ لكِ أنهم سيأتون غدًا لرؤيتكِ رسميًا!

أضافت الجدة:

— وجئتُ أنا خصيصًا يا حبيبتي... لأكون معك في هذا اليوم المهم.

أدركت في تلك اللحظة أنها كانت هناك، جسدًا فقط.

الكلمات قيلت لها لكنها لم تسمعها، غاب دون وداع وأصابتها حيرة لم تعرف لها قرارًا.

ضحكت ضحكة صغيرة، وقالت بارتباك:
— كنتُ أمزح فقط... طبعًا سمعتكِ. نسيتُ لا أكثر.
ثم بدأت تُغيّر مسار الحديث ببعض التعليقات بينما تحاول أن تُبعد العاصفة التي هاجت بداخلها.
ألحّت الجدة عليها بالبقاء للسهر، اعتذرتٍ برغبة في النوم وصعدت إلى غرفتها بهدوء متحججةً بالإرهاق.
وحين غابت، تبادل الحضور نظراتٍ مضمرة.
لتقول ليلى:
— أقسم أنني أخبرتها!
ردّ خالد وهو ينظر نحو الدرج:
— ربما لم تسمعكِ؛ كانت شاردة في أمرٍ ما؛ يحدث هذا.
لكن ليلى أضافت بصوتٍ منخفض:
— نظرتها كانت... غريبة كأنها لم تكن هنا أصلًا.
تداخل صوت الجدة:
— وهل يُستغرب ذلك؟ البنات حين تُطرح عليهن فكرة الزواج يُربكن. فكرة الانتقال من بيتٍ إلى آخر من عائلةٍ إلى عائلة، من أمانٍ معلومٍ إلى مجهول ليست سهلة، خاصة لفتاة حساسة مثلها.
رفع محمود حاجبيه، وقال بنبرةٍ فيها من الغرابة:
— لكنّي أرى البنات يفرحن ويرحبن بالفكرة ويتحدّثن عنها بحماسة!
ابتسم خالد قائلا:
— من هؤلاء البنات اللواتي رأيتهن؟!
انفجر الجميع ضاحكين، وكأن تعليق الجدة قد دفأ قلوبهم وخفف من وطأة الصمت الذي خلّفته إيليانا.

في الطابق العلوي... كانت تلك الشمعة المنطفئة تجلس على طرف سريرها، تُخفي دمعها تحت وسادتها وهي تحدث نفسها: «غدًا سيأتون... لكن قلبي لا زال ينتظرك!»

تنوء بصمت الليل، وقد تهاوى جسدها كغصنٍ أثقله المطر، ارتجف صوتها واهتز صدرها بالشهيق الموجع، تخاطب الغائب الذي لم تُطفئ له نار الشوق: «أنسيت من كنتَ لها وطنًا وسَكنًا؟ أيعقل أن ترحل عني دون وداع وتتركني في اللحظة التي أنا بأمسّ الحاجة إليك؟ مشتاقة أنا لذاك الحنوّ الذي كنتَ تغمرني به إذا اشتدّ عليّ ضعفي؟»

شهقت شهقة طويلة خرجت من أعماق صدرها: «كنتَ تقول لا أحبّ دمعكِ، فلماذا لم تأتِ لتجفّفه عن خدي؟ تكره أن أكون ضعيفة فأين أنت الآن وقد تكسّرت قواي، وتاهت خطاي؟ ألهذه الدرجة كان حضورك وهمًا؟»

ثم مسحت دموعها بظهر كفها، وقد استحال صوتها رجاءً ممزوجًا بانكسار:

«لو كنتَ سترحل، فلماذا ظهرت من الأساس؟ لماذا جعلت قلبي يفتح لك أبوابه ويزهر بين يديك؟ كنتُ أظنّك حبًا مختلفًا، حبًا لا يُشبه حكايا الفتيات ولا ينكسر مع أوّل منعطف.»

ساد صمتٌ مرير، ثم تابعت: «إن كنتَ لا تنوي الرجوع... فعلى الأقل، قل شيئًا... أي شيء... كذبةً تُهدّئ رجفتي أو وهمًا أسندُ عليه خيبتي... حتى لو لم تكن كذلك.»

ثم طأطأت رأسها على وسادتها، وهمست بدموع تهطل كسيلٍ جارف: «أخبرني... كيف تجرؤ على الرحيل، وأنا لا أزال أكتبك في دعائي، وأنتظر وجهك في نومي، وأتشبّث بذكراك كالغريق؟»

حاله لم يكن مختلفًا عن حالها كثيرًا...
تحت شجرة الأنيورا، جلس في ذات البقعة التي ضمّته ذات ليلة يوم كان يصارع نبضه قبل أن يظهر لها لأول مرة. تلك الشجرة العتيقة كانت شاهدةً على أول اعترافٍ لم ينطقه وعلى أول انكسارٍ في قلبٍ لطالما ظنّه معصومًا عن الهوى. في ذلك اليوم أقنع نفسه أن ما يشعر به مجرد زيغ وسيتغلب عليه، وها هو اليوم يعود بذات الشعور، ولكن بعد أن ضيع بوصلته وبعثره قطعا يصعب التئامها.
مدّ يده نحو الجذع الفضيّ، فارتجف الضوء تحت أنامله كأن الشجرة نفسها تذكّره بما حاول نسيانه بما أقسم ألا يقع فيه.
ليقول بنبرة منخفضة جدًا:
— عدتُ إليكِ يا أنيورا... عدتُ كما كنتُ، غارقًا في صراعي يوم جلستُ هنا لأول مرة، كنتُ أهرب من شعورٍ لم أجرؤ على تسميته واليوم أهرب من ذات الشعور... لكن بعد أن ضيّعني تمامًا.
ثم أغمض عينيه بشدّة استشعر قلبه احساس بعيد... ذبذبة رقيقة تخترق الحُجب بين العوالم وتصل إليه!
لم يسمع صوتها لكنّه تيقن أنها بحاجة إليه، ترددات بكائها المتقطّعة كانت تتردد على مسمعه كالصدى تهزّ داخله وترتطم بجدران روحه فيتداعى معها تماسكه. ارتعشت أنفاسه وضغط بكفّه على صدره يحاول إخماد شعلةٍ تستعر في أعماقه.
رفع نظره إلى الشجرة التي بدأت أغصانها ترتجف من حرارة صمته يقول بمرارة:
— يا ليتني لم أعلن عن حضوري، يا ليتني تركتُكِ تكملين قدركِ دوني كما كُتب لكِ. إلا أن القلب فعل فعلته بي!

وكيف لا يجرؤ ويتصيّد قلبًا لم يجرب هذا الشعور العميق أبدًا؟ أطلّ عليكِ... فاهتزّ لكِ دون أن يحسب حسابًا.

أقنع نفسه أن الابتعاد هو النجاة أن يدعها تكمل حياتها كما ينبغي أن يعود قلبه خاليا مرتحًا، لكنه لم يفلح ففي أعماقه كان يعلم أن حبّها لم يُلقِ في قلبه نورًا بل لهيبًا لا يُطفأ.

قرر التوجه إلى قاعة الصفاء الأعظم داخل القصر..

كان المكان يغمره سكونٌ مطلق، لا يُسمع فيه إلا خفق الضوء بين الجدران البلورية. جلس في موضعه المعتاد فوق البساطة التي تتوهج بنسيج من ضوء، مغمض العينين، متضرّع اليدين، يحاول أن يشحن طاقته ويطهّرها.

بدأ يتمتم بأدعية التجريد... دعوات الانفصال عن كل ما يربك القلب أو يشدّه إلى المحظور، لكنه سرعان ما شعر بالاضطراب لم تكن أنفاسه ساكنة، كانت تنبض باسمها وملامحها وذكرياتها.

حاول أن يصرفها، أن يمحوها من خياله كما يُمحى الضوء من مرآةٍ مغبّرة، لكنها كانت مسيطرة عليه تمامًا.

زفر تنهيدة مرتجفة، تشقّ طريقها بين صدره والهالة النورانية المحيطة به.

فتح عينيه وقد تعرّقت جبهته تعرّقًا يخص طبيعته، وقف من جلسته دفعةً واحدة، ثم دار حول نفسه كأنه يحاول أن يتخلّص من ثوبٍ شفافٍ عالقٍ به... اقترب من أحد الجدران الضخمة ووضع راحتيه عليه، توهّجت النقطة التي لامسها، تنبض بألمه وتشاركه عجزه.

ثم قال بصوتٍ متهدّج:

— هذا جزاء من لم يغض بصره عن محارم الله..

ثم تابع بتحسّر:
— أعلم أنها فتنة أُختبر بها قلبي، ولم يكن أهلًا للتقوى ليصدّ ذلك.
اشتعلت شعلة في أحد أركان القاعة، توهّجت فجأة ثم خمدت بلون قرمزيّ... حقًا أهلكته شدة التمنّي وقلة الحيلة.

♡♡♡

في بيت إلياسيف

كان الصباح ينشر نسائمه عبر الشرفة المطلة على حديقة البيت يوقظ الذكرى من سباتها.
اجتمع الثلاثة على طاولة الفطور السيد إيهاب وابناه إلياسيف وعاصم.
كان الجوّ هادئًا لكنه لم يكن خاليًا من الامتلاء.. ابتلع إلياسيف لقمة ثم رفع نظره إلى والده وقال بحزن:
— رأيتُها ليلة البارحة.
توقف الأب عن تناول لقيماته:
— وكيف كان الحلم؟
ردّ إلياسيف والحنين يبلل صوته:
— وقفت على الباب، لم تكلمني... فقط نظرت إليّ تلك النظرة التي تسبق كلّ كلام.
تنحنح عاصم قائلا:
— ربما أرادت أن تزورك لتطمئنك!
ليقوللأب بصوتٍ غائم:
— ما كانت تفوّت يومًا مهمًا في حياة أحدكم دون أن تسبقكم بدعائها؛ ترعى تفاصيلكم باهتمام.

ارتجّ قلب إلياسيف وقال بشرود:
— حقًا، فقدان الأم يجعل كل شيء بلا طعم... لو كانت معنا اليوم لكانت أول المستيقظين؛ تحضر لي الثياب بشغف وتضمني بحنانها في كل حركاتها.
ابتسم عاصم بمرارةٍ دافئة:
— بل كانت ستوصيك أن تكون ليّن القلب... كانت تقولها لي دائمًا: «يا عاصم، البنات لا يستهويهن الطيش، كُن ليّنًا محترمًا حين تنوي الاقتراب.»
ضحك الجميع ضحكة ممزوجة بالشوق، ثم قال الأب وهو شارد العينين يستحضر ذكراها:
— ترك رحيلها فؤادي فارغًا كفراغ الجُبّ من الماء، وتركت ذكرى في كل زاوية من البيت.. الحياة معها وبعدها مختلفة جدًا.
عمّ الصمت قليلًا..
— هيا يا أولاد، تناولوا فطوركم... يحصل خير.

♡♡♡

كانت رائحة النظافة تنبعث من كل زاوية، تدلّ على يدٍ مرتبة وقلبٍ مشغول بالتفاصيل. السيدة ليلى كانت تجوب الغرف في صمتٍ نشيط؛ تفتح النوافذ لتُدخل الضوء، تعدّل الستائر، وتعطّر الجو، تجهّز كل شيء كما يليق بيومٍ سيأتي فيه غرباء ليطلبوا قلب ابنتها.
إلى جانبها، جلست الجدة على الكرسي لتقول وهي تنظر إلى ليلى بعينٍ فيها دفء الذكرى:

«أتذكر خالد... يوم خطبتكِ كان لا يعرف أين يضع خطواته؛ جلس أمام والدك وكأن الكلام هرب منه، لا زلت أتذكر كيف كان مرتبكًا».

ضحكت ليلى وردّت وهي تمسح الغبار:
— أما أنا فكنتُ في الغرفة أعدّل هيئتي مرّة بعد مرّة، وكلما سمعت صوت الباب تخيّلتُ أنني سأسقط من قلبي قبل أن أخرج!
سكتت لحظةً بعد أن تبادلت الضحك مع أم زوجها، ثم نظرت إلى الطابق العلوي وقالت بصوتٍ فيه رجاء:
— إيليانا لا تزال في غرفتها، لم تنزل حتى الآن!
ابتسمت الجدة وقالت بثقة الأمّهات:
— لا بأس... كل البنات يرتبكن في مثل هذا اليوم، هذا قلبُها يتسابق مع الوقت، وستهدأ حين ترتدي ثوبها وترى في المرآة أنها ستصبح عروسًا تُنتظر.
ثم نهضت وهي تقول:
— سأصعد إليها لأطمئن.

قلبها كوردة مطوية فى كف غائب

كانت مستلقية في سريرها، عيناها مفتوحتان على فراغ السقف وفكرها تائه، وجهٌ شاحب، ونبضٌ بارد. في روحها ريحٌ لا تهدأ، تتوق لشيءٍ بسيط منه؛ رسالة، نظرة، حتى حلم! لكن لا أثر له لا في ليلها ولا صباحها، وكأنّ الكون أغلق كل النوافذ التي كانت توصلها إليه.
في تلك اللحظة سمعَتْ طرقًا خفيفًا على الباب
فأغمضت عينيها وتظاهرت بالنوم، لعلّ اللحظة تمر دون أن تُسأل عمّا لا يُقال.
دخلت الجدة تناديها بصوتٍ مغموسٍ بالمحبة وهي تقترب من السرير:
— ما زلتِ نائمة، يا إيليانا؟ هيا يا ابنتي... الشمس بلغت كبد السماء.

— أين أنتِ من التحضيرات؟ يفترض أن تكوني أول من يضع لمسته، وأول من يُشعل بهجة البيت.
_معكِ حق، لم أشعر بالوقت... لم أدرك كم مرّ من الوقت وأنا نائمة.
نظرت إليها الجدة طويلًا متأملة ملامحها الشاحبة وشرود عينيها ثم قالت:
— ألن تتهيّئي؟ الضيوف على وشك الوصول!
أومأت برأسها إيجابًا:
— سأفعل.
لكن حركة كتفها المرتبكة لم تغب عن الجدة فوضعت يدها على يد إيليانا وقالت برفقٍ خبير:
— أنا امرأة عبر بي الزمان أقرأ من الوجوه ما لا يُقال... ابنتي هل هناك من تحبّينه؟ هل سبق هذا الرجل أحدٌ إلى قلبك؟ أعرف أنكن يا بنات هذا العصر لا تخلُ حياتكن من العلاقات!
رفعت نظرها إلى جدتها ثم انفجرت ضاحكة بضحكةٍ باغتتها كما يباغت المطر أرضًا عطشى:
— يا جدتي... آخر ما كنت أظن أن تفتحيه هو هذا الحديث!
ثم تابعت بمزاح:
— لا، لا يوجد أحد... ولست من محبّات العلاقات الغرامية.
هزّت الجدة رأسها وقد انفرجت أساريرها:
— حسنًا إذن... لا داعي لقفل قلبك يا ابنتي، فالخيرة فيما اختاره اللّٰه.
ثم قالت بحزم:
— هيا، تجهّزي، وانزلي إلينا.

وقبل أن تكملا حديثهما دخلت ميلينا تقفز بفرح:
— إيليانا، جاء الذين يريدون أن يخطفوكِ من بيتنا!
ضحكت إيليانا والجدة، ثم فتحت ذراعيها وقالت:
— لا يا حبيبتي، لن أُغادركم بسهولة.
قبّلت يدي أختها بحنوّ وأضافت:
— ما رأيك أن أنزل الآن وأطردهم جميعًا؟
نظرت ميلينا إليها بدهشة صادقة:
— لكن هذا تصرّف غير جيّد!
عانقتها من جديد:
— أنتِ محقّة يا حبة فؤادي... كنتُ أمزح فقط لن أطرد أحدًا.

جلست أمام مرآتها تُضمد قلبها وتُمرّر أناملها على خدّيها برفق تُخفي ببعض المساحيق ما لم يُخفِه الليل... ذلك الشحوب الدفين وذلك الانطفاء. كانت تضع لمسات المكياج لا لتتجمّل بل لتتستّر لعلّه يُقنع من يراها بأنها بخير، ولعلّه يُقنِع قلبها أيضًا!

وكلّما مرّ في البال ذكراه، أغمضت عينيها بشدّة، تحمل في جوفها بُحور الشوق وغصّةً تُشبه ألم الأسنان، لكنها في الروح والقلب. شعرت وكأنها تُخنق بيدين غير مرئيتين، شعورٌ قاسٍ... قاسٍ حتى العظم لكنها ابتلعت الوجع مثلما تبتلع القرص المرّ دون ماء.
استحضرت قوتها ووقفت بثبات مزعوم.. ارتدت فستانها الأسود ذاك الذي يضيق عند خصرها ويسترسل إلى الأرض، شعرها فقد سرّحته بهدوءٍ، وتركته ينسدل بنعومةٍ على كتفيها، خصلة صغيرة على جانب وجهها؛ ربما ظلّ ذكرى!

وقبل أن تراجع مظهرها للمرة الأخيرة دخلت ليلى بابتسامةٍ مليئة بالتوتّر الدافئ:
— يا حبيبتي... الضيوف وصلوا.
نظرت إلى أمّها كأنّها تحتاج إذنًا كي تنزل أو عناقًا كي تقوى
اقتربت ليلى ورفعت يدها تلامس وجهها:
— هيا يا زهرتي العائلة كلها تنتظر رؤيتك...

سادَ في غرفة الضيوف صمتٌ يشبه الترقّب وتبادلت العيون النظرات، والكلمات القليلة خرجت من أفواه الأمّهات بتأنٍ مدروس تشير إلى الضيافة وكرم البيت وتُخفي ما يدور فعلاً في القلوب.
جلس إيلياسيف إلى جانب والده وأخيه عاصم وقد دخلت هي بخطواتٍ واثقةٍ من الخارج مرتجفةٍ من الداخل.

كلّ شيء فيها بدا هادئًا جدًا، جميلًا جدًا، حزينا قليلا كثيرا.
نظرت نحو الجمع بنظرةٍ سريعة ثم خفضتها بتلقائية وقعت عيناها في عيني إلياسيف الذي كان ينظر إليها بتدقيق..
جلست على الأريكة الأقرب إلى والدتها تحاول أن تبدو طبيعية ودقات قلبها بلغت عنان السماء.
كسر صوت الجدة اللحظة الرتيبة لتقول بنبرة العجائز:
— هيا يا إيليانا، لا تجلسي مثل من ينتظر حكمًا... ابتسمي قليلاً!
ابتسمت ابتسامة تقول فيها: «أنا هنا، لكن ليس كلّي هنا».
كانت تلك اللحظة بسيطة في ظاهرها، لكنّها حملت في طيّاتها بداية ثقيلة جدًا.
في ذات الغرفة المضاءة بنور الشمس المنبعث من بين الستائر كانت رائحة القهوة تعبق في الجو، تمتزج بعطرٍ خفيفٍ يفوح من ملابس النساء وبطنين الأكواب حين توضع على الطاولة. امتدت نظرات من عينيها إلى حيث يجلس هذا الخاطب

التقت عيناها بعينيه و تبادلا ابتسامةً حملت في طيّاتها تعبير رجلٍ لم يعرف بعد ماذا يقول، لكنه أراد أن يكون لطيفًا، أن يكون قريبًا، وأن يُطمئن تلك العينين الخائفتين قليلًا.
لم يكن هذا التبادل وحده من شهد عليه الوقت؛ فعند المدخل وقف ظلٌّ يراقب. شخصٌ لم يُدعَ إلى هذا الجزء من اللحظة، لكنه تسلل إليها دون استئذان.
عيناه كانتا تتأملان تلك الابتسامة التي لم تُمطر عليه دفئًا كما كانت تفعل؛ صمتٌ خفيّ تمدّد في الزوايا، والمشهد رغم هدوئه بات مشحونًا!
لمحت بطرف عينها حركةً سريعة عند الباب وعيونًا متقدة تنظر صوبها، وما إن لمحتها حتى اختفت، انطفأت ابتسامتها كشمعةٍ باغتها الريح وانصرف قلبها عن اللحظة.
أغمضت عينيها لثانية تحاول استجماع ما تناثر منها ثم تنفّست بهدوء؛ أحسّت أن قلبها المكسور عاد ينبض في مكانه، لا لأن الخاطب أعجبها، بل لأن نيوار لم يرحل كليًا فهي متأكدة أنه هنا.
راحت تراقب الوجوه، تستمع وتجيب وتبتسم بعفوية..
شيئًا في داخلها لم يكن حاضرًا بالكامل، إذ ظلّت أطراف روحها معلّقة عند تلك اللمحة السريعة التي أربكت نبضها كله.
تململت قليلًا في مكانها ثم مالت ناحية أمها وهمست بشيء، فهزّت ليلى رأسها برفق. استأذنت بلطف وخرجت من الغرفة بخطواتٍ ثابتة لكنها في داخلها كانت تركض، وبين ضلوعها ارتباكٌ لا تُجيد تهدئته.
أكان نِيوار حقًا؟ أم خيالٌ اشتاقت له فرسمته الظلال على جدران الغياب؟

اتكأت على جدران البهو تغمض عينيها بقوة شعرت به قريبًا قُرْبًا لا يُشرح، ثم صعدت السلالم بعجلة ولم تستطع أن تمنع نفسها من الالتفات مجددًا تفتش..
دخلت غرفتها وأغلقت الباب خلفها واستدارت تتوقّع المفاجأة التي تتمناها منذ أيام، عينها تسابق الزمن و تتنقل بين الزوايا، بين الستائر والفراغات، لكن لا أحد.
تحدثت بصوت أقرب للرجاء:
— نيوار... أنت هنا؟
رد عليها "السكون".
اقتربت من منتصف الغرفة، تنظر وتلتفت، تبحث عن أي علامة.
— أرجوك... إن كنت هنا، لا تتجاهلني.
استنشقت الهواء بشهيق عميق... ثم مرة أخرى بلهفة أكبر، رائحته!
— رائحتك... نعم... مستحيل!
الدهشة شلّت قدميها وقلبها صار يدق بعنف.
— أنا لم أتخيل... لا يمكن أن يكون هذا تخيّلًا!
رفعت صوتها قليلًا، بصوت متقطع متهدّج:
— نيوار... أجبني! لا تعاقبني بالصمت... إن كنت تسمعني، فقط قل أي شيء... أي شيء!
ثم رددت اسمه مجددًا: نيوار، مرة... ومرتين... حتى صار صوته موجعًا في فمها.
اندفعت نحو النافذة، وألقت بنظرها في الفناء في الشوارع..لكن لا ظلّ، لا صوت.
فقط الهدوء وحده كان يكفي ليُذيب ما تبقّى فيها من أمل.
عادت لتجلس على كرسيّ مكتبها، كمن سقط من علياء الانتظار.

وفي تلك اللحظات تناهت خطواتٌ هادئة تقترب من خلف الباب ليُفتح..
وكانت ليلى أمّها واقفة هناك يلفّها قلقٌ صامت، لم تقل شيئًا... فقط أطالت النظر!
تبادلا النظرات ثم أخفضت إيلينا بصرها إلى الأرض، تخشى أن تُكتشف.
صمتٌ لا تقطعه الكلمات ثم قالت ليلى بزبرة مشحونة:
— ماذا دهاكِ؟
رفعت رأسها ببطء تبحث عن صيغة تخفي بها الحقيقة، ثم أجابت بصوت منخفض تائه:
— لا شيء، أمي... فقط شعرت أن اللقاء انتهى فخرجت.
كانت تحاول أن تُخفي ما في صدرها تُغلق على سرٍّ لا يزال طريًّا يتقافز خلف عينيها.
لم تُعلّق ليلى فقط نظرت لها لحظة أطول و أغلقت الباب بهدوء يحمل رأيًا يخالف.
شعرت إيليانا بانكماشٍ في صدرها و فهمت من وقع الباب ومن الصمت الذي سبق الخروج أن أمّها لم تُصدّقها، أو لعلها أحسّت بشيءٍ ما.

مرّت جلسة التعارف ومضى الضيوف.
لم يكن فيهم ما يُعيب، بل على العكس كان الشاب مؤدبًا محترمًا ينتمي لعائلةٍ تُحسن الحضور وتعرف كيف تترك أثرًا طيبًا.
لكن رغم ذلك، الوالدان لم يشعرا بالارتياح التام؛ فهناك ما لم يكتمل في الشعور!

كانت الأمٍ تعلم يقينًا أن ابنتها تُخفي شيئًا، لكنها لم تسأل...
ربما خوفًا من الجواب أو لأن قلب الأم أحيانًا يفضّل الصمت على الانكسار.
ومرّت الأيام التالية صامتة، تمضي كما يمضي الغبار على نافذةٍ لا تُفتح.
كل يوم يشبه ما قبله، إلا في قلب إيليانا؛ فداخله كانت العواصف لا تهدأ. كانت تعيش في هدأةٍ ثقيلة تتقلب بين ذاكرةٍ لا تنام وشوقٍ ينهش أطراف الوقت. كل ليلة تنتظر شيئًا، أيّ شيء لكن نيوار قطع التواصل كليًا.
أسبوع مَرّ..
والأمل كشمعةٍ في غرفة مفتوحة ينطفئ ببطءٍ كلّما عبر نسيم اليأس. بدأت عيناها تُطفئان وهجهما وصارت تبتسم مجاملةً وتردّ حينما يتطلب الأمر، وتجلس بين أهلها كواحدةٍ تؤدي دورًا لا تؤمن به. حتى إذا ما سُئلت عن رأيها في الخاطب، لم تعد تقول "لا أعلم" بل بدأت تهضم الفكرة.
ليس عن اقتناع إنما عن تعب عن خيبة عن تصالحٍ مُرّ مع واقعٍ لاتريده.

♡♡♡

في مكتبٍ واسعٍ ذي نوافذ عالية تُطلّ على المدينة، جلس إلياسيف خلف مكتبه الكبير المكسو بالزجاج. كانت الساعة تقارب السادسة مساءً والضوء البرتقالي يتسلل إلى المكان يلمع فوق سطح المكتب وينعكس على وجهه الذي بدا ساكنًا... لكنّ ابتسامة طفيفة ارتسمت على شفتيه لمّا لاحت صورتها في ذهنه.
تلك الفتاة الهادئة حدّ الإرباك، صوتها وهي تجيب بخجل

تلك النظرة.. شعر أنه عالق في دوامةٍ لا تخصه، تقف هناك بريئة غير معنيّة بأي شيء يشبهه.
ابتسم من جديد، لكنّ شيئًا في ملامحه تشوّه.
هزّ رأسه ساخرًا، يتلذذ بمشهدٍ مرّ عليه ألف مرة، ليقول محدثًا نفسه:
— تبدو ساذجة... من النوع الذي يُصدّق بسرعة ويسير خلف من يبتسم له بلطف، وأمثالها؟ أسهل من أن يُعوّل عليهن. يكفي أن تُظهر لها اهتمامًا بسيطًا حتى تُسلّمك يدها طواعية.
ثم نفث ضحكة مليئة بالمكر وقال ببرود:
— لا تُربك الطريق... بل تسهّله، ما هي إلا سطرٌ سهلٌ في قصة متكررة. يكفي أن تُمثّل بضع كلمات وستركض خلفك كما تفعل كل الساذجات.
طرقٌ قطع استرساله.
دخل مساعده الخاص، شاب ثلاثيني بملامح جامدة قائلا:
— ضيوفك وصلوا، سيد إلياسيف!
ردّ دون أن ينظر إليه:
— دعهم يدخلون.
دخل أربعة رجال يرتدون بذلات أنيقة ملامحهم حادة، خطواتهم محسوبة، كلٌ منهم يحمل حقيبة جلدية صغيرة.
تبادلوا المصافحة، ثم جلسوا على الكراسي المقابلة.
بدأ أطولهم قامة الحديث:
— الكمية وصلت أمس عبر البحر... التخزين تمّ، لكن هناك تغيير في نقطة التوزيع؛ فالشرطة بدأت تراقب الميناء عن كثب.
أومأ إلياسيف ومدّ يده إلى كوب القهوة وأخذ رشفة، ثم قال ببرود:

_نغيّر النقطة، لكن لا نغيّر الإيقاع... الزبائن يثقون في انتظامنا. من يتأخر اليوم، يخسر السوق غدًا.
ردّ آخر كان يجلس أقرب إليه:
— المختبرات في الجنوب طلبت ضعف الكمية هذا الشهر، لكن الخام تأخّر من الحدود.
رمقهم إلياسيف بنظرة حاسمة:
— ما يهمّني ليس الطلب... بل السمعة. النوعية لا تقلّ عن 97%، وإلّا نحرق الحمولة ونبدأ من جديد.
ضحك أحدهم ضحكة خشنة وقال:
— الناس صاروا مدمنين على منتجك، إلياسيف. صار اسمك ماركة مخدّرات!
ابتسم إلياسيف ابتسامة باردة هذه المرة، وقال:
— الماركات لا تعني شيئًا إن انهار الأساس... نحن لا نبيع نشوة، نحن نبيع تحكُّم.
ساد صمت لوهلة، ثم قال إلياسيف وهو يدفع أحد الملفات نحوهم:
— التوزيع الجديد، التفاصيل هنا؛ الأسماء، المواقع، وطرق الدفع... لا مجال للأخطاء.
أخذ أحد الرجال الملف وفتحه بسرعة، ألقى نظرةً، ثم أومأ.
عاد إلياسيف ليسند ظهره على المقعد، وحدّق في أحدهم مطوّلًا ثم قال:
— بالمناسبة... سأدخل مرحلة جديدة من حياتي قريبًا.
رفع الآخرون حواجبهم فضولًا، ليقول أحدهم:
— ماذا تقصد...؟
ابتسم إلياسيف، لكنّ ابتسامته هذه المرة حملت شيئًا غامضًا، وقال:
— عروس.

قهقهوا بينهم، بينما ظلّ هو صامتًا للحظة وعيناه تسرحان بعيدًا... لكن ليس نحو حلم بل نحو معضلة؛ فتاةٌ نظيفة أكثر مما يجب وهو غارقٌ بما لا يمكن غسله.
بعد خروج الرجال، بقي إلياسيف في مكانه يعبث بساعته الفاخرة دون اهتمام.
دخل مساعده وقال بهدوء:
— ما رأيك؟ تمّت كما أرادوا.
هزّ إلياسيف كتفيه دون حماسة:
— دعهم يفرحوا. اللعبة هذه المرّة باسمي فليُكملوا التمثيلية.
— أول مرة تكون العروس لك أنت، أليس كذلك؟
— أجل... والفضل لأبي العزيز الذي قرّر أن يزوّجني كي "أعقل".
قالها وسخرية مريرة على شفتيه.
اقترب المساعد وسأله بخبث:
— وكيف وجدتها؟
صمت لحظةً ثم قال:
— ساذجة بما يكفي. لم تشك في شيء كانت تنظر إليّ وكأنها أمام أمير من حكاية.
هزّ رأسه ساخرًا:
— هؤلاء هنّ أسهل الأوراق... يكتبهنّ غيرك، ويصدّقن أنك البطل.
ثم قال مستعدًا للوقوف:
— نعم... هذه المرّة، اللعبة أنيقة أكثر. دعنا نُتمّ الحفل كما أرادوا، ثم تُسلَّم "العروس" لمن يعرف كيف يتصرّف.
لم تكن إيليانا الأولى في مخططهم العفِن؛ أمثال إلياسيف لا يتحرّكون وحدهم..

خلف كل حركةٍ ناعمة خيطٌ غليظ يُمسك به رجالٌ لا يعرفون الشفقة، يتقنون فنّ التمثيل ويتقنون شراء النوايا وقلب العقول بالمال.
كانت البداية دائمًا واحدة رجلٌ "مناسب" يطرق باب العائلة، يقدم نفسه كنموذج للزوج المثالي، مع رجالٍ آخرين يأتون في دور الأقارب، الوجهاء، الضيوف؛ يحسنون الحديث، ويتقنون التطيّب والتخلق. ثم بعد بناء جسر إلى القلوب مرصع بالخداع، يُلقى المال أمام الأب، ليس كثيرًا بما يثير الشك ولا قليلًا يُرفض، بل رقمٌ دافئ كافٍ ليُطفئ أسئلته ويسد حاجياته، ليُخدّر حذره ويُغلف ارتيابه بطبقةٍ رقيقة من الطمأنينة.
هكذا يبدأ الإقناع... لا بالمنطق لكن بالإغراء المُبطن بالثقة.
وكان ضحاياهم دائمًا من سكان الأرياف وتحديدًا أولئك الذين لعب الفقر والاحتياج بحياتهم.

أماني ذات العيون الخضراء والبسمة الحانية والشعر الأسود القاتم، كانت واحدة من ضحايا تلك المنظومة المظلمة التي تُغلف وُجوهها بالابتسامات وتخفي في جوفها أنيابًا تنهش دون رحمة. أماني فتاة جميلة رغم البساطة المتعبة التي تغلّف ملامحها، من أسرةٍ فقيرة بالكاد تملك ما تسدّ به يومها؛ تركت المدرسة في سنٍّ صغيرة لتساعد أمها المريضة. كل صباح تقف أمام التنور، تعجن وتخبز، وتبيع أرغفة ساخنة مع والدها في الطريق.

وذات يوم، اصطفّت سيارة فخمة على جانب الطريق، ليخرج منها رجلٌ أنيق الملبس، طيب المبسم، وقعت عيناه عليها كما تقع الجوارح على الفريسة.

اندهش من جمالها ومن تلك البراءة المخبأة تحت رماد التعب

دفع مالًا كثيرًا مقابل خبزة واحدة، ولم يمضِ وقت طويل حتى عاد... في هيئة الرجل الطيب الذي يريد بناء أسرة؛ اقترب من والدها بلطفٍ مصطنع، وتحدث عن نيّة الزواج، وعن رغبة حقيقية في الستر، ثم دسّ في حديثه وعودًا مغرية... ومبلغًا من المال لم يسبق للأب أن رأى مثله.
استغلّ فقرهم، استغلّ مرض الأم، واشترى الصمت والرضا والسكوت عن أي تساؤل.
فرح الأب رغم صغر سن ابنته، ورغم رفضها... أقنعها بأن الزواج ستر، وأن الرجل يبدو محترمًا ولا بد أنه عوضٌ إلهي على حياتها؛ رأى فيه المنقذ الذي سيبدّل حياة ابنته إلى حياة كريمة.
فكلماته المنمقة المُدجّنة بالعسل المسموم استطاعت أن تصنع غشاوة على عين الأب.
وفي أيامٍ معدودات أقيم حفل الزواج الذي بدا لهم كحلمٍ تحقق.
وما إن ركبت السيارة ليلة الزفاف حتى بدأت الحكاية... لا كعروس، بل كضحية.
نُقلت إلى مكان مجهول، قُطع عنها كل اتصال بأهلها.
وفي مدينة بعيدة لا تعرف اسمها، زُجّ بها في غرفةٍ نائية، تُقفل كل ساعة، وتُفتح كل ساعة...
كانوا يدخلون عليها واحدًا تلو الآخر؛ رجالٌ لا يعرفون الرحمة؛ دفعوا مالًا باهظًا ليغتصبوا جسدها الصغير بشهوة حيوانية، كل ساعة تُستأجر لغرفة.
نزفت أماني، وصرخت، وانهارت... لكن الجدران كانت صمّاء، والقلوب أشد من قسوة الحجر.
وفي عيون أبويها؟ كانت تعيش حلمها الجميل في كنف زوجٍ ثريّ، لا ينقصها شيء.

لكن الحقيقة؟ أن أماني صارت رقمًا في ملفاتهم، وسلعةً تُنقل من يدٍ إلى يد، بينما خبز أمها يحترق في الفرن، تقول في سرّها: "ليتني خبزت العمر... ولم أتزوّج الحلم".

♡♡♡

في هدوء الأيام الرتيبة ووسط اشتياقها العميق لنِيوار الذي رحل بلا وداع، تسير حياتها بنمط متكرر، لكن تلك الأمسية كانت مختلفة.
مرَّ اليوم مثل سابقيه بطيئاً وخامداً دون نبضٍ حقيقي. تمشي في البيت وكأنها ظلٌّ لنفسها تؤدي واجباتها، تبتسم حين يجب، وتختفي سريعاً إلى غرفتها متى سنحت الفرصة.
منذ أن غابَ نيوار وهي ليست كما كانت؛ تشعر أن شيئاً انتُزع منها؛ شيئاً لا يُمكن تسميته ولا استعادته. كان حضوره يُطمئنها حتى في الصمت فكيف بالصوت والهمس واللقاء؟
وحده الليل يشهد على تلك الأشواق حين تضع رأسها على الوسادة وتتذكّر آخر مرّةٍ طمأنها فيها ثم اختفى. لكنَّ غرفتها الآن ممتلئة بذكرياته، ومراياها لا تعكس سوى ظلِّ قلبٍ معلَّق.
وبينما كانت تتهيأ لمساءٍ آخر بلا معنى، سمعت صوت أبيها يناديها من غرفة الجلوس. خرجت بتثاقل وجلست حيث أشار لها.
كان والدها يجلس بشكلٍ رسميٍ أكثر من المعتاد يضع كوب شاي أمامه، وبين حاجبيه شيءٌ من الحيرة الممتزجة بالجدّية. قالَ وهو لا ينظر إليها مباشرة:
— اليوم.. اتصل بي والد إلياسيف.
رفعت رأسها ببطء، خفقةٌ خفيفة تحرّكت في صدرها لكن شيئاً فيها ظلَّ ساكناً لا يتفاعل كما يُفترض. أكمل والدها:

— يريدون تحديد موعد حفل الخطوبة الرسمي.. الأسبوع المقبل. قال إنهم سيقيمون الحفل على نفقتهم، كل شيء جاهز.. فقط يريدون موافقتنا النهائية.
لم تُجب، لم تعترض، عيناها لم تلمعا كما تفعل عرائس الحكايات. كان في قلبها شيءٌ يُشبه الصمت، لكنه أعمق.. ربما خوف لا تعرف مصدره. ابتسم والدها مردفاً:
— أظنّه رجلاً طيباً.. ووالده رجل محترم. ليس هناك ما يدعو للقلق يا بنيتي.
كانت ليلى قد فرغت من طيّ الثياب المغسولة، لتقول بابتسامةٍ وادعة:
— ما رأيكِ يا حبيبتي؟
بملامح شاحبةٍ يكسوها ظلُّ حزن، قالت:
— على أساس إن رفضتُ الآن.. سترفضون وينتهي الأمر؟
لكن في داخلها، كانت همستها الأصدق: "ويعود نِيوار..".
خالد الذي ظلَّ صامتاً للحظات قطَّب حاجبيه وقال بنبرةٍ فيها شيءٌ من الحزم المحايد:
— لستُ ممَّن يُرغمون بناتهم على الزواجٍ، لكني.. لا أرى إلا مصلحتكِ وبحكم العين الأبويّة أراه مناسباً.
صعدت إلى غرفتها بخطى مرتعشة. اختنقت روحها من كل ما يحدث بسرعة؛ ما بال الزمن يُساق بها نحو شيءٍ لا تريد رؤيته!
كل شيءٍ يسير بسرعة نحو هاويةٍ لا ترى قاعها. جلست أمام مكتبها وسحبت مذكّرتها، ثم مسحت دموعها بكمِّ قميصها.
أمسكت القلم وتردّدت قليلًا...كانت الكلمات ثقيلة، تعبر عن وجعٍ لم يُقال وصمتٍ كاد يخنقها. كتبت:«بعنوان "ومضيت وكأنّما أعجبك الفراق وتركت الذي كان بيننا للنار والاحتراق"

"أنت لا تعلم عني شيئاً بعد رحيلك؛ لا تعلم كم تركت فيَّ من ألمٍ وحزنٍ وليالٍ طويلةٍ يغلي فيها الشوق كمرجلٍ لا يهدأ. كأنك حين غبتَ أخذت معك كل شيءٍ جميل، وتركت لي فراغاً يبتلعني في كل لحظة. لا تعلم كم مرّة أمسكت فيها قلمي لأكتب، فأجابني بالصمت.. وبالخيبة.. وبالعجز! كما يفعل الآن؛ لا تعلم كيف أراك في كل وجه، وكيف باتت ذكرياتك تطاردني كظلي لا تفارقني. تركتني عالقة بين ماضٍ ينهشني بالحسرة، وحاضرٍ لا أرغب العيش فيه".
وختمت: "سيظل غيابك جرحاً لا يلتئم، وثغرةً لا تُسدّ... حقاً لست أعرف كيف أعتاد على فَقْدك، ولا متى!".

أغلقت مذكّرتها ووضعت يديها على رأسها تُحاول أن تُمسك دموعها قبل أن تهطل. عيناها تقاتلان البكاء منذ أن رحل والألم في رأسها يكاد يشقّها نصفين. بحثت بيدٍ مرتجفة في درج مكتبها، أخرجت حبّة مسكّن وابتلعتها مع شربة ماءٍ دون تفكير. لم يعد هناك احتمالٌ لمزيدٍ من الوجع؛ حتى جفونها المتورّمة باتت تعجز عن الفتح.
تثاقلت إلى سريرها وشدّت الغطاء فوق جسدها المنهك، أغمضت عينيها على أمل أن يأتيها النوم سريعاً.

لكنَّ الذاكرة خائنة لا ترحم؛ انهمرت صور الماضي تتسلل إلى رأسها كما يفعل المطر على نافذةٍ خريفية صوته حين كان يرتّل لها لتنام، ردوده وهي تحكي له أدقّ تفاصيل يومها، عيناه حين كانتا تحضنانها بنظرةٍ واحدة، جماله الذي لا يتفق مع الجمال المعروف عند البشر، لا أحد سيفهمها فمنطقهم مخالف لمنطقها تماماً بعدما كُشفت عنها الحُجب ورأت ما رأت.
انسكبت دموعها ساخنةً على الوسادة، فقلبت وجهها علَّ الذكرى تخفت، وعلَّ النوم يُنقذها من الهاوية.

هي لحظاتٌ... حتى رأت نفسها في أرضٍ غريبة، الضباب يلفّها من كل جانب.
تلفّتت بقلق... حتى لمحته. كان واقفًا هناك بردائه المعتاد، ينظر إليها بصمت. نادته بقلبٍ مشتعل:
– نـــــــيـــــــوااااار!
أرادت أن تركض إليه، أن تصل إليه بأيّ شكل... لكن كلّما اقتربت، تضاعفت المسافة أكثر والأرض تبتلع خطواتها. أما هو... فظلّ واقفًا، ينظر إليها بلا كلمة، بلا حركة.
استيقظت وهي تلهث، والعرق يتصبّب من جبينها. وبصوتٍ خفيض مهزوز:
– حتى في الحلم... لم أستطع الوصول إليك؟ لماذا؟.. لماذا كل هذا العذاب؟
مرّت الأيام السوداء بسرعة وجاء اليوم الموعود؛ فحفل الخطوبة سيُقام بعد ساعات. تحوّل البيت إلى ساحةٍ تعجّ بالحركة والوجوهِ تُخفي لهفةً وحماسة... إلا وجهاً واحداً.
خالد كان واقفاً في باحة البيت، يُشرف على كل صغيرةٍ وكبيرة، يوجّه العامل الذي ينصب الزينة ويرفع صوته أحياناً إن لم يعجبه شيء؛ يرتدي قميصه المكوّي، ويمسح عرق جبينه بين كل أمرٍ وآخر.
ليلى كانت في المطبخ رفقة أخواتها وأمها منذ ساعات الفجر يُعددن الأطباق، ويتابعن ترتيب الحلويات.
ورغم الإرهاق البادي على وجهها، إلا أن ابتسامةً مصطنعةً كانت ترافقها كلما دخلت إحدى القريبات للمساعدة.
أما محمود، فقد ارتدى ملابس شبه رسمية وراح يتنقّل بينٍ البقالة ومحلّات الزينة، يُحضِر ما ينقص، يساعد والده حيناً ويتلقّى المكالمات حيناً آخر من أقارب يسألون عن الوقت والمكان، فبعضهم لم يأتِ للمنزل منذ فترة طويلة.

ميلينا كانت تتنقل ببهجة بين الغرف، تُجرّب الفساتين وتساعدها إلين على لفّ شعرها وتضحك بين الحين والآخر. فناء المنزل بدأ يكتظّ بالأقارب والأحباب، والبيت امتلأ بأصوات الملاعق على الصحون وأجواء الحفل كما هي العادات؛ نساءٌ يقفن عند المرايا يتأكّدن من ثبات حجابهنّ وزينة وجوههنّ.

لكن إيليانا كانت هناك في الطابق العلوي خلف بابٍ مغلق، لا صوت لها ولا مشاركة.

جسدها حاضرٌ في البيت لكن قلبها كان في مكانٍ آخر تماماً؛ عيناها شاخصتان في السقف والدمع محبوس بين الرمش والرمش . تراقب احتفالاً لا يعنيها وكأن العروس ليست هي.

وبينما هي كذلك سمعت طرقاً على باب غرفتها، فازداد خفقان قلبها وانقبض صدرها:

_لا شكّ أنهنّ أتين ليسألنني لِمَ لم أتهيأ بعد.. كيف أشرح لهنّ أنني بالكاد أتنفّس؟

لم تكن تملك طاقةً للشرح، ولا نفساً للتظاهر و لم تكن تملك رفاهية الرفض كذلك.

دخلت سوسن وبسمة، ابنتا خالتها وميّار ابنة خالها ثلاثتهنّ وجوه مألوفة وما إن وقعت أعينهنّ عليها حتى تعالت أصواتهنّ المليئة بالحماسة والفرح. ميّار بخفّة دمها المعهودة قالت وهي تفتح ذراعيها:

– وأخيراً رأينا عروستنا! اشتقنا لكِ يا عروس.

ابتسمت بسمة وهي تقبّل خدّها بلطف:

– أجمل عروسٍ رأتها عيني، لكن... ليس تماماً! ما بكِ.. وجهك شاجب قليلا؟.. أو.. كثيرا!

سوسن نظرت إليها بعينين قلقلتين، ثم قالت:

— هل أنتِ بخير؟ انتابتنا ريبة حينما لم نَرَ لكِ أثراً، الجميع مشغول بالتحضيرات إلا أنتِ!
جلست إيليانا بصمتٍ على طرف السرير، تبتلع دموعها وتحاول أن ترتّب جُملاً في ذهنها دون جدوى. بينها وبين الكلام جدارٌ من التعب والارتباك، جسدها لا يقوى على مسايرة تلك الأجواء.
أدركت ميّار الوضع، فحاولت كسر الصمت؛ فتحت خزانة الملابس قائلةً:
– أخبرينا هل اخترتِ الفستان الأحمر أم ذلك المائل للزهري؟ دعينا نساعدكِ في تهيئته!
لتقول بسمة وهي تمسك يدها:
– كل شيء سيكون بخير... هذا يومكِ. أنتِ أميرة اليوم والأميرة لا تُترك وحدها.
ميّار جلست إلى جانبها تقترب برفق:
– إن كان في قلبكِ شيء فبوحي به؛ صدورنا واسعة، كلنا آذان صاغية ولن نحكم عليكِ.. أعدك أن نكون معكِ، لا عليكِ.
وهنا لم تستطع إيليانا أن تتمالك نفسها، بدأت دموعها تنهمر بهدوءٍ دون صوت؛ فالألم وجد أخيراً من يراه. وقبل أن تنفلت الكلمات من إحداهن، دُقَّ الباب من جديد. فُتح بهدوء ودخلت العمة "عاتكة" بوجهها الهادئ وابتسامتها المطمئنة.
قالت بعد أن ألقت السلام:
— يا بنات، ما رأيكن أن تنزلن قليلاً؟ ربما هناك من يحتاج إلى يدٍ تُعينه، تعلمن أن اليوم مزدحم والكل في حركة.
تبادلت الفتيات النظرات ثم هززن رؤوسهن بالموافقة، وإن أدركن أن خلف الكلمات طلباً ألطف من أن يُرفض.
– انزلن الآن واطمئنن، سأهتمّ بها بطريقتي.
ابتسمت ميّار وقالت وهي تغادر:

_نحن في الأسفل متى احتجتِ إلينا فنحن هنا.
ثم أُغلِق الباب بهدوء، وبقيت العمة مع ابنة أخيها وحدهما، حيث بدأ الحديث الحقيقي. جلست عاتكة إلى جانبها يكسو ملامحها القلق ويمتدّ من عينيها دفءُ الأم التي تشعر بما لا يُقال. مدّت كفّها برفق وأمسكت يدها المرتجفة وقالت بصوتٍ هادئٍ :
— أخبرتني والدتكِ أن حالكِ ليس على ما يرام.. لكنّي حين رأيتكِ، أدركتُ أن ما بكِ أعمق من مجرد توترِ عروس.
ما إن سمعت إيليانا تلك الكلمات حتى انفرطت عزلتها الباردة وسقطت بين ذراعي عمتها باكية كأنها تبحث عن ملاذٍ أخير. ضمّتها عاتكة بقوة تمسح على ظهرها وتملّس شعرها ببطء، تهمس بكلماتٍ لا تريد بها إجابة بل تسعى بها إلى التضميد لا إلى الاستفهام. ثم بحنوٍّ رفعت وجهها بين كفّيها، ونظرت فى عينيها مباشرة وسألتها بنبرةٍ دافئةٍ أقرب للرجاء منها للاستنكار:
— أخبريني حبيبتي.. أأحببتِهِ؟ أهذا ما يعذبكِ؟
لم تنطق، لكن عينيها كانتا أبلغ من كل اعتراف. لم تكن تملك الشجاعة لقول الحقيقة؛ أن قلبها معلّقٌ بشخصٍ من عالمٍ لا يُشبه عالمهم. ومع ذلك أومأت برأسها في صمتٍ ثقيل..ظنت عاتكة كما ظنّ كل من حولها أنها متورطةٌ في قصة حبٍ عادية، شاب أحبته وخذلها أو لم يُكتب لهما النصيب.
ضمّتها ثانيةً، ثم تمتمت عند أذنها برفقٍ فيه حزم:
— لا يهمني من هو، ولا كيف دخل قلبكِ... لكن ما أعلمه أن الرجلٍ الذي تقدّم اليوم أتى من الباب، لا من الخلف؛ طلبكِ زوجةً لا نزوة، وأعزَّكِ حين خطبكِ من والدك، لا حين اختبأ خلف وعودٍ لا تُثمر.
صمتت لحظةً، ثم أردفت:

— لو كان مَن أحببتِهِ رجلاً حقيقياً، لقاتلَ لأجلكِ، ولأتى بصدقٍ إلى بيتكِ، لا تركككِ تتألمين هكذا وحدكِ. فلا تُهدي دموعكِ لمن لا يستحقها ولا تُظهري انكسارككِ أمام مَن لا يعرفون عمق قلبكِ.

قبّلت جبينها وقالت برفق:

— كوني قويةً حبيبتي... تظاهري حتى تمرّ هذه الليلة وسأكون قربكِ طوال الوقت.

أومأت إيليانا، لا استسلاماً بل إنهاكاً. نهضت عاتكة بلطف وبدأت تُهيئها؛ ألبستها ثوبها الأحمر الذي اختارته لها بعناية بعد أن فتّشت في كل ما لديها من أثواب، وصفّفت شعرها بأناملها المبدعة على شكل تموّجات، خصلاتٍ ملتفّةٍ برقةٍ كأنها دوائر أساور تُعانق وجهها الشاحب وقد غطّت مساحيق التجميل شحوب التعب، لتبدو كوردةٍ ناعسةٍ تستيقظ رغم الذبول.

اقترب موكب السيارات الفاخرة، ثلاث سياراتٍ تتقدّم ببطء تحمل على متنها أهل العريس وفي السيارة الأولى، جلس إلياسيف بثباتٍ هادئ يُجيد السيطرة على ملامحه. لحظة التوقّف أمام الباب رنّ هاتفه فحدّق فيه بنظرة ضيقٍ، ثم تأفف قائلاً:

— ليس وقتكِ..

ورغم ذلك، سحب الهاتف وأجاب بصوتٍ خفيضٍ ونبرةٍ لا تخلو من التوتر:

— ماذا تريدين الآن؟

ردّت عليه بلهفةٍ وشيءٍ من العتاب، لكنه قاطعها بحزم:

— قلتُ لكِ من قبل... لا تتصلي في هذا اليوم، لا تُفسدي الأمر.

أنهى المكالمة وهو يعدّل سترته بعناية، ألقى نظرةً على المرآة الجانبية ليتأكد من أن ملامحه لا تحمل أي انفعال

_جميلةٌ.. بل فاتنةٌ يا إيليانا.
قالت عاتكة وهي تتأمل آخر اللمسات على ملامح ابنة أخيها، وقد اختلط في عينيها إعجاب وقلقٌ دفين.
لم تُجب، كانت تضغط بأصابعها على يديها تزرع في نفسها بذور الصبر لعلّها تُزهر بعد قليل. انفتح الباب وظهرت خالتها التي تجمّلت بابتسامةٍ دافئةٍ تحمل شيئاً من الاستعجال وشيئاً من الانبهار حين رؤية العروس التي تزيّنت كالقمر ليلة اكتماله.
– أين أميرة اليوم؟ أهل العريس قد وصلوا وموعد تلبيس الخواتم قد اقترب. كل العيون تنتظر نزولكِ يا زهرةِ البيت.
ارتجف قلبها من وقع العبارة، لكنها لم تُظهر شيئاً. التفتت نحو عمّتها بنظرةٍ مستنجدة ثم عادت بعينيها إلى خالتها التي وقفت تنتظر بابتسامةٍ عريضةٍ لا تدري ما تُخفي خلفها من توجّس أو توق.
وقفت بتثاقلٍ واقتربت من المرآة، تأملت وجهها بصمت؛ محاولات التجميل نجحت في إخفاء الشحوب لكنها لم تُخفِ الحزن الساكن في عينيها. تقدمت عاتكة وأمسكت يدها بحنان:
– أنا هنا.. لن أتركِ، سأكون معكِ في كل لحظاتكِ.
أومأت إيليانا وسارت نحو الباب بجانب عمّتها؛ خطواتها واثقةٌ في ظاهرها لكنّ قلبها كان يسير في اتجاهٍ آخر تماماً.
دخلت حيث أُقيم الحفل وكان المكان غارقاً في زينةٍ لا بأس بها، تتمازج ألوان الورود والأنوار لتمنح المكان جوّاً من البهجة الرسمية. كل الأنظار توجّهت نحوها ما إن ظهرت؛ نظرات إعجابٍ ودهشةٍ وفضولٍ، بعضهم ابتسم وبعضهم أثنى، بينما ظلّت هي متماسكةً من الخارج تُغالب اضطراباً يتململ في صدرها.

تقدّمت نحوها صديقاتها لاستقبالها، وجاءت ميادة أولهنّ، أمسكت بيديها ونظرت إليها بدهشة قائلة:
— إيليانا.. ما هذه الروعة؟ أجمل من كل ما تخيّلناه! أنتِ كلّ الحفل اليوم.
انفرجت شفتاها بابتسامةٍ خافتة، وامتنانٌ دافئ تسلّل إلى عينيها، وتلَتْها عباراتٌ أخرى من القريبات اللواتي التَفَفْنَ حولها يُثنين على جمالها وزينتها.
جلست وسطُهنّ، وقد خفّت وطأة الحزن في قلبها قليلاً مع أحاديثهنّ التي نسجت لها فسحةً من الراحة المؤقتة.
لكن تلك اللحظة لم تدم طويلاً؛ فحين رفعت عينيها من بين الضحكات، وقعت نظرتها على إلياسيف.
عيناه ثابتتان لا طَرْفةَ فيها، تتابعانها بصمتٍ محسوبٍ وحضورٍ مُحترف.
نظراته لم تُشعرها بالأمان، شيءٍ جعل صدرها يضيق دون سبب أخفضت عينيها بسرعة وعادت إلى الحديث مع صديقاتها، تمسّكت بابتسامتها من جديد، لكن قلبها كان قد بدأ يرتجف من الداخل دون صوت.

في الهامش الذي لا تراه العيون... كان حاضراً هناك.
لا ظلّ له في المكان ولا أثر لصوته، لكنّ حضوره كان أقوى من أن يُنكر. عيناه تسيران على تفاصيل المشهد بحدّة صقرٍ؛ تلتقط كل حركة وكل نظرة، وكل همسة تخرج من أفواه الحضور. يراقبها وهي تبتسم بفتورٍ وسط صديقاتها، يلحظ كيف تشرق عيناها قليلاً حين تعانقها صديقاتها، وكيف تعود الغصّة لتختبئ خلف هدوء وجهها كلما رفعت نظرها نحو ذلك المتقمّصِ دور العريس المهذّب.

ينتقل ببصره بين إلياسيف وذويه، يحصي نبراتهم، يرصد

ابتساماتهم المصقولة، ويقرأ ما بين سطورها من نوايا مُدجّنة.
نِيوارٍ لم يكن يراقب بدافع الغيرة بل بدافع الكشف؛ يعرف تماماً مَن يكون إلياسيف وأي خيوطٍ سوداء تمتد من يده إلى عالمٍ قذرٍ لم يُخلق لأمثال إيليانا. يعرف اسمه الكامل ويعرف شركاءه، ويعرف كيف يبتسم للعائلات بينما يبيع بناتهم من خلف الستار. كل التفاصيل محفوظة في ذاكرته، مرصودةٌ بخيوط وعيه، كما لو أنه يستعدّ للضربة الأخيرة حين يحين وقتها.
لحظاتٌ حتى نُودِيَ على العروس لتتقدّم نحو العريس، وتُلبس الخواتم. في عيون الحضور لم تكن سوى لحظةٍ من لحظات الخطوبة المعتادة؛ تقدّمت بخجلٍ، نظراتٌ متبادلة، فلاشاتُ الكاميرات تلمع وضحكاتٌ تملأ المكان.
لكن في عيون نِيوار، كانت تلك اللحظة نقطة ارتجاجٍ في الطاقة. هو لم يكن يرى الحقيقة كما يراها الناس بل يرى ما خلفها، يرى الطاقة المتدفقة من الأجساد، هالاتِ النفوس وذبذباتِ القلوب. وحين وقعت عيناه على إلياسيف كان ما رآه قاتماً لزجاً، ملوّثاً بهالةٍ سوداء تُشبه الدخان المسموم، تحيط به وتنبعث من صدره كنفَسٍ مشؤوم. كان إلياسيف ينظر إليها بعينٍ بشريةٍ مزيّفة وبطاقةٍ خبيثةٍ لا يُخطئها نِيوار؛ هيئته تقول شيئاً... وحقيقته شيءٌ آخر.
أما عن هالة إيليانا التي كان يراها نِيوار فكانت شفافةً نقيّة، يصدر منها وميضٌ يدل على اضطرابها وما تحسّه من قلق وخوف. كانت هالتها تضعف أكثر كلما اشتدَّ خوفها تتذبذب حين تتبادل نظراتها مع ذلك المتقمّص هيئة العريس. كانت تحاول التماسك، لكنه رأى ارتجاجها ومحاولتها لمداراة ما تشعر به؛ لم يُعجزه يوماً فهمها، ولا خانته قراءتها... حتى من بعيد، كانت روحه تعرفها جيداً.

اقترب إلياسيف ومدّ يده نحوها ليلبسها الخاتم فشعرت بتقلّصٍ في صدرها. مدّت يدها بتردد وأخفت ارتجافها خلف صمتٍ ثقيل. حاولت أن تحبس دموعاً كادت تُفلت وتتماسك بوجهٍ خالٍ من التعبير.
قبض على يدها بهدوءٍ مدروس ثم ألبسها الخاتم برفقٍ مفتعل، مصحوبٍ بابتسامةٍ مصطنعة.
وتحت إضاءات التصوير وصوت الصخب رفعت عينيها بعشوائية، فلمحت بين الجموع عيوناً نارية تراقبها بثبات.
اختفت ابتسامتها في الحال وتسارع نبض قلبها الذي بالكاد كان قد هدأ.. نفس المشهد مجدداً! شعور غريب تسلّلٍ إلى أعماقها، ذلك الإحساس الذي لا يُخطئها كلّما كان قريباً؛ حضورٌ لا يُرى لكنه يُشعَر.. يُربك القلب ويوقظ الروح.
قطع شرودها صوتٌ تعرفه جيداً.. صوت أمّها،
يأتي من خلفها بنبرةٍ ممتلئةٍ بالفخر والعاطفة:
– جميلتي.. ما أجملكِ اليوم! أنتِ أجمل عروسٍ وقفت في هذا البيت.
استدارت ببطء، والدمعة التي كانت تحاول حبسها كادت تفلت، لكنها خبّأتها بابتسامةٍ صغيرة. اقتربت أمّها منها وعدّلت خصلةً من شعرها بلطف، ثم قبّلت جبينها قائلة:
– ليحفظكِ الله يا نور عيني.. كل شيء سيكون بخير.
لم تُجِب، فقط أمسكت بيد أمّها للحظة كأنها تستمدّ منها قوةً لم تعد تثق بأنها تملكها وحدها. عادت بنظرها إلى حيث لمحته قبل لحظات، لكنها لم تجد سوى فراغٍ يشبه السراب.
لم يكن هناك شيء.. أو لعلّه اختفى. هزّت رأسها نفياً تطرد خيالاً طائشاً، ثم تنفست بعمق، محاولةً تجاهل ما رأت.
اقتربت صديقاتها منها يجاملنها بحب؛ وبين التعليقات

والإطراءات جلست بينهنّ، وعاد الحديث عن الفساتين والتجميل إلى إنعاشٍ قلبها. شيئاً فشيئاً بدأت تبتسم بصدق والضحك يُهوّن شيئاً من ذلك الثقل الجاثم على صدرها.
لكن في أعماقها، كانت لا تزال تتساءل:
— "هل كان نِيوار هناك فعلاً؟ أم أنَّ عينيَّ تشتاقان إليه أكثر مما أظن؟".

♡♡♡

على طرف وادٍ سحيقٍ... حيث كانت النجوم كالمصابيح، كان نِيوار واقفاً هناك.
مكانٌ لا يشبه عالم البشر في شيءٍ؛ كان جالساً في فسحةٍ رماديةٍ من النور الصامت، غارقاً في تفكيره لاتخاذ قرارٍ سديدٍ يساعد مَن خفق القلب لها، لا يسمع سوى ترددات عقله المشتت وتِجوال الأفكار المتعبة. وقف تائه الخُطى؛ لا يدري ما يفعل ولا كيف يتصرّف... فرغم ما يملكه من قوّة وسطوة، كان مقيّداً بالقوانين التي لا تتيح له التدخل المباشر في عالم البشر. وهو كجنّي لا يجوز له أن يُخالفها.
لكنه كان يحترق بصمت؛ رآها تُساق لحياةٍ لا تشبهها، ولم يكن قادراً على أن يمدّ لها يد المساعدة..
ضيّق عينيه ثم بسط ذراعه و فتح كفّه في حركة دائرية نحو الفراغ، فانشقّ ضوءٌ عن ممرٍّ شفافٍ قفز خلاله وانتقل إلى مكانٍ آخر.. أرضٌ زرقاء شفافة كالكريستال وسماءٌ لا تُقاس، هواءٌ عليلٌ كنسيم الصبح. وهناك كان "سيف الله الحارق" جالساً فوق صخرةٍ من ضوءٍ صلب، ويداه متشابكتان على ركبتيه علم أن نِيوار قادمٌ إليه. رفع نظره نحوه بابتسامةٍ هادئة، لم يسأله فهو يعلم. جلس نِيوار بقربه..
و بعد أن حيّاه قال:

— حدّثني... ما الذي يُثقل كاهل أميرٍ من مقامٍ رفيع، خُلِق قوياً من نسل الملوك، نقيَّ السريرة طيب السيرة، حتى يعود إليّ بهذه الهيئة؟.
ردَّ نِيوار بصوتٍ منطفئ:
— فُتِن قلبي يا صديقي.. أنا الذي اعتدتُ أن أعود من كل معاركي منتصراً، إلا من معركة قلبي... عُدتُ منها خائر القوى.
أسند رأسه إلى راحتيه وتنهّد ببطء:
— ما كنتُ أجهله... أن القلب حين يحبّ يصبح في أضعف حالاته.. أظن أن القلب يصبح مُبهماً ويُلغي العقل إلى حدٍ ما.. اكتشفتُ حجم المأساة التي هي عليها، لكن يدي مشدودةٌ إلى قوانين العالمين، لا أملك سوى أن أراقب.
ثم رفع عينيه وفي صوته ارتجافةٌ لا تشبهه:
— كيف يمكنني أن أُنقذها دون أن أكسرها؟ فكما حدثتك عنها سابقا، هي شفافة جدا ومرهفة.
التزم سيف الصمت للحظات، ثم نظر في عيني نِيوار المشتعلتين باضطرابٍ، وسأله متعجباً:
— حقًا ما زلتُ لا أستوعب كيف وقعتَ في حبّ بشريةٍ ضعيفة، بينما كانت لكَ ألف فرصة أمام جنيّاتٍ قويات، بل بناتِ كبار الملوك الأقوياء، ممن لهم ملكٌ وسلطةٌ قويةٌ على كبار الأبالسة!
ردَّ نِيوار تائه الفكر:
— صدقني.. لستُ أدري ما الذي حصل وكيف؟ وأنت أكثر مَن يعلم أني ليس لي مع الحب والعواطف، والدليل أني تجاهلتُ تلك الفرص التي عُرِضت عليّ!
رفع نِيوار حاجباً دون الآخر، فقد باغتته لحظة إدراكٍ للجملة الأخيرة التي قالها سيف ليقول بنبرةٍ فيها شيءٌ من الحدة

— عفواً.. لكنٍ سيد سيف؟.. ما الذي تقصده بقولك إني أحببتُ بشريةً ضعيفة؟
ردَّ سيفٌ ممسكاً ابتسامته:
_وهل أخطأتُ في ذلك؟ فعلاً أنت الآن مفتونٌ بإنسيةٍ ضعيفة!.. رغم أن هذا لا يليق بك!
ردَّ نِيوار وقد بدا عليه الازدراء:
— رجاءً.. لا تكرّرها ثانيةً، فأنا وأنت نعلم جيداً أن الله خلقهم في أحسن تقويم، ولن يكون أحدهم ضعيفاً إلا إن ترك مجاهدة نفسه وشيطانه، ناهيك عن أنهم لا يستخدمون كامل مستويات عقولهم، ولا أريد أن أتطرّق أكثر فيما فعلت الشياطينٍ بأرواحهم وأجسادهم.
— حسناً، أتفق معك في ذلك، وهذه تُحسَبُ عليّ. أما بخصوص مراهقتك المتأخرة -عفواً أقصد ورطتك- فأنا أيضاً لا أملك إلا أنٍ أقول لك إن ما وقعتَ فيه يا صديقي ليس ابتلاءً ولا فتنةً كما تظن... بل هو رزق.
— ماذا تقصد برزق؟
_ الحب يا صديقي رزقٌ يقذفه الله في قلوب مَن يشاء من الرجال والنساء.
اقترب منه أكثر، وكأن كلماته دعاءٌ يُهمَس في قلبه لا في أذنه، وأضاف:
_ ألم يقل صلى الله عليه وسلم حين سُئل عن خديجة؟ قال: «إنّي رُزِقتُ حبّها». فالحبّ رزق، وماتشاء إلا أن يشاء الله.
ثم صمت برهةً قبل أن يستأنف:
_إلا أن الله الذي جعل الحب رزقاً... شرع له طريقاً واحداً لا ثاني له: الزواج، ذلك الإرتباط الذي يُطهّر العشقٍ، ويُحلّله ويمنحه قدسيّته. وما دمتَ تحبّها فاسمع حديثاً آخر يقول فيه

صلى الله عليه وسلم: «لم نرَ للمتحابَّيْن مثل النكاح»، فما عليك إلا أن تسلك هذا الطريق، وما عداه لن تستطيع إليه سبيلاً.
تنفّس سيف الله بعمق، كأنّ صدره ضاق بكلماتٍ لا يُحبّ أن يقولها، ثم نظر إلى نِيوار بعينين أثقلتهما المعرفة، وقال:
— أعلم يا نِيوار.. أعلم أن ما تفكر به يُعدّ خرقاً صريحاً وتمَرُّداً على القوانين، ومُتيقن أن لا أحد، من عالمك ولا من عالمها، سيقبل بهذا الإرتباط، بل سيُعتبر تعدياً وجريمةً في نظرهم.
ثم اقترب منه وهمس بمرارة:
— المؤسف في أمرك أنك لم تتورط وحدك، أنت جررت روحاً بريئة معك؛ فتحتَ عليها باباً لن يُغلق بسهولة، وتركت قلبها بين عالمين لا يرحمان. والأكبر من ذلك، حتى وإن تصبّرت وقررت الابتعاد، أنت تعلم جيداً أنك كشفت عنها الحُجب، وذلك ما يجعلها عرضةً للشياطين أن يستدرجوها في هيئتك، وأن تتركها بدون حماية فأنت لست في حل.
أسند كفه على كتفه وتابع:
— وعليك الآن... أن تختار؛ إما أن تُنهي ما بدأته، وإما أن تُغلق الباب من جهتك قبل أن يُكسر من جهة أخرى.
دخلا الإثنان في صمت عميق يضجّ بأسئلة داخلية، ليضيف سيف:
— سمعنا كثيراً عن أولئك الذين وقعوا فيما وقعت فيه؛ اختاروا كسر القواعد وسلكوا الدرب المحظور وتزوّجوا من الإنس. لكن أيضاً يجب ألا نغضّ الطرف عن أن الزواج بينهم نادراً ما ينجح، بسببٍ أن الإنسيَّ أو الإنسيّة لا يستطيع أن يتحمل العيش غريباً؛ غربة جسدٍ وروحٍ وخلقة. ولذلك أقول لك: أنت تعرف القانون وأيضاً تعرف قلبك، وأنا لن أوجّهك إلى التمرّد... بل أقول: إن سلكتَ هذا الطريق فليكن بعهد،

لا بعاطفةٍ عابرة. وإن اخترت فلا تختر وحدك؛ ألقِ الخيار بين يديها... فإن اختارتك، حينها فقط نبدأ التفكير في كيف نحميكما معاً".
لمعت عيناه ورأى في كلام صديقه شيئاً من الأمل:
— أتقصد...؟
ابتسم سيف قائلاً وهو يهز رأسه إيجاباً:
— نعم، أقصد ما تفكّر فيه تماماً.
— لكن هذه مسؤولية كبيرة!
— نعم، أنا لا أخالفك الرأي، ولذلك تشاركا في حملها معاً.

♡♡♡

كان إلياسيف يراقب إيليانا بصمتٍ مديد. لم تُلقِ له بالاً، لكنها كانت تضحك بخجلٍ مع صديقاتها توزّع ابتساماتٍ هادئة، وتستمع لهن أكثر مما تتكلم. في عيون الحضور كانت "عروساً جميلة" أما في عينيه فكان يراها "تجارةً لن تبور". عيناه لم تفارقانها، يدرس ملامحها، نبرات صوتها وحتى نظراتها المشتتة؛ كان يحاول فهمها... أو لعله يخطط لشيءٍ ما.
وحين رآها تهمُّ بالابتعاد عن صديقاتها قليلاً لتتناول كأس ماء، تقدّم نحوها بخطواتٍ محسوبة.
– مساء النور، آنساتي.
قالها وهو يحيّي صديقاتها بلطف، فرددن عليه التحية.
ثم التفت إلى إيليانا قائلاً:
– هل تسمحين لي بكلمةٍ على انفراد؟
نظرت إليه للحظة، ثم أومأت موافقة. انفرد بها في غرفةٍ جانبية بقي بابها مواربا.
دخلت أولاً ووقفت بمنتصف الغرفة دون أن تجلس. تقدّم إليها قائلاً:

– أردتُ فقط أن أشكركِ على هذا القبول وعلى هذه البداية الطيبة... أعلم أن كل شيء حدث بسرعة لكن رغم قِصَر مدة التعارف، إلا أنكِ نجحتِ في امتلاك قلبي.
لم تُجبه، واكتفت بنظرةٍ ثابتة.
– أنتِ مميزة، إيليانا... وأعدكِ، سأفعل كل ما بوسعي لأجعل هذه العلاقة بداية لطمأنينة لن تفارقك.
ردت عليه بنظرة يغلبها التحفظ:
– صحيح، كل شيء مر بسرعة... وأنا أحاول أن ألحق ما يحدث.. فقط أرجوك... لا تُسرع في موضوع حفل الزفاف، أحتاج وقتاً.
برقت عيناه ثم ردّ بلطفٍ مصطنع:
– حسنًا... أنتِ من تحددين. ما يُريحك يُريحني.
اقترب منها أكثر، حتى شعرت بأنفاسه تكاد تلامس خدّها، ثم قال بنبرة ناعمة ظاهرها لطف وباطنها شيء آخر:
– ستكونين لي... شاء قلبكِ أم أبى.
في اللحظة نفسها انقبض قلبها كأن شيئاً ثقيلاً هبط عليه. لم تكن مجرد كلمات بل كأنها تهديد يُغلّف بالعاطفة.
تراجعت بخطوتين غريزيتين إلى الوراء قطبت حاجبيها ووضعت مسافةً بين جسدها وجسده، وقد ارتبك وجهها لكنها لم تقل شيئاً.
رمقها بنظرة مكر واتسامة لا روح فيها، يشوبها الوعد والوعيد معاً.
يقول في نفسه: «ستكونين أجمل استثمار... وأجمل سلعة».
تحرّك قلبها برعبٍ خافت فأدركت أن وجودها وحدها معه خطر، دون أن تفهم حتى كل أبعاده.
خرجت من الغرفة بسرعة، تخفي ارتجاف يدها خلف فستاتها.

وحده بقي في الغرفة، يرمق الباب الذي خرجت منه ببطء، وضبط أزرار سترته قائلاً:
– الوقت كفيل بكسر الخوف... وأنا بارع في كسر ما يُقاومني.
انتهى الحفل، وتفرّق الضيوف واحداً تلو الآخر، وعاد البيت إلى هدوئه، وسكنت الزينة في زواياها بصمتٍ يشبه ما بعد العاصفة.
في قاعة الجلوس، حيث تعب الليلة يلوّن الأرائك والمفارش، كانت إيليانا مستلقية بفستانها، رأسها مائل على طرف الأريكة، تنصت بصمتٍ إلى أحاديث أهلها.
السيدة ليلى تتحدث مع زوجها عن التفاصيل الصغيرة: مَن أثنى على الطعام، ومَن أبدت إعجابها بالحفل.
وفي حضنها الصغير، كانت "ميلينا" نائمة مثلما تنام الفراشات بعد طيرانٍ طويل.
محمود، غارق في هاتفه كعادته، يشارك في الحديث تارةً، ويبتلع وجهه ضوء الشاشة تارةً أخرى.
كانت إيليانا حاضرة معهم بجسدها، بينما عقلها يسرح في تفاصيل الحفل، وفي تلك اللحظة تحديداً... حين ألبسها إلياسيف الخاتم. تذكرت نظراته ولم تطمئن لها، بل زادتها خوفاً، ثم عادت بها الذاكرة إلى لحظةٍ خاطفة وسط الحفل، حين لمحت عيوناً نارية بين الجموع...
ارتجف قلبها مرة أخرى وهي تستعيد الشعور، لكن ابتسامة خفيفة تسللت إلى شفتيها: "لا أظنه رحل تماماً..." تحدثت في سرها: "ربما ما زال يأتي أحياناً... فقط ليطمئن... فأنا لم أصدق رحيله بعد".
قطع شرودها صوت أخيها محمود قائلاً:
– إيليانا يا عروستنا "المزيفة"، لم أرَ خاتمك الجديد بعد! ناوليني إياه!

نظرت إليه مبتسمة، ونزعت الخاتم بحركة سريعة كمن يتخلص من ثقله، وألقت به بين يديه. أخذه بفضول، قلّبه في يده وقال مداعباً:
– اممم... ذهب أبيض؟ مرصع بألماسة حقيقية، يبدو غالي الثمن.. حسناً إن سُرق، لا تلوموني، أنا سأكون بريئاً طبعاً.
ضحك الجميع، حتى السيدة ليلى ضحكت رغم تعبها، فكان ذلك المزاح كنسمةٍ تهوّن على البيت هدوء ما بعد الزحام.
نظرت لأمها تقول:
– سأصعد لأغيّر ملابسي، ثم أنزل لترتيب المطبخ... فحالته يرثى لها.
رفضت ليلى:
– لا حاجة لأن تنظّفي المطبخ الآن؛ دعيه لصباح الغد وسنتعاون عليه، وارتاحي الليلة يا ابنتي.
لكن إيليانا لم تُبالِ كثيراً؛ صعدت إلى غرفتها وفتحت خزانتها،غيّرت فستانها ببيجامة مريحة، ثم اتجهت إلى المرآة حيث انعكست ملامحها التي ما زالت تختبئ خلف مساحيق الزينة ألوانٌ تغطّي ما لا تستطيع ستره، وتخبّئ قلباً متعباً.
وبينما هي على هذا الحال، هبّت رياح خفيفة فتحت نافذتها قليلاً. نظرت نحوها دون أن تهتم، ثم غادرت الغرفة ونزلت إلى المطبخ لتشغل نفسها.
كان البيت ساكناً، فقد دخل الجميع إلى غرفهم وغرقوا في نومٍ عميق، أما هي فأصرّت أن تُنهي ما تبقّى من فوضى النهار.
بدأت تغسل الأواني، تُنقي الصحون والكؤوس من آثار الحفل. وبينما كانت تُنظّف أحد الأكواب غمرت رغوة الصابون يديها فتطايرت منها فقاعات صغيرة. تبعتها بعينيها، ثم نفخت فيها برقة لتتطاير أكثر وتلمع تحت ضوء المطبخ الخافت.
خالجٍ صدرها إحساس بأن تنظر لنافذة المطبخ... فرأت ظِلّاً واقفاً! تجمّدت قليلاً، ثم دقّقت النظر... وإذا به نِيوار واقفٌ

هناك خلف الزجاج، يبتسم لها بابتسامةٍ دافئة يغمرها الشوق.
بقيت جامدةً في مكانها، تحدّق في النافذة كأن الزمن توقّف هناك. لم تدرِ أهو طيفٌ مرّ أم حقيقة تجلّت؟ أيتلاشى إذا رمشت؟ أحقاً هو، أم خُيّل لها؟
عيناها معلّقتان به، لا تملك صرفهما وقلبها يكاد يخرج من بين أضلاعها من فرط الدهشة والخفق.
كان واقفاً خارج النافذة، يرمقها بتلك الابتسامة الغريبة والساحرة، ثم أشار لها أن تفتح النافذة... أو أن تصعد إلى غرفتها.
تسمّرت في مكانها، فعقلها مشوّش وقلبها لا يُطاوعها على الحركة.
«هل سيختفي إن اقتربت؟ هل إن أغمضتُ عينيَّ سيغيب؟»
شعرت بحرارةٍ تصعد من جسدها، واختلاطٍ في كل المشاعر: خوف، شوق، دهشة، ولهفة.
وأخيراً، تحركت نحو النافذة بخطى متعجلة... فتحتها.
لكنه لم يكن هناك.
ما كان يقف مكانه سوى عبقٍ من المسك ثقيل وعميق... عبيرٌ لا يشبه أحداً سواه.
أدركت أنه لم يختفِ بل سبقها إلى غرفتها.

ذلك الجنيّ هو قلبي

ركضت إلى غرفتها، فتحت الباب بأنفاسٍ متسارعة... وها هو يقف هناك.
في زاوية الغرفة، بصمته، بهيبته، بنوره الذي تعرفه روحها قبل بصرها.
نظرت إليه نظرةً طويلة ثم أغلقت الباب خلفها بهدوء وأسندت ظهرها عليه، تبادلت النظر معه بعينين تفيضان بكل ما لم تقله منذ غيابه.
حنينه إليها يشتعل في عينيه ثم قال بصوتٍ يقطر اشتياقاً:
— ألم تشتاقي إليّ، يا مُعذّبة قلبي؟
لم تُجب... فقط ظلّت تسترسل في النظر إليه، ووجهها لا يُخفي ارتجاف الروح التي في صدرها. كان الصمت بينهما عميقاً ممتداً، وكأن الزمن نفسه توقف بين طرفي النافذة وقلبين اختنقا من طول الفقد.
ثم نطقت بصوتٍ مرتجف، والدمع ينحدر من عينيها:
— لماذا؟... لماذا تركتني مع حزني ورحلت؟.. لماذا تركتني لهم؟ عزّ عليّ أن أصدّق أني هُنت عليك بهذه السهولة!

ردَّ نيوار بصوتٍ تختلط فيه نار العتب بحرارة الحنين:
— ومن سمح لكِ أن تظني أن قلبي يهون عليّ.. أما دريتِ أنكِ سكناه؟ فكيف يهون على الساكن أن يهجر بيته؟
بعينين تلمعان دمعاً:
— لكنّك رحلت عنّي، وأنا في أمسّ الحاجة إليك.
ردَّ بنبرة تتشح بالأسى والتبرير:
— لكنني... عدتُ.
هزّت رأسها نفياً، والخذلان يقطر من صوتها:
— وما فائدة عودتك متأخراً؟

سألها وقد علت ملامحه دهشةٌ حزينة:
__وعلى ماذا تأخرتُ؟
– ألم تعلم أن اليوم كان حفل خطبتي؟ لم يتبقَّ سوى أن أُزفَّ إلى بيت رجلٍ...
سكتت بينما أكمل هو بهدوء:
– رجلٍ... لم يرتضِهِ لا قلبكِ ولا عقلكِ.
تلاقت أعينهما في نظرة طويلة سادها الصمت، إلا من صوت قلبها الذي كان ينبض شوقاً. فتح ذراعيه ينتظر منها أن ترتمي بين أحضانه لكنّها أزاحت عينيها ورفضت دون كلمة؛ ففهم أنه لا يزال في قلبها غضبٌ لم يُطفأ.
قال:
– كما تشائين... لكن هناك أمراً مهماً يجب أن أخبركِ به. وبعده سيكون القرار بين يديكِ إما أن أرحل وتكون هذه آخر مرة ترينني فيها... أو أن...
سكت ولم يُكمل. رمته بنظرة خاطفة كأنها ترجوه ألا يقول ذلك ثم قالت بصوت مكسور:
– وما حاجة هذا الكلام، نيوار؟ كنتَ آخرَ من توقعتُ أن يتركني... في اللحظة التي كنتُ أحتاج فيها إلى كلمة واحدة فقط، إلى دعمٍ صغير، أو حتى حلم...
همّت أن تواصل، لكنّه قاطعها وقد تغيّرت نبرة صوته فجأة إلى نبرة حدّية:
__ أسنكمل اللقاء وأنتِ تلومين وتعاتبين دون أن تسألي... دون أن تفهمي؟
تراجعت قليلاً، وقد رأت أن عينيه أصبحتا ككتلةٍ من اللهب.
كانت هذه أول مرة تراه فيها هكذا.. أحسّت ببعض الخوف لكنها تذكرت نفس العينين اللتين رأتهما في الحفل ويوم جلسة التعارف.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة، تأكدت حينها أنه لم يرحل لم يغب ولم يخذلها.
تقدّمت نحو الأريكة وجلست برتابة أمامه تنتظر ما سيقوله، وقلبها لا يزال يرتجف بين الحنين والخوف. تبادلت النظرات معه، والعمر كلّه يمرّ بين عينيها؛ لم تشعر منذ مدة بذلك الدفء العميق المتوهّج من عينيه، كأنما يحتضنانها، ثم قال بنبرة حزم:
– اسمعينِي جيداً، أحتاج منكِ أن تكوني لبيبة، فما سأقوله ليس هيّناً، إلا أنه الحقيقة التي اكتشفتها أثناء غيابي عنكِ.
سكت قليلاً، وعيناه تمسحان وجهها ببصرٍ يختلط فيه الحب بالحزن:
– منذ تقدّم لك الشخص وأنا لم أبتعد. كنتُ أراكِ في حيرتكِ، أسمع بكاءكِ في تلك الليالي الظلماء، تنفّستُ وجعكِ وإن ابتعدتُ وسمعتُ مناداتكِ وإن انقطع تواصلي. منذ أن وقعتُ في شباككِ، نشأ بيننا رابطٌ خفيّ لا يحتاج للعين كي يُرى، ولا للمس كي يُشعر لكنه يُسمعني صوت قلبكِ، ويريني صدى روحكِ في البعد والقرب سواء.
قال كلماته تلك وهوٍ يقترب منها، يرفع حاجباً بخفّة ويُميل الآخر كما يفعل دوماً حين يُداعبها بنبرةٍ مازحة تخبّئ بين السطور دفء حبّه.
ابتسمت بخجلٍ متردّد، فتابع بصوته الذي عاد يحمل شيئاً من الجدّ:
— أما ذلك الرجل الذي رأيتِه اليوم، فظاهره ليس كباطنه؛ تتبّعتُ أثره واكتشفتُ ما لم تتوقعيه... كَسْبُهُ فليس حلالاً طيّباً وسريرته لا تشبه علانيته البتّة؛ لا صِلةَ له بطُهر الحياة التي تحلمينَ بها. هو ليس إلا مرآةً مزيفةً لعريسٍ لم يُولَد... له اسمٌ رائجٌ ونفوذٌ واسعٌ في دوائر المحظورات.

شهقت من هول ما سمعت، ليضيف:
— ليس هذا فحسب... بل هو جزء من منظمة خفية لا ترحم ولا تعبأ بالقلوب الطيبة؛ من أولئك الذين يستدرجون الفتيات العفيفات بعقدٍ ووعد، ثم تُسلبن حريتهن وتُزجّ أجسادهن في زنازين الاغتصاب، في جحيم لا يُطاق حيث لا ضوء إلا نار المعصية، ولا صوت إلا أنين الطاهرات.
اغرورقت عيناها بالدمع واهتزّت شفتاها، ثم قالت بصوتٍ مخنوق:
— أنا؟.. أنا كنت سأكون إحدى ضحاياه؟
تلونت عيناه بلون النحاس المصهور توهّج فيهما غضب ناري صامت، ثم قال وهو يشدّ على كل حرف:
— بالطبع... بالطبع كنتُ سأُسحقهم؛ لقلبتُ بهم مراكبهم تقليبًا لن يُبقي لهم عظمًا، ولأشعلتُ نارًا عظيمة في مراكزهم لن يعرفوا طريقًا لإخمادها ولا من أين مصدرها، لجعلتهم عبرةً لمن يعتبر.
ثم تابع، وحرارة الغضب لا تزال تتصاعد في صوته:
— أتظنين أنني سأقف متفرجًا وهم يلوّحون بخواتم الزيف؟ أتظنين أنني سأدعكِ تُقادين كقربانٍ إلى مذابحهم وأنا أتفرّج؟ لا يا إيليانا، لقد كانت رؤيتكِ وأنتِ تسلّمين يدكِ لذلك الذئب أشدّ وجعًا من نصلٍ في صدري.
ضمّت كفّيها المرتجفتين إلى وجهها وكأنها تحاول أن تحبس بهما انهيار العالم داخلها ثم انحنت قليلًا، تتأرجح بين الوعي والذهول وانفجر البكاء من صدرها هستيريًا يعلو ويخفت؛ قلبٌ يصرخ لأول مرة بعدما تحمّل ما لا يُطاق.
شهقاتها تتوالى متقطعة مخنوقة:
— لو... لم... تتدخل!

غاص صوتها في دموعها ثم صرخت:
— من كان سينقذني؟! من كان سيمنعهم من جعلي كـ...
ضمّها نيوار إليه بقوة، يعيد لملمة شتاتها بين ذراعيه...
أحاطها بهما والدنيا تذوب في حضنه، والطمأنينة تُستعاد من ترددداته ونبضه القريب، ليقول:
— اللّه الذي سخرني هو الذي كان سينقذكِ، كما يفعل في كل مرة.
مسح بأنامله الكبيرة دموعها المنهمرة، يطفئ بها نيرانًا اشتعلت في صدره ويقبّل جبينها بين حينٍ وآخر، قبلةً تحمل الرجاء والاعتذار والوعد الخفي:
— اهدئي... أنا هنا... لن أدع شيئًا يؤذيكِ.
كل ضمّة منه كانت تخيط جرح الغياب
وتهدّئ من روعها، وتشحن طاقتها.

♡♡♡

الأضواء الملوّنة تتراقص على جدران المكان، والأنغام العالية تطغى على كل صوتٍ للعقل. دخان الأرواح الضائعة يملأ الأرجاء والوجوه متشابهة مثل قوالب من لهوٍ وتيهٍ وانسلاخٍ عن كل فطرة.
في إحدى الزوايا جلس إلياسيف، متكئًا على أريكةٍ وثيرة، يغمره ضوءٌ أزرق باهت يُلقي بظلاله على ملامحه القاسية. بين يديه كأسٌ يتأرجح، يحتفي بانتصارٍ لم يُعلَن بعد. إلى جانبه جلست هي... تلك التي خُدِعَتْ بوهمه وظنّت أنه الأمان بعد صقيعٍ طويل.
كانت تبتسم بارتباك، تبحث في عينيه عن شيءٍ من الدفء عن وعدٍ ولو كاذب.
هاتفها ما يزال يرنّ، أمّها تحاول الوصول إليها، ولا تدري

أنَّ ابنتها تُسحَب بخطى راقصةٍ نحو الهاوية.
مدَّ إلياسيف يدِه والتقط هاتفها، نظر إليه ببرود ثم أطفأه ورماه بعيدًا قائلًا بلهجةٍ لا تخلو من السخرية:
— هنا... لا مكان لصوتٍ غير صوتي.
نظر إليها نظرةً مشوبةً بالامتلاك، لا حبّ فيها ولا حنان ثم اقترب من أذنها قائلا :
— هل سأظل أكرر أنكِ لي وحدي؟ جسدًا وصوتًا وقرارًا... في المرة المقبلة تطفئين هاتفك قبل أن تري وجهي.
ارتجفت، أرادت أن تحتج أن تقول لا... لكن الضعف في عينيها كان أسبق من الكلمات.
رفع يده إلى ذقنها مردفًا:
— "نايا"، أنتِ تعلمين جيدًا أني أكره الحمقى ومع ذلك أنتِ متربّعة على عرش قلبي. لن أترجّاكِ كي تُحسني التصرّف وتكوني مطيعة.
وهكذا دُنِّسَت الكرامة تحت وهم الحبّ الكاذب، وخُدِش الحياء في موضعٍ ما عاد يُفرّق بين الأنثى والسلعة.
نايا لم تكن سيئةً، كانت فقط ضحيةً لرجلٍ لا يرى في النساء سوى أدوات عبور، ولا يرى في العلاقات سوى استثمارٍ أسود، في سوقٍ تُباع فيه الأرواح على هيئة وردةٍ مُهداة في بداية الطريق.
كانت نايا هناك بجسدٍ راقصٍ وابتسامةٍ مكسورة... أما روحها فكانت محشورةً في زاويةٍ أخرى، تبكي وتنتظر من ينتشلها.
من أين بدأ كلُّ شيء؟
ربما منذ تلك الليلة التي بكت فيها تحت السرير، حينما تحرّش بها أحدهم فلم تجد أذنًا تُنصت ولا يدًا تحمي، فظلّت أسيرةَ تشوّهٍ نفسيّ لم يُرمِّمه أحد.

أو منذ أن قيل لها: «اصمتي، الكبار فقط من يتكلمون» حتى صدّقت أنها بلا صوت.
منذ أن شبّت في منزلٍ لا تُعرف فيه لغة الحب والحوار، ولا يُمنَح فيه الحنان لبناء شخصيةٍ قويةٍ خاليةٍ من العقد النفسية... ربما لأن بيتهم يُقاس فيه الحب بالنتائج والمقارنات.
كبرت وهي تظن أن الحب يعني أن تُطيع، وأن تُقدّم نفسها قربانًا لتستحق أن تُرى.
كبرت وهي تعتقد أن الصمت هو النجاة، وأن الألم بكل أنواعه شيءٌ عاديّ في حقها، وأن الخوف جزءٌ من أنوثتها لا يفارقها..حتى إذا منحها أحدهم اهتمامًا ولو ضئيلًا، ظنّت أنه أعظم مما تستحق، فقبلت بالفتات كأنه كنز ووهبت قلبها خضوعًا لا حبًا.
كبرت وفي داخلها طفلةٌ تبحث عن أبٍ ضائع فإذا بكل من يلبس عباءته تسلم له قيادها وتطفئ عقلها على بابه.
وهكذا.. حين ناداها إلياسيف باسمٍ فيه شيء من الاهتمام الزائف، تعلّقت به بكل جوارحها وظنّت أن الاحتياج يمكن أن يتحوّل إلى حب، وأن الخوف يمكن أن يُستبدل بالأمان.
لم تدرك أن العقل الذي لم يُمنح فرصة النضج سيقع في الحفر التي تُمليها عليه العقد، وأن من لم يتشبّع في طفولته بالحنان والحب السليم والرعاية النفسية الواجبة سيظل الجوع العاطفي المزمن يلاحقه طيلة عمره.
البيوت التي لا تمنح الحب والاهتمام الكافي سيخرج منها حتما ضحايا يبحثون عمّن يسدّ خللهم في سلال المهملات.
نايا لم تكن مجرد فتاة باعت نفسها للهوى؛ هي فقط لم تكن تملك مناعةً نفسية، لأن جهازها المناعي العاطفي تم تدميره في الطفولة بدل شحنه.

وفي لحظةٍ ما...
بين صوت الكأس على الطاولة وضوءٍ أحمر غامر، شعرت أن الطفلة التي فيها بدأت تستغيث... لكن الصوت اختنق، كما اختنقت كلّ المرات التي أرادت فيها أن تقول«أنا لستُ بخير، وهذا المكان لا يُشبهني».
"أرجوكِ يا نايا أفيقي.. هذا الانجذاب والانقياد ليس حبًّا ا، إنه جرحكِ القديم يتعرّف على سكينٍ مألوفة."

♡♡♡

ظلّت ساكنة في حضنه كالذي وجد أخيرًا مأوى لألمه، ملاذًا احتضن هشاشته دون أن يُطالبها بالقوة. أدركت أن هذه الكتلة الطاقية المرعبة في عيون الناس،هي وحدها من تعرف كيف تربّت على الخوف في قلبها.
مرت ساعة كاملة... أو أكثر.
وهي مُندسّة في حضنه من رأسها حتى أخمص قدميها، يديها تلفّ حوله بضعفٍ وعيناها مغمضتان تأبى أن ترى شيئًا غير دفء أضلعه تلك الحرارة المنبعثة منه لم تكن حارقة إلا أنها أحست بها تخترق جلدها و تغوص في كل ذرة من عظمها لتحدث إهتزازات تعدلٍ جميع مكوناتها، شعرت أنها محاطة بدرع أو هالة كثيفة جداً تمنع عنها حتى صوت الهواء الخارجي. الاحتضان معه يعطي شعور الانفصال عن الجاذبية الأرضية.
أما هو فكان جالسًا بصمتٍ ووقار، يمرر أصابعه الطويلة بهدوءٍ على شعرها، يطبع وعدًا جديدًا بأن الألم انتهى.
الزمن خارج تلك اللحظة لم يكن له وجود لا مساء ولا صباح.
لا ساعة ولا تاريخ فقط هو بكل اتّساعه.

وبينما كانت غافيةً في حضنه، إذ به يُقرّب فمه إلى رأسها ويقبّله برفق، ثم قال:
— إيليانا؟ أرجو أن تتفهمي ما سأطرحه عليكِ الآن.
لم تكن بحاجة لأكثر من تلك الكلمات لتفهم أن شيئًا كبيرًا قادم. رفعت رأسها ببطء وعيناها تشتعلان مزيجًا من الخوف والتوق، ثم اقتربت حتى تلامست أنفاسها بأنفاسه الساخنة وقالت:
— إلّا أن تقول لي... أنك سترحل وتتركني أتخبّط بينهم.
ردّ عليها بالصمت، ثم تابعت وهي تمسك بثيابه:
— لن يصدقوني، تالله لن يصدقوني... سيقولون من أين لكِ هذه الأخبار؟ سيظنون أنني اخترعتها لأتخلّص من ذلك الزواج.
ظلّ يبادلها النظرات بهدوء جنيٍّ يعرف خبايا الريح، وكان يصغي لها كما لو أن العالم كلّه قد اختُصر في شفتيها المرتجفتين. لم يعلّق مباشرة، بل نظر إليها بابتسامة قبل أن يقول:
— من قال إنّي سأرحل؟ ومن قال أنّي سألزمكِ بإخبارهم؟
رمشت بعينيها بدهشة، ثم ردّت بارتباك:
— صحيح، لم تُلزمْني... لكن إن أخبرتهم هكذا ستؤول الأمور.
أومأ برأسه، وبنبرة فيها من المزاح بقدر ما فيها من الطمأنينة:
— ومن قال لكِ أيضًا أنّي سأدعكِ تتخبطين بينهم؟
ثم أضاف بنظرة حازمة:
— أعلم أنهم لن يصدقوكِ. أعلم أنهم سيطالبونكِ بالأدلة التي لا تملكينها، بل قد يواجهونه ليظهر هو بثوب الضحية، بينما يكشر أنيابه ويحقد عليكِ أكثر. ولهذا سأقترح عليكِ حلًّا.
لكن... لا أدري إن كنتِ ستُقدمين عليه أم...

قاطعته بسرعة ولهفة:
— لاا.. لن أرفضه، ما هو يا نِيوار؟ ما هو؟
ضحك من حماسها وسرعة ردّها:
— تمهّلي يا عجولة... اسمعي الاقتراح أولًا، ثم احكمي
_حسنًا... آسفة.لكن اعذرني على عجلتي هذه، فبحكم أن كل ما يصدر منك ليس إلا أمانًا لروحي وبلسمًا لقلبي.
مدّ كفّه ليلامس خدّها، ثم قال بصوته العميق مشيرًا بإصبعه إلى جهة قلبه:
— أتعلمين من يسكن هنا؟
نظرت إليه وهي تهز رأسها نفيًا، وقد انكمش فمها تعبيرًا عن حزنٍ مصطنع.

_بالله عليك، هل صدقًا لا تزالين لا تعلمين؟
أومأت إيجابًا دون أن تضيف كلمة.
ليقول:
— هل يهمّك أن تعرفي ما فعلته إحدى بنات الإنس بقلبي؟
قالت متظاهرةً بالتجاهل لأنها تعلم يقينًا:
— أظن أن الأمر لا يهمني كثيرًا.
ثبّت نظره عليها، مما جعلها تعبث بخصلة شعرها متجنّبة النظر إليه.
— سبب عودتي الليلة هو لأضع قلبي بين يديكِ... إن شئتِ أن تبقيه فهو لكِ، وإن رفضتِ... فأعيديني إلى عزلتي وعالمي البعيد جدًا عنك.
كانت ضحكتها ممزوجة بالحزن والفرح، وأرادت أن تردّ عليه، لكنه قاطعها فجأة بعينين تلمعان بلحظة نادرة من المصير:
— هل تقبلين... أن تكوني زوجتي؟

نزلت جملته مثل الصاعقة على مسمعها، غطّت فمها بيدها من شدّة الدهشة.
— لكن... نِيوار؟ كيف؟! وهل هذا... ممكن؟
تنفّس بهدوء وقال:
— لنكن واقعيين... في عالمكِ هذا الأمر ليس ممكنًا، لكن في عالمي... الأمر مختلف وممكن إلى حدٍّ ما.
سألته، وعيناها ترتجفان ما بين الشغف والخوف:
— كيف؟
قال:
— إذا قبلتِ عرضي... فسآخذكِ الآن إلى عالمي. أما عن أهلكِ... فلن يجدوا لكِ أثرًا.
نظرت إليه مشدوهة ثم التفتت خلفها إلى باب غرفتها..ثم قالت:
— لكن... ماذا عن أهلي؟
سكتت طويلًا قبل أن تضيف:
— حسنًا... موافقة.
وقف نِيوار بكل هيبته، ووجهه يتألّق بفرحٍ تغلّفه الهيبة:
— هل أنتِ... موافقة حقًا؟
_نعم، أنا موافقة وسأذهب معك وأنا كلي ثقة.
— لكن كلمة «موافقة» في عالمنا ليست مجرد كلمة، لها أثرٌ وترددات وهي بمثابة عهد... لذلك كرّريها إذا كنتِ موافقة حقًا.
_أنا موافقة يا نِيوار.

مدّ يده نحوها بصمت، كمن يفتح بابًا إلى قدرٍ مختلف... نظرت إليهِ بثباتٍ ممزوجٍ بالرهبة،و وضعت راحتها في يده،مودّعةً كل ما عرفته من هذا العالم.

عالم الجن

وجدت نفسها في مكانٍ لم ترَ له مثيلًا.
كانت واقفة وسط غابةٍ ساحرة... لكن لا، لم تكن غابة كما تعرفها، بل عالمًا حيًّا يتنفّس بالجمال الغريب.
الأشجار من حولها طويلةٌ جدًا، جذوعها تميل إلى لونٍ أزرق ضوئي، وأوراقها تتوهّج بألوانٍ متبدّلة بين الأخضر العميق والذهبيّ اللامع.
السماء فوقها لم تكن زرقاء بل بنفسجية رائقة، تتناثر فيها نجومٌ متوهّجة كبيرة الحجم، وفي قلب السماء كان قمرٌ هائل.. أكبر بكثيرٍ مما اعتادته، يضيء الغابة بنوره حتى باتت الأرض كلها مغمورةً بضوءٍ فضي. شعرت أن الزمان قد تلاشى، وأن روحها نُقلت من ضجيج الأرض إلى سكينةٍ لم تجربها.
نظرت حولها بانبهار، ثم التفتت إليه...
كان واقفًا على بعد خطوة، النور المنبعث من القمر خلفه جعله يبدو كظلّ ملكٍ من عصرٍ قديم.
وجهه هادئ، مبتسم، مدّ كفّه من جديد ثم قال بصوته الذي بدا أكثر عمقًا في هذا المكان:
— مرحبًا بابنةِ قلبي في عالمي، أعدكِ لن يمسّكِ فيه أذى. ستكونين تحت أمان عيني. قد تشعرين بكثيرٍ من الغرابة في البداية... لكن تأكدي أنه في كل لحظةِ غربة، سأكون طمأنينتكِ.
ابتسمت وهي تنظر حولها بدهشة، ثم ردّت بحماس:
_لكن... لا أشعر بالغربة! ربما سبق وأن زرتُ هذا المكان. أعرفه! نعم... أعرفه يا نِيوار! لقد كنتُ هنا من قبل!
ضحك قائلا؟:
— أعرف شعورك، لكن ليس تمامًا... ما شعرتِ به في السابق كان شبيها فقط، كنتُ أحضركِ إلى هنا مناميًّا وكنتِ تزورين

هذا العالم بوعيكِ الأثيريّ فقط... أمّا الآن فأنتِ هنا بجسدكِ وروحكِ معًا، والأمر مختلفٌ جدًا.
أخذ بيدها، وبدأ يصعد طريقًا متوهّجًا بين أشجار الغابة التي لا تشبه شيئًا من عالم البشر. كان الطريق مفروشًا بحصىً متلألئة، ونجومٌ صغيرةٌ تتناثر تحت قدميهما، فيما كان الصمت حولهما عميقًا، محمّلًا بالهيبة.
وصل بها إلى قمّة جبلٍ شاهق، قمته مسطّحة واسعة مغطّاة بأعشابٍ بنفسجية تنبعث منها أضواء خافتة تنبض بالحياة، وصخور بلورية بيضاء موزّعة بتناسقٍ غريب.
الهواء هناك لم يكن هواءً عاديًّا، بل نسيمًا مشبعًا بعطرٍ فريد، فيه لمسةُ زهرٍ لم يُزرع في أرض البشرٍ قط.
أما المشهد تحت الجبل... فكان مذهلًا حدّ الصمت.
مدنٌ من الضوء، وقصورٌ تشبه الأزمنة القديمة في شكلها وضخامتها، وأنهارٌ تجري بألوانٍ طيفية،كائناتٌ غريبة تنتقل من بعيد.
جلست بجانبه على صخرةٍ بلورية، وعيناها متّسعتان بدهشةٍ ورهبة المجهول.
قالت بصوتٍ بالكاد خرج منها:
— يا إلهي... هل أنا في الجنّة؟
ردّ بضحكته العميقة:
— لا طبعًا، الجنّة فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر... هذا فقط إبداعُ الخالق في عالمي، وهذا مجرد جزءٍ منه.
بينما هي تغرق في دهشة المنظر، تُحدّق في العالم الساحر الممتدّ تحت الجبل، ابتسم وهو يراقب ملامحها المنبهرة، وعينيها التي تحاول احتواء الجمال الغريب والفائض من كلّ جهة.

فجأة استدارت نحوه تسأله عن ذلك الشيء العملاق المتوهّج من بعيد... لكنها شهقت حينما رأت ملامحه التي تغيّرت. لم تعد ترى الهيئة البشرية التي اعتادتها فيه؛ لقد تبدّل كما لو أنه تلاشى ثم تكوّن من جديد على هيئة أخرى.
أصبحت بشرته بلونٍ أحمر متوهّج تُوحي بهالةٍ غامضة تحيطه. عينيه تحوّلتا إلى لون الكهرمان البراق، تتوهّج كشموس صغيرة في جوف الليل، وبؤبؤاهما لم يعودا دائريين كما عهدتهما، بل صارا بشكلٍ ممدود كوميض برقٍ داخل حجر كريم.
رموشه كثيفة وطويل بلون بشرته الحمراء، تُطوّق عينيه. أذناه طويلتان، تنتهيان بحدّةٍ تُشعّ بوميضٍ خافت. أما شعره فكان مموّجًا بطولٍ يصل إلى أسفل رقبته، بلون الكهرمان البراق ذاته، تُضيئه خصلات لامعة تشبه شُعلًا من غروبٍ ذهبيّ ساحر.
وحين يبتسم، يظهر صفٌّ من الأسنان الصغيرة المصقولة، وأنيابه العلوية أطول قليلًا تُخبر بانتمائه. وعلى عاتقه وشاحٌ من طيفٍ متبدّل الألوان، لا تدري إن كان نسيجًا ماديًا أم جزءًا من طاقته المحيطة.
يداه أنحف من يد رجلٍ بشري، وأصابعه أطول كأنها تلمس الأرواح لا الأجساد فقط.
صوته في هذه الهيئة أعمق، وفيه رجفةٌ من ذبذبات لا تُشبه الصوت البشري، وفيه صدى يشبه رنين الكريستال. كل كلمةٍ تخرج منه ترتطم في القلب كما تفعل قطرة مطرٍ على صفحة بحيرةٍ ساكنة.
تسمرت مكانها، وعيناها تتّسعان ببطء: هذا نِيوار...؟
نظرت إليه طويلًا، تتفحّص ملامحه التي لم تعد بشرية. لم يكن مخيفًا بقدر ما كان مُبهرًا... جماله تخطّى المقاييس التي وضعتها الحياة لمفهوم الجمال أصلًا.
— هكذا... تبدو في عالمك؟

أومأ برأسه، وابتسامة هادئة تشعّ من عينيه الكهرمانيتين.
اقتربت منه ببطء، تتردد ما بين الانبهار والخوف:
— أنت مختلف جدًا الآن... لكن لا أدري، أشعر أني أعرفك أكثر الآن.
رفع كفّه ولمس وجنتها بلطف:
— هذا أنا كما أنا... بلا تشكّل، بلا تنكّر، هذه هي حقيقتي.
أخذت نفسًا عميقًا، وابتسمت وقد استسلم قلبها لفكرة لم تجرؤ يومًا على تخيّلها:
— هل يعقل أنني الآن في عالم الجن، ومع جنيٍّ حقيقي، وليس منامًا؟
اقترب أكثر وقال:
— نعم... وسترين عجائب.
أخفضت جفنيها... لم تحتمل وقع جماله الفاتن ولا وطأة كلماته التي ألقاها على مسمعها. كانت تحدّق في الأرض، لا تجرؤ على النظر في عينيه بعدما أربكها بهيئته الحقيقية.
رأى خوفها وخجلها وكل المشاعر التي اختلطت عليها، ليقول بصوت خفيض:
— هل أخافكِ شكلي؟
رفعت عينيها إليه بسرعة ثم خفضتهما مرة أخرى لتقول:
— لا... ليس تمامًا، لكن...
ابتسم مردفًا:
— كل ما أنا عليه الآن سيكون أمانك، لا لتضطربي، بل لتطمئني.
ساد بينهما صمت طويل. حاولت أن تستوعب هذا الكمّ الهائل مما تراه، ثم قالت:
— نِيوار... أتتذكر، حين كنتُ في عالمي، ماذا أخبرتني؟
رفع حاجبيه بدهشة وابتسامة عابثة، وقال بنبرة سريعة مازحة:

— ماذا أخبرتك؟
رمقته مستغربة:
— عرضتَ عليّ الزواج؟
انفجر ضاحكًا:
— طبعًا لم أنسَ! وهل يُنسى عرض زواج أُعطي لمن يسكن الروح؟
ثم مال نحوها بلطف وتابع ضاحكًا:
— أمازلتِ على عهدكِ... أم نقضتِه؟
— لم أنقض العهد... لكن، هل نحن الآن متزوجان؟
توقّف عن الضحك فجأة، كأن السؤال باغته حقًا:
— ماذا؟!... ومتى تزوّجنا؟!
ثم عاد لضحكه الهستيري من جديد، واضعًا يده على صدره من شدّة البهجة.

نظرت إليه بملامحٍ من الخجل الممزوج بالاستياء، وقالت بصوتٍ برجاء:
— نيوار.. كفاك مزاحًا واستهزاءً. أنا جادة في سؤالي، ليس لتضحك!
عقدت شفتيها بعتب وأشاحت بنظرها عنه.ليعتدل في جلسته وقال بنبرةٍ شبه جادّة:
— حسنًا، يكفي دعابة.لكن صدقيني أنت تسألين وأنا بداخلي أحتفل بكِ. ما زلت غير مصدّق أنكِ هنا معي.
بين المزاح والدهشة أضاف:
— بالله عليكِ... من أين أتيتِ بكل هذه الجرأة حتى تتجرّئي وتدخلي عالمي؟

بنظرةٍ عاتبة قالت:
_نيوار! أرجوك... لا تعد إلى دعابتك الثقيلة.
ثم وقفت وهي تزفر بتأففٍ، وابتعدت بخطى متسارعة:
_حسنًا إذًا... سأعود إلى عالمي.
قالتها وهي تلوّح بيدها دون أن تلتفت.
لم يتمالك نفسه من الضحك مرة أخرى بصوتٍ عالٍ وهو يقول:
_وهل تعرفين طريقة العودة؟
وما إن أنهى جملته... حتى وجدته واقفًا أمامها بلحظةٍ خاطفة، حاجزًا طريقها بابتسامةٍ ساحرة.
ثم استدارت بوجهها غاضبةً لتسلك طريقًا آخر، فجاءها مرةً أخرى من الجهة المقابلة في كسرٍ من الثانية.
هتفت بتوتر:
_نيوار! ما كل هذه السرعة؟!
أجابها بثقةٍ:
_هذا هو الطبيعي هنا!.. أنا الآن في موطني،وبكامل هيئتي الحقيقية... بينما في عالمكِ وتحت وطأة التشكّل البشري كنتُ أضعف بكثير مما أنا عليه الآن.
ثم وبحركةٍ انسيابية، اختطفها بين ذراعيه وحملها هامسًا قرب أذنها:
_ما زال هناك الكثير لتكتشفيه...

♡♡♡

في صباح اليوم التالي أشرقت الأرض بنور ربها و إيليانا خلف باب غرفتها؛ لم تفتحه، ولم يُسمع لها صوت.
في الأسفل، كانت ليلى قد أنهت تنظيف المنزل كعادتها..

خالد في عمله،ومحمود عاد لتوّه من الدراسة، خلع حقيبته عند عتبة الباب ثم جلس إلى طاولة الغداء حيث أعدّت له والدته الطعام برفقة ميلينا.
وبينما كانوا مجتمعين حول الطاولة، قالت ليلى وهي تتفحّص عقارب الساعة:
—غريب... إيليانا لم تخرج من غرفتها إلى الآن... يبدو أن إرهاق الأمس قد نال منها.
قال محمود وهو يلوك لقمةً في فمه:
—كانت أجمل عروسٍ مزيفة!
قال ذلك بطريقته الساخرة، فنظرت إليه ميلينا بعينيها الصغيرتين وسألت ببراءة:
—هل ما زالت نائمة؟
ردّت الأم:
—نعم، يبدو أنها نامت أكثر من المعتاد!... محمود، إن انتهيت من الغداء فاصعد وأيقظها. لقد نامت كثيرًا.
شرب محمود كأسًا من الماء، ونهض وهو يقول بمزاح:
—حاضر يا أمي... سأذهب لأُزعج دبّكم الكسلان.
صعد بخطى سريعة، ووقف أمام باب غرفتها ثم طرق الباب مرتين:
__أيها الدب الكسلان... الناس أنهوا أعمالهم وأنتِ ما زلتِ نائمة؟ أظنني سأسمّيكِ الأميرة النائمة بدلًا من الإسم الأوّل.
لا إجابة... طرق مجددًا بصوتٍ أعلى:
— إيلياناااا... هااي! هل تحولتِ إلى شبح؟
لكن الصمت كان سيد الموقف.
فعاد يصرخ من أعلى الدرج بنبرةٍ مرحة:
—أمِـــــــي ! يبدو أن ابنتك ماتت من كثرة النوم!

ضحك وهو يهبط الدرج، غير مدركٍ لما كانت تخبئه اللحظات التالية.
ارتفعت حاجبا ليلى بقلق، ثم أمسكت بمنديلها تجفف يديها، وتوجهت بنفسها نحو الغرفة. طرقت الباب مرة... مرتين... ثلاثًا:
—إيليانااا... إيليانااا... ابنتي، هل تسمعينني؟
لكن لا رد.
مدّت يدها نحو المقبض... وحاولت فتحه لكنه كان مغلقًا بالمفتاح من الداخل.
ارتجف قلبها لأول مرة، وارتسم شيء غريب على ملامحها.
طرقت بقوة أكبر:
—إيليانااا... افتحي الباب... أجيبيني!
ساد صمت ثقيل لا حركة، لا صوت، فقط جدران تُطبق على الخوف.
أعادت الطرق خمس مرات، عشرًا، دون فائدة.
سمع محمود وميلينا نبرة أمهم تتبدّل، وصوت طرقاتها يزداد قوة وعنفًا، لم يعد نداءً عاديًا بل صوتًا مشوبًا بالخوف والتوتر.
علا صوتها أكثر، وبدأت نبرتها تتخلّى عن صبرها المعتاد.
أسرع محمود من جديد نحو الدرج، تقفز قدماه بين ثلاث درجات، تتبعه ميلينا بخطى صغيرة قلقة وقد تقلّصت ملامح وجهها الطفولي بخوف.
وقف بجانب أمه، فرأى ارتجاف يدها وهي تحاول عبثًا فتح الباب المغلق.
—أمي، اهدئي... لا تفكّري بأسوأ الاحتمالات، ربما لم تسمعكِ فقط.

حاول تطمينها، لكن قلقه بدأ يتسرّب من بين كلماته.
رفعت ليلى عينيها إليه، والدمع يتجمع على أطراف رمشيها:
_لكنها لا تفعل هذا أبدًا يا محمود... شيء غريب يا ابني، شيء غريب!
نظر محمود إلى المقبض مجددًا، ثم شبك أصابعه حوله وأعطاه دفعة قوية.
تنفّس بعمق وقال:
_حسنًا أمي... تراجعي للخلف.
ثم وقف بثبات وحَزَم قبضته، قبل أن يوجّه ركلة قوية نحو الباب عند موضع القفل.
ارتجّ الباب وصرخت ميلينا من الرهبة، أما ليلى فوضعت يديها على صدرها تدعو الله في سرّها.
ضربه مجددًا، فارتد صرير خشبي واندفع الباب ببطء...
فتح محمود الباب وهوٍ يتنفس بسرعة، لكن الغرفة كانت ممتلئة بأشيائها، فارغةً منها.
تجمّدت ليلى في مكانها، ثم دخلت بخطوات متسارعة، تكاد لا تصدق ما ترى.
_مستحيل... كانت هنا، لا بد أنها هنا! المفتاح من الداخل... كيف؟!
نظر محمود في كل الزوايا، حتى تحت السرير وفتح خزانة الملابس... لا شيء.
الغرفة خالية...
قال محمود وهو يتفحّص الباب بذهول:
_الغرفة كانت مقفلة من الداخل... المفتاح ما زال في مكانه. أمي، كيف خرجت إذًا؟ النافذة مغلقة بإحكام؟ هذا مستحيل.

زاد ارتباك القلوب وتشتّت العقول وصار الخوف يسري في عروق البيت كنسيمٍ باردٍ في يومٍ قائظ.
أسرع محمود بالإمساك بهاتفه واتصل بأبيه، صوته متوتر متقطّع يخبره عن اختفائها في ظروف غامضة.
عاد خالد مسرعًا من عمله، وفي طريقه كان قلبه يسبق خطواته، تحيط به أسئلة لا إجابة لها.
في البيت بدأت ليلى بالاتصال بصديقات إيليانا، والقريبات، والجارات...
_هل رأيتِ إيليانا؟ هل جاءت عندكِ؟ هل اتصلت بكِ؟
لكن الإجابة كانت صادمة ومكررة: لا، لم نرها ولم نتواصل معها.
ميلينا، التي لا تفهم معنى "الاختفاء" جيدًا، بدأت تشعرِ ببرودةٍ تسري في أطرافها؛ تارةً تبكي، وتارةً تلتصق بأمها خائفةً من ذلك الصمت المخيف.
وبعد أن استنفدوا كل الأسماء والأرقام، لم يجدوا أمامهم خيارًا سوى الاتصال بالشرطة.
وصلت الدورية سريعًا، وبدأ المحققون بجمع المعلومات.
دخلوا الغرفة، فتّشوا الزوايا، وتحققوا من النافذة، والباب وأقفالهما...
الغرفة مغلقة بإحكام... ولا دليل على كسرٍ أو تسلّل.
خضع الجميع للتحقيق: الأب، والأم، ومحمود، وحتى ميلينا.
سُجّلت أقوالهم، ورُصدت تحركات إيليانا في اليوم السابق، وتمت مراجعة الكاميرات القريبة من الحي، ورغم كل الإجراءات لا أثر.
اختفت، كما يختفي الضوء فجأةً من مصباحٍ لم يُطفئه أحد فقط، انطفأ.

بدأت الضجّة تنتشر، والجيران يتوافدون بخوفٍ وفضول،
وبدأت الشرطة بتوسيع دائرة التحرّيات...
وبينما كانت العائلة غارقةً في الحيرة والرعب، كانت هي
في عالمٍ آخر...
لا يعرفه أحد، ولا يقدر عليه أحد.
كانت ليلى تنهار شيئًا فشيئًا أمام مرأى الجميع.
وجهها، الذي اصفرّ كأوراق الخريف، لم يعد يشبه وجه أمٍّ،
بل صار ظلًا شاحبًا لمرأة خذلها العالم.
يوشك قلبها أن يُنتزع من بين ضلوعها، دون أن تدري كيف
ولا لماذا حصل هذا!
جلست على طرف الأريكة ويداها ترتجفان. تمتمت أولًا مع
نفسها بصوتٍ بالكاد يُسمع، لكنها فجأة انفجرت:
—كنتُ أعرف... كنتُ أشعر أن إيليانا لم تكن بخير!
نظرت في وجوههم جميعًا... لكنها لم ترَ أحدًا، كأنها غاصت
في ماضيها، وراحت تسترجع اللحظات التي تجاهلتها.
—منذ فترة خطوبتها وهي لم تكن بخير... كانت نظرتها
غريبة. كنت أراها تضحك، لكن ابتسامتها كانت حزينة.
قلتُ لنفسي: ربما هي متوترة... لكن لا! ابنتي لم تكن بخير،
وأنا كنتُ أرى ذلك ولم أفعل شيئًا..
ثم التفتت بحدّة نحو خالد، بعينين يغلي فيهما العتاب:
—أنت!.. أنت من أصررت على إتمام الخطبة! قلتَ ما دامت
صامتة فهي راضية... أقنعتني أن ما طرأ عليها من تغيّر لا
يدعو للقلق، وأنه مجرد أثرٍ لزواجٍ جديد... لكن انظر، انظر إلى
ما وصلنا إليه! كان صمتها خوفًا، لا رضا.. ابنتي ليست
قطعة أثاث تُنقلٍ من بيتٍ إلى آخر!
كان خالد مذهولًا، لا يجد ما يقوله، كأن الكلمات تعلّقت في
حنجرته.

لكن ليلى لم تتوقف، أخيرًا وجدت من تُحمّله جزءًا من الغياب الغريب الذي لم يجدوا له تفسيرًا.
—الآن تقولون إنها اختفت؟ لا... لقد كانت تختفي منذ شهور من نظراتها، من حديثها، من حيويّتها. كانت تنطفئ أمامنا شيئًا فشيئًا، ولم نكن نراها... أو بالأحرى، لم نرد أن نراها.
وبينما هي تنشج بالبكاء، كانت ميلينا تنطوي على نفسها وتبكي من هول ما يحدث.
كان محمود يقف عاجزًا، يتمنى لو أن ما يحدث ليس إلا كابوسًا مؤقتًا. لكن الحقيقة كانت قاسية كالجليد "إيليانا اختفت، ولا أحد يعلم أين."

♡♡♡

غادر بها الجبل متجهًا إلى مكانٍ قال عنه إنه مكانه الخاص، ولا أحد يدخله سواه.
وعندما وصلا، اتسعت عيناها؛ أمامها قصرٌ فخم يفيض بجمالٍ عتيق.
نوافذه العالية مغطاة بزجاجٍ ملوّن كفسيفساء زمنٍ بعيد، وسلالمه الرخامية تلتف بهدوء.
بوابته الخشبية العتيقة تحمل نقوشًا متشابكة، وقبضتها البرونزية تلمع بوهجٍ هادئ.
ما إن اقتربا حتى فُتحت البوابة نفسها ببطء، كما لو أنها تعرف الزائر.
دخلت إيليانا بخطى بطيئة، تتلفّت بعينيها المتألقتين، وقالت:
__لا يمكنني أن أصدق... لا مجال للتصديق على روعة هذا العالم.
ثم التفتت إليه وقالت بصوتٍ فيه انبهار:
__رأيت ما يشبه هذا القصر من قبل.

ضيّق عينيه متسائلًا:
__أين؟
__يشبه تمامًا قصور العصر الفيكتوري التي اطّلعت عليها ورأيتها في الأفلام القديمة... نفس الدرج، نفس النوافذ المزخرفة، حتى الأرائك المخملية التي تدعوك للغوص فيها.
ابتسم وهو يراقبها تتجول، تلمس الجدران ترفع رأسها نحو السقف المقوّس، وتتأمل الثريات الكريستالية التي تبعث نورًا يشبه ضوء النجوم.

توسّط نِيوار بهو القصر وفتح ذراعيه مشيرًا إلى كل الاتجاهات:
_هذا القصر... خاص بي، يحمل ذكريات عقودٍ قديمة جدًا. آتي إليه عندما أحتاج أن أختلي بنفسي، أو إذا حدث شيء لا يسير على ما يُرام... بالمناسبة، منذ زمنٍ طويل لم أدخله.
نظرت إليه بحماس وقالت بسرعة:
_يعني ذلك أن لا أحد غيرك يعيش هنا؟.. كنتُ أظن أن القصور عادةً مليئة بالخدم والحاشية!
أومأ برأسه قائلًا:
_نعم، هذا هو المتعارف عليه... لكن هذا القصر مختلف. لا أحد فيه، حتى أنا لا أعيش هنا. هو فارغ بالكامل... لا خدم، لا حرّاس، لا أصوات، هُجر منذ مدة طويلة.
تقدّمت نحوه، تتأمل المكان ثم سألت:
_إذا كنت لا تعيش هنا... فأين تعيش إذًا؟
_أعيش في القصر الملكي، حيث والدي وعشيرتي.
أضافت بنبرة فضولية وقد عقدت حاجبيها:
_أهلك!.. لم تحدّثني عنهم كثيرًا، اكتفيت فقط بكلمة "أهلي".
نظر إليها بتأمل وأدرك أن الوقت قد حان:
_صحيح... ربما آن الأوان لأحدّثك عنهم، وعن مملكتي وعن عالمي الحقيقي.

لكن قبل أن يكمل حديثه، كانت قد بدأت تصعد درجات السلم الرخامي بلهفة، تتفحّص كل التفاصيل كطفلة تكتشف كنزًا دفينًا.
ابتسم، مراقبًا لها:
__يا اللّٰه... ما أفضع فضولكِ! ألن تنتظري حتى أُريكِ أنا؟
استدارت نحوه من أعلى الدرج وقالت بابتسامة واسعة:
__أخاف أن أضيع شيئًا قبل أن تخبرني! المكان يحكي ألف قصة، وأنا لستُ من محبي الصبر.
رفع حاجبيه وقال:
__إذًا تفضّلي يا سيدة الاستكشاف... لكن إيّاكِ أن تفتحي أي باب لا يُفتح!

في قلب مملكة الأحمر

كان قصر الملك الأحمر أكثر من مجرد مقرّ ملكي، بل عالمًا كاملًا تحكمه قوانين صارمة، وتدور فيه الأعراف كما تدور الكواكب حول نجمها.
تحرس بواباته الضخمة جموعٌ من الحُرّاس، ملامحهم صارمة، وسيوفهم مغمّدة بطاقةٍ خامدة. كل واحدٍ منهم تعاهد مع الملك الأكبر (جد نيوار) ألّا يخون، وألّا يتراجع، وألّا يُخفِض بصره عن العرش.
أما أروقة القصر فتموج بالحركة ليلًا ونهارًا. الخدم من أعراقٍ وأنواعٍ مختلفة، منهم الجن الطيّار، وهم المراسلون والمستطلعون، وتخصصهم نقل الأخبار والتجسّس الاستبصاري، ولهم قدرات كثيرة منها اختراق الحُجُب الزمكانية.
ومنهم الجن الغواصون، وتخصصهم الغوص في الأعماق واستخراج الأسرار. ومنهم الجن البنّاء، مهمتهم الهندسة

الأثيرية وبناء بوابات وسجون طاقية بدقة لا متناهية، بالإضافة إلى بناء الحصون والتحصينات. ومنهم المحاربون، ومنهم الحكماء والأطباء...
كلّ واحدٍ منهم يعرف دوره، لا يتجاوز حدّه، ولا يُخطئ في نبرة الخطاب.
وفي وسط هذه المملكة العظيمة — والعظمة لله وحده — كان هناك مجلسٌ أعلى مؤلف من كبار الوزراء والمستشارين، الذين كانوا يجلسون إلى يمين الملك الأحمر ويساره، وإلى جانب الملك الأكبر.
ومن بينهم الوزير الأول "يثرب"، وهو أخو الملك الأحمر وعمّ نيوار.
وفي جناحٍ من أجنحة القصر الواسع، كانت تقيم سبأ، الملكة الأم، زوجةُ الملك الأحمر ووالدة نِيوار.
جنية ذات حضورٍ راسخ، هيبتها لا تحتاج إلى صوتٍ عالٍ، بل تسكن في نظرتها الفاحصة وطريقتها في الإلقاء والإصغاء.
عُرفت بالحكمة والاتزان، وكانت الأقرب إلى قلب الأمير نيوار، رغم أنها لم تكن تُكثر من التدخل في شؤونه، لكنها كانت تراقبه بعين الأم التي تعرف أن للروح مساراتها الخفية.
لها مكانة كبيرة في القصر، لا ينازعها فيها أحد... بل كانت السيدة "زُلفى"، زوجة عمّ نِيوار، خليلتها من بين نساء القصر؛ تربطهما صداقة طويلة منذ الصغر، وكانتا تتشاركان الأسرار والصلابة.
الجنية زُلفى، رغم حزمها الظاهري ولباسها المخملي الفاخر، كانت تضعف أمام الملكة سبأ، وتحترم رأيها. وقد منحتها تلك الصداقة قوةً لم يملكها كثيرون داخل أسوار القصر.

إلى جوار زُلفى يقيم زوجها، يثرب، رجلٌ ذو طبعٍ ناري، يشارك أخاه الحكم لكنه لا يشاركه الهيبة... كان يحلم بأن يرى ابنه يومًا ما

يتقدّم على نِيوار في قيادة الجيوش، وفي القدرات الكبيرة التي يتمتع بها في مجاله.
ولم يكن أحد يعلو فوق الجميع في المقام والمهابة إلا الملك الأكبر جدّ نِيوار؛ العتيق في الحكمة، والمهيب في الصمت. لم يكن يظهر كثيرًا، لكنه حين يتكلم تُسقِط كلماته من هم أقلّ منه شأنًا.
عاش أزمنة طويلة، وامتدت أيامه حتى صار جزءًا من ذاكرة المملكة ذاتها.
كان كلّ من في القصر يظنون أن نِيوار، الوريث الأول، يسير كما أراد له هذا النظام لكن لا أحد منهم كان يعلم أن قلبه هذه المرة قد سار عكس خطواته، وأنه الآن بعيدًا عن كل هذا الصخب في قصره المهجور، بصحبة من لا تنتمي إليهم.
أما الجنية "نجمة"، ابنة أخ الملكة سبأ، التي تكفلت بها منذ أن توفيت أمها أثناء ولادتها فكانت تُحس بشيء غريب في الأفق. لم تكن تدري بعد ما هو لكنها شعرت أن حضور نِيوار تغيّر وهناك ما يُحاك في الخفاء.

♡♡♡

دخلت إيليانا إلى غرفةٍ كبيرة تنبض بجمالٍ قديم؛ السرير المخملي الكبير يملأ منتصفها، وستائر شفافة تتمايل بهدوء، أرضية لامعة تعكس أضواءً مجهولة المصدر.
وقفت أمام شيءٍ يشبه الخزانة، فتحته فإذا به يمتلئ بفساتين من طرازٍ لا تعرفه، أقمشة غريبة الملمس وألوان لا تنتمي إلى لوحة الألوان التي اعتادتها أعين البشر.
التفتت إليه بتساؤل:
_ما هذه...؟ أهي لنسائكم؟

كان نِيوار يتبعها بخطواتٍ صامتة. ابتسم حين سمع سؤالها

ثم ضحك وهو يضمّ ذراعيه:
_تسألين وتجيبين في الوقت نفسه؟ حسنًا، اسألي واختاري الإجابة التي تُريحك... لن أجيب.
ثم جلس على السرير براحة، عاقدًا ساقًا فوق الأخرى.
وقفت أمامه، تمعن النظر في الفستان وهي تقول:
_آسفة... فضولي يسبقني دائمًا. لا تنسَ أنني غريبة عن هذا العالم، وكل شيءٍ فيه يثير دهشتي.
سكتت قليلًا قبل أن تضيف سؤالًا آخر:
_نيوار... كم يبعد منزلي من هنا؟
وقف مشيرًا بيده نحو النافذة الكبيرة خلف الستائر:
_ أطلّي من هناك، ستجدين منزلكِ وكل بلدتكِ.
اتسعت عيناها فرحًا:
_حقًا؟!
ركضت نحو النافذة وفتحت الستار بسرعة. أطلّت بحماس، فلم تجد إلا ذلك العالم الساحر؛ حدائق لا تنتهي وأشجارًا تلمع وسماءً بلونٍ غريب.
_واو!
سألها:
_ماذا؟.. وجدتِ منزلكِ؟
_لا، لم أجد منزلي... لكن هذه الحديقة جميلة جدًا!
ليقول مازحًا:
_آه، ظننتُ أنكِ عثرتِ عليه!
نظرت إليه بدعابة:
_أنت تهزأ بي! لم أرَ شيئًا يشبه عالمي!
اقترب منها، وخفّت نبرة صوته وهو يشرح لها:
_عالمكِ لا يُقاس من هنا بالأميال أو بالخُطى... أنتِ الآن

في بُعدٍ آخر تمامًا.
شيءٌ ما انتابها فجأة، شعورٌ غريب تسلّل إلى صدرها كنسمةٍ باردة بعد دفءٍ طويل. كانت جملته: "أنتِ في بُعدٍ آخر" ثقيلة جدًا فأحست وكأن الغياب بدأ يأخذ شكله الحقيقي.
تغيّرت ملامح وجهاوانطفأ البريق من عينيها، مالت نظرتها نحو الأرض، كأن الحنين داهمها دون سابق إنذار.
قالت بصوتٍ خافت، ينساب من قلبٍ بدأ يخاف:
__هل يكونون قد اكتشفوا غيابي؟ أمي... أبي... إخوتي؟
اقترب منها خطوة، كمن يُمسك قلبًا يرتجف:
__نعم، أظن أنهم يعرفون الآن.

رفعت نظرها إليه بعينين تغرغر فيهما أسئلة كثيرة:
_لكن... لم يمضِ وقتٌ طويل، أليس كذلك؟أشعر أنني رحلتُ منذ قليل فقط؟
وضع يده على كتفها، ونظر إليها بجدية:
_حبيبتي... عليكِ أن تفهمي شيئًا مهمًّا. الزمن في عالمي لا يسير كما يسير في عالمكم. هنا اللحظة قد تكون أطول مما تتصورين، وقد تكون أقصر. ما يبدو لكِ مجرد ساعات، قد يُقاس هناك بثلاثة أيام أو أكثر.
حدّقت فيه باستغراب:
_ثلاثة أيام أو أكثر؟
أومأ إيجابًا:
_ لا يمكننا أن نقيس الزمن بين العالمين بمسطرةٍ واحدة. هما مختلفان عن بعضهما كثيرا.
سكتت، وقد غرقت في تفكيرها. كيف يكون قد مرّ كل هذا الوقت؟! تُرى، هل بكت والدتها حين لم تجدها؟ هل ناداها محمود كما كان يفعل كل صباح؟ هل ارتعبت ميلينا من اختفائها؟ وماذا عن أبيها؟

قرأ نِيوار في عينيها ذلك الحزن الصامت، فتقدّم نحوها ورفع وجهها إليه برفق:
__أفكاركِ تؤلمكِ، أليس كذلك؟
أومأت بصمت.
__اطمئني... لم أُحضركِ إلى هنا لأختطفكِ.
بعد لحظات من الصمت، أمسك بذراعها:
__تعالي، أريد أن أريكِ شيئًا...
مشت معه عبر ممرٍّ طويل تكسوه سجاجيد داكنة تُشبه زرقة الليل. الجدران مزخرفة بنقوشٍ وامضة وغريبة جدًا.
وصل إلى بابٍ عالٍ وعريض، أعتابه متآكلة بعض الشيء لكنه ما زال شامخًا. فتحه بخفة فدخلت معه.
كان المكان يُشبه قاعةً سماوية.
رفوف الكتب تمتد من الأرض حتى السقف... لا تُشبه أي مكتبة عرفتها في عالم البشر. لا أوراق، لا غبار بل لفائف ضوءٍ معلّقة، ومجسّمات زجاجية تُنير حين تقترب منها.
__هل هذه... كتب؟
رد موضحًا:
__هذه مكتبة الزمن. تُخبّئ المعارف الكبرى لعالمنا، علومًا، وقوانين، ومعاهدات، وأسرارًا ممنوع الكشف عنها.
تقدّمت بخطى بطيئة، وعيناها تجولان في تلك القباب المزخرفة:
__كل هذا... أنتم تملكونه؟
__لا نملكه نحن فقط نرعاه. إنه ميراث الزمن من أجداد الجنّ الحكماء، لا يُمسّ إلا عند الحاجة القصوى.
ثم تابع وهو يسير إلى رفٍ معيّن:
__وهناك قسمٌ خاص... كُتب عليه "الختم الأحمر". لا أحد يقترب منه دون إذنٍ مباشر من الملك.

سألته بفضول:
__وماذا يوجد فيه؟
أجابها وهو ينظر بعينٍ عميقة نحو الأعلى:
__كتبٌ لا تُقرأ... بل تشحن ترددداتنا. إنها تُخفي أعظم القرارات التي غيّرت عالمنا في أحد الأزمنة.
اقترب منها وقال برقة:
__أحضرتكِ إلى هنا لأنكِ الآن جزءٌ من هذا العالم... ولكِ الحق في أن تعرفي، لكن تذكّري ليس كلُّ معرفةٍ تُريح القلب.
نظرت إليه بعينين بريئتين وقالت:
__أرجوك يا نيوار... لا أريد أن أعرف شيئًا تشعر أنه يقتحم خصوصياتكم. أنا هنا، لكنني لا أريد التعدّي على أسرارٍ لا تخصّني.
ابتسم لها:
__كما تشائين... لكن بشرطٍ واحد.
رفعت حاجبها، فتابع بنبرة جادّة ولطيفة:
__لا تطلعي أحدًا على ما أخبرتكِ به، ولا حتى تفصيلة واحدة.
شهقت بدهشة:
__ولا تفصيلة؟
__نعم، كل ما دار بيننا... منذ اللحظة الأولى التي ظهرتُ لكِ وحتى هذه اللحظة، هو سرّ بيني وبينكِ فقط.
بخضوعٍ قالت:
__حسنًا... أعدك.
لكن فجأة رأته يغمض عينيه. تقدّمت نحوه بقلق:
__نيوار... ما بك؟ هل يحدث شيء؟
لبث هادئًا دقيقةأخرى، ثم فتح عينيه ببطء وقال بصوتٍ أقرب إلى الهمس:
__ينادونني... يجب أن أذهب.

بخوفٍ سألت:
__مَن؟! وإلى أين؟
__إهدئي... أنتِ هنا في أمان، المكان مُحصّن ولن يدخل إليكِ أحد. وإن احتجتِني فقط ناديني.
__لكن... إلى أين ستذهب؟ لا تتركني وحدي أرجوك...
وضع سبّابته على شفتيها:
__ششت... أعلم أنكِ فتاة قوية.
__لا... لستُ قوية. أنا لستُ في عالمي.. ألا تدرك ما أمرّ به؟
نظر إليها بعمق وامتد شروده إلى قلبها، ثم قال:
__أدرك ذلك وأشعر بكِ... أنتِ الآن غريبة في هذا المكان، لكن أعدكِ... لن يمسكِ سوء ما دمتُ هنا.

ثم قفز نحو رفوف المكتبة، وراح يتسلّقها بخفة الجن يبحث عن شيءٍ ما بين الأدراج القديمة. راقبته بعينين مملوءتين بالحيرة والخوف، حتى عاد إليها أخيرًا يحمل قلادة يتدلّى منها حجر عقيقٍ بلونٍ أحمر، يشبه القلب إلى حدٍّ ما، معلّق في خيطٍ غريب لا يشبه المعدن أقرب ما يكون إلى نسيجٍ رخوٍ ناعم.
علّق القلادة على رقبتها قائلًا:
_هذه ستجعلني أشعر بكِ أكثر... بكل إحساسٍ يمرّ بكِ. إن كنتِ خائفة أو مطمئنة، فرِحة أو باكية. هذه القلادة بمثابة استشعار لكل أحاسيسكِ.
وضعت يدها على القلادة، وشعرت بحرارتها الخفيفة تنبض قرب قلبها:
_حسنًا... لكن لا تتأخّر، أرجوك.
وفي لمح البصر اختفى كسرعة الضوء، تاركًا قلبها ينبض وحده في ذلك المكان الساحر.

دخل نِيوار من بوابة القصر الكبير، حيث يمتد الممرّ الرخامي الطويل المؤدي إلى مجلس الشيوخ، تضيئه مشاعل بألسنة زمردية لا تنطفئ، وتنساب من سقفه أعمدةُ ضوءٍ تعكس هيبة المكان وسلطته.
تسبق حضوره هالته المهابة التي يعرفها كل من في القصر.
وفى اللحظة التى تجاوز فيها المنعطف المؤدى إلى المجلس، وقعت عيناه على نجمة التي كانت تمرّ في الجهة المقابلة، فتوقّفت لوهلة وعيناها تثبتان عليه بصمتٍ.
ثم تابع طريقه دون أن يلتفت، وعبر بوابة المجلس التي فُتحت له تلقائيًا.
في الداخل، اجتمع الشيوخ حول طاولة دائرية.
وضع نيوار يده اليمنى على جهة قلبه، ثم رفعها قليلًا نحو جبهته وهي إشارة تعني: "روحي وعقلي في خدمة العرش".
وكان هذا الطقس من طقوس التحايا التى يجب على كل مُستدعى أن يقوم بها فور دخوله، ثم ألقى كلمات الافتتاح:
__دُمتم بعزّ مَلِكِ الملوك، ذي الشأنِ الأسمى والسلطانِ الأقوى، رافعِ الصالحين وقاصمِ الشياطينِ من الثقلينِ ودحرهم، أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تقتيلًا. حضرتُ تلبيةً للنداء ومثولًا للولاء.
ثم جلس بثبات، ليقول أحد القادة:
__الممرّ الثالث المؤدي إلى أراضي القبائل الشرقية قد تعرّض لاختلالٍ طيفيّ. نحن لا نتحدث عن تهديد... بل عن ارتجاجٍ غريب في الأنسجة الزمنية المحيطة به.
عقد نيوار حاجبيه:
__وهل تعتقدون أن هذا له علاقة بأي تحرّك من القبائل المجاورة؟

__ربما... وربما لا. لكن هذا النوع من التقلّبات لا يحدث عادة إلا حين تُحرّك القوى العليا خطوط التوازن، أو حين يتلامس ترددٌ غير معتاد.
ثم أردف عضوٌ آخر:
__نريدك أن تكون على اطّلاعٍ مباشر، وأن تذهب بنفسك لفحص الموقع.
__عُلم... سأذهب وأعود بتقريرٍ واضح.
خرج من مجلس الشيوخ، وبدا وكأنه استعاد شيئًا من هدوئه الداخلي.
الجنية نجمة وقفت أمام إحدى النوافذ المطلة على الساحة الحجرية، غارقة في موجة تفكيرٍ؛ لا تدري لماذا شعرت أن شيئًا ما قد تغيّر، لكنها لم تملك دليلًا. تلك النظرة من نيوار حملت شيئًا لم تفكّ رموزه بعد.

♡♡♡

في عتمة الليل المعلّق بين الأبعاد، سلك نِيوار الطريق الضيّق المؤدي إلى مشغل سيف الله الحارق، العقل اللامع الذي يختبئ عن كل الأعين في قلب الوادي الساكن بين الجبال التي لا يجرؤ على عبورها سوى من يحمل ختم الثقة.
لم يكن الطريق معبّدًا، بل محفوفًا بعلاماتٍ طيفية تُبطل أي اقترابٍ غير مرغوب فيه. وحين اقترب نِيوار، انزاحت تلك العلامات تلقائيًا... فقط لأنه "هو".
فتح الباب دون أن يطرقه، فالورشة تعرفه وتفتح له دون سؤال.
كان سيف الله الحارق منهمكًا كعادته؛ لا يرفع رأسه، تغمره عشرات الرقاقات المضيئة وخرائط متداخلة معلّقة على الجدران. يدوّن شيئًا، ويهمس بشيء ثم يطبع بسبابته

على بلّورة كانت تصدر توهّجًا باهتًا كلما لمسها.
حيّاه دون أن ينظر إليه:
__أهلاً نِيوار... اجلس. وكن خفيفًا لا تسقط على أحد اختراعاتي، بعضها هشّ وبعضها ينفجر.
ابتسم رغم توتره، وجلس على طرف مقعدٍ حجري أقرب إلى الركام منه إلى الأثاث، وقال:
__ما زلتَ فوضويًا يا سيف.
ردّ سيف وهو يقلّب رقاقاته:
__والفوضى تخلق الدقة يا أمير. الآن أخبرني... ماذا فعلتَ هذه المرة؟
سكت نِيوار قبل أن يقول:
__اختلال الممرّ الثالث... لم يكن طيفًا عابرًا ولا شرارة تمرّد. كان أثر عبور.
توقّف سيف ببطء شديد ووضع الرقاقة جانبًا، ورفع رأسه لينظر مباشرة إلى عينيه:
__عبور؟... عبور ماذا؟ ماذا دخل عالمنا؟
أجابه نِيوار:
__سيف... لا تتصرّف كأنك لا تعلم.
زمّ شفتيه، ثم قهقه ساخرًا:
__يا سلام... أهذا زمن الرومانسية؟ أم إن قلبك فقد السيطرة على مكابحه؟
ردّ نِيوار بجدية:
__ليست مزحة يا سيف، أنت تعلم ماذا سيحدث لو اكتُشف الأمر. القوانين صارمة والأمور خرجت عن سيطرتي. لا أريدهم أن يعرفوا... على الأقل ليس الآن.
وقف سيف من مكانه، وراح يسير بخطى بطيئة حول الغرفة، يدسّ يديه خلف ظهره كما يفعل حين يعمل ذهنه.

__إذًا... تحتاج إلى تقريرٍ مُقنع، يغطي أثر العبور ويُبعد الشك عنك.
أومأ نِيوار برأسه.
__حسنًا، سأنشئ لك سيناريو اختلالٍ ناتج عن تذبذبٍ في التربة الطيفية. سأضيف إشارةً وهمية إلى انفجار تجربة كتلةٍ طاقية بسبب تجربةٍ لأحد الأسلحة التي اخترعتها... هذا كافٍ ليشغلهم شهرًا من التحليل والتخمين.
ابتسم نِيوار قائلًا:
__لهذا أتيتُ إليك. دائمًا تعرف من أين يُشعل الدخان ليتوهّم الجميع وجود النار.
__لكن تذكّر يا نيوار هذا لن يخدعهم طويلًا.. سيبحثون و سيشمّون رائحة الغريب عاجلًا أم آجلًا.
أجاب نِيوار بصوتٍ مضطرب:
__لهذا أحتاج الوقت... فقط الوقت.

♡♡♡

مرّ أسبوع على اختفاء إيليانا، وثقل الغياب ازداد ترسخًا في تفاصيل البيت.
خيّم الصمت وتباطأت الحركات. ليلى باتت تقضي يومها بين الغرف، تتنقّل بلا وجهة وتتفقّد كل ركنٍ تلمسه يدها.. وجهها شاحب، تعلوه مسحة تعبٍ مزمن وعيناها مجهدتان من السهر والسؤال المتكرر الذي لا يلقى إجابة.
لم تكن وحدها في حزنها. والدتها التي لطالما كانت سندًا لها بقيت قربها تمدّها بالقوة، في حين كانت عائلتها تتوافد كل يوم، تبحث عن أي خبرٍ جديد، مساندين أختهم على احتمال الغياب الذي يطول.
الغرفة التي كانت تضجّ بضحكات إيليانا صارت مركز الانتظار والمكان الوحيد الذي لا يُغلق بابه.

خالد ظلّ يتابع مع الشرطة يوميًا. يتحدث قليلًا ويسمع كثيرًا، مشتّتًا وضائعًا بين الحيرة والخوف وينقل كل ما يُقال إلى أفراد العائلة دون أن يُظهر يأسه. أمّا في داخله فكان يخوض حربًا من القلق والأسئلة.

الشرطة اتبعت كل إجراءٍ ممكن استجوبت، فتّشت، بحثت في الأجهزة، في هاتفها وفي المحيط القريب.. مرّت الأيام دون نتيجة تُذكر.

إيليانا لم تترك أثرًا يُفضي إلى مكان ولا خيطًا يُشير إلى وجهة.

ومع مرور الأيام بدأ الحديث ينساب على ألسنة الجيران، كلٌّ يروي القصة كما شاء له الظن:"ربما هربت مع شاب تحبه؟"، "ألم تكن غريبة الأطوار مؤخرًا؟"، "تغيّرت كثيرًا بعد الخطوبة... أليس كذلك؟"

الشائعات كانت كالسكاكين تقطّع دون رحمة، تنهش سمعتها وسمعة أهلها. البعض قال إنها انتحرت، وآخرون أقسموا أنهم رأوها في سيارةٍ فاخرة تغادر الحي مساءً و الحقيقة ضاعت بين القيل والقال.

تحوّلت الكلمات إلى أحكامٍ جائرة، بينما العائلة تحاول لملمة نفسها والتمسّك بما تبقّى من الأمل في انتظار خبرٍ أو تحقيقٍ يكشف ما جرى.

كل شيء تحجّر في مكانه، إلا الوقت كان يمرّ ببطء يزيد من توتر الجميع ويجعل الفراغ أوسع مما هو عليه.

♡♡♡

في غرفة شبه مظلمة، جلس إلياسيف على مقعده الجلدي الكبير وأمام ناظريه شاشة تُظهر رموزًا وأرقامًا متتابعة، كأنها قلب المنظومة التي يقودها. وضع الهاتف على أذنه قائلًا:

«أجل... ما زال كل شيء يسير حسب الخطة،حسنا.. الزفاف

سيتم في أقرب وقت.»
جاءه الرد عبر الهاتف حازمًا، لا يحتمل المماطلة:
«لا نريد أي تأخير. يجب أن تُسلَّم الفتاة في الموعد المحدد، فالتأجيل يعرقل الخطط، وهذا ما لن نسمح به... مفهوم؟»
شدّ إلياسيف قبضته فوق الطاولة، ثم غمغم بصوتٍ خافت:
«مفهوم... سأسرّع الإجراءات.»

ركب سيارته وقادها بسرعةٍ عالية نحو المنزل الذي يجتمع فيه مع رجاله عادة. كانت عيناه تمسحان الظلام وتبحثان عن قرارٍ داخلي يحسم هذا الملف. رفع رأسه وهو يحدّث نفسه بثقل:
«يجب أن يتم الزفاف خلال أيام... نحن نقترب من الموعد المحدد وقد أعطيت وعدًا لكبير المنظمة. العروس يجب أن تُسلَّم لهم دون تأخير.»
ثم تابع بقلقٍ داخلي:
«سأتخذ خطوة مباشرة... يجب أن أتصل، لا مجال لمزيدٍ من التأخير.»
في الجانب الآخر من المدينة
كانت ليلى مستلقية على الأريكة في إعياءٍ ظاهر، فيما كان خالد جالسًا على الكرسي قبالتها، شاردًا كأنما أُلقيت على أكتافه كل هموم الدنيا.
رنّ هاتفه فجأة، نظر إلى الشاشة فظهر الاسم واضحًا:
"إلياسيف".
خفق قلبه بشدة والتفت نحو ليلى، لكنها لم تلاحظ شيئًا.
كانت حاضرة بجسدها، غائبة بروحها.
ضغط زرّ الرد بصمت:
«السلام عليكم عم خالد، كيف الحال؟ كنت أود أن نناقش أمر الزفاف مجددًا... أرى أن الترتيبات تحتاج إلى تسريع ونحتاج

أن نحدّد الموعد الرسمي.»
نظر خالد أمامه بفراغٍ ثقيل.. كيف يُجيب؟ العروس لم تعد موجودة والبيت لا يعرف للنوم طريقًا منذ أسبوع. كل شيء... كان على وشك الانفجار.
لم يكن خالد يتوقع أن يأتيه ذلك الطلب الآن، بعد كل ما مرّت به العائلة في الأيام الماضية.
إلى جانب صوته تحدّث صوت والده الذي بدا أكثر إصرارًا هذه المرة:«أرجو ألّا نتأخر أكثر.. الأسبوع القادم كحدٍّ أقصى. لا نريد أن يشعر إلياسيف بالإحباط أو التردد.. الشباب حين يطول انتظارهم، قد تتغيّر آراؤهم، وأنت تفهم ما أعني.»
جفّ حلق خالد وشعر كأن الكلمات تثقل على لسانه. نظر إلى الأرض ثم رفع عينيه نحو ليلى المستلقية، المتسمّرة في صمتها الموجع وقال بتردد:
__أنا... نحن نواجه مشكلة.
جاءه الرد على الفور، حادًا ومباشرًا:
__وما هي المشكلة؟
لم يُجب فقط تمعّن في ملامح زوجته الشاحبة، ثم تمسّك بهدوءٍ مصطنع وقال:
__عذرًا، سأعاود الاتصال بك لاحقًا.. الوقت غير مناسب الآن.
وقبل أن يُسمح له بمزيدٍ من الأسئلة، أنهى المكالمة.
في اللحظة التالية، استفاقت ليلى من تغيّبها وسألته بقلق:
__خالد... ماذا هناك؟
قال وهو يفرك كفّيه بعصبية:
__لا أعلم... لا أعلم ماذا سأقول لهم. أن ابنتنا اختفت؟ أن لا أحد يعلم أين هي؟ أن الشرطة عجزت عن تحديد مكانها؟
اقتربت ليلى منه أكثر، بصوتٍ مثقل بالوجع:
__لكن إن لم نقل الحقيقة الآن فسيكتشفونها عاجلًا أم آجلًا.

في خضم التوتر والصمت الثقيل، صدح صوت الجدة التي كانت تجلس على إحدى الأرائك بهدوءٍ ظاهري، لكنها تتابع كل ما يحدث بعينين لا يفوتهما شيء.
__يا بني... أنا لا أظن أن هذا أمرٌ يمكن السكوت عنه أكثر. كل يومٍ يمرّ تزداد الألسن وتكثر الشائعات.
ثم تابعت، تنقل بصرها بينهما:
__من الأفضل لهم أن يسمعوا الحقيقة منكم أنتم، على أن تصلهم من الخارج مشوّهة مليئة بالتأويلات والكلام السيئ.
حاول خالد الاعتراض، لكنها تابعت:
__أنا أفهم خوفك وحرصك ولستَ مضطرًا لشرح التفاصيل، لكن يجب أن يعرفوا أن هناك أمرًا يستدعي التأجيل على الأقل.
نظر خالد إلى زوجته التي كانت تنظر إليه بصمت، تجهل التصرّف الصحيح في هذا الموقف.
تنهد تنهيدةً ثقيلة ومسح وجهه بكفّه قائلًا:
__ربما... ربما أنتِ محقّة يا أمي. سأكلّم والد إلياسيف غدًا وأحاول أن أختار كلماتي بعناية... أقول إن هناك ظرفًا صحيًا طارئًا، أو أي شيءٍ يمنحنا وقتًا أطول.
قالت الجدة وهي تستعد للنهوض:
__افعل ما تراه صوابًا... لكن لا تترك الأمور تتعفّن في الصمت. الناس لا ترحم والستر لا يكون بالكتمان وحده، بل بالصدق أيضًا.
ليلى بقيت ساكنة، تراقب الموقف كلّه وهي تقاوم رغبةً جارفة في البكاء. الزمن يمرّ وإيليانا لا أثر لها وكل يومٍ تزداد الغربة في قلبها.

بهدوءٍ يلفّه القلق، دخل إلى القصر الذي غادره قبل ساعات، لكنه بدا هذه المرة أكثر سكونًا... لا حركة، لا صوت، حتى الهواء نفسه بدا متحفّظًا، يخشى أن يثير الصمت.
نادى باسمها، لكن لا إجابة.
نادى ثانية بصوتٍ أعلى قليلًا، وتقدّم بخطى سريعة يبحث عنها بين الغرف والممرات. قلبه دقّ بتسارع وخوفٌ خفي راح يزحف في صدره.
وحين اقترب من تلك الغرفة ذات الستائر الحريرية، انفرجت ملامحه شيئًا فشيئًا فقد لمح جسدها مستلقيًا على السرير المخملي. كانت أنفاسها هادئة ومنتظمة تدلّ على نومٍ عميق..
اقترب منها وجلس أمامها على الأرض جلسة القرفصاء، يراقبها بصمت... ترتدي ذات البيجاما التي عبرت بها إلى عالمه، قطعة مختلفة تمامًا عن كل ما عرفه من ثياب فتيات عالمه، تذكّره في كل مرة بأنها لا تنتمي إلى هنا.
انسدلت خصلات شعرها على كتفها وبعضها امتدّ فوق وجنتها، يغطي جزءًا من ملامحها. مدّ يده برفق وأزاح تلك الخصلة عن وجهها بحذر ولمسة أصابعه بالكاد لامستها.
ابتسم واطمأن قلبه، محدّثًا نفسه:«سبحان من خلقك فأبدع... فعلًا، التدبّر في خلق الله يجعلك توحّده، وتتعجّب من أولئك الذين:
﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾.»
ظلّ ينظر إليها طويلًا، يتأمل تفاصيلها ويراقب ملامحها وهي غافية، حتى تحرّكت فجأة وفتحت عينيها. نظرت نحوه بارتباك ثم انتفضت واقفة، تعلو أنفاسها نبرة توتر أخذت تنظر حولها بسرعة وكأنها تحاول فهم أين هي ومن هذا، وماذا حدث؟
صرخت بخوف:
__من أنت؟ ما هذا المكان؟!

تراجعت بخطواتٍ مرتبكة تبحث عن زاويةٍ تحتمي بها، ليقترب منها بسرعة ثم يحتويها بذراعيه بثبات.
__اهدئي... إيليانا أنا نِيوار. ليس هناك ما يدعو للخوف.
بقيت للحظاتٍ متوترة بين ذراعيه ثم بدأت تستوعب صوته، رائحته، وتحديدًا جملته: «ليس هناك ما يدعو للخوف».
تذكّرت أنها في عالمه وعاد إليها كل ماجرى.
__آسفة... نسيت أين أنا.. لم أعتد عليك بهذه الصورة.
__لا بأس... ستعتادين مع مرور الوقت.
رفعت رأسها إليه ونظرت في عينيه نظرة امتنانٍ وخجل. لم تقل شيئًا، لكن ملامحها كانت كافية لتقول كل شيء.
لمس وجنتها بلطف:
__لا عليكِ... أفهم تمامًا ما تمرّين به.
__أتدري؟ مررتُ في غيابك بدوامة خوف، فهربت إلى النوم.
نظر في عينيها بعمق، بينما بادلته تلك النظرة بجرأةٍ تمتزج بلخوف كأنها تتعرّف إليه من جديد.. اقترب أكثر حتى أصبح الهواء بينهما مشتركًا وأنفاسهما تتعانق بهدوء. همّ أن يقرّب شفتيه من شفتيها إلا أنه تراجع فجأة وأغمض عينيه يقاوم رغبةً صاخبة تشتعل داخله.
فتح عينيه وقال بصوتٍ هامس:
__أظن أنكِ لم تصبحي حليلتي بعد.
نظرت إليه بصمت. احترامه للاحظة لفّها بالأمان، لا لأنه اقترب بل لأنه اختار أن يتوقف.
__في الوقت المناسب... سأكون لكِ كما لم أكن لأحد.
ابتعد عنها يعتذر دون كلمات. فقطعت الصمت الذي ساد وهي تضع يدها على بطنها متذمّرة:
__عصافير بطني بدأت تزقزق. لم آكل شيئًا منذ مجيئي إلى عالمكم.

وضع يده على جبينه قائلًا بصوتٍ قلق:
__يا إلهي... نحن في ورطة!
__ورطة؟ ورطة ماذا؟
__لم أحسب حساب هذا! نحن لا نملك طعامًا يصلح للبشر.
ضمت حاجبيها وهي تحدّق به، فبادلها النظرات ثم تنهد بأسفٍ متعمّد:
__أنا مدينٌ لكِ باعتذار.
وفجأة اختفى من أمامها. وضعت يدها على ذقنها تفكر:«هل هذا يعني أنني سأموت من الجوع؟ سأبقى بلا طعام؟»
نادته طويلا:
__نـــــــيواار؟ أين ذهبت؟!
وما هي إلا لحظات حتى ظهر أمامها من جديد، يحمل صينيةً كبيرة من الفضة منقوشة بأشكالٍ غريبة، تعلوها أطباق متعددة تفيض بالألوان والروائح الشهية. تنوّعت بين فواكه غريبة وخبزٍ دافئ، وأطايب لا تعرف لها اسمًا حتى سال لعابها لمجرد النظر إليها.
__إذن كنتَ تهزأ بي كعادتك!
مدّ يده مشيرًا إليها أن تقترب:
__كُلي وقرّي عينًا... هنيئًا مريئًا.
طبع قبلةً خاطفة على وجنتها، ثم جلس أمامها يراقبها وهي تتناول الطعام يستمتع بطريقة مضغها، وكيف تلعق أطراف أصابعها بخجل بعد كل لقمة... فهو بالكاد يختبر أول تجربة له مع إنسية في عالمه وتحت رعايته.
لكن فجأة رفعت رأسها وقطعت سحر اللحظة بقولها بجدية:
__نِيوار... هناك مشكلة!
انكمشت ملامحه قليلًا:
__ما هي؟

قالت وهي تُشبك أصابعها بتوتر:
__أحتاج طقم صلاتي...ونسختي من القرآن وعلبة عطوري ومساحيقي. هذه الأشياء لا تفارقني أبدًا، أعتبرها ضرورية وتلازمني أينما حللت.
نظر إليها بتمعّن، قبل أن يقول:
__وإن قلتُ لكِ لا داعي لها؟
بادلته نظرة تذمّرٍ وحزن دون أن تنطق بكلمة لكنه قرأ الجواب في عينيها وفهم على الفور أنها أشياء لا غنى لها عنها.
__أظنني أرى دموعًا تلمع في عينيكِ!
ابتسمت، تُقرّ ضمنيًا:
__يعني... قد تسبقني بعض الدمعات التي لا تنتظر إذنًا.
اقترب من أذنها هامسًا:
__لكن علّمي دمعاتكِ المشاكسة أن تستأذن قبل أن تنزل، حتى لا أُربك أمامها!
غطّت وجهها بيديها، بينما قلبها يزداد قربًا منه وكأن تلك المزحة الصغيرة كانت عربون محبة.

♡♡♡

في قلبهِ شرخ

الأيام تمضي بثقل، والساعات تشقّ الأنفاس.
لا يزال غارقًا في كربٍ لا يعرف له بابًا ولا مخرجًا، فاختفاء ابنته في ظروفٍ غامضة أنهكه وجعله ينهش نفسه باللوم ويتوسّل أفكاره أن تهمس له بخيطٍ واحد يوصله إليها، إلى خبرٍ يُطمئنه أو يُنهي انتظاره الموجع.
لم يكن يترك مركز الشرطة إلا ليعود إليه، يلهث خلف أي بصيص أمل، لكن كل الأبوابِ كانت موصدة، لا أثر لها لا شيء سوى فراغٍ يزداد وحشةً.

في طريق عودته ذات مساء، كان جالسًا خلف مقود سيارته شاردَ الذهن، حين رنّ هاتفه للمرة العشرين. نفس الجهة نفس الاسم: إلياسيف ووالده.
ماذا يقول؟ وقد شارف الأسبوع على نهايته وموعد الزفاف المتفق عليه يمرّ بصمتٍ ثقيل وهو لم يُجب على اتصالٍ واحد منهم.
رنّ مجددًا لكن هذه المرة لم يكن اتصالا بل رسالة. فتحها باستياء فكانت كلماتها كصفعة:«ما عهدتك هكذا أيمكن أن تتجاهل اتصالي بهذا الشكل؟، أنا أمام منزلك الآن في السيارة، بانتظارك.»
تجمّد في مكانه.الرجل الذي كان يتهرّب من مواجهته بات ينتظره عند عتبة داره غاضبًا، مستشيطًا... لا مجال للهروب.
تذكّر كلمات والدته حين قالت له: "أخبرهم بالحقيقة يا بني."
لكن الحقيقة كانت ثقيلة عليه،مؤلمة كحدّ السكين.
ظلّ يتخبّط بين صمت الخوف ونخوة المروءة حتى قرّر أخيرًا أن يواجه.
وحين اقترب من بيته رأى سيارته الفاخرة مصطفّة أمام الباب.
ومن خلف زجاجها، لمح وجهَي إلياسيف ووالده، نظراتهما حادّة كالسيوف المشحوذة.
استجمع ما استطاع من شجاعة، وما إن ترجل من سيارته حتى فتح إلياسيف الباب بعنف ونزل دون مقدمات:
— لا سلام ولا كلام! ماذا هناك يا خالد؟ أعتقد أن الرجولة خانتك في هذا العمر!
حاول والده تهدئته لكن إلياسيف لم يُمهل أحدًا. بدا كمن فقد السيطرة حين شعر أن خطته تتهاوى:
— أين هو الزفاف الذي اتفقنا عليه؟ أم أنك كنت تبيعنا الوهم؟!

ابتلع خالد مرارته، وردّ بصوتٍ مكسور:
— أنا... آسف يا ولدي... يؤسفني أن...
لكن إلياسيف قاطعه فورًا، وقد فهم كل شيء من كلمة "آسف".
لم ينتظر بقية الجملة، فثار في وجهه بالسباب، بكلمات تنضح وقاحة لا احترام فيها لا لعمر الرجل ولا لمصيبته.
حتى والده الذي بدا في البداية أكثر عقلًا تخلّى عن وقاره وقال بنبرة فيها من التعالي ما يُسقط كلمات الاعتذار في قلبه:
— على الأقل كان بإمكانك أن تُجيب على اتصالٍ واحد أن تقول لنا شيئًا، أي شيء... لم أتوقّع هذا منك!
حدّق خالد فيهما بوجهٍ يفيض بالحزن والانكسار. لكن ما هذا يا هذا؟ لم يسأل أحد منهما عن سبب إلغاء الزواج، كل ما أرادوه هو "الزفاف" أما العروس فليست سوى جزء من الصفقة.
تنهد خالد بقهر، يحدّث نفسه مدركًا كمَّ الوقاحة التي خرجت منهما، وتبيّن له أنه لا يهمّهما سوى أن تُزفّ لهم في أقرب وقت وكأن هناك سرًّ ا خفيًا وراء هذا الاستعجال.
دخل إلى منزله وقد سُكبت عليه هموم الجبال فوق كاهله.
قابلته عائلته بقلق، ظنًّ ا منهم أنه يحمل خبرًا عنها.
جلس بصمتٍ وئيد، ثم قصّ عليهم ما حدث أمام باب المنزل:
كيف أُهين بكلمات جارحة على يد إلياسيف ووالده، دون مراعاة لمصيبته أو اعتبارٍ لمشاعره المنهكة.
كان وقع الكلام على محمودٍ كالسيف فاشتعل في عينيه غضبٌ لا يُطفأ، ونهض قائلًا بصوتٍ اختلط بالحنق:
— حقًا... المتظاهر بالود أبشع من صريح العداوة يا أبي... ولن أمرّر إهانته هذه وكأن شيئًا لم يكن!
ثم خرج مسرعًا قبل أن يحاول أحد منعه، وأصواتهم تلاحقه ترجوه ألا يتصرّف برعونة. لحق به يمان الذي كان حاضرًا منذ

لحق به يمان الذي كان حاضرًا منذ بعض الوقت، لكنه لم يتمكّن من إيقافه؛ فغضب محمود كان نارًا لا تُدركها الخطوات.
عمّ القلق البيت، وليلى تبكي بحرقة تخشى على ابنها من الطيش والتهوّر بينما يحاول الجميع تهدئتها.
في الخارج كان محمود في قمة اشتعاله يقود دراجته النارية بسرعة جنونية نحو بيت إلياسيف، وما إن وصل حتى بدأ يصرخ كالثور الهائج، يضرب الباب بكل قوّته وينادي بأعلى صوته:
— اخرج إليّ يا جبان!
خرج عاصم بسرعة، يتبعه والده بذعر. تقدّم محمود نحو الأب، وبلا تردّد بصق في وجهه وقال بغضبٍ يكاد يحرق الهواء:
__هذه جزاءُ من تسوّل له نفسه جرح كرامة أبي! وبينما كان يكيل له السباب، تلقّى لكمةً مباغتة من عاصم أشعلت الفتيل.
تبادل محمود الضرب معهما بعنف، فركلةٌ من هنا ولكمةٌ من هناك، وسط سبابٍ وصراخٍ يتعالى. وما إن خرج إلياسيف بنفسه ليرى مصدر الجلبة، حتى انقضّ على محمود هو الآخر مستغلًا الفرصة ليضيف إهانةً أخرى إلى جراحه. كانت المعركة غير عادلة، ثلاثة رجال ضد شابٍ مراهق غاضب وموجوع.
تجمّع الجيران محاولين فضّ النزاع وانتشلوا محمود من بين الأيادي التي كانت تنهال عليه. كان مضرجًا بالدماء جروحه ظاهرة، وملابسه ممزقة. سارع أحد الجيران إلى نقله لأقرب مستشفى، بينما وقف الآخرون يتهامسون عن المشهد، وعن شابٍ لم يحتمل أن يرى كرامة والده تُداس بالصمت.
بعدما ضُمّدت جراحه في المستشفى، وفي ساعةٍ متأخرة من الليل عاد محمود إلى المنزل لكن بوجهٍ آخر.

عند دخوله كان صمتٌ ثقيل قد خيّم على البيت، وما إن وقعت عليه عينا جدته حتى صرخت صرخةً اخترقت سكون الليل ليستيقظ الجميع على وقع التأوهات... لم يكونوا مستعدين لرؤية محمود بتلك الحالة. كان وجهه متورّمًا دماءٌ جافة تلطّخ وجنته وضمادات تلفّ جبينه، قميصه ممزقًا ومبللًا بالعرق والدم، وكأنه عائدٌ من ساحة حرب.

صرخت ليلى وهي تهوي إلى الأرض، تبكي وتنوح على منظر ابنها الذي لم تعرفه من شدّة ما رأته عليه.

جلس محمود بصمتٍ وهو يتنفس بتعب ثم قال بصوتٍ مبحوح:

__لم أستطع تحمّل إهانتك يا أبي وبرغم حزنك الكبير فقد بدأت أدرك أن إيليانا لم تختفِ عبثًا... بل هربت منهم. أعتقد أنها سبقتنا إلى حقيقتهم.

وضع يمان يده على كتفه محاولًا تهدئته، لكن محمود تابع حديثه بنبرةٍ فيها من الغضب بقدر ما فيها من الانكسار وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة وجع:

__ربما لم تغيّر بصقتي شيئًا في موازين القوة... لكنها كانت كافية لأشعر أنني لم أترك إهانتك تمرّ بصمت. في وجهه قذفت كل غضبي، وكل ضعفي، فخفّ ألمي قليلًا.

اختنق صوت خالد ولم يجد ما يقوله فاكتفى باحتضانه بقوة، يعتذر بصمتٍ عن وجعه ويشكره على شجاعته. ضمّه إلى صدره طويلًا وكأنه يريد أن يُرمّم به ما انكسر.

بينما كان الحزن معلقًا في سقف الغرفة لا يعلو ولا يهبط فقط يراقب هذا البيت الذي امتلأ بالحيرة والخوف والقهر المتراكم. خالد المسكين لم يكن يعلم أيحزن على ابنته الغائبة، أم على ابنه الجريح، أم على نفسه التي أرهقتها الحقيقة؟

انكشاف الحقائق

في مساءٍ هادئ من أمسيات عالم الجن العلوي، انعقد اجتماعٌ جديد في مجلس الشيوخ. كان الأعضاء يجلسون في صمتٍ مهيب، يتدارسون أوضاع العوالم العلوية والسفلية وأصداء الطاقات التي بدأت تضطرب على مشارف التخوم.
تكلّم أحد الأعضاء وهو يراجع مخطوطةً بين يديه:
__هناك اضطرابٌ في الحدود الطاقية جنوب الغابة القديمة. أخشى أن يكون تمهيدًا لهجومٍ من العالم السفلي... نيوار هو الأقدر على تتبّع الخلل دون أن يثير انتباه الحراس.
ساد الصمت، ثم قال عضوٌ آخر بنظرةٍ جادة نحو المقعد الشاغر:
__لكن أين نيوار؟ أليس من المفترض أن يكون حاضرًا بيننا؟
ردّ شيخٌ آخر وقد ظهر الضيق في صوته:
__ليست هذه المرة الأولى التي يتغيب فيها عن المجالس والاجتماعات... لقد تكرر غيابه مؤخرًا دون تفسير يُذكر.
تبادلت العيون شكوكًا واستشعر بعضهم أن غيابه تجاوز حدود التهاون وربما تجاوز حدود الصلاحيات أيضًا.
اقترح أحدهم أن يتم استدعاؤه رسميًا ليقدّم تفسيرًا لكن رئيس المجلس رفع يده بإيماءةٍ صامتة وقاطع الحديث.
قال بهدوءٍ دون أن يرفع صوته:
__لا داعي لسؤاله الآن.
ثم أطرق لحظة كأنما يستمع إلى صدىً داخلي، وتابع:
__إن كان يخفي شيئًا فلن يبوح به تحت السؤال. وإن كان الأمر يستحق الحذر، فالعين الصامتة أنفع من اللسان المستفِز.
ثم وجّه نظره إلى الحارس المقرّب وقال:
__كلّفوا ظلّ الأصم بمراقبته.

تبادل بعض الأعضاء الآراء بدهشة:
ـــظلّ الأصم؟!... لا يُستدعى إلا لمهماتٍ بالغة الدقة.
أجاب رئيس المجلس بنبرةٍ ثابتة:
ـــونحن الآن في موضعٍ بالغ الدقة. نيوار بارعٌ في محو أثره وحجب نفسه... ولن يستطيع مراقبته سوى من تماهى مع الأثر ذاته.
أُقرّ القرار، وثُبّت في سجلّ المجلس.
ولأول مرة يُفتح ملفّ رقابة على نيوار نفسه.

♡♡♡

كانت لا تزال في ذلك القصر الغريب رغم جماله وفخامته، القصر الذي أخفاها فيه نيوار عن أعين الجن، تصارع أفكارها في وحدةٍ موحشة.
تتقلب مشاعرها كما تتقلب الرياح بين العواصف والسكون.
تارةً ينهشها الخوف والهلع، وتُحمّل نفسها مسؤولية قرارها؛ فتشعر أنها أخطأت حين وافقت على الرحيل معه دون تفكيرٍ طويل. وتارةً أخرى، توبّخ نفسها على ضعفها القديم حين عجزت عن مواجهة والديها، ولم تُخبرهما برفضها للزواج الذي فُرض عليها بل اكتفت بالصمت واستسلمت لقراراتٍ لم تكن تشبهها.
وفي زوايا القلب، الحنين يسكنها...
تشتاق إليهم وتتساءل: كيف كانت ردّة فعلهم بعد اختفائها؟ هل بحثوا عنها؟ هل بكت والدتها؟
الدموع تفيض على وجنتيها كلما تخيّلت تلك اللحظة في بيتهم... لحظة الغياب الغامض لحظة الذهول... والذهول فقط.مشاعرها متخبطة تتقاذفها الريبة والارتباك والخوف من المجهول.

وفي وسط كل ذلك، لم تكن تشعر بالأمان إلا حين يأتي نيوار.
لكن حتى أمانه كان مؤقتًا، لحظيًا؛ تشعر بدفء حضوره لكنها تدرك أنه لا يلبث أن يتلاشى.
قد سألته منذ أيام عن مصيرها وعن زواجهما الذي لم يُعلَن بعد في عالمه، فأجابها بصوته العميق الذي يملك سحر التطمين:«سيحين الوقت الذي أخبرهم فيه عنكِ... فقط تحلي بالشجاعة إن واجهتنا بعض العواقب.»
لكن تلك الكلمات رغم عذوبتها، لم تُطفئ تساؤلاتها. كانت تشعر بخطرٍ يتسلّل من خلف هذه الطمأنينة، كأن نيوار يُخفي عنها شيئًا... شيئًا قد يهدّد هذه الراحة المؤقتة.
وما زاد اضطرابها أنه رغم وجودها في عالمه لم يتخلَّ عن عادته "الاختفاء السريع".
كانت تظن بعدما أصبحت في عالمه سيكون أكثر حضورًا... لكنه ظلّ على طبعه؛ يظهر حين تناديه، يطمئنها، يُلبّي حاجاتها، ثم يغيب في لمح البصر.
وبقيت إيليانا وحدها في ذلك القصر الغريب... تحاور قلبها وتخشى أن يكون الحب وحده لا يكفي لتجاوز المجهول الذي ينتظرهما خلف الأبواب المغلقة.

♡♡♡

جلس في فناء منزلها تحت ضوء القمر يرافقه في الجلوس "جنيٌّ عامر"، أحد عمّار منزل إيليانا وهو الجنّ الذي شهد كل ما جرى في غيابها من تقلّبات الأحوال منذ رحيلها.
كان الجنيّ العامر يسرد عليه بصوتٍ مفعم بالحزن كل ما حدث؛ كيف انقلبت الأوضاع وكيف تصدّعت القلوب التي خلّفتها منذ اختفائها... حكى له عن عجز أبيها، وعن وجع قلبه وهو يحاول أن يحفظ ما تبقّى من كرامته وسط نظرات الاتهام والتشكيك، وقصّ عليه عن محمود الذي ضاق صدره حتى

انفجر، فخرج غاضبًا ثائرًا يواجه وحده الإهانة التي لم يحتملها فدفع ثمن شجاعته دمًا وجراحًا.
كان نيوار يستمع بصمت، لكن عينيه كانتا تتحدثان بوضوح، قبضته اشتدّت حتى انحنت أصابعه على بعضها بقوة، كأنه يخنق الهواء في راحته.
__لو لم يكن التريّث من مبادئي... لكنت الآن قد مزّقته نصفين.
لكنّه تراجع. الحنكة أولى والغضب لا يبني ما هدمه الظلم.
توجّه نحو نافذة غرفة إيليانا التي اعتاد دخولها، فدخل منها كما يفعل دومًا. المكان كما تركه لكنه لم يكن كما عرفه..
رائحة الغياب والحزن معلّقة في الهواء. وقف في منتصف الغرفة يتأمل زواياها الصامتة ويشعر بسيف الذنب يخترق صدره.
هل كان عليه أن يقتحم هذا البيت؟،ربما اختلّ توازن العائلة بسببه؟، أخطأ حين أخذ ابنتهم إلى عالمه؟
لكنّه، ما إن استحضر المصير الأسود الذي كان ينتظرها في زواجٍ مفروض من رجلٍ لا يعرف الرحمة حتى خفَّ هذا الشعور عنه...
جمع الحاجيات التي أوصته عليها بعناية، كل ما يشبهها وكل ما سيعيد إليها شيئًا من دفء عالمها.
ثم خرج من النافذة ذاتها، عائدًا إليها.
وبمجرد أن دخل بوابة عالمه شعر فجأة بشيءٍ يُقيّده... ما يحمله بين يديه يخصّ عالم الإنس وإن رآه أحد سيُكتشف سرّه.
وفي عالمٍ صارم لا مجال للهفوات كان عليه أن يتصرف بسرعة وأن يُخفي ما لا يجب أن يُكشف.
وحين وقف قريبًا من باب القصر، شعر بشيءٍ غريب. استدار بسرعة، تفحّص المكان بعينٍ يقظة لكنّه لم يرَ شيئًا.

ثم أسرع نحو الداخل و قلبه يسابقه إليها.
دخل بخفةٍ كعادته... كان الصمت يُخيّم على المكان، ليجدها جالسة في أحد زوايا القاعة تضمّ رأسها إلى ركبتيها، تتكوّر على حزنها. هيئتها كافية لتُخبره أنها ليست بخير دون حاجةٍ إلى كلمات.
اقترب منها بخطواتٍ حثيثة وجلس على ركبتيه قربها سائلًا:
__إيليانا... ما بكِ؟ هل حدث شيء؟
رفّت أهدابها ببطء لكنها لم ترفع وجهها فورًا... الحزن يثقل كتفيها، والنار تشتعل في صدرها دون صوت.
مدّ يده ليمسح على شعرها بلطف، يريد انتشالها من قاع حزنها لكن شيئًا في عينيها حين التقت بعينيه أخبره أن الوقت ليس كافيًا، وأن الألم بات أعمق من مجرد سؤال.
ثم أخرج من ردائه حاجياتها وقدّمها لها، يعيد إليها شيئًا من ذاتها، ظنًّ ا منه أنها ستفرح وأن ابتسامة ستشرق على وجهها كما تفعل دائمًا.
لكنها لم تبتسم، كانت تنظر إلى الأشياء وكأنها تنتمي لعالمٍ بعيد، عالمٍ لم تعد قادرة على الوصول إليه.
__ظننت أن أشياؤك ستُبهجك... ألم تشتاقي إليها؟
سكتت قليلًا قبل أن تسأل عمّا تخشى سماعه:
__نيوار... كيف حال عائلتي؟ هل رأيتهم؟
تردّد في أن يخبرها بما حدث، وسادت بينهما لحظة صمتٍ ثقيلة... هو يعلم أن قول الحقيقة قد يكسر ما تبقّى فيها من اتزان.
تنفّس ببطء قبل أن يقول:
__ما الذي تتوقّعينه يا ابنة قلبي؟ الحزن يُخيّم على البيت والقلق ينهشهم بصمت والحيرة تأكل قلوبهم... بينما إلياسيف أظهر شيئًا من حقيقته حين أدرك أنه خسر الصفقة.

رمقتْه بنظرةٍ طويلة، تبحث في كلامه عن شيءٍ لم يقله، ثم انخفضت عيناها وانسابت منها دمعةٌ حارّة.
مرّر يده على شعرها، ثم همس في أذنها بنبرةٍ مملوءة بالحزن:
ـــإذا... إذا أردتِ أن أعيدكِ إلى عالمكِ وعائلتكِ فلن أرفض.
رفعت رأسها ببطء، تنظر إليه بعينين واسعتين تسبحان في بحرٍ من التناقض، لكنه تابع دون أن يترك لها مساحةً للرد:
ـــلا أطيق أن أراكِ تتألمين بسببي... لا أريدكِ أن تذبلي في هذا العالم الغريب عنكِ ولا أن تُحمّلي قلبكِ ذنبًا لم يكن لكِ فيه خيار. أنتِ اخترتِ أن ترحلي معي صحيح، لكنّي أنا من مددتُ لكِ اليد وفتحتُ لكِ الباب... وإن كنتِ تظنين أن رجوعكِ سيشفيكِ و قلوبهم، فأنا مستعد... حتى لو تمزّق قلبي وأنا أراكِ ترحلين عني.
مالت برأسها على كتفه وكأنها تلتمس منه راحةً تنقذها من الغرق. كان وجهها البريء كفيلًا بأن يشعره كم هو مسؤول عن هذا القلب وكم يحتاج لحمايته.
قالت وفي عينيها ارتباك:
ـــلكن... إذا عدتُ إلى عالمي، ماذا سأخبرهم عن اختفائي؟ كيف سأُفسّر لهم كل هذا؟
باغته سؤالها كصفعةٍ خفيّة... شعر أنها تُلوّح بخيار الرحيل عنه، ربما تضع خطةً للعودة دون أن تلتفت إلى قلبه الذي قد يظلّ معلّقًا بها في عالمٍ آخر.
أجابها بصوتٍ يتخلله انكسارٌ حاول أن يُخفيه:
ـــإن كنتِ تنوين العودة... يمكنكِ أن تختلقي كذبةً تخدمكِ بعد ما فعله إلياسيف بأهلك... سيُعيدون النظر في كل شيء. فترة اختفائكِ ليست طويلةً جدًا... قاربت العشرين يومًا في عالمك.

نظرت إليه بدهشةٍ مشبعة بالحذر:
__ما هذه الكذبة؟
أيقن حينها أنّ أسئلتها ليست مجرد تخيّلات بل خطواتٌ تمهّد للرحيل. حاول أن يبقى هادئًا وأجاب:
__يمكنكِ أن تقولي إنكِ اكتشفتِ وجهه الحقيقي... وأنه متورّط في منظمةٍ تتاجر بالفتيات تحت ستار الزواج، وأنه يروّج للممنوعات أيضًا.
ساد صمتٌ قصير، لتقطعه:
__لكن هذه ليست هي الحقيقة!... حسنًا، وإن سألوني عن مكان اختفائي ماذا سأقول؟
أجابها وقد تأكّد من خيار عودتها:
__لن يسألوكِ... رؤيتكِ سالمةً حيّة بعد اختفاءٍ غامض ستمحو فضولهم عن التفاصيل. وحين تُخبرينهم بحقيقة ذلك الحثالة، لن يفكّروا أين كنتِ... بل فقط كيف نجوتِ.
تأملت كلماته بصمت وشعرت أن منطقه لا يخلو من واقعية، رغم الحزن الذي تسلّل إلى قلبها. وقفت وتقدّمت نحو النافذة الضخمة التي تطلّ على الحديقة الغنّاء، تحاول لملمة شتاتها، لكنها في تلك اللحظة لمحَت شيئًا غريبًا.
ضوءٌ أبيض طويل مرّ بخفّة يشبه الظل إلى حدٍّ ما، واختفى قبل أن تتمكّن من التثبت من هيئته. عقدت حاجبيها، ثم استدارت نحو نيوار الذي بدا غارقًا في التفكير والتشتت:
__نيوار... رأيت شيئًا غريبًا، كان يشبه ظلًا طويلًا أو ضوءًا أبيض... لم أستطع رؤيته جيدًا، لكنه اختفى بسرعة.
فزع كمن صُعق، وقف بعجلة واقترب من النافذة، نظر بتمعّن.. لم يكن هناك شيء.
التفت نحوها، وعيناه تحملان قلقًا حادًّ ا:

__بسرعة إيليانا... كيف كانت هيئته؟ صفِيه لي بدقّة.
أجابت:
__لم تتضح لي صورته... لم يكن واضحًا، لكن طيفه يشبه ضوءًا ممتدًا طويلًا واختفى فور رؤيتي له.
وضع بنصره على جبينها وأغمض عينيه بدأ يتمتم بكلماتٍ غير مفهومة. أرادت أن تسأله لكن شيئًا في وقاره جعلها تصمت.
بدأت هالةٌ غريبة تتشكّل حولها... ضوءٌ أحمر كأنّه درع من طاقة. شعرت بقدميها ترتفعان قليلًا عن الأرض، وأحست بالرهبة مما يحدث...
سألته وقد بدأ صوتها يرتجف:
__ماذا يحصل... نـــــــ... نيوار؟
فتح عينيه قائلًا:
__ليس هناك ما يدعو للخوف.. ما قمتُ به هو تعويذة تحصين... ستمنع أيّ جنٍّ من اختراقك أو التأثير عليك. أنتِ الآن في أمان.
تنهّدت، لكنّ قلبها ظلّ يترنّح بين التساؤل والخوف.
همّ بالخروج ثم توقف قائلا:
__قد تشعرين ببعض التعب وربما ترتفع حرارتك قليلًا، هذا طبيعي. استلقي... وحين أعود سأشرح لكِ كل شيء.
ثم غادر وترك خلفه هواءً ثقيلاً ونافذةً لم تعد تطلّ على الأمان كما كانت...
انطلق بتوجّس، يتفحّص المكان حول القصر بعينٍ فاحصة. التقط حفنةً من التراب بين أصابعه وتفحّصها بدقّة، لكنه لم يعثر على أيِّ أثر، انتقل مسرعًا إلى صديقه سيف اللّٰه ليشاركه ما يحدث.
استقبله بابتسامة دافئة:
__توقّعت عودتك، فالأجواء في هذه الأيام مشبعة بالخوف

والترقّب.
__الأمر لا يتوقف عند ذلك يا سيف. هناك ما هو أخطر.
سأله سيف وقد ارتسم القلق على وجهه:
__هل اكتشفوا أمرك؟
أومأ نيوار قائلًا:
__لست متأكدًا... لكن عاجلًا أم آجلًا سيحدث ذلك. غير أنّ هناك ما يشغلني أكثر الآن.
__ما هو إذًا؟
__إيليانا... أشعر أنها تفكّر في العودة إلى عالمها.
سرد عليه كل ما جرى وكيف تغيّرت مشاعرها وتبدّدت حماستها، وما تركته ملامحها من أثر في قلبه. ظلّ سيف يستمع بصمت ثم قال بحزم:
__نيوار.. أنت تعلم جيدًا أن الخيار يجب أن يبقى لها. لا تضعها في موقف تكون فيه مجبرة على البقاء. صحيح أنها وافقت على الرحيل معك بملء إرادتها، لكن ما حدث بعدها غيّر كثيرًا من الأمور. ربما كانت تحاول الهروب وظنّت أنك الخلاص، وربما أيضًا أنها لو وجدت ملجأً آخر غيرك لالتجأت إليه. والآن حين تلاشت سكرة الهرب، عادت حيرتها... وها هي اليوم تتراجع عن قرارها الذي اتخذته حينما انقطعت بها السبل.
أشاح نيوار بنظره عن وجه صديقه:
__كفى يا سيف... أشعر من كلامك أنك تُحمّلني ذنبًا لا طاقة لي به... كأنك تلومني على قلبٍ لم أختر نبضه.
ردّ سيف بصوت نافذ كسهم:
__أنت من اختار أن يحمل هذا القلب عبئًا لا يخص عالمه... حينما قررت التواصل معها والتجلّي لها كنت قد ارتضيت المسؤولية كاملة.
ساد الصمت... ونيوار لم ينبس بكلمة. تغيّرت عيناه واكتست

بلون الغضب والوجع. ذاك اللون الأحمر القاتم لم يكن سوى انعكاسٍ صريح لهشاشته التي حاول أن يخفيها؛ لم يكن غضبًا من صديقه بل من ذاته، من ضعفه من عجزه أمام قلبه، ومن حبّه الذي اخترق حدود العوالم وتركه عاريًا أمام الحقيقة.

خفض رأسه وقد انكسر في العمق، ولم يعد يملك ما يدافع به عن نفسه...

اقترب سيف منه وربت على ظهره ثم قال بصوتٍ فيه دفء الصداقة:

__أفهمك يا نيوار... لذلك أقول لك إن اختارت البقاء فكن لها سندًا واحمِها كما ينبغي، وإن قررت الرحيل فدعها تذهب. أنت وحدك مسؤول عنها أمام الله ما دامت تحت رعايتك.

نظر نيوار إليه، ثم قال بصوتٍ عميق:

__لكن إن حدث لي مكروه... عدني يا سيف أنك ستُعيدها إلى عالمها إن لم أفعل أنا ذلك الآن.

تردّد سيف لحظة مما سمع، ثم هزّ رأسه إيجابًا:

__أنا لا أحب مخالطة البشر ولم أفعلها من قبل... لكن من أجلك، فقط من أجلك سأفعل إن اضطررت. كن لبيبًا يا صديقي.

♡♡♡

في مقدّمة قاعة المجلس، ركع الجاسوس الذي عُيّن لمراقبة نيوار على ركبةٍ واحدة عاقدًا يديه على صدره، وقد أنهى للتوّ تقريره المفصّل.

قال بنبرةٍ ثابتة وعيناه لا تجرؤان على رفع النظر:

__أنجزت المهمة وراقبته عن كثب كما أمرتم وتبيّن لي الآتي:

«إن الأمير لم يكن فقط يتنقّل داخل عالمنا بل كان يعبر بانتظام إلى عالم البشر. تتبّعت أثره بدقّة ورأيته يتردّد على أحد

منازل الإنس، ثم عاد محمّلًا بأغراض لا تمتّ بصلة إلى أدواتنا أو متاعنا... لا تفسير لها سوى أنها تخصّ البشر.وتبعت أثره الذي قادني إلى قصركم الأول، وبينما أنا أقوم بالمهمة، إذ بي ألمح إنسية من النافذة الكبيرة للقصر، وحسب ما تبيّن لي من قراءة ترددداتها، فإنها لم تكن أسيرةً أو خائفة.— انتهى التقرير —
ولمزيد من التفاصيل يمكنكم استدعاؤه للتحقيق معه.»
في هذه الأثناء بقي أعضاء المجلس صامتين يحدّقون في ما هو أبعد من السقف... يعرفون جيدًا أن ما سيأتي لن يكون كأي شيءٍ سبق.
همهم بعض الشيوخ، وبدأت الهمسات تنساب بين المقاعد.
رفع الملك الأحمر يده فسكت الجميع فورًا وأُعطي الإذن لكبير المجلس، الذي خاطب الملك بتحفّظٍ مدروس:
__اسمح لي يا صاحب السمو أن أقول أن الأمير نيوار ليس ممن يُتوقع منهم خرقٌ كهذا... لطالما عُرف برجاحة العقل وصرامة الالتزام، وشجاعة لا يُشقّ لها غبار. ما فعله قد يكون له وجه تأويل أو علّة لا نعرفها بعد.
أطرق الملك برأسه قليلًا، ثم قال وكلّ حرفٍ يمر عبر ميزانٍ دقيق:
__القوة لا تُمنح لتُكسر بها القوانين.. سنستدعيه ونرى ما في الأمر.
استُدعي نيوار للمثول أمام كبار المملكة بحضور شيوخ المجلس الأعلى. دخل القاعة بثباتٍ ظاهر، لكنه كان يعي تمامًا أن شيئًا ما قد انكشف. نظر في وجوههم واحدًا تلو الآخر فقرأ في ملامحهم ما لم يُقل بعد.
لم ينتظرهم ليسألوه، بل رفع يديه وأجرى طقس الرؤية العُرفي، معلنًا خضوعه للمساءلة أمام من هم أعلى منه شأنًا

ومرتبة. وما إن انتهى حتى قال بثبات:
__أعلم أنكم كلّفتم من يترقّبني... وأعلم أن أمري قد انكشف.. نعم، أخفي إنسيةً في قصرنا المهجور وأعترف بذلك دون مراوغة. كما أعترف أنني خدعتكم حين ادّعيت أن اضطراب التوازن الطاقي في الأيام الماضية لا علاقة له بأي اختراقٍ لحدودنا... بينما كان سببه دخولها.
ساد صمتٌ ثقيل، قبل أن يقول الملك الأحمر بصوتٍ يجلجل بالغضب:
__ما دمتَ تعي ما اقترفتَه، فلا بدّ أنك تدرك تمامًا عِظَم جرمك. لقد خنت الثقة...وتجاوزت حدودًا لم يُسمح لأحدٍ بتخطّيها.
ثم تابع بصوتٍ صارم كالسيف:
__من يتمرّد على القوانين يُعاقَب بلا استثناء... وعقاب ما فعلتَ إمّا الحبس في طبقات العزلة السفلية، في سجن الغياهب أو النفي الأبدي خارج حدود مملكتنا.
لم يُبدِ نيوار أيّ ردّة فعل، ولم يرمش حتى كأن الزمن توقّف بين دقات قلبه وصدى كلمات والده الملك. ثم نظر في عينيه، لا تحدّي فيهما ولا خوف بل صدقٌ عارٍ:
__أدرك تمامًا فداحة ما فعلت... ولا أتنكّر لحقيقتي.. اخترتُ ما لا يُختار، وسلكتُ طريقًا لم يسلكه أحدٌ من أسلافي في مملكتك، لكنني لم أفعل ذلك تهاونًا بالقانون، ولا رغبةً في التمرّد... بل بدافعٍ لا يُقاوَم. لم يكن هروبًا من مسؤولية، بل انصياعًا لما فُرض عليّ.
ثم التفت نحو الشيوخ، وصوته أكثر ثباتًا:
__أنا لا أطلب عفوًا، بل فقط أن تستمعوا إليّ قبل إصدار الحكم. دعوني أخبركم من هي تلك الإنسية ولماذا كانت سببًا في تمردّي هذا..

تبادل الحضور النظرات، أمّا الملك الأحمر فبقي واقفًا يحدّق في ولده طويلا قبل أن يقول بنبرةٍ أقل توترًا:
__لك ذلك... تكلّم.
قال نيوار، وعيناه تنخفضان إلى الأرض:
__وبما أنّ القلوب بين أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء... فربما كان ذلك قدرًا، لا هوى نفس.
صمت الحضور لبرهة، ثم قال أحد الشيوخ بصوتٍ جهير:
__ولِمَ اعتبرتَه قدرًا؟ لمَ لم تعتبره مجرّد هوى نفس، وقلبًا اغترّ بما لا يجوز له؟ أليس القلب أضعف ما في الكائن؟ أليس الحبّ في غير موضعه ابتلاءً؟

قال نيوار دون تردّد:
__لأنني أؤمن أن كلّ شيءٍ يحدث بحكمة وأن كلّ شيءٍ مُرتّب له بعناية، ولا مجال للصدف. فيُرتَّب هذا ليحدث ذاك، ويُخطئ هذا ليتعلم الآخر... فكلّ شيءٍ مخلوق بقدر ومشيئة الله نافذة.
تنفّس بعمق، ثم تابع بثبات:
__وبصفتنا أيضًا حلفاء للبشر ونساعدهم، فأنا أعتبر أن تواصلي معها وفتحي المجال لها لتدخل عالمي كان في صلب هذا الواجب.
قاطعه الملك بحدّة:
__لكن ذلك يُعدّ اختطافًا من عالمها... ومخالفةً صريحة لقوانيننا.
أومأ نافيًا وقال بإصرار:
__لم أختطفها، بل وضعتُ الخيار كاملًا بين يديها، وهي من اختارت الهروب معي إلى عالمي.
قال أحد رؤساء الشيوخ بنبرةٍ متوجّسة:
__لكن يا نيوار... ما الذي تنويه بفعلتك هذه؟ ما الغاية من

وجودها في عالمنا؟ هل تظن أننا سنغضّ الطرف عن تجاوزٍ بهذا الحجم؟
ثم قاطعه آخر بنبرةٍ قاسية ومشكّكة:
__لا تقل لي أن ما تنوي فعله هو الزواج.
عمّ الهدوء القاعة في انتظار ردّ نيوار... ثم صدرت ذبذبات نداء، نداءٌ ليس كسائر النداءات. لم تكن هناك حاجة للسؤال فكلّ من في القاعة من شيوخٍ وملكٍ وحراس، أدركوا فورًا أن النداء جاء من الشيخة العمياء.
الجنيّة الحكيمة التي تجاوز عمرها مئة قرن، والتي لا تتدخّل في قرارات المملكة إلا إذا كان الأمر فارقًا بين بقاء المملكة أو سقوطها.
وكان الملك الأحمر يعلم جيدًا أن هذه العجوز، حين تنطق تصبح كلماتها قانونًا لا يُردّ.
ساد صمتٌ رهيب، ولم يجرؤ أحدٌ على الكلام.
أمّا نيوار، فلم ينتظر طويلًا... حدّق لبرهةٍ في الفراغ ثم اختفى تاركًا خلفه وشم السلالة يضيء لثوانٍ قبل أن يخبو.

♡♡♡

في مكانٍ بعيدٍ عن المملكة، وفي كهفٍ قديمٍ تغمره رائحة البخور والسكينة، كانت الشيخة العمياء تنتظره.
لم تكن بحاجةٍ إلى عينين لتُبصر، فكلّ ما يحدث في القلوب والكون كانت تراه ببصيرتها، وحكمتها الممتدة مدى الأزمان.
دخل نيوار الكهف وأدّى التحية الإجلالية أمامها، كما يفعل المحارب أمام الحقيقة.
لتقول له بصوتٍ أشبه بحفيف شجرةٍ حكيمة:
__يا ابن الأحمر، إن اخترتَ طريقًا خارج طريق عالمك فاعلم أنه طريقُ نارٍ وماء، وستمرّ باختباراتٍ لا تكتبها القوانين لكن تكتبها النجاة. وتذكّر أن لكلّ فعلٍ ردّةَ فعل ولكلّ شيءٍ ثمن.

رفع رأسه وسأل:
__وهل في هذا الطريق نجاتي أم هلاكي؟
أجابت:
__هو أنت... فإن أضعتَ اتجاهات الطريق ستلقى شوكًا.
لأول مرة شعر نيوار بأن الجواب لا يحتاج فهمًا بل تحمّلًا.
عاد إلى قاعة الشيوخ بنفس الثقة، لكنها هذه المرة كانت محمّلة بثقل الرؤيا، لا بثقل الدفاع.
وقف في مكانه الأول، ورفع عينيه نحو المجلس.
قال بهدوءٍ تام:
__الشيخة العمياء تكلّمت... وقالت إن الطريق الذي اخترته سيُحاكَم، لكن النجاة ليست في عودتي عن الحب بل في صدق الحماية لمن أحببت.
كان الملك الأحمر يصارع نفسه بين القانون وبين حكمة الشيخة التي لم تخنه من قبل.
ثم قال:
__الرؤيا أوسع من أحكامنا...
وقال كبير الشيوخ بصوتٍ حاسم، ونظرةٍ لا تخلو من الترقّب:
__مسألة زواجك من تلك الإنسية لا تزال موضع شورى بيننا يا نيوار. ولن يُبتّ فيها حتى نقرّر كيف سنحاسبك على كذبتك بشأن الاختلال الطاقي، وعلى إدخالك بشريةً إلى عالمنا دون إذنٍ مسبق. يمكنك الانصراف.
وكأن جبلًا كان جاثمًا على صدره قد أزيح، لا بفعل كلماتهم بل لأنه وصل إلى ما كان يعني له كل شيء.
لم يكن يهتم كثيرًا بنوع العقوبة، ولا بما سيفرضونه عليه لاحقًا كلّ ما كان يشغل قلبه هو أن باب الموافقة على زواجه من إيليانا لم يُغلق بعد.
خرج من القاعة كمن وُلد من جديد... كأنه تخطّى جبلًا ضخمًا

كانت الحياة تنتظره خلفه. ومع أول خطوةٍ له خارج الأبواب شعر بنداءات إيليانا المتكررة، لكنه لم يستطع التوجه إليها آنذاك... فقد كان موقفه لا يحتمل التفاتةً واحدة خارج هيبة القاعة.

والآن وهو يخطو بثبات، قرر أن يغيّر وجهته، ليس إليها، بل إلى تلك التي يعلم أن رضاها سيسهّل عليه كل الطرقاتٍ. وإن استطاع إقناعها، فربما يصبح حلمه بزواج إيليانا حقيقة لا يجادلها أحد.

♡♡♡

كليلٍ مكنتز بالسّر

في ذلك القصر الغامض، جلست على الأرض قرب النافذة الضخمة، ظهرها محنيّ وعيناها تسبحان في الخارج بوجه محزون لم تجد ما يبدّد وحشتها إلا الترتيل والاستعانة بالله، تغلبها دموعها بين كل آيةٍ وآية، محاولةً طمأنة نفسها.

لقد اشتاقت لأمّها، إلى حضن أبيها، إلى أصوات إخوتها، إلى المائدة التي يجتمعون حولها، إلى الحياة البسيطة التي كانت تشتكي منها يومًا وها هي الآن تشتاق لكل تفاصيلها.

لكن ماذا لو عادت لحياتها؟ هل سيختفي من حياتها كما اختفى يوم جاءها ذاك الخاطب؟

هي تعلم أن قصة إلياسيف وإن مرّت، فسيأتي من بعده غيره والزواج سيطرق بابها من جديد لا محالة.

لكن قلبها العنيد وبعد كل ما حصل، ما زال يراوغ. لا تريد رجلا لا يفهم لغة روحه ولا تريد أن تشعر بالغربة في ظل أولئك الرجال الذين ينظرون بعينٍ مادية فقط. تمقتهم، تستصغرهم، أيًّا كان ذلك الشعور لا تريد إلا نيوار.

وقفت مستبعدةً كل الأفكار، وراحت تدور في أرجاء القصر

محاولةً الهرب من فراغها. تارةً تنظر إلى الأعمدة العالية وتارةً تمشي نحو الرواق الطويل المؤدي إلى رواقٍ آخر ينتهي بابٍ ضخمٍ موصد. وصلت إلى عتبته لكنها توقفت.
— لا أستطيع الخروج وحدي... كل شيء جذاب وجميل لكنه ليس آمنًا بدونه.
عادت أدراجها وخيوط قلبها تسحبها بعيدًا. توقفت أمام الخزانة المخملية التي فتحتها سابقًا ولكن هذه المرّة ببطء... ففاح منها عطر غريب، مزيجٌ بين تراب المطر ونبض وردة لا تنتمي لأي فصل.
أخذت تتأمل تلك الفساتين العجيبة، حتى وقعت عيناها على ثوبٍ مميز. تصفّحت الثياب الأخرى ثم توقفت عند ثوبٍ ملفوف بالسواد، نسيجه أثقل من الحرير لكنه ألين من أيِّ قماشٍ لمسته يدها من قبل. كان مرصّعًا بنقوش دقيقة من خيوطٍ فضية تومض ببهوت. طراز الثوب لم يكن يشبه ما ألفته من عالمها؛ فتحة الكتفين منحوتة بدقة تتّسع وتضيق بسحر، والأكمام طويلة تنتهي بشرّابات ناعمة، أمّا أسفله فكان ينسدل على الأرض يمشي قبلها بخطوة.
حاولت ارتداءه ثم نظرت إلى نفسها في المرآة ذات الإطار الزجاجي الأزرق... ورغم فخامة الثوب ودفء الأقمشة، إلا أن الفراغ المغلّف بالشوق ظلّ يلفّ قلبها.
__أينك يا نيوار؟ وعدتني أن تحضر حين أناديك... وقد ناديتك للمرة الألف ولم تأتِ. هل أصابك مكروه؟
ومع هذا الخوف، لم تعد تدري أكانت تسأل نفسها... أم تناديه من قلبها حقًّا.

♡♡♡

كانت في جناحها الخاص، تنسّق الورود التي أحضرها لها البستاني من الحديقة الملكية. تحبّ الورد كثيرًا وتُصرّ على أن تراه يملأ زوايا غرفتها. وما إن انتهت من ترتيب آخر باقة، حتى دُقّ الباب برفقٍ متأنٍّ:
__تفضل بالدخول.
دخل نيوار بخطاه الهادئة وعيناه تلمعان بشيءٍ لا يمكن إخفاؤه. وكعادته معها، انحنى قليلًا وأدّى طقوس الاحترام التي تُمنح للملكات.
ضحكت برقة:
__نيوار... كفّ عن هذه البروتوكولات، يكفيني أن تُلقي التحية فقط.
لكن، وفي وسط كلامها اقترب منها وطبع قبلةً على جبينها قائلا:
__وأن أطبع قبلةً على جبينكِ تشحن طاقتي لشهور... أليس هذا من واجب ابنٍ يحبّ أمّه؟
ضحكا سويًا وامتلأت الغرفة بدفءٍ خاص، ثم أمسكت كفّه تتحسّس وجهه، تسأله بعينٍ الأم التي لا يخفى عنها شيء:
__عزيزي... ما بالي أرى لمعةً في عينيك لا تظهر إلا في لحظاتٍ نادرة؟ أخضت معركةً جديدة ونجحت كعادتك؟ أم ترقّيت في المجلس؟
اقترب منها وبدأ حديثه كمن يلاعب أوتار قلبها:
__أريد أن أخبر سُكرة عمري بشيءٍ لم تسمعه مني من قبل... وأعلم أنه سيفاجئها لكنها الوحيدة التي ستفهمني.
نظرت إليه بعطفٍ وفضول، وردّت:
__أخبروا ذلك البارع في تليين كلامه أن قلب أمّه يفهمه كما لو كان رضيعًا أمامها.

ابتسم وقال:
__أمّي... أريد أن أتزوّج.
كتمت دهشتها بيدها وهي تقول:
__ولهذا كل هذا البهاء في عينيك! خبر كهذا يجب أن نحتفل به! من هي؟ من تكون تلك التي سرقت قلب ابني، الذي لم أره يومًا يميل إلى فتاة، حتى ظننت أن قلبه صار حجرًا من كثرة الحروب والدماء... ولا يعرف من الحب غير اسمه!
سكت لحظة، ثم قال بصوتٍ هادئ كأنه يعترف:
__وهذا بالفعل ما كنتُ عليه... لم يسبق لي أن شعرت بشيء تجاه أي فتاة، رغم أنني التقيت بالكثيرات ممن يمتلكن الجمال والقوة والدهاء، لكن لم تُحرّك إحداهن ساكنًا في داخلي... إلى أن التقيت بها.
تملّكها الفضول وتخيّلت أنها من بنات الممالك المجاورة أو من بيوت النسب الرفيع في المملكة وربما حتى إحدى بنات القبائل اللواتي يحملن سرًّا غامضًا لكنها لم تتوقّع أبدًا ما سمعته بعد لحظة صمتٍ قصيرة.
ليقول بصوتٍ خفيض:
__لا هي من هنا ولا هي من جنّنا... إنها مختلفة. مختلفة تمامًا يا أمي.
ضيّقت عينيها تنتظر أن يُكمل.
اقترب خطوةً أخرى، يطلب تفهّمًا من أكثر القلوب صدقًا في هذا العالم، وقال:
__أمي... أتمنى ألّا تكوني ضدي، بل عونًا لي... إنها إنسية يا أمي.
بدا صوت النسيم الذي يداعب الستائر أعلى من أنفاسهما.
تجمّدت تعابير وجهها، وكأنها تحاول استيعاب ما قيل للتو، ثم تراجعت خطوة، وعيناها تتأملان وجه ابنها كمن تراه لأول

مرة.
__إنسية؟... أنت تمزح، أليس كذلك؟
ظلّ ناظرًا إليها بعينين ترجوان، بينما جلست على كرسيها الملوكي وأراحت كفّها على صدرها قائلة:
__أخبرني... كيف حدث هذا؟ متى وأين؟ ولماذا إنسية؟
جلس على ركبتيه أمامها كطفل يطلب رضا أمّه وأمسك بكفّها:
__صدقيني يا أمي، لم يكن الأمر بتخطيط مني... وأنتِ تعلمين يقينًا أننا ننجذب إلى الطيّب من القول والفعل وقد انجذبتُ إلى طاقتها النورانية.. ثم تمنّعت، ثم وقعت، ثم لم يكن لحالي دواءٌ إلا الوصال. جاهدتُ يا أمّي في الهروب من هذا الشعور الذي أثقل قلبي... لكنني ما إن أبتعدحتى تهزمني روحي وتعود إليها قبل أن أدرك كيف أو متى.
تنهدت بعمقوغابت في صمتٍ طويل، تبحث عن شيءٍ داخل قلبها.
ثم قال مجددًا محاولًا إقناعها بشتى الطرق:
__أعلم يا أمي... أعلم عواقب الزواج من إنسية وأعلم كيف تنظرون إلى هذا النوع من الاتحاد. لكنني مستعد لكل شيء... حتى العقوبة حتى أن أُنفى من المملكة، لكنني لست مستعدًا أبدا لأن أراها تُمحى من قلبي.
لتقول سبأ:
__سلّم يا رب... أيّ بلاءٍ هذا الذي نزل بقلبك؟ هل علم مجلس الشيوخ بأمرك؟
رفع عينيه إلى والدته قائلًا:
__ماذا لو قلتُ لكِ إنني كنتُ الآن تحت مساءلتهم بعدما اكتشفوا أمري، وكانت نهايتي على المحك لولا حدوث الأمر الذي لم يكن في الحسبان؟

نظرت إليه بريبة:
__وما هذا الأمر الذي حدث؟ لا تُبهم عليّ، قل بوضوح.
__مناداة غيّرت الموازين!
__الشيخة العمياء؟
قصّ لها نيوار عن لقائه بها وما حدث بالتفصيل، في حين أغمضت عينيها طويلًا وكأنها تحاول أن تعيد ترتيب كل المفاهيم القديمة في رأسها.

♡♡♡

انتقل إليها محمّلًا بأخبارٍ تمنّى أن تُبدّل حزنها إلى فرح.
توقّع أن يجدها كما تركها حزينة، مرهقة المزاج وربما مستعدة لأن تطلب منه أن يعيدها إلى عالمها.
لكنّه لم يكن مستعدًا لما رآه...
وقف في طرفٍ خفيّ، ليلمحها واقفة أمام المرآة، ترتدي ثوبًا خُصّ للجنيات، لا تتلاءم مقاساته أبدًا مع مقاسات الإنسيات لذا بدا طويلًا جدًا وواسعًا عليها كأنه يبتلع جسدها الصغير.
ورغم ذلك كانت تدور بخفةٍ حول نفسها، تبتسم وهي تنظر إلى انعكاسها تكتشف هيئةً جديدة لذاتها.
اتّسعت حدقتاه ولم يستطع أن يمنع ابتسامةً ظهرت رغمًا عنه.
كاد يكشف عن نفسه ويتقدّم إليها لكنه سرعان ما توقف... أراد أن يراقب هذه اللحظة الجميلة أن يحفظها في ذاكرته.
وفجأة، تعثّرت بذيل الثوب الطويل وسقطت أرضًا. وضعت كفّها على فمها ثم انفجرت ضاحكة، ليضحك هو معها بصمت وقلبه يتمايل على إيقاع ضحكتها.
وقفت من جديد وراحت تحاول تعديل الثوب الكبير، ثم مدّت ذراعيها خلف ظهرها تحاول ربط أحزمته الخلفية المعقّدة، لكن يديها لم تصلا إليها كما يجب.

وبينما هي غارقة في محاولتها، لم تلاحظ أنه دخل ووقف خلفها مباشرة، ثم بدأ يربط تلك الأحزمة بدقّة.
رفعت عينيها إلى المرآة، فابتسم لها ابتسامةً دافئة لا تُشبه إلا حضنه. وما إن التقت عيناها بعينيه حتى التفتت، تعانقه بقوة.

__لماذا أطلت الغياب؟ لقد ناديتك مرارًا وتجاهلتني!
ردّ قرب أذنها:
__معاذ الله أن أتجاهل نداءكِ لكن صدّقيني، كنتُ في أمرٍ مصيري ولمٍ يكن بوسعي تركه.
ابتعدت قليلًا وقالت بعينين معاتبتين:
__أمرٌ مصيري؟ أهمّ من أمري؟
لمس وجنتها وهو يردّ:
__بل يخصّكِ أنتِ.
راحت تبتعد عنه وهي تردّد:
__أجدني دائمًا أعجز عن فهمك.
__ألم أعدكِ أنني سأشرح لكِ كل شيء حين أعود؟
__بلى... تذكّرت. اشرح.
أمسك بيدها وقادها نحو الدرج الحلزوني المؤدي إلى الطابق السفلي، وهو يقول ضاحكًا:
__لكن يبدو أنكِ تعرفين كيف تملئين وقتكِ في غيابي.
وهي تخفي ابتسامتها:
__نيوار! لا تقل إنك رأيتني حين وقعتُ وأنا أجرّب الثوب!
ردّ بهمس:
__رأيتكِ... ووقعتُ أنا أيضًا، لكن في حبّكِ من جديد.
جلست قبالته على الطاولة الدائرية المنقوشة بزخارف فضية تتخلّلها أحجار الزمرد البنفسجي. كانت نظراتها متوترة

متلهفة لسماع ما سيقوله.
بدأ يحدّثها كمن يمشي على أطراف الحروف:
__الطيف الذي رأيتِه لم يكن عابرًا كما ظننتِ... لقد كان جاسوسًا من مملكتنا وقد اكتشف أمرنا، وتم استدعائي وتعرّضت للمساءلة وبعدما حصل ما حصل لم يُصدروا قرارهم بخصوص زواجنا، بل هناك من يرى أن عليّ أن أعاقب لأني خالفت القوانين وزوّرت الحقائق.
نظرت إليه بعينين ممتلئتين بالخوف، وسألته بصوتٍ مرتجف:
__لكن نيوار أنت ابن الملك، كيف يُسمح لجاسوس أن يترصّدك؟ وكيف يمكن أن يُعاقبوك؟
ضحك بهدوءٍ لا يخلو من مرارة:
__القانون هنا يُعلى ولا يُعلى عليه، ومن يخرج عن القاعدة يُحاسب مهما كانت رتبته بل وتصل بعض العقوبات إلى حدّ السيف.
نظرت إليه بانكسار:
__هل يعني هذا... أنهم سيرفضون زواجنا؟
ردّ مطمئنًا ويده تلامس يدها:
__لا أعلم ما سيكون قرارهم بعد، لكن نعم قد تترتّب عليّ عقوبات بسبب مخالفاتي. ومع هذا... ليس هناك ما يدعو للخوف يا إيليانا. أنا واثق أن حبّنا لم يكن عبثيًا وأن لقائي بك سيمضي بأمر الله لا بأمرهم. ربما أراد الله لنا هذا الطريق... لنفهم، لنصبر، ولنثبت.
قالت والحزن في صوتها:
__لكنني خائفة... خائفة عليك، وخائفة على نفسي. ماذا لو رُفض زواجنا؟ هل سيؤذونني؟ هل سأُفصل عنك بالقوة؟

ضمّها يحكم عليها برداء الأمان:
__تعالي... سأحملك إلى حيث يهدأ قلبك.
وفي دقائق كانا قد انتقلا إلى الجبل الساحر الذي أحبّته.
وعيناكِ تُسكتان صخب العالم في صدري بنظرة.
رفعها بين ذراعيه إلى علوّ الغيم الرمادي حيث كان الضباب يلفّها من كل جانب، وبين تلك السحب شعرت وكأنها نُزعت من الأرض وأُلقي بها في حضن السماء، لا تسمع إلا صوت قلبه.
ثم نزل بها إلى الجبل الساحر بسكونه المهيب وغيماته التي تتهادى فوقهما كغطاءٍ وثير.
جلست إلى جانبه على الصخرة المستوية التي حفظت دفء جسدها من قبل حين دخلت هذا العالم أول مرة،وفي ظلّ الأجواء المضطربة على علاقتهما حاول أن يجعلها تتناسى، فبدأ يحكِ لها عن حكايا عالمه، وعن الممالك الخفية وعن لغة الطيور التي لا يسمعها البشر...
وبينما كانت تضع كفّها على ذقنها تصغي له بتركيز، قاطعته قائلة:
__لو كان لي أن أختار مكانًا أموت فيه لاخترتُ حضنك بين هذه الغيمات.
تشنّجت حركته وثبت نظره عليها، وكأن كلماتها شلّت أفكاره للحظة.
__إيليانا... أرجوكِ، في المرة المقبلة دعيني أحصّنٍ قلبي من سهامك العشوائية التي تصيبني بالانصهار... صدقًا يكفي ما فعلتِه بي سابقًا، لا أريد الغرق أكثر.
غطّت وجهها بكفّيها قائلة:
__أظن أن الأمير المحارب يملك ترياقًا قويًا يجعل السم ينقلب على فاعله.

تبادلا الضحك قبل أن يسود صمتٌ يداعبه صوت الريح، ثم قال بنبرة جادة:
__أتعلمين... لقد ارتعبتُ كثيرًا.
ارتفع حاجبها وهي تسأله:
__ومن ماذا ارتعبت؟
ضمّ ذراعيه قبل أن يجيبها:
__لم أجرّب شعور الرعب من قبل... لكنكِ جعلتِني أشعر به.
قالت باستغراب يكاد يلامس حدود الاتهام:
__أتهزأ بي؟
هزّ رأسه نافيًا ومبتسمًا:
__بل أقول الحقيقة. قد تستغربين، لكنني ارتعبت من فكرة أن تختاري العودة إلى عالمك وتصبحي مجرد ذكرى تجعل قلبي ينزف كلما راودتني.
تاهت عيناها نحو الأفق، تبحث عن إجابة بين طيّات الغيم ثم التفتت إليه من جديد: __سأكون كاذبة إن قلتُ أنني لم أفكّر في العودة.
تحركت حدقتا عينيه نحوها بحذر، لتكمل بصوتٍ ناعمٍ حاسم:
__إلا أن قلبي لن يحتمل البُعد عنك مرة أخرى، وإن عدت... فأنا متأكدة... لن أراك مجددًا.
ابتسم نصف ابتسامةٍ حزينة وقال:
__وما الذي يجعلك متأكدة من أنني سأتركِكِ؟
أجابت وهي تشيح بنظرها عنه:
__لأنك فعلتها من قبل.
اقترب منها يقول بصوتٍ خفيض:
__بل كنت أراقبك...
نظرت إليه وابتسامة على شفتيها:
__كنت تراقبني إذن... كما توقعت.
أومأ برأسه مؤكدًا وملامحه لا تزال متشبعة بالهدوء

ثم قالت ويدها تبحث عن دفء كفه:
__نيوار... لا أتخيل غيابك عني مرة أخرى.. أرجوك، عجّل في أمر زواجنا.
انفجر ضاحكًا... ضحكة هادئة في بدايتها، ثم أصبحت هادرة كأنها انطلقت من صدرٍ ظلّ يحتفظ ببهجةٍ مؤجلة.
تفرّست فيه باستغراب مشوب بالاستياء:
__هل قلتَ شيئًا مضحكًا إلى هذا الحد؟
بعد أن هدأ ضحكه، قال وهو يلتقط أنفاسه:
__لا... فقط أعجبتني عجلتكِ هذه بالزواج مني!
__أنا فقط... لا أريد أن أنفصل عنكِ مرة أخرى.
أومأ موافقا:
__وأنا لم أقل غير ذلك.
لكن ضحكته عادت وانفجرت مرة أخرى كأنه يتوعّدها بشيءٍ ما.

♡♡♡

استيقظت في صباحٍ باكر، وعيناها لم تذوقا طعم النوم إلا قليلًا من ليلٍ أرهقها حدَّ الإنهاك. كانت كلما أغمضت جفنيها، تراءت لها صورة ابنتها بثوب الزفاف، تنظر إليها وتبتسم تلك الابتسامة الموجعة وكأنها تلوّح لها من حلمٍ بعيد.
وحالما تفتح عينيها، ينقشع الحلم كالسراب ليعود كابوس اختفائها يمزّقها من الداخل. اشتياقها وقلقها على ابنتها كانا يعذّبانها في كل لحظة...
ولم تعد "ليلى" تلك المرأة النشيطة التي تملأ البيت دفئًا. صار المنزل مُهمَلًا، تحكمه رتابة الحزن وسكونٌ ثقيل يخيّم على الأركان. لا طعام يُعدّ كالسابق ولا ملابس تُغسل، ولا ترتيب يُشبه الماضي.
وَهَنَ جسدها، وتاهت روحها بين وجعٍ وأملٍ يتلاشى...

كثيرًا ما كانت تتردد إلى غرفة ابنتهاتبحث عن أيّ أثر، لكنها لا تجد إلا جدران الذكريات تنهش قلبها كلما حاول أن يهدأ. بكت حتى جفّت مآقيها وتحول بكاؤها إلى بكاء روحٍ حين تستوحش العالم.
في إحدى الأمسيات جلست على سرير إيليانا، تحتضن وسادتها وتبكي بحرقة حتى دخل محمود بصمت. كانت آثار الجروح على وجهه قد بدأت تلتئم لكن جروحه الداخلية ظلّت تنزف.
نظر إلى حال أمّه بانكسار، واقترب منها محاولًا احتضانها ومواساتها، أن يمنحها شيئًا من الأمل، لكنه هو نفسه كان يبحث عمّن يواسيه. منظر أمّه على هذا الحال كان يدمّي قلبه واختفاء أخته وسنده بات لغزًا مؤلمًا لا ينطفئ.
دخل خالد إلى الغرفة ولم يكن حاله أفضل من زوجته وابنه.
التفت إليه محمود سائلًا برجاء:
__أبي... هل ما زالت الشرطة تحقق؟ هل توصلوا إلى شيء؟
ليردّ خالد بأسى:
__لا شيء بعد، لكنهم لم يغلقوا الملف. طلبت منهم إعادة تفتيش الغرفة، لعلهم يعثرون على خيط يقودهم إلى الحقيقة.
نظرت إليه ليلى وهي تمسح الدموع من عينيها:
__هذا اقتراح جيد...
أجابها خالد:
__نعم، اتفقنا أن يأتوا مساءً للتفتيش مجددًا.
ومع غروب الشمس، جاءت فرقة التفتيش...
قلبوا الغرفة رأسًا على عقب ودققوا في كل شيء، لكنهم لم يعثروا على دليل مباشر. غير أن شيئًا غريبًا لفت انتباه المحقق المسؤول: بعض الأغراض التي لم تكن مفقودة يوم اختفائها... اختفت لاحقًا.

تم استدعاء ليلى مجددًا للتحقيق معها وبعد مراجعة التفاصيل، ظهرت فرضيتان غريبتان:
1:'أن إيليانا ليست مختطفة بل عادت إلى غرفتها في وقتٍ ما بعد اختفائها، وأخذت أغراضها دون أن يراها أحد... ما يعني أنها غادرت بإرادتها.

2:'ن من اختطفها عاد بنفسه وأخذ أغراضها لاحقًا... وهذا يشير إلى أن الجاني لا ينوي إيذاءها، بل يريدها معه في مكانٍ يراه آمنًا بالنسبة لها.

قال المحقق مخاطبًا خالد وليلى:
__إن كانت ابنتكما على علاقةٍ بشاب ما، فهذا قد يسهّل علينا فهم ما حدث وربما يساعدنا في الوصول إلى مكانها.
عقد خالد حاجبيه، ونظرت ليلى إليه بقلق قائلة:
__لا أظن أنها كانت على علاقة بأحد...
ثم تداركت:
__لكن ربما كانت تخفي الأمر، وإن كان كذلك فلا بد أن إحدى صديقاتها تعلم.
بدأ التحقيق مع الصديقات واحدةً تلو الأخرى، لكن الجميع أجمع على أمر واحد: إيليانا لم تكن من ذلك النوع. لم تُعرف عنها علاقات أو خفاء. كانت فتاة هادئة تقية ملتزمة بحلقات القرآن، ثم تعود إلى بيتها مباشرة.
وكل من عرفها عن قرب استبعد تمامًا فكرة أن تهرب أو تخون ثقة أهلها.
ازداد غموض اختفائها وزادت معه الفرضيات والأسئلة التي لا إجابة لها.

♡♡♡

كان إلياسيف جالسًا في غرفته يتقلّب على فراشه كمن لدغته نار الغيظ، يعضّ على أنامله بحدّة وهو يسترجع في ذهنه مشاهد الحفل.
فتح هاتفه وبدأ يتصفّح الصور... قلّب عشرات الصور حتى توقّف عند صورة التقطها معها. كانت واقفة وسط عائلته مشرقة كعادتها. قرّب الصورة نحو وجهها وبقي يتأمل ملامحها بنظرات مشبعة بالغلّ والحقد.
__كانت ستكون صفقة رابحة... فتاة جميلة بهذا الشكل وذات جسد متناسق، كنت سأجني من خلفها أموالًا طائلة.
انفجر بضحكة هستيرية طويلة، كأنها انفجار غضبٍ مقنّع حتى دخل والده، وعلامات القلق واضحة على ملامحه.
قال بجدية:
__أريد أن أحدثك عن شيء... وصلتني أخبار غير مؤكدة عن تلك الفتاة التي كانت ستُزف إليك.
جلس إلياسيف وقد أثارت كلماته انتباهه: __ما بها؟
__يُقال إنها اختفت منذ فترة... وهناك من يقول إنها هربت مع شاب كانت على علاقة به.
ذُهل مما سمع لكن سرعان ما تحوّل ذهوله إلى ابتسامة ساخرة:
__آه... الآن توضّح كل شيء. كنت على وشك خطفها من بين ذراعي حبيبها إذًا... هذا هو السبب الحقيقي وراء إلغاء الزفاف.
ثم أردف ببرودٍ مخيف:
__لكن لا بأس... هربت مع من تحب، أو ماتت، لا يهم. لكن إن ظنّ هذا الـ... "حبيب" أنه أذكى مني، فهو واهم.
وقف كمن اتخذ قرارًا نهائيًا:

ـــلكنني سأحاول العثور عليها... وإن صادف أن وجدتها، فسأعلّمهما أن بعض الخيانات لا تمرّ بلا ثمن.
هتف الأب معارضًا، وقد ارتفعت نبرة صوته: ـــإلياسيف، لا تُدخلنا في متاعب جديدة.. ما زلنا نلعق جراح ما حدث انسَها يا ولدي... ودَع الأمور تمضي.
لكن إلياسيف لم يكن يسمع سوى صوت عناده، وكانت شرارة الانتقام قد بدأت تشتعل داخله

♡♡♡

عمّت أروقة القصر همسات مضطربة، وعجّ بين الخدم والمقيمين خبرٌ قلب التوازن رأسًا على عقب: الأمير نيوار سليل العرش، أعلن نيّته الزواج بإنسية!
وليس هذا فحسب،.. يُقال أنه وقف متحدّيًا أعضاء المجلس الأعلى، مُصرًّا ا على المضيّ في هذا القرار رغم اعتراضاتهم... بل رغم أنوفهم جميعًا.
في زاويةٍ من إحدى الشرفات، كانت نجمة تقف شامخة الملامح لكن زفرةً حارّة أفلتت من صدرها المكسور. لم يكن الخبرٍ سهلًا عليها، فهي التي لطالما رسمت صورتها إلى جانبه، حبيبةً وزوجةً مستقبلية.
عاشت حقبةً طويلة على أمل أن يلتفت إليها أن يرى فيها أكثر من مجرد رفيقة طفولة. كانت تراه رجلًا يليق بها، وكانت تنتظر اللحظة التي يطلب فيها يدها، كما كانت تتمنّى كل فتيات المملكة والقبائل المجاورة.
فـنيوار بالنسبة لهن لم يكن مجرد أمير بل كان الحلم الذي لا يُطال.
لكنّه بخلاف كل تلك الأحلام، كان منشغلًا دومًا بالحروب والتخطيط والمهمّات الصعبة. لم يمنح قلبه لأيّ أنثى ولم يبدُ يومًا أن الزواج والإستقرار مع امرأة شغل تفكيره.

ولهذا لم يتوقّع أحد أن تكون صدمة حبه لفتاةٍ من عالمٍ آخر من عالم الإنس!.. هي ما سيكسر صمته العاطفي ويثير العاصفة في قلبه.
__كيف له أن يفعل ذلك؟ كيف يُقدم على أمرٍ محرّم كهذا؟
حدّثت نجمة نفسها والغضب يشتعل في عينيها. شيءٌ لم يكن في الحسبان قد فعله نيوار!
وفور انتشار الخبر في أرجاء القصر، لم تتوانَ زُلفى لحظة عن التوجّه إلى سبأ التي كانت تقف بهدوء تُحادث إحدى الخادمات على انفراد. دخلت زُلفى بخطى واثقة وعيناها تحملان مزيجًا من الدهشة والتساؤل، ثم قالت دون مقدمات:
__سبأ... قولي لي بصدق، ما الذي يحدث؟
نظرت إليها سبأ بتمعّن، ثم قالت:
__أتجلسين، أم نُخبر القصر كلّه من وقفتنا هذه؟
جلست بقربها ثم حدّثتها بنبرة أقرب إلى العتاب:
__ لقد سمعت من أكثر من خادم الكلام نفسه... أحقًّا ما يريد نيوار الزواج من إنسية؟
__نعم... هذا ما حصل يا زُلفى، وما بينهما ليس نزوة عابرة.
صمتت زُلفى قليلًا، ثم قالت:
__وأنتِ... ما رأيك؟
تنهدت سبأ وقالت بصدق أمٍّ تعرف حجم العاصفة:
__إن كان في اختياره ما يحفظ كرامته وقلبه، فمن أكون لأقف في طريقه؟
ثم تابعت وهي تهز رأسها بحيرة:
__أنا لا أخشى على نيوار من قلبه... لكنني أخشى عليه من قلبٍ آخر.
ارتبكت ملامح زُلفى، ثم قالت:

__كنتُ أفكر في الشيء نفسه... لقد تعلّقت به طويلًا وعاشت على أمل أن ينظر إليها يومًا كأكثر من مجرد ابنة خال.
أومأت سبأ، ثم قالت بحزن:
__نجمة فتاة طيبة، وأنا أشهد على حبها ولهفتها عليه. وما أخشاه في مثل هذا الموقف أن يتحوّل الحب إلى غيرة والخذلان إلى نقمة.
نظرت زُلفى في عينيها مليًّا ثم قالت:
__هل أخبرتِها؟
__ليس بعد... ولم أقرر إن كنت سأفعل ذلك بنفسي أم أترك الوقت يكشف لها الحقيقة. لكنها ستعلم، عاجلًا أم آجلًا.
سكتت لحظة، ثم أضافت بنبرة فيها تصميم: __لكنني سأحاول أن أحمي قلبيهما، كلٌّ بطريقته.
لم تُخفِ زُلفى القلق في صوتها حين قالت: __فلنأمل أن تمرّ هذه العاصفة دون أن تخلّف وراءها خرابًا لا يُرمَّم.
تبادلتا نظرة صامتة تحمل أكثر مما قيل.

لا يجب أن يحدث هذا

كانت في غرفتها تتقلب بين مشاعر الغيظ والانكسار فالخبر الذي اجتاح القصر كالعاصفة زلزل كيانها. كيف يفعلها؟ وهو الذي لم تكن النساء تعني له شيئًا سوى السلام العابر.
دخلت وصيفتها "نيلا" تحمل بين ذراعيها أثوابًا ملكيّة مطرّزة طلبتها نجمة سابقًا: __سمو الأميرة... ها قد وصلت القطع من الخيّاط، ويرجو أن تجربيها وإن رغبتِ بتعديلات فحدّديها ثم سيجريها لاحقًا.
تقدّمت نجمة بخطى حادّة، وانتزعت الأثواب من بين يدي الوصيفة ثم رمتها في الهواء بعنف وهي تزمجر:
__أجيبي... هل ما يُقال في القصر صحيح؟!
تراجعت نيلا بخوف:

__لم أفهم قصدكِ سمو الأميرة.
صرخت نجمة ثم قالت وهي تشدّ على كل حرف:
__هل صحيح أن نيوار... سيتزوج إنسية؟! هل فعلاً أدخل فتاةً من عالم البشر إلى هنا؟!
ترددت نيلا وتاهت عيناها ثم قالت بصوت خافت:
__هذا ما يتناقله البعض... لكن لا شيء مؤكد يا مولاتي. قد تكون مجرد شائعات فحتى العائلة المالكة لم تُصدر أي تأكيد حتى الآن.
بدت كلمات نيلا كقطرات ماء فوق نار مشتعلة،خفّفت قليلًا من روعها. تراجعت نجمة خطوة وجعلت نظرها يجول في أنحاء الغرفة كأنها تبحث عن عقلها المفقود، لكن قلبها لم يهدأ..
بخطى سريعة خرجت من غرفتها متجهة إلى جناح الملكة سبأ، عمتها وأمها الثانية وأقرب الناس إلى قلبها...
دخلت بعد أن أدّت طقس التحية، ثم وقفت أمامها تنظر إلى الأرض ودموعها متماسكة على شفا الانهيار:
__مولاتي... قولي لي بصدق... هل صحيح ما يُقال؟ هل نـــــــِ...
قاطعتها سبأ بحسم:
__لا حاجة لإكمال السؤال يا نجمة... ولا تنتظري مني إجابة، لأن لا شيء تأكّد بعد والمجلس وحده من يقرّر ويصادق على أي ارتباط.
رفعت نجمة عينيها، تتوسل بجمالٍ حزين: __سكوتكِ يعني الكثير يا مولاتي.
لم ترد سبأ لكن صمتها كان كفيلًا بأن يزرع الخنجر في قلب نجمة. تجمّعت الدموع في عينيها ولم تبح بها.
وفجأة فُتح الباب و دخل نيوار... التفتت نجمة إليه فورًا لكنّه ما إن لمحها حتى توقف ثم همّ بالخروج مجددًا دون أن يوجّه

لها كلمة.
أخذت نفسًا حادًا وقالت:
__رأيتِ؟ حتى إنه لم ينظر إليّ... يتجاهلني كأنني لا شيء.
أرادت أن تلاحقه، إلاّ أنّ سبأ أمسكتها من ذراعها:
__لا يا نجمة... لا تُحادثيه الآن لا تزيدي على قلبك عبئًا آخر.
شعرت أن كلمات عمتها بمثابة صفعة ناعمة مؤلمة بهدوئها جارحة بصمتها. كأنها تقول اتركيه، دعيه يختار طريقه.
عادت إلى غرفتها لكن عيناها لم تفارقا الحديقة من خلف الشرفة، تراقب نيوار الذي كان واقفًا هناك يتبادل الضحكات مع البستاني مما أثار فضولها. كان وجهه مشرقًا بلمعة سعادة نادرة يحمل في يده باقةً من الورود، يتأملها بعناية ويمرّر أصابعه بين بتلاتها.
راقبته بانكسار وصمت، تحدّث نفسها: «يبدو أنه يعرف الحب أكثر مما كنت أظن... كنت أظنه بعيدًا عن الرومانسية، جامد العاطفة... وها هو يحمل وردًا ويبتسم كطفل، يجهّز هدية لمن سكنت فؤاده... كم كنتُ غبية في اعتقادي».

أماهُ يا عيوني

ترك الحديقة واتجه إليها، يحمل الباقة في يده.
__أمي... جلبت لكِ هذه الباقة من الحديقة. اعتبريها هدية صغيرة واعتذارًا عن تصرّفي قبل قليل، أعني.. حين انصرفت فور رؤيتي لنجمة.
رفعت حاجبها وأسندت يدًا إلى الأخرى وقالت بعتب:
__إذًا كنتَ تقصد ذلك؟ خروجك بتلك الطريقة لم يكن لائقًا، لا بمكانتك ولا بأدبك. نيوار... ترفّع عن هذه السفاسف. أن تتصرّف بهذه البرودة أمام فتاة تعرف جيدًا مشاعرها، هذا ليس من الرزانة في شيء.

أنصت لكلمات والدته بخضوع، منحنِي الرأس وتعبير الاحترام مطبوع على ملامحه.
وحين أنهت حديثها، مدّ إليها الباقة مجددًا:
__أما زلتِ غاضبة؟ ألن ترفقي بابنك وتقبلي الورود؟
أشاحت بوجهها عنه متظاهرة بالضيق، وتركته واقفًا في وضعية المترقب، يمدّ الورود في يده كمن ينتظر العفو.
وبعد دقائق عادت تنظر إليه لتجده ما زال ثابتًا متمسكًا بالورود، بعينين ترجوان رضاها. ضحكت رغمًا عنها في حين خفض هو عينيه متظاهرًا بالأسى، فأشفقت عليه وأخذت الباقة من يده ثم استدارت دون أن تقول شيئًا، وكأنها لا تزال غاضبة.
لكنه ما إن رآها تفعل ذلك حتى اقترب منها بسرعة وعانقها من الخلف، وطبع قبلة على رأسها قائلًا:
__سيدتي وملكة قلبي، ومَن أنجبتني... لولاكِ ما كنت بين الخلائق. لا يحتمل قلبي أن تكوني غاضبة بسببي ولا حزينة لأجلي. همّكِ يحرقني، وحزنكِ يمزّقني.. أترضين أن يتحمّل ابنك كل هذا؟
عانقته، وهي تضربه بلطف على صدره مداعبة:
__دائمًا تعرف كيف تُضعفني أمامك... وكيف تجعلني أسيرة كلماتك، رغم أنني أعرف أنها نصف تمثيل ونصفها من القلب.
__لا يا قلبي، أنتِ تعلمين أن كل ما هو موجه إليك من القلب.
ثم، وبنظرة جادة قالت:
__نيوار... بصراحة، أريد أن أقابل تلك الإنسيّة.
اتسعت عيناه بدهشة:
__حقًا، أمي!.. تريدين رؤية إيليانا؟

__نعم يا بني. أريد أن أراها، أن أتعرف عليها، أن أفهم ما الذي جعل قلبك يختارها لهذا الحد.
__لكن أمي... لا أستطيع أن أحضرها إلى القصر قبل أن يوافق المجلس. لم يتم الاعتراف بها رسميًا بعد.
ابتسمت بهدوء الحكيمات:
__ بل خذني إلى المكان الذي أخفيتها فيه...
تردد لحظة، ثم أجاب:
__إنها في قصرنا القديم.
بدهشة قالت:
__ قصرنا القديم؟... ظننتُ أنك هجرت ذاك المكان، وأنك لم تعد تتردد إليه.
أومأ برأسه مؤكدًا:
__ نعم، لم أفعل. لم تطأه قدماي منذ عقود... كان قد صار لي مجرد ذكرى مهجورة.
لتقول سبأ:
__ذلك القصر... كم حمل من حكاياتنا وكم حوى من ذكرياتك طفلًا يركض في أروقته... والآن يحمل سرك الأكبر.
نظر إليها بعينٍ ممتنّة:
__ولأنني أثق بكِ أكثر من أي أحد، سأرافقك إليه وأدعكِ تقابلينها بنفسك. لكن أرجوكِ... لا تُظهري لها قلقكِ أو توتركِ من قرار المجلس. دعيني أنا أتحمّل ذلك عنها.
وضعت يدها على قلبه وهي تقول:
__لأجلك فقط.

♡♡♡

كانت تنام بعمق في ذلك السرير الوثير، حتى فتحت عينيها على نورٍ يتسلّل من نافذةٍ مقوّسة منقوشة بزخارف فسيفسائية تحاكي الفنّ العتيق. جلست تنظر حولها بامتنان.

لطالما كانت تنجذب إلى المجهول، إلى كل ما هو غير مألوف في حياتها. تؤمن أن اللّٰه لا يقودها إلى طريقٍ عبثًا ولذلك، في كل عثرة كانت ترى يدًا خفية ترفعها من جديد. تأملت الضوء وهو يرقص على الجدران الصامتة وابتسمت بطمأنينة.
وما إن استدارت، حتى لفت انتباهها وجود صينية فضيّة دائرية وكبيرة، مملوءة بألوان من الطعام الشهي. جلست تأكل حتى سدّت جوعها، ثم مرّ في خاطرها ذكرى أمّها وهي تجمع بقايا الطعام بعد العشاء، وابتسامة مريرة شقّت وجهها حين تذكّرت كيف كانت تساعدها في التنظيف والترتيب.
حملت الصينية رغم استثقالها وخرجت تمشي في ممرات القصر الطويلة المتشعبة كمتاهة من العصور السحيقة.
تتوقف بين الفينة والأخرى تتأمل المنعطفات، تتلفّت يمينًا ويسارًا، لا تدري أيّ دربٍ يعيدها من حيث أتت. وفجأة شعرت أن هناك من يراقب خطواتها.
كلما توقفت، توقفت الخطوات. وكلما مشت سارت معها تلك الخطوات الخفية.
خفق قلبها بعنف. التفتت فجأة... لا أحد. تابعت السير بخوفٍ وحذر، تنظر خلفها كل لحظة. ثم في حركة غير متوقعة أمسكتها يد من الخلف، وأخرى امتدت لتكمم فمها، وقبل أن تصرخ أحاطها بذراعيه وحملها، تاركًا الصينية تسقط أرضًا، وصوتها يتكسر في الممر الكريستالي...
نقلها إلى الغرفة، بينما كانت في حضنه تضربه بقبضتها الصغيرة:
__نيوار... متى تكف عن هذه التصرفات؟ كاد نبض قلبي يتوقف.
ضحك هامسًا في أذنها:
__لكن هذه الفتاة... شجاعة أكثر مما تعتقدين.

__لا، لست كذلك.
أمال رأسه، وهو يكلّمها قرب شفتيها بأنفاس تتلامس مع أنفاسها:
__بلى، هي كذلك. أتريدين أن أعدّد لكِ إنجازاتها؟
نظرت إليه بعينين يملؤهما الترقّب.
__أولًا: هذه الفتاة دخلت عالمًا ليس عالمها وحيدة، تاركة خلفها عائلتها وعالمها... ولم تخف!، ثانيًا: شجاعة بما يكفي لأن يقف أمامها عاشقٌ من غير طينتها، ومع ذلك جعلته سرّها وملاذها ولم تُخبر أحدًا،حتى في تلك الليالي التي اعتصرها الخوف.ثم إن هذه الفتاة خاضت معركةً من دون سيف وهزمت أقوى محارب. المحارب الذي انتصر دومًا في حروبه على مدار عقود، وبكل جرأة هزمت قلبه وسرقت عقله في وقتٍ وجيز.

أسند جبينه إلى جبينها وأضاف:
__ألا يكفي أن تكوني الأشد شجاعة بين النساء؟
وبينما كانت النظرات تتبادل بينهما، تلا عليها قوله من سورة الشورى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾
لكن فجأة انتفض واقفًا، إذ جاءه نداء من أمه. قال باندهاش:
__تذكّرت...
ثم التفت نحوها مبتسمًا:
__عيناكِ... ملامحكِ... تكاد تنسيني حتى نفسي!
ضحكت بخجل وسألته:
__ماذا تذكّرت؟
أجاب بسرعة:
__يجب أن أذهب... لأُحضِر أمي.
رمشت بارتباك:

__تحضر أمك؟ إلى أين؟
__إلى هنا.
قالها ببساطة، لتردّ عليه محاولة إخفاء توترها:
__لكن... لم تُخبرني... أقصد...
ارتجف قلبها، ولم تعرف هل هو الخوف أم القلق، ففكرة لقاء جنّية أخرى غير نيوار بل أمه تحديدًا، كانت فوق احتمالها.
عاد ليجلس أمامها ثم أمسك كفّيها الباردتين من أثر الارتباك وطبع عليهما قبلة دافئة، حرارة أصابعه الطويلة أعادت شيئًا من الدفء إلى قلبها:
__ولماذا كل هذا يا إيليانا؟ نبضات قلبك أسمعها بوضوح.
__لا أدري... لكنني خائفة يا نيوار.
رفع حاجبيه وقال:
__خائفة؟ ممن؟!.. قبل لحظات كنا نتحدث عن تلك الفتاة الشجاعة التي تخطّت كل الحواجز والمصاعب، أتخشين الآن فقط لقاء والدتي؟ هذا غير معقول!
ثم تابع ليطمئنها أكثر:
__أمي جنّية طيّبة... صدّقيني. كوني لبقة معها وستبادلكِ ذلك. ليس هناك ما يدعو للخوف، أنتِ لستِ ضعيفة... بل أنتِ أقوى بكثير مما تظنين.
ظلت تنظر في عينيه بعمق، ليقول:
__اتفقنا؟.. أنا لن أتركِ. وأمي يستحيل أن تؤذيكِ، حتى لو افترضنا أنها مؤذية ما دمتِ تخصّيني فلا أحد يمكنه أن يمسّكِ بسوء اطمئني.
كلماته بلسمًا خفف عنها، وبدأت تشعر بقليل من الطمأنينة تسري في جسدها.
وقبل أن يغادر، التفت إليها قائلًا:
__كوني مستعدة... سأعود بها قريبًا.

تقدّمت بخطى مترددة نحو علبتها الخاصة تلك التي تجمع فيها عطورها ومستحضراتها التجميلية. جلست أمام المرآة وأخذت تحدّق في انعكاسها بتكرار، تبحث عن نسخةٍ أكثر ثباتًا من نفسها.
عدّلت من ملبسها، ثم خطرت لها فكرة!.. ذلك الثوب الغريب الذي لبسته سابقًا ويخصّ نساء عالمهم. رغم أنه واسع ولا يلائم مقاسها، إلا أن شيئًا ما دفعها لارتدائه مجددًا.
لعلّ سبأ ترى فيها لمحة من القبول أو الانتماء. سارعت إلى ارتدائه وضبطت أطرافه بيدين مرتجفتين.
ثم جلست ثانية أمام المرآة وأمسكت بأحمر الشفاه، مرّرته على شفتيها ثم تراجعت ومسحته وأعادت المحاولة هذه المرة بحذر أكثر.
كانت تبحث عن هيئة "محترمة وجذّابة" توازنٌ دقيق بين الرصانة والأنوثة.
سَرّحت شعرها، ثم تركته منسدلًا على كتفيها. ترددت، رفعته قليلًا ثم أنزلته مجددًا... لا هكذا أفضل.
رشت عطرها المفضل، ذاك الذي كانت تستخدمه في اللحظات المهمة، وحين أوشكت على التقاط أنفاسها طُرق الباب فأيقظ في قلبها عاصفة قوية.
جاءها صوت نيوار من خلف الباب:
__فراشتي... هل أنتِ مستعدة؟
أجابت بنبرة فيها بعض الخوف:
__تفضل.
فتح الباب ودخل أولًا، ملامحه لم تكن تحمل الصرامة المعتادة شيئًا من الهدوء المُتعمَّد كأنه يحاول أن يُعادل توتر اللحظة. خلفه مباشرة دخلت جنّية مهيبة الحضور، ملأت المكان بهيبةٍ غريبة.

تبادلت النظرات معها، ولحظة الصمت بينهما كانت مثل اختبار أرواح. ثم تقدّمت سبأ بخطى واثقة وجلست أمامها.
__أنتِ إيليانا إذن!
هزّت رأسها إيجابًا وقالت بخجل:
__نعم... وشرف لي أنٍ ألقاكِ.
نظرت إليها سبأ طويلًا قبل أن تقول:
__فيكِ شيء من الهدوء الذي أحبّه... وشيء من الحزن الذي أخشاه.
ابتسمت إيليانا لكنها لم تستطع أن تُخفي رجفة يدها.
ثم قالت سبأ وهي تمد يدها نحوها:
__تعالي إليّ... دعيني أراكِ عن قرب.
اقتربت إيليانا وجلست بجوارها، لكنها شعرت بوخزٍ يسري في أطراف جسدها، ربما من الطاقة المحيطة بهذه الجنية. زاد ذلك الشعور الغريب حين لمست سبأ شعرها وهي تقول:
__أتعلمين أن نيوار لم يسبق له أن جرّب الحب من قبل... حتى ظننتُ أن قلبه صلب لا يُغوى. لكنكِ غيّرتِ فيه شيئًا لم أكن أظن أنه سيتغير بفعل إنسية.
أخفضت إيليانا رأسها بخجل وتوتر، ثم تابعت سبأ بعد أن ألقت نظرة على ابنها:
__قد تفهمين يومًا كم من الشجاعة يلزم امرأة من عالمنا لتقبل امرأة من عالمكم. لكنني هنا... لأفهم لا لأدين.
وبينما كان نيوار يراقب حديثهما بصمت و هما يتبادلان الكلمات بحذر، جاءه النداء المنتظر... نداءٌ من مجلس الشيوخ.
اعتدل في وقفته وفي لمح البصر اختفى، ليجد نفسه في قاعة المجلس، حيث طلبوا منه إحضار الإنسية قبل إصدار القرار النهائي.

في تلك اللحظة، شعر بثقلٍ لم يعرف مثله من قبل. لم يكن القرار يخصّه وحده بل يمسّ إيليانا أيضًا. كان مستعدًا ليكون حاميًا لها، أيًّا كان القرار.
عاد على الفور، ليجدها ما تزال تجلس إلى جوار أمه وقد بدا على وجهها شيءٌ من الطمأنينة الغامضة.
فور عودته، سألته أمه:
__ما الأمر؟
أشار لها أن تبتعد معه قليلًا، وتحدّث إليها بصوتٍ خافت. لم تسمع إيليانا مادار بينهما لكنها كانت تراقبهما بعينيها المعلّقتين بالقلق. ثم اختفت سبأ، تاركةً إياهما وحدهما.
لتقول إيليانا بخوفٍ شاحب:
__نيوار.. هل أمك لم تقبل بي زوجةً لك؟
ابتسم قائلًا:
__ليس الأمر كذلك يا حبيبتي، ألم تري كم كانت طيبةً معك؟
أومأت برأسها:
__بلى... لقد أحببتها، رغم أنني كنت خائفةً جدًا... لكنني لاحظت أنها تشبهك.
قال ممازحًا:
__أهي تشبهني... أم أنا أشبهها؟
ضحكا معًا، قبل أن يفاجئها:
__إيليانا... علينا أن نذهب الآن.
اتسعت عيناها:
__إلى أين؟
__إلى المملكة.
خفضت رأسها و بهتت ابتسامتها، ثم قال مطمئنًا:
__ألم تري كيف تجاوزتِ لقاء أمي بسهولة؟
__نعم.. ولكن..

قاطعها:
__لا يوجد "لكن" يا إيليانا.. إن كنتِ تريدين الزواج بي، فعلينا أن نمرّ بهذا الطريق، لا مفرّ.
ردّت بصوتٍ خافت:
__لكن... يكاد يُغشى عليّ من الخوف يا نيوار، أشعر أنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي.
سكت ينظر إليها، ثم أخذها إلى تلك النافذة الضخمة المطلة على المناظر الخلّابة والساحرة بجمالها، طلب منها أن تنظر إليها وتتناسى فكرة أنها ستذهب معه بعد قليل إلى مملكته.
وبعد لحظات وضع أنامله برفق بين حاجبيها، محاولًا أن يتصل بالغدة الصنوبرية. فتسارعت أنفاسها، وشعرت بأن شيئًا غير مرئي قد بدأ يستجيب بينهما، ثم أحسّت بحرارة تلك المنطقة ترتفع. أغمضت عينيها بشدة ولم تستطع أن تتكلم.
وبعد دقائق مرّت وهي تتنفس بصعوبة، رفع يده عنها فسقطت هي على ركبتيها. استطاعت أخيرًا أن تسأله عمّا فعله بها، وهي تضع يديها على رأسها، ليجيبها أنه قرأ عليها بعض الأوراد، وقد بدأ بـ"وِرد النور" الذي يجعل بصيرتها أعلى من بصرها.
وهذا الورد يحميها من الزيف في عوالم الجن المليئة بالتشكّلات والمناظر التي قد تخلب اللبّ ثم "ورد الثبات" وهو الذي يرمّم هشاشتها ويجعلٍ رؤية ملوك الجن، بعظمتهم وطاقتهم التي قد تسبب "صدمة ترددية" لجسدها البشري تعمل كمنظّمٍ لضربات القلب ويجعلها ثابتةً أمام العظمة، مقاومةً ومتقبّلة.
وبعد كل ذلك، قال محذّرًا إياها:
__أعلم أن أشكالهم قد تبدو غريبة بالنسبة لك، لذا حين ندخل

اكتفي بالنظر إلى الأرض، لا تبادليهم النظرات حتى لا تفقدي توازنك وأجيبي فقط عما يُسأل منك. هذا كل ما أطلبه.
نظرت إليه و أومأت ببطء وعاد الخوف الغريزي ليعانقها.

♡♡♡

القاعة العليا_لحظة الحسم

دخلت بخطواتٍ مترنّحة، يرافقها خادمٌ من أهل القصر وبجانبها الملكة سبأ..
كانت القاعة ممتلئة. نيوار يقف في المنتصف شامخًا رغم التوتر الظاهر في عينيه، وأعضاء المجلس في صفٍّ واحد، يتبادلون النظرات وكأنهم يتفحّصونها بعيونٍ حادّة...
ثم وقف رئيس المجلس أولًا وضرب عصاه على الأرض فارتجّ الجوّ برنينٍ عميق:
__الأمير نيوار ابن الملك الأحمر، ومن أشراف المملكة، معروفٌ بذكائه وقوّته وممن يُشار إليهم عند اشتداد الأزمات، اختار طريقه وحسم أمره ليكمل زواجه بإنسية اختارها قلبه قبل عقله.
وبعد التشاور وما تدارسناه أُعلن لكم أن القرار قد صدر...
ساد صمتٌ رهيب إلا من دقات قلبان ينتظران مصيرهما الحتمي.تابع الرئيس بنبرةٍ ثقيلة:
__بناءً على الرؤيا، وعلى ما تبيّن لنا من كليكما وعلى ما قدّمه الأمير من حجج، رغم ضعفها إلا أنها أُخذت بعين الاعتبار، وبناءً على توصيةٍ نادرة من الشيخة العمياء... فإن المجلس ولأول مرة في تاريخه الطويل، يرفع الحظر عن الاتحاد بين العالمين.
تنفّس الصعداء، كأنّ الجبال قد أزيحت عن صدره.
ثم أضاف الرئيس:
__لكن... هناك شروطٌ إلزامية، وهي أن الأمير سيفقد جزءًا من سلطته داخل المملكة وأمّا ابنة الإنس فلن يُسمح لها

بمغادرة عالمنا لعامٍ كامل، ستبقى هنا لتُثبت أنها أهلٌ لما اختارته.
نظرت إيليانا نحو نيوار بعيونٍ وجلة، ليقول:
__أنا لا أطلب أكثر من أن تبقي قربي.. والباقي يُحتمل وأنا موافق على كل الشروط.
وقف شيخٌ آخر من أعضاء المجلس، ومدّ كفه للأمام فتدفق منها ضوءٌ أزرق جعل الأرضية تُضيء تحت أقدامهم بدوائر زرقاء، ثم قال:
__بهذا يُبارك المجلس هذا العهد، لا كزواجٍ فقط بل كجسرٍ بين عالمين.
في تلك اللحظة وقف نيوار أمام الجميع، ثم اقترب نحو إيليانا وجلس على ركبة واحدة وأخرج من ردائه خاتمًا غريبًا من حجرٍ أحمر يشعّ بهالة ضوئية:
__هل تقبلين أن تكملي الجنون الذي بدأناه سويًا؟
لتردّ بمشاعر متداخلة:
__ومنذ متى كنتُ عاقلة لأرفض؟
ألبسها الخاتم، ثم تقدّم السادن الروحي، وهو الجنّ الموكل بتدوين عقود الزواج في عالمهم، حاملاً دستورًا ضخمًا ليضم اسميهما كزوجين في أرض الجن ويعقد عهد الزواج بطقوسٍ خاصة بعالمهم، تُسجَّل كحدثٍ غير مسبوق في مملكتهم.
اقتربت سبأ إلى ابنها بابتسامةٍ عريضة تنير وجهها:
__كم كنتُ أخشى أن يرفض زواجك وتتم معاقبتك، الحمد لله أن كل شيء مرّ دون أن تُمسّا بأذى.
ابتسمت إيليانا بعينين مغرورقتين وهي تتفحص الخاتم الذي ألبسها إياه، تتأمله بفرحٍ ودهشة وأخيرًا شعرت أنها أصبحت له وحده وأن كل الصعاب التي اجتازاها لم تذهب هباءً.
تقدّم الملك الأحمر بخطاه المهيبة، وإلى جانبه الملك الأكبر

"جدّ نيوار" لينطق بما لم يتوقعه أحد:
__فعلتَ يا بُني ما لم أجرؤ على فعله منذ قرون لأول مرة. أشعر بالفخر تجاه أحدٍ من نسلي... أنت شجاع أكثر مني بكثير.
تبادلوا النظر إليه متعجبينٍ، ليواصل:
__فأنا أيضًا أحببتُ إنسيةً ذات زمنٍ بعيد لكنني ظننت الأمر خطيئة كبرى ودست على قلبي الذي نزف كثيرًا لفراقها. أرى يا ولدي أن زواجك منها ليس إلا شرفًا عظيمًا ودليلًا على قوتك ونُبل روحك. أحييك وأبارك لك من كل قلبي.
تبادلت سبأ وزوجها النظرات بدهشة، لم يصدّقا ما سمعاه من الجد، إذ لم يسبق له أن كشف عن سره القديم.
ليقول الملك الأحمر:
__إذن، لهذا لم تُبدِ أي ردة حينما كانت الضجة قائمة..
استغربتُ من تحفظك فهذا ليس من عادتك، لكني أدركت أن هناك خطبًا ما.
طلبت سبأ من إيليانا أن ترافقها إلى جناح الخادمات، لتُعدّ لها ثوبًا يليق بأميرة ابنها ويُفصَّل بحسب قامتها وطبيعة جسدها استعدادًا للحفل الكبير الذي سيُقام مساءً.
لكن ما إن همّتا بالمغادرة حتى قال نيوار ببهجة لا تُخفى:
__انتظري يا أمي... فقط لحظة، أريد أن أتحدث معها على انفراد. ثم هي لكِ، افعلي بها ما تشائين.
ضحك الجميع من مزاحه العفوي... إلّا إيليانا التي لم تهدأ دقات قلبها بعد.
أخذها نيوار إلى ممرٍ جانبي هادئ.
كانت تلتفت يمنة ويسرة، تنظر بانبهار إلى تفاصيل القصر... الأعمدة المتوهجة، الستائر التي تتحرّك كأنها تتنفس، والأرضية التي تعكس السماء.
__أنتِ... أنظري إليّ... أيتها المستكشفة الفضولية أنتِ الآن زوجتي، أتدرين؟

لكنها لم تُجبه، كانت لا تزال مشغولة بالتأمل عيناها تلتقطان كل تفاصيل المكان باندهاش وحماس.
عضّ على أنامله وهو يثبت نظره في عمق عينيها، قائلًا:
—الآن، ستأخذكِ أمي إلى جناح الخادمات... ستلتقين هناك بنساء قد يبدون غريبات عنكِ لكن تذكّري: أنتِ الآن في عالمي، والغريب بالنسبة لكِ... طبيعي بالنسبة لهم.
اقترب منها أكثر، ليتابع:
__لا تخافي، أمي ستكون برفقتكِ ولن يدنو منكِ أحدٌ بسوء. فقط تحمّلي الاختلاف في تصرفاتهن وفي طريقة كلامهن، أو حتى نظراتهن. ففي النهاية هنّ لا ينتمين لخلقتكِ لكن لا يوجد أبدًا ما يدعو للخوف، أفهمتِ؟
بقي يبادلها النظرات لبرهة، ثم قال بجدية:
__تذكّري فقط... لا تُفصحي عن تفاصيل علاقتنا ولا تُكثري من الحديث. كل سؤال له جواب مختصر.
هزّت رأسها إيجابًا، ثم نظرت إليه بعينين تمزجان بين الخوف والفرح والحماس:
__لكن... لماذا كل هذه التوصيات؟ إلى أين أنت ذاهب؟ ألن تكون معي؟
مسح على وجنتها:
__لا يا حبيبة قلبي... لن أكون معكِ الآن، لكن موعدنا سيكون مساءً.
ثم غمز بخفة وطبع قبلة دافئة على شفتيها، كانت كفيلة بأن تملأ قلبها طمأنينة وسكينة.

♡♡♡

عرس الجن

أُعلنت ساعة الاحتفال، وارتجّت المملكة، اهتزّت الأرض تحت وقع خطوات الموكب الملكي.

في جناحٍ خاص من القصر العلوي، جلست إيليانا فوق مقعدٍ من المخمل الأرجواني، تحيط بها نساء الجن من الوصيفات والخادمات فيما وقفت سبأ خلفها، تُشرف على زينتها بعينِ الأم وصرامة الوصية.
كان الثوب غريبًا... تفاصيله وقماشه لا يُشبهان ما اعتادته عيناها ومع ذلك حين ارتدته تحوّلت ملامحها إلى هيئة أميرةٍ في عالمٍ غريب. وُضع تاجٌ على رأسها يشبه هالة القمر.
وأخيرًا، سُمح لها أن ترى نفسها في المرآة...
رأت وجهًا مألوفًا لكنه ليس وجهها. كانت تشبه إيليانا لكنها لم تكنها تمامًا. فكل ما فيها تغيّر؛ الثوب، الشعر، الزينة، الهيبة...
وبينما كانت تتأمل انعكاسها، اقتربت سبأ ومدّت يدها بلطفٍ:
__لقد اكتمل تجهيزكِ... هيّا إلى الحفل.
أُدخلت إلى القاعة الكبرى وكلّ الأعين التفتت نحوها.
الجنّ من كل المقامات والأنواع نظروا إليها بنظراتٍ شاخصة أصابتها بالرجفة. خفق قلبها بشدة وارتجفت يداها تحت الثوبِ. تصبّرت بابتسامةٍ صغيرة، غير أن المشهد لم يكن سهلًا عليها...
الطبول العالية التي أعلنت بدء الحفل لم تُشبه أي شيء عرفته، وصوت الجنيات اللواتي غنّين بلغةٍ لا تفهمها، رقصاتهنّ التي بدت كأنها طقوسٌ سريعة وعشوائية... كل شيء بدا لها وكأن حلمًا يتحوّل إلى صدمة.
كانت تُحرّك عينيها في الأرجاء، تحاول أن تُمسك بمعنى.
ثم تذكّرت ما قاله نيوار:
«اخفضي عينيكِ... كي لا يختلّ توازنكِ. هذا عالمهم... ويختلف عنكِ في كل شيء.»

فخفضت عينيها لكن قلبها كان يقرع كطبولهم بل أشد.
الرهبة تسرّبت إلى أعماقها، أنفاسها تسارعت والأرض بدأت تدور تحت قدميها.
تقدمت سبأ التي كانت تراقبهاعن كثب:
__إيليانا... هل أنتِ بخير؟
بصوتٍ متعب:
__لا... لستُ بخير.
ثم تمايلت كغصنٍ تحت الريح...قبل أن تُغمض عينيها وتسقط فاقدة الوعي.

♡♡♡

__لم يكن هناك ما يدعو إلى الذعر... فجسدها البشري، ببنيته الرقيقة لم يتهيّأ بعد كليًا لهذه النقلة الكبيرة. جسدها الأثيري اهتزّ بعنف فبصيرتها لا تزال وليدة، لكن لابأس ستتهيأ تدريجيًا لهذا الارتفاع الطاقي.
كان ذلك ما أكده الطبيب بعد أن فحصها وهي مستلقية في جناحها الجديد الذي خُصص لها كزوجةٍ للأمير.
لحظاتٌ حتى وصل نيوار، بعد أن أخبروه بما جرى. هرع إليها ومدّ كفّه فوقها دون أن يلمسها، فقط مرّر طاقته النورانية إليها بهدوء. كان يعلم جيدًا أن الأرواح، حين تنفتح على الأبعاد الأثيرية لا تعود كما كانت أبدًا.
اقترب من أذنها وتمتم قائلا:
__ستتكيفين... وسأكون قربكِ حتى يحدث ذلك.
نادت سبأ على ابنها بعد انصراف الطبيب وربّتت على كتفه قائلةً بتوتر:
__هذه أولى العواقب يا بني... عليك أن تتحمّل ضعفها، فهي في النهاية لا تنتمي إلينا... ولا نحن ننتمي إليها.

أغمض عينيه لوهلة وكأن الكلام اخترق صدره، ثم قال بقلقٍ كظم فيه غضبه:
__أمي... رجاءً، لا داعي لتكرار هذا الحديث في كل لحظة. أعلم جيدًا أنها لا تنتمي إلى عالمنا لكن قُضي الأمر، وهي الآن زوجتي... وأنا من سيتحمّل ذلك.
لتقول وهي تولي بوجهها:
__أنا متأسفة يا نيوار، لكن بيني وبينك كنت أتمنى لو كانت العروس اليوم هي...
لم تُكمل.. فنيوار قطع عليها الحديث بحنق:
__اعذري صراحتي يا مولاتي، لكن الخيار خياري والقلب قلبي وهذه حياتي، لا يملك أحدٌ حق التدخل فيها.
أغمضت عينيها بأسى، وهي تقول قبل أن تغادر:
__صحيح... لقد اخترت وتزوجت وانتهى الأمر. أتمنى لك ليلةً سعيدة.
تضايق كثيرًا فحتى والدته، التي بدت وكأنها تقبلت إيليانا لم تتقبلها إلا ظاهريًا.
حاول إقناع نفسه: «لا بأس... سيتعوّدان على بعضهما وسينتهي شعور الغربة، إيليانا ستكون بخير وستعتاد.»
نظر إليها وقد بدأت تتحرك قليلًا، فانفرجت ملامحه، كأنّ كلّ العناء بدأ ينقشع.
أسرع نحوها وعيناه تتأملانها وهي تستعيد وعيها ببطء.
أفاقت وهي تعدّل جلستها وتُلقي بنظرات متفحّصة على المكان من حولها. كانت الغرفة مختلفة كأنها إنتقلت عبر الزمن لعصر قديم من الستائر المُخمليّة إلى النقوش الذهبية على الجدران.
أدركت أن المراسم الغامضة التي أغرقتها بالقلق قد انتهت...
وأنها ما تزال ترتدي ذلك الثوب الملكيّ، الذي رغم غرابته لكنه

أعطى لمسةً خاصةً لهيئتها.
التقت عيناها بعينيه...
__هذه الليلة... لكِ وحدكِ، وسأكتبها على جسد الوقت ذكرى لا تموت.
وهكذا انقضت أولُ ليلةٍ جمعتهما زوجين من عالمين مختلفين، اتحدا رغم كل التحديات التي مرّا بها.

♡♡♡

في صباحٍ لا يشبه الصباحات العقيمة التي عاشتها من قبل استيقظت في جناحها الجديد ونور الشمس المتسلل من النافذة يعانق الستائر الشفافة بلطفٍ.
كان مستلقيًا بجانبها، ينظر إليها بعينين تفيضـان بالشغف وابتسامةٍ عريضة لم ترَ مثلها على وجهه من قبل:
__صباحٌ جميلٍ... جمّلته حبيبة فؤادي وقدري الذي ظننته يومًا مستحيلًا.
ابتسمت بخجل، ليتابع:
__هل أنتِ مستعدة لأن أُطلعكِ على المزيد عن أهلي وعشيرتي، دون لومة لائم؟
لمعت عيناها وهي تستعد للنهوض:
__بكل حب.
راح يدور بها في أرجاء القصر...
كتاباتٌ لا تفهمها منقوشة على الجدران ولوحاتٌ وصورٌ توحي بعوالم أخرى. كان الخدم يتحركون بخفةٍ كخلية نحلٍ منظمة وكلما مرّ أحدهم انحنى له احترامًا وهيبةً، وكان هو يبادلهم تحية الأميرِ المحبوب.ثم قادها إلى حديقة القصر الكبيرة، التي تضم جمالًا ممتدًا إلى مدى البصر؛ نوافير مياه تنساب بأشكالٍ لولبية، تتراقص فيها قطرات الضوء وفراشاتٌ تحوم كأنها من زجاجٍ مضيء.. والكثير من مظاهر الجمال الخلاب.

حينما تغار الجنيات

ركضت نحو أرجوحةٍ مصنوعة من أزهارٍ مختلفة الألوان والأشكال. لم تستطع ركوبها فاندفعت ضاحكةً وهي تحاول. ساعدها نيوار على ذلك وبدأ يدفع الأرجوحة عاليًا وضحكاتهما تملأ المكان.

هناك، من الشرفة العلوية المطلة على الحديقة، كانت عيونٌ تراقب لا تخلو من شيءٍ ما.

وبينما كانت إيليانا تتأرجح ببهجة، قالت وسط ضحكاتها:

__أريد أن تريني عالمك، غرفك، أسرارك... أريد أن أتجوّل فيه كله.

انتقلا إلى جهةٍ أخرى من القصر لكن قبل أن يتعمقا في الممرات المقوّسة، قاطعت طريقهما فتاة جميلة على نحوٍ مخيف.

عيناها واسعتان بلون العقيق القرمزي وشعرها طويلٌ يتخطى خصرها، بنفس لون عينيها وبشرتها بيضاء بحدّة. كانت فاتنةً بشكلٍ غير مألوف.

نظرت إليهما، ثم إلى يديهما المتشابكتين وابتسمت بطريقةٍ مريبة وهي تقول:

__أهلًا بعروس القصر التي شغلت الجميع... كنت أترقب لقاءنا منذ أن سمعنا بك.

ردّت عليها إيليانا بابتسامةٍ متوترة، كأن نظرات الفتاة تسحب منها الأمان.

وأضافت، وهي تتنقل بنظراتها بينهما بشكل مستفز:

__جميلة... لكن ليس إلى الحد الذي تأسرين فيه القلوب.

قاطعها نيوار:

__معذرةً، لكن لدينا الكثير لنفعله.

وبينما كان يقود إيليانا مبتعدًا، سألته بصوتٍ خفيض:

__نيوار... من تكون هذه الجنية؟

__أخافتك؟
__بعض الشيء.
قال ضاحكًا في محاولةٍ منه لتهدئة الموقف:
__لا عليكِ... تتصرف بهذا الشكل لأنها فقدت أمها وهي صغيرة، فكفلتها عمتها سبأ في قصرنا. لكنها كما رأيتِ ليست سهلة المراس.
شردت قليلًا.. استنتجت شيئًا ما، ثم أردفت:
__هذا يعني أنها كبرت معك!.. تمامًا مثل أختك!
ضحك باستهزاءٍ خفيف قبل أن يرد:
__أنا أعتبرها كذلك، لكن هي لا تفعل.
سألته بحيرة:
__لم أفهم مقصدك.
__دعينا منها أرجووووك... ما رأيك أن ندخل هذا السرداب؟ سيوصلنا إلى مكانٍ أجزم أنه سيعجبك.

انتقلا عبر ممرٍ طويل يشبه النفق، جدرانه تنبض بسكونٍ غريب وفي تجاويفه أشياء تنير تشبه الشموع.لم يكن في المكان سوى خطواتهما المتناغمة وصوت أنفاسها المتسائلة وكلما مضيا أعمق، شعرت برهبة المكان.
توقفا أخيرًا عند بوابة ضخمة. وقفا مليًّ ا لكنها لم تُفتح.
سألتْه إيليانا:
__هل سنقف طويلًا هنا؟ لماذا لا تفتحها بنفسك؟
أشار لها بالصمت، ثم أغمض عينيه ووضع كفّه في وسط البوابة.
بعد لحظات فُتحت على مصراعيها.
دخل أولًا ودخلت خلفه، لتجد نفسها داخل مكتبةٍ هائلة وكان المكان لا يشبه ما تصوّرته يومًا أن يكون على وجه الأرض.

جدرانها متعرّجة، تتراقص عليها رموز لا تنتمي لأي لغة عرفتها. رائحة في الهواء ثقيلة ربما رائحة تلك الكتب في الأعلى. لم يكن هناك سقف بل سماءٌ متحرّكة من دوّامات أرجوانية تمتزج بسحب كثيفة. الهدوء في المكان ثقيل، كأنّ الزمن هنا لا يتحرك بل يتأمل.

كانت الرفوف تتدلّى من العدم، لا تحملها أعمدة ولا تُقيّدها قوانين المادة. كل رفّ يحتوي على كتب تختلف عن الأخرى: لفائف مشعّة، كتب أغلفتها من جلد، وأخرى يخرج منها بخارٍ يشبه الدخان. اقتربت من كتابٍ كهرماني اللون تحيط به هالةٌ خضراء ومدّت يدها نحوه تريد أن تستكشفه، لكن:

__احذري!

اخترق صوت نيوار سكون اللحظة، فتوقّفت يدها قبل أن تلامس الكتاب واتسعت عيناها دهشةً.

قال بنبرة مشبعة بالتحذير:

__لا تلمسيه.. الكتب هنا ليست كما في عالمكم. بعضها لا يرحم، قد يعبث بهالتك يُربك طاقتك، بل يتسلل إلى داخلك دون أن تدري فتدفعين ثمن الفضول غاليًا.

خفضت رأسها بخجل:

__فقط أردت أن...

قاطعها بهدوء:

__أقدّر شغفك وأفهم حماسك، لكن ليس كل ما يُدهشنا نستطيع الاقتراب منه بأمان فبعض الأبواب وُجدت لتظل مغلقة.

جلس على المقعد المتصل بالطاولة الدائرية، التي تشبه قوقعة حلزونية محفورة في الفراغ وكان في منتصفها شعاعٌ ضوئي ينبض كلما اقترب منه.

بقيت هي واقفة، تتأمل الكتب التي تُحدّق فيها كأنها تقيّمها وإلى الرموز التي كانت تُرسم تلقائيًا في الهواء ثم تختفي.
كان نيوار يراقب انبهارها ثم سألها بنبرة منخفضة تتسلّل إلى القلب:
__أخبريني، هل أعجبكِ عالمي أم أخافكِ؟
أجابته وهي تسند خدّها إلى راحة يدها:
__لم يُعجبني بقدر ما أدهشني... سبحان من قال: «ويخلق ما لا تعلمون».
تابعت وهي تُسرح بنظرة جانبية نحو الرفوف العالية:
__أشعر وكأنني دخلت ذاكرة كائن لا يشيخ...
أدار كفّه نحو منتصف الطاولة، فأضاءت بقعة دائرية وخرج منها كتاب صغير مغلّف بجلد داكن، عليه نقوش وحروف غريبة.
سألته بحيرة:
__وهذا الكتاب؟... ماذا يُخفي؟
ردّ وهو ينقل الكتاب إلى أحد الرفوف:
__ذاكرة جنّي عتيق عاش قرونًا من الدهر دوّن بين صفحاته علم الجفر الأبيض والأحمر، وعلم الحرف والرقم ووثّق فيه عهودًا علوية مع البشر... كل سطر فيه نابض بأقباس نورانية.
ارتفع حاجباها بفضول:
__هل سأكون يومًا قادرة على قراءته؟
نظر إليها طويلًا، ثم أجاب:
__ربما... حين تكتبين أنتِ كتابك أولًا.
__أنا أكتب كتابًا؟
قالتها مترددة، تحدّق في الفراغ وكأنها تسأل نفسها أكثر مما تسأله.
أجابها بعينين تلمعان بدهاء العارف:

__نعم، ولِمَ لا؟
__لا... لا أظن لا أفكار لديّ حول هذا الشأن.
اقترب منها هامسًا:
__وهل كانت لديكِ أفكارٌ مسبقة عن علاقتنا أو عن زواجكِ بي؟
__صحيح، لم تكن لديّ.
__إذن يا سيدة إيليانا، نستنتج أن قراراتنا ليست دومًا مخططًا لها. نحن نسير فقط على الإرادة الإلهية وكل شيء يحدث بحكمة مرتبة.
ساد الصمت، وعادت عيونها تتبادل النظرات معه بلا كلمات.
قطع الصمت صوته العميق:
__ربما... ستكتبين يومًا عن رحلتكِ معي.
سكنت ملامحها، تطالعه بنظرة مُربكة كأنها تبحث عن شيءٍ ما في وجهه:
__هنا أم هناك؟
ردّ بهدوء، يُلقي بحجر في مياه ساكنة:
__لا... هناك.
تغيّرت ملامحها وهي تقول:
__ماذا تعني بهناك؟ هل تقصد... أنك ستتركني؟
لم يُجب بل استمر في التحديق فيها، لكن نظراته هذه المرة كانت تخترقها... تشقّ دروبها إلى الأعماق.
احمرّت وجنتاها وانخفضت عيناها خجلًا وارتباكًا.
اقترب أكثر حتى اختلطت أنفاسهما، ثم قال بنبرةٍ منخفضة:
__أنا أكره الضعف... وليس من عادتي أن أنجذب إلى الضعفاء.
رفعت وجهها إليه قائلة:

__أضعيفةٌ أنا؟
__نعم، أنتِ كذلك.
وضعت يديها على خصرها متظاهرةً بالغضب:
__نيواااار، أنا لستُ كذلك.
قهقه وهو يقول قرب أذنها:
__إذن، ما الذي يجعلكِ تتفادين نظراتي كلما التقت عيناي بعينيكِ؟
__لأن نظراتك... فيها شيء غريب... لا أدري ما هو، لكن... لا أستطيع مقاومته.
أردف بنبرةٍ جادّة :
__خوف؟ أم ضعف؟
ردّت عليه بصوتٍ بالكاد يُسمع:
__لا هذا ولا ذاك.
رفع حاجبه بشك، ثم قال:
__كاذبة!
ارتبكت نبضاتها بفعل كلماته وهربت من عينيها دمعة لم تطلب إذنها، لكنها أسرعت إلى مسحها سريعًا.
في لحظة مفاجئة احتواها بين ذراعيه بقوة:
__أرأيتِ؟... حتى دموعكِ تفضحكِ. أنتِ خائفة وضعيفة إلا أن ضعفكِ يهزمني ويفتّت صلابتي، يجعلني مثل جبل ينهار صخرةً صخرة.
ضمّها أكثر ثم نقلها بين ذراعيه إلى جناحهما الخاص..

♡♡♡

في بهوٍ جانبيّ من الجناح الشرقي، جلست الملكة سبأ على أريكةٍ عتيقة من خشب القِرْباص، تتأمّل بخور العود المحترق في صحنٍ حجريّ رماديّ.

دخلت زُلفى بهدوء يسبقها عطرها وجلست إلى جانبها كما تفعل صديقات العُمر، لتقول وهي تشرب من شراب الزعزع:
__صحيح أن العروس تحمل ملامح لا تُشبهنا، لكنها لا تُزعج.
رفعت سبأ عينيها قائلة:
__كل غريب في بداياته لا يُزعج... إلى أن يبدأ بالتجذّر فتظهر حقيقته.
ابتسمت زُلفى:
__وهل رأيتِ في عينيها بذور الخراب؟
ردّت سبأ وقد شبكت يديها على ركبتيها بثبات:
__لم أرَ خرابًا... لكنني رأيت اندفاعًا وحماسًا غير مدروس وبعضًا من البراءة التي لا تليق في عالمنا.
أجفلت زُلفى قائلة:
__لا أظن أن اختيارات نيوار عبثية.
__صدقتِ يا زلفى، أعرف ابنى جيدا.. وإن اختار، فاختياراته ليست عبثية. لكنني أعرف كذلك عواقب المزج بين العوالم، هل تعلم حقًا ما ورّطت نفسها به؟
ساد صمتٌ مهيب بينهما.
ثم قالت زُلفى، وهي تعيد كوبها إلى الصينية:
__ربما لا تحتاج إلى أن تعرف كل شيء الآن ربما يكفي أن تكون صادقة، والباقي يتكفّل به القدر.
شردت سبأ قليلًا بينما أردفت زلفى:
__هل رأيتِها بعد الحفل؟
__لا، لم أرَها ولا حتى نيوار.
ثم جاءهم الرد من خلفهما بنبرة ناعمة لكن فيها ما يُشبه اللدغ:
__العريسان مشغولان بأجمل أيامهما.
التفتت الاثنتان في اللحظة نفسها لتقابلا نجمة واقفة عند

عند طرف العمود الرخامي، تمسّدت بأطراف أصابعها ثوبها الأزرق القاتم ورفعت زُلفى حاجبًا دون الآخر:
__نجمة... لم ننتبه إلى قدومكِ.
ردّت نجمة وهي تقترب بخطوات محسوبة:
__لا أعتذر كثيرًا عن هذا، لكنني أحببت أن أبارك ولو متأخرة.
بقيت سبأ محافظة على سكونها المهيب.
لتتابع نجمة الحديث برقة :
__لنضع النوايا جانبًا... نحن الآن أمام عروس جديدة وروحٍ غريبة دخلت عالمنا. ما تحتاجه هو الرعاية لا الترقّب أو النفي.
لمعت في عيني سبأ شرارة لم تُخفِها وقالت بصرامة:
__احذري... الكلام الذي يُقال في غمرة الألم قد يتحوّل إلى عهدٍ سفلي.
ردّت نجمة، والغصّة متوارية خلف ستار من التهذيب:
__أنا لا أنكر... لا زلتُ مستغربة كيف لنيوار أن يفعل مثل هذه الفعلة؟ يتزوّج من خارج السلالة... من بشرية لا نعرف أصلها ولا سرّها؟
أغمضت سبأ عينيها للحظة، وكأنها تبتلع نارًا من الغضب لا تريد أن تخرج ثم تأففت بضيق. شعرت زُلفى باهتزاز الجو، فغمزت نجمة قائلة:
__نجمة... ألا ترافقينني قليلًا؟
لكنها لم تُعرها اهتمامًا وأضافت:
__أنا لا أتحدث بدافع شيء ما... لكن نيوار لم يكن يومًا متهوّرًا.
قالت سبأ بغصّة:
__وهل تُحسب أفعال القلب بعقلٍ مثل عقولكم؟ نيوار لم يكن يومًا متهوّرًا.
أطرقت رأسها لكن عنادها لم يهدأ. وتحدّثت زُلفى هذه المرّة، وهي تمسك بذراع نجمة:

__أحيانًا لا يكسرنا أحد يا نجمة... بل نحن من نبقى واقفين عند بابٍ أغلقه القدر منذ زمن.
ثم همست في أذنها:
__تعالي الآن... لا تفتحي على نفسك أبوابًا مغلقة.
غادرت أخيرًا، لكن نظرتها الأخيرة نحو عمتها كانت مليئة بالخذلان والعناد، وشيءٍ خفيّ يشبه الحقد النائم.

♡♡♡

مرّت شهورٌ ثقيلة على عائلة إيليانا، وكلّ المحاولات للعثور عليها تلاشت، كلّ رجاءٍ تحوّل إلى خيبة.
أصبحت الأيام رمادية خالية من النكهة؛ بلا دفء، بلا معنى.
خالد، الذي كان يحمل عائلته على كتفيه، بات يذهب إلى عمله جسدًا فقط، يسير بعينين مطفأتين.
وليلى التي كانت روح البيت، ذبلت تمامًا وجفت دموعها كما تجفّ الأرض في آخر الشتاء. لم يبقَ في قلبها سوى رجفة اسم ابنتها.
الليل يُثقل أنفاسها والنهار يمرّ وكأنه عقوبة.
أمّا الصغيرة ميلينا، فقد بدأت تعيش على حوافّ الذاكرة...
كيف كانت تُحمّمها وتمشّط شعرها وتُلبسها، وتقرأ لها القصص قبل النوم. الآن لا شيء من ذلك؛ فقط وسادة وحيدة وشريط من الذكريات تعيده الطفلة في عقلها كل ليلة، كي تنام على وهم الحنان.
أمّا محمود فحاول أن يكون الجدار الصلب للعائلة، لكنّه في كلّ ليلٍ طويل كان ينهار بصمت، يتوسّد الأسى ويدعو أن تعود أخته من حيث لا يعلم.
وصديقات إيليانا؟
كان الحزن قد خيّم عليهن أيضًا... فالاختفاء الغامض لفتاةٍ

بتلك العفة والطيبة، خلّف دوّامة من الأسئلة والاحتمالات دون إجابة تُسكّن
ورغم كل شيء لم تفقد ليلى الأمل. كانت في كل لحظة تنتظر من الشرطة، من الجيران، من زوجها، من اللّٰه... أي شيء أي صوت أي رسالة تقول: "وجدناها". لكن لا أثر.
إلى أن جاء ذلك المساء...
في مساءٍ أكثر كآبة من العادة سمعت ليلى طرقًا على الباب. ظنّت أنه أحد أفراد العائلة كالعادة، فمنذ اختفائها لم ينقطع أهلها ولا أقرباؤها ولا حتى الجيران عن السؤال والزيارة.
فتحت الباب بقلبها قبل يدها، فإذا بأم سارة برفقة ابنتها صديقة إيليانا المقرّبة.
نظرت إليهما، تنتظر الكلمة المعتادة: "هل من جديد؟"
لكن نظرات الزائرتين كانت مختلفة هذه المرة لم تكن للاطمئنان فقط بل للتنبيه إلى شيء ما.قالت أم سارة بصوت مشوب بالريبة:
__أعلم يا ليلى كم هو موجع ما تمرّين به وقلبي معكِ...لكن اسمحي لي أن أسألكِ: هل فكّرتِ في استدعاء راقٍ شرعي إلى البيت؟ أو على الأقل سؤاله؟
نظرت ليلى إليها باندهاش واضح وكأن الفكرة صدمت صمتها الطويل:
__راقٍ! بصراحة... لا. لكن... لماذا؟ ما علاقة هذا بما حدث؟
قاطعتها سارة بسرعة وقد بدت مرتبكة:
__في أحد الأيام، قبل اختفائها بوقتٍ وجيز زارتني صباحًا لنراجع الحفظ معًا لكنها لم تكن طبيعية أبدًا. كانت قلقة بشكل غريب... قالت أنها ترى أحلامًا مزعجة وتحدث معها أشياء غريبة.
شهقت ليلى بصوتٍ مختنق:
__متى؟ متى كان هذا؟ ولما لم تُخبرني؟ وكيف لم ألاحظ

أم سارة وهي تشبك يديها:
__لا أدري يا ليلى... لكن ربما ما حدث لابنتك لا علاقة له فقط بما نراه ونلمسه.
ساد الصمت بين الثلاثة، لكن في داخل ليلى بدأ بابٌ خفيٌّ بالانفتاح، بابٌ لم تفكر يومًا في طرقه.
كانت زيارة سارة ووالدتها كالحجرة التي أثارت بركة السكون في قلبها. كلمات الأم وابنتها وما كشفته سارة عن أحوال إيليانا قبل اختفائها، تركت أثرًا عميقًا في نفسها وزرعت احتمالًا جديدًا لم تكن تتخيله.
هل يُعقل أن ما حدث لابنتها قد يتجاوز حدود المنطق والعقل؟
أخبرت ليلى زوجها بما دار بينهن، وكان خالد يُنصت وهو يفرك ذقنه بتفكيرٍ عميق. لم يكن يؤمن كثيرًا بهذه الأمور، لكنه لم يُنكر أيضًا أن ما حدث معهم لا يُشبه شيئًا مما يعرفه أو يفهمه.
مرت ساعات الليل بصمت ومع طلوع الصباح اتخذ قراره.
اتصل بأحد أصدقائه ممن يثق بهم، وسأله إن كان يعرف راقيًا شرعيًا متمكنًا له علم بهذه الأمور الغريبة.
دلّه الصديق على رجل وصفه بأنه «من أهل العلم والتقوى، وله خبرة في مثل هذه الحالات»، فانطلق مباشرة إليه.
وصل إلى الراقي وروى له كل ما حدث. في البداية بدا الراقي مترددًا ورجّح أن تكون المسألة نفسية أو دنيوية، لكن حين ذهب مع خالد إلى البيت واطّلع على التفاصيل عن قرب، بدأت ملامحه تتغير...تفحّص الغرف وسأل عن ترتيب الأحداث، ثم قرأ الرقية الشرعية على المنزل وعلى أفراد العائلة جميعًا.
لكن كل شيء بدا طبيعيًا.. لا اضطراب، ولا صراخ، ولا ردود

فعل غير مألوفة.
سأل ليلى عن الأحلام التي تراودها، فأخبرته أنها في الأيام الأولى فقط، كانت ترى رؤى متكررة عن ابنتها؛ كيف كانت تقضي معها أيامها الروتينية.. ثم انقطعت تلك الأحلام.
طمأنها الراقي بأن الأمر ربما يعود إلى كثرة التفكير والاشتياق، ودعا الله أن يُعيد ابنتهم إليهم عاجلًا غير آجل. لكن حديثه الأخير مع خالد أثار شيئًا غريبًا في نفسه فقبل أن يغادر قال:__لقد مرّت بي حالات، لا أقول إنها شبيهة تمامًا لكن بعضها كان اختطافًا من الجن.
هذه العبارة على قِصرها فتحت بابًا جديدًا في عقل العائلة: باب الخوف والفضول والبحث في المجهول. ومنذ تلك اللحظة بدأت رحلتهم مع الرقاة.
كل يوم كان يأتي راقٍ جديد، لكن لا أحد منهم توصّل إلى أثر...لا إشارات، ولا حتى تفسير مُقنع.
مرت أيام وأسابيع والوضع كما هو...
حتى جاء اليوم الذي زارهم فيه أخو ليلى "يمان". أخبرهم أنه يود إحضار راقٍ آخر متمكن حسب ما حدثه أصدقاؤه بعد أن أخبرهم بالقصة، له القدرة أن يعرف إن كان هناك سحر أو شيء غريب في البيت، أو أي سر، فسيُكشف على يديه لا محالة.
لم يمانع خالد ولم تتردد ليلى، فكل ما يهمهما هو حلّ لغز اختفائها. ولعل هذا الرجل المختلف عن غيره يحمل مفتاح ما خفي عن الجميع.
حلّت الأمسية الموعودة... الأمسية التي عُلّقت عليها أنفاس العائلة منذ أن وعدهم يمان بقدوم ذلك الرجل.
كان خالد يراقب الساعة كل بضع دقائق وليلى تُعيد ترتيب الغرفة دون سبب.

وفي تلك اللحظة رنّ جرس الباب. تبادل أفراد العائلة نظرات سريعة ثم فتح خالد الباب، فإذا بالرجل يقف هناك بثبات غريب ونظرة لا تشبه نظرات من سبقوه.
كان طويلًا، نحيل الجسد، يتدثّر بعباءة سوداء قاتمة، وعلى رأسه عمامة صغيرة بالكاد تغطي جانبًا من شعره المائل إلى البياض. دخل الرجل بخطى هادئة لكن كل من في البيت شعر بشيء غريب. كان قليل الكلمات عبوس الوجه، ذو نظرات حادّة.
نظر مباشرةً إلى ليلى وسألها:
__ابنتكم... متى اختفت بالضبط؟ أين كانت آخر مرة رُؤيت فيها؟ وما الذي وُجد في غرفتها بعد غيابها؟
كانت نبرته تقطر حزمًا، وصوته لا يشبه أولئك الرقاة المعتادين على التهدئة.
أجابته ليلى وخالد بتفاصيل الحكاية، وهو لا يدوّن شيئًا، بل يُغمض عينيه بين الحين والآخر كأنّه يستمع إلى صوت آخر غيرهم.
بعد لحظة طويلة من الصمت، فتح عينيه وقال:
__أريد أن أرى الغرفة التي كانت تمكث فيها
دخل الغرفة، ثم وقف في وسطها تمامًا وتمتم بكلمات غريبة لا تُشبه ما سمعوه من آيات أو أدعية.
فجأة قال:
__أحتاج شيئًا من ثيابها... قطعة كانت تلبسها كثيرًا.
تبادلت ليلى النظرات مع أخيها وزوجها، ثم أحضرت له ما طلب.
تفحّص القميص بين يديه، و وضعه على الأرض، بدأ يرسم بدقة دائرة كبيرة على أرضية الغرفة، وضع القميص في مركزها.
ارتبك الجميع وامتلأت نظراتهم بالشك، لكنهم كانوا مقيّدين

بالأمل بالرغبة في الوصول إلى أي أثر عن ابنتهم.جلس الرجل داخل الدائرة، وأسند يديه إلى ركبتيه، وبدأ يتمتم مجددًا...
أمسكت ليلى بيد ابنتها بقوة، ومحمود وقف خلف والده كأنه يتهيأ للهروب.
الوقت في تلك اللحظات بدا مائعًا ثقيلًا والكل يرتقب، ثم فتح الرجل عينيه قائلًا:
__ابنتكم لم تغادر وحدها بل غادرت مع شخصٍ آخر.
انكمش الجميع إلى الأمام، كأن الكلمة سحبت الهواء من الغرفة.
تساءلوا بصوت واحد متوترٍ وحائر:
__مَن؟! من هذا الشخص؟!
رفعٍ الرجل يده ببطء، كمن يستحضر حقيقة ثقيلة ثم سكت قليلًا وكأنه يمنح الصدمة وقتها، ثم قال:
__جنّي.
تسمرت ليلى في مكانها وقد اتسعت عيناها من الذهول، وبالكاد خرج صوتها:
__ماذا؟! أيُعقل أن تكون ابنتي قد اختُطفت من قِبل الجن؟!
كما رجّح بعض الرقاة!
هزّ الرجل رأسه ببطء نافيًا، وقال بنبرة واثقة وهو يُغمض عينيه مرة أخرى:
__لا... لم تُختطف. ابنتكم... هي من ذهبت معه بإرادتها.
انطلقت شهقة أخرى من ليلى، في حين تحرك يمان من مكانه وقال بذهول:
__كيف لها أن تذهب معه بإرادتها؟ هذا شيء لا يُصدَّق! رجاءً أخبرنا ببقية التفاصيل!
ردّ الرجل وعيناه مغلقتان:
__هذا ما حدث... وهذا ما وصلني الآن.

ثم صمت لبرهة، قبل أن يضيف:
__ما أستطيع قوله لكم: ابنتكم الآن في عالمٍ ليس من عوالم البشر. لا أحد منكم يستطيع الذهاب إليها، ولا أحد يمكنه الوصول إليها... لا بالقوة، ولا بالرقية، ولا بالسؤال.
عندها، سقطت ليلى على ركبتيها، وانفجرت بالبكاء كما لم تبكِ منذ الليلة الأولى لاختفاء ابنتها. وضربت بيدها على الأرض وهي تصرخ:
__أخبرني فقط... هل هي بخير؟! هل لا تزال حيّة؟!
أجاب الرجل وهو يستعد للوقوف بسرعة، وقد تغيّرت نبرة صوته إلى القلق:
__نعم... هي بخير. لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك، والآن يجب أن أرحل في الحال.
ثم بدأ يجمع أدواته بذعر، وفرّ هاربًا دون أن ينتظر حتى يرافقه أهل البيت إلى الخارج.
لم يستطع يمان أن يترك الأمور على هذا النحو... ما سمعه لم يكن شيئًا يمكن للعقل أن يتقبله بسهولة. تبعه بخطوات متسارعة، وأوقفه عند الباب قائلًا:
__انتظر... أخبرني، ما الذي تقصده بالضبط؟ كيف ذهبت البنت؟ ولماذا؟ أرجوك، قل شيئًا آخر!
لكن الرجل التفت، وعيناه ممتلئتان بالذعر، كأن شيئًا غير مرئي يحاصر قلبه.
__لا تسألني أكثر... أنا لا أعلم شيئًا آخر. قلت لك ما وصلني، لا أكثر. لا أريد التورط، لا أريد الدخول فيما لا طاقة لي به!
اقترب منه يمان أكثر، وأمسك بذراعه محاولًا تهدئته:
__تمهّل، سأوصلك بسيارتي، لا تقلق. فقط اجلس وأخبرني، ممّ أنت خائف؟

لكن الرجل كان على وشك الانهيار. دفع الباب بيده بعنف وكاد يركض إلى الخارج:
ـــإمّا أن تعيدني الآن، أو أذهب وحدي! هيا بسرعة، لا تسألني أكثر وإلّا ستحلّ بي كارثة لم أحسب لها حسابًا.
توقف يمان لحظة مذهولًا من ردّة الفعل الغريبة... ثم لحقه في صمت، فقط ليعيده كما طلب، بدأت الهواجس تنمو في صدره كغابة مظلمة.
عمّ الانهيار أرجاء المنزل، وكأن كلمات الرجل الغامض كانت قنبلة مزّقت سكينة المكان وأسقطت قلوبهم في قاعٍ لا قرار له.
ليلى لم تقوَ على الصمود. خارت قواها تمامًا تتشبّث بحروف ولا تجد من يجيبها، وتردد بصوت متقطع:
ـــلم أعد أستطيع... ليس لديّ القوة لأتحمّل أكثر... أريد ابنتي، أريد ابنتي أن تعود سالمة... يا رب... ساعدني، خذ بيدي، لقد تعبت...
تمددت على الأريكة كجسد بلا روح وانسحب الدم من وجهها حتى غدا شاحبًا كصفحة بيضاء حزينة.
وفي أحد أركان المنزل جلست ميلينا تضمّ دميتها بقوة، باكية بصمت تحدّق في وجوه الكبار بعينيها المرتعبتين، تبحث عن مأمن من هذا الزلزال العاطفي.
اقترب محمود من والدته، محاولًا أن يكون عقل العائلة وسط هذا الطوفان من المشاعر، لكن صوته كان مرتجفًا بالغضب:
ـــأمي أرجوكِ... لا تصدقيه! إنه دجال... كاذب! لا يُعقل أن تكون إيليانا مع شيء كهذا.
أما خالد فكان يحاول، رغم ألمه أن يُبقي السفينة عائمة.
اقترب منها وهو يربّت على كتفها:
ـــاهدئي يا ليلى.. قد يكون محمود محقًّا لعلّه دجّالٌ فحسب.

__لا تدعي كلامه يهزم. لا أريدك أن تنهاري... أنا بحاجة إليكِ لنواجه هذا معًا.
لكن ليلى كانت غارقة في نوبة بكاء هستيرية، تتشبث باسم إيليانا كما لو كانت تحاول استرجاعها بنداء مكلوم:
__اعذرني يا خالد.. لم أعد أحتمل غيابها. لا أعلم إن وجدت ما يسدّ جوعها، أم أنها تتضوّر جوعًا؟ أتنام بأمان أم يطاردها الخوف كل لحظة؟ أيحتضنها البرد بلا رحمة؟... يا رب، فقط طمئنّي إن كانت بخير، واجعلها آمنة حيثما كانت...
دخل يمان ينظر إليهم بصمت غائر كجراحه. كانت ملامحه تنطق بالتعب، وجسده ينوءٍ بثقل ما رأى وسمع.
اقترب من ليلى وانحنى قليلًا:
__ليلى... هذا ليس وقت الانهيار والنحيب. انظري إلى صغيرتك الأخرى... ما ذنبها أن تتدهور حالتها بسببك؟ إلى متى ستبقى تراكِ على هذا الحال؟
ثم اتجه نحو ميلينا ورفعها بين ذراعيه:
__حبيبة خالها خائفة، صح؟
أومأت برأسها ودموعها المتلألئة في عينيها أجابت قبلها.
طبع قبلة دافئة على خدها وقال:
__لا داعي للخوف... إيليانا ستعود قريبًا لكن ماما غلبها الخو، أما أنتِ فأقوى، صح؟! لا تدعي الخوف يهزمك، بل قفي في وجهه وقولي: أنا قوية ولن تهزمني، مثلما فعلت مع ماما... وغدًا أعدكِ سأخذكِ إلى بيتي تلعبين مع إلين، وسأشتري لكما الكثير من الحلوى والمثلجات... ما رأيك؟
أومأت إيجابًا، ثم غفت بين ذراعيه، فوعده كان وسادتها الآمنة.
أعادها إلى غرفتها ثم عاد إلى حيث لا يزال الجميع مسمّرين في مقاعدهم، ينهشهم القلق.

ليلى كانت ساكنة على الأريكة، وما تزال آثار الانهيار مرسومة على وجهها.
أما محمود وخالد فكانا يجلسان جنبًا إلى جنب، أيديهما تعبث بأصابعهما بلا وعي والقلق يفتّت صبرهما.
جلس يمان بقربهم قائلًا:
__ذلك الراقي.. لم يكن عاديًا. من اللحظة التي دخل فيها شعرت بشيءٍ غريب.
ردّ محمود بحدة:
__لا زلت تسميه راقٍ؟ بالله عليك يا خال، إنه دجّال لا أكثر!
قال خالد بتنهيدة طويلة:
__أنا أيضًا شعرت بشيءٍ غير مريح... لم يبدُ كراقي شرعي. أظنه يتعامل مع الشياطين.
أومأ يمان ببطء وقال:
__لكن الغرابة الحقيقية ليست في ما قاله فقط، بل في ما حدث له بعد خروجه من غرفة إيليانا... خرج مرتجفًا، مذعورًا، وكأنه رأى كابوسًا لا يريد أن يتذكره.
نظر إليه الاثنان بدهشة صامتة، فتابع:
__طوال الطريق، لم ينطق إلا بعبارات كان يكررها: لا تسألوني، لا أستطيع قول المزيد، لا تورّطوني. لم يكن هو الشخص نفسه الذي دخل..عيونه كانت تتجنبني وصوته مهزوز، وكأن الرعب قد تملّكه.
ساد صمتٌ ثقيل في المكان، حتى إن الأنفاس بدت تُحسب.وفي قلوبهم سؤال واحد: ما الذي رآه في غرفة إيليانا... وجعله يفرّ هكذا؟

♡♡♡

تمرّ الأيام الأخيرة ثقيلة على قلبها، تُذبلها كما يُذبل العطش زهرةً نسي البستاني أن يسقيها. تحاول أن تجرّ نفسها عكس تيار قلبها، أن تهرب من التفكير بما هزّ كيانها وزعزع استقرارها...
كيف له أن يتجاوزها بهذه البساطة؟ وهي التي كانت وما زالت آيةً من الفتنة، تسكن كلَّ تفصيلةٍ من ملامحها؟
كيف له أن ينسى ما كان بينهما؟ حتى لو لم يكن الحب إلا من طرفها، فإن الذكريات كانت حقيقية... لكن الحقيقة المؤلمة أن نيوار لم يحبّها يومًا كما أحبّته هي.
في زمن بعيد، حين كانا في مطلع العمر بالكاد تخطّيا سنّ البلوغ، سايرها نيوار في مشاعرها أو ربما أوهمها بأنه يبادلها الحب. لم يدم ذلك طويلًا لأنه لم ينبع من قلبه.
ومع مرور العقود ظلّت نجمة متمسكة بتلك الشرارة القديمة كأنها تخشى أن تنطفئ آخر بقايا الوهم.رغم أن العلاقة بينهما باتت سطحية مع الوقت، فإن الجفاء ازداد حين دخلت تلك الإنسية إلى حياة نيوار أو هكذا ظنّت.
الجميع في القصر كان يعرف حبّها المجنون لنيوار، ذلك الحب الذي لم يكن طاهرًا كليًا بل أقرب إلى التملّك منه إلى المحبة الحقيقية.
كانت تدرك في أعماقها أنه لا يبادلها الشعور ذاته ومع ذلك بقيت تنتظر منه نظرة واحدة، أو لمحة اهتمام، أو شيئًا صغيرًا يُنعش قلبها الذي طال جفافه. لكن نيوار لم يفعل.
عاشت على هامش ضيق تتلقّف ما قد يتساقط من فتات اهتمامه إن وُجد.
وحتى إن بدر منه شيء، فكان أشبه بما يُمنح لأخت أو لابنة خال لا أكثر.
الجميع لاحظ ذلك والجميع فهم إلا نجمة.

كانت ترفض التصديق وترفض أن تواجه الحقيقة المؤلمة أنه لم يُحبها قط، لا في صغره ولا بعد أن اكتملت رجولته.
لطالما عُرف برجاحة عقله، يحمل على عاتقه مسؤولية مملكته. ولطالما عُرف بعبقريته الفذّة في ميدان القتال؛ رجل معارك ودهاء يخطّط بدقة ويتوقّع خُطى العدو ببراعة ويعود من كل ساحة حرب مرفوع الرأس.
يعرفه الجميع بصفاته النبيلة: العدل، والقوة، والحكمة، وبسخائه في مدّ يد العون للجنّ والإنس على السواء.
أما الحب، الرومانسية؟ فلم يكونا يومًا ضمن اهتماماته.كان قلبه مُحكم الإغلاق لا يُفتح بسهولة، وهذا ما جعلها تنتظر وتعيش على أمل هشّ يغذّيه وهم الانتظار.
كانت تقنع نفسها أن نيوار في نهاية المطاف سيفتح قلبه ذات يوم من أجل الاستقرار ومن أجل الزواج والإنجاب...
وحتماً، حتمًا سيختارها هي.
فمن غيرها كانت بقربه منذ الصغر؟ ومن غيرها حفظت ملامحه وأحلامه وكل انتصاراته؟
لكن ذلك الظن وذلك الأمل الذي بنته لبنةً لبنة انهدم دفعة واحدة حين ظهر ممسكًا بيد تلك الإنسية، مُعلنًا زواجه منها.
والأدهى والأمرّ... أنه تحدّى من أجلها كل الأعراف. وقف أمام الكبار وخُيّر بين النفي من المملكة أو التخلي عن محبوبته فاختارها دون تردّد.
اختار أن يُنفى وأن يخسر حكمه ومكانته على أن يخسر تلك الإنسية.
كانت غارقة في شرودها، تحدّق من نافذة غرفتها نحو الحديقة الكبيرة التي اعتاد نيوار التردد إليها. كم من مرة راقبته من هنا يحلّق ببصره بين الزهور، أو يرسم بخطاه أفكاره الثقيلة.
لكن منذ أن دخلت تلك الإنسية حياته أصبح حضوره في

الحديقة نادرًا. انسحب من مكان اعتادت أن تجد فيه أثره.
ظلّت عيناها معلّقتين بذلك الفراغ، شاردة، مشتعلة بنار لا تنطفئ.ثم قبضت على حافة النافذة بقوة كأنها تمسك على قلبها الموجوع وتفجرت كلماتها بغضب مكتوم تهمس بها محاولةً خنق القهر:«ما ذاك الحب الذي أودعته في قلبه، يا ابنة الإنس؟! أي سحر هذا الذي جعل عينيه لا تريان سواك؟! كيف ظهرتِ من العدم وفعلتِ بقلبه ما لم أفعله أنا منذ عقود؟!»انكسر صوتها أكثر وهي تشد على كل حرف:«لا وجهك أجمل من وجهي، ولا خِلقتكِ أبهى من خِلقتي... لا نسب، ولا قدرة، ولا عظمة! فبأي حق اختاركِ وتجاهلني أنا؟!»

وبينما كانت غارقة في شرودها وغليان مشاعرها، لمحته من بعيد.

كان يسير في الحديقة بردائه الفضفاض وخطواته الواثقة التي اعتادتها.

توقفت أنفاسها لوهلة.. اتسعت عيناها تلاحقانه بشغف ممزوج بالدهشة.

كان نيوار وحده لا أثر لتلك الإنسية برفقته.

دققت النظر مطولًا وقلبها ينبض بقوة. شدّت على ثوبها بحزم ثم وقفت أمام المرآة تتحقق من مظهرها سريعًا.

عدّلت خصلة متمردة من شعرها وأزاحت قليلًا من الغضب عن ملامحها، وأطلقت على وجهها تلك الابتسامة التي كانت دائمًا تعتقد أنها تُذيب الجليد.

ثم خرجت مسرعة يكاد الحرص والخوف من التردد يفضحانها.

اتجهت إليه تسابق نبضها، كل خطوة تجرّ معها سنينًا من الانتظار.

اقتربت منه حتى لم يعد يفصل بينهما سوى خطوات قليلة.توقف هو.. شعر بوجودها والتفت لتلقي أعينهما نظرت إليه نظرة طويلة فيها عتاب دفين، وفيها بقايا أنثى لم تنسَ ولم تغفر...قالت بصوت ثابت رغم رجفته الداخلية:

__لم أرك منذ زمن في الحديقة... ظننتك هجرتها كما هجرتنا.

لم يجبها في البداية كانت ملامحه ساكنة لا قسوة فيها ولا لين.

فأكملت تنبش في الحديث لعلها تجد ممرًا إلى قلبه:

__كنت أظنك لن تأتي اليوم أيضًا... لكنك أتيت وحدك. فهل هذا يعني أن قلبك بدأ يحنّ إلى ما كان؟ أم أنها مجرد صدفة؟

انتظرت منه ردًا لكنه لم يجب بعد.

نظر إليها نظرة طويلة عميقة ربما كان يفتش داخلها عن شيء ضاع أو انتهى.

ثم تنهد وأشاح بوجهه وقال بحسم:

__ما زلتِ لم تتغيري يا نجمة.. تبثين التلميحات بين الكلمات عن حكاية طُويت منذ قرنين.

ردت عليه وهي لا تزال تقاوم شعورها:

__أنا لا أتغير؟... ربما لأنني الوحيدة التي بقيت على حقيقتها أما الآخرون فيبدّلون أقنعتهم كما يبدّلون مواقفهم وقلوبهم وأما الحكاية القديمة.. فبعض الحكايات لا تنتهي، بل تُسكت فقط وتعيش في أعماقنا رغمًا عنا.

ظلّ يبادلها نظرات شفقة تختبئ خلف هدوئه ثم قال:

__أتمنى من أعماقي... أن تجدي من يفهمك من يُتقن حبّك، ويُداوي ما لم أستطع لمسه فيك.

ثم صمت لحظة، وهو يعيد مشهد إلياسيف حين كان يمسك بيد إيليانا ويُلبسها الخاتم رغمًا عنه، تذكّر كيف كان عاجزًا يتألم في الخفاء. ثم أضاف:.

ـــرجائي... أن يختفي أثري من قلبك وأن تُشفى ذاكرتك مني.
ووالله كنت سأعبرك كأنك لم تكوني.. لكنني تذكرت وجعًا
يشبه وجعك، وجعًا ما زال في داخلي كجرحٍ لم يندمل.
كانت كلماته مثل من يُغلق بابًا إلى الأبد.
كلامه اخترق صدرها كسكين نَزع الهواء من رئتيها. بينما
كانت عيناها معلقتين تقاومان دموع على شفى الانهيار،
تراجعت بخطى مثقلة لكن شيئًا لفت انتباهها! نظرت
بطرف عينيها فرأتها...
كانت إيليانا تقف عند طرف المدخل، تتأمّل المشهد عن
بُعد تحاول فكّ رموزه بصمت.
صرفت بصرها بعيدا عنها لكن في لحظةٍ خاطفة لمعت في
ذهنها فكرة مجنونة: أن تحتضنه بكل قوتها ثم تطعنه بكل
ألمها.
ركضت خلف نيوار تناديه بصوتٍ حاد مما جعله يلتفت
نحوها بسرعةاقتربت منه وبدون تردّد إرتمت في حضنه رغمًا
عنه تحدث نفسها «الآن... سترى كيف تطوى الحكاية وكيف
تخلف حرائقا ودمارا يشفي بعضا من غليلي»
دفعها بعيدًا عنه بدهشة ممزوجة بالغضب وهو يصرخ:
ـــما بكِ؟! أجننتِ؟!
فأجابته بضحكة هستيرية:
— وهل تركتَ لي عقلًا لأجنّ به؟.. وبما أن كلماتك تلك كانت
بمثابة توديع ودفن ما كان بيننا، كان ينقص عناقا كهذا
أليس كذلك؟ ربما كي تكتمل المسرحية!
واستدارت عنه بخطى عاصفة، تاركةً إياه في ذهولٍ لا يُحسد
عليه.
تنهّد وهو يتمتم لنفسه بمرارة:
ـــمن أشدّ الابتلاءات التي تُصيب الرجل أن تُسلَّط عليه
مشاعرُ امرأةٍ مجنونةٍ... تعيش حبًّا لا عقل فيه.

كانت إيليانا تراقب المشهد من بعيد، دون أن يُدرك نيوار أنها كانت شاهدةً على كل ما حدث.
وحين تقدّمت نحوه كانت عيناها مقطّبتين بشكٍّ خافت.لم يتنبّه لشيء، ظنّ أن حضورها كان في تلك اللحظة فقط فاستقبلها بابتسامة حبّ، قائلًا بمرح:
__لا تقولي لي إنكِ كنتِ تبحثين عني في أرجاء القصر... أم أنكِ بدأتِ تعتادين ممراته الواسعة؟
ابتسمت له لكن ابتسامتها كانت باردة... مشوبةً بشيء من الريبة، ما رأته قبل لحظاتٍ لا يزال يربكها.
بدأ يُحدّثها بحماس عن أسماء الأشجار والزهور وخصائصها، كطفلٍ يفتخر بعالمه وحديقته الملوّنة.
قاطعته قائلة:
__نيوار أعتذر، أودّ العودة إلى الجناح.
نظر إليها باستغرابٍ صامت ثم دون أن ينبس بكلمة، انتقل بها إلى جناحهما وضعها برفق على السرير وهمّ أن يخلع رداءه، لكنه توقف للحظة وهو يراقبها بصمت.
جلست تنظر أمامها دون تركيز، ربما كان شيءٌ بداخلها قد انكسر بصوتٍ لا يسمعه سواها.
قال وهو يقترب منها بابتسامةٍ دافئة:
__أتعلمين؟ رأيت زهرة البنفسج تتفتح هذا الصباح أمامي للمرة الأولى... توقفت أتأملها وراودني سؤال!
ثم رفع حاجبيه وهو يسألها ممازحًا:
__تُرى، ما الذي خطر في بالي وأنا أراها؟
انتظر منها إجابةً أو نظرةً أو حتى ابتسامةً لكنها بقيت صامتة.
ثم قال:
__ذكّرتني بكِ، تمامًا كما تبدين حين تضحكين.
لكن لا ردّ ولا إجابة منها، كأن الخطاب غير موجّه إليها.

نظر إليها بتعجّب ثم جلس إلى جانبها:
__إيليانا... هل أنتِ متعبة؟
ردّت وهي تُبعد نظرها عنه:
__ربما... أنا فقط أحتاج بعض الراحة.
أومأ لكنه لم يقتنع. اعتاد أن يرى فيها ذلك البريق، ذلك اللمعان الذي يضيء حتى صمتها.
اتجه نحو النافذة الكبيرة التي تُطلّ على منظرٍ خلّاب للحديقة يمتدّ حتى ما وراء أسوار القصر.
كان يجهل تمامًا سبب عبوس إيليانا المفاجئ؛ فصباحها كان هادئًا بل مليئًا بالحيوية، فما الذي تغيّر؟
ظنّ أن الشوق إلى أهلها قد راودها، ورجّح أنه السبب وراء شرودها وصمتها.
ما لبث أن عاد نحوها، فوجدها لا تزال جالسةً في الوضع نفسه، شاردة متيبّسة الملامح.
جلس أمامها واقترب قليلًا يتأمل قسمات وجهها محاولًا قراءة ما تخفيه وراء جفنيها المطبقين.
لكنها انتفضت فجأة ووقفت بحدّة، رفعت يدها تعترض اقترابه:
__لا تفعل ذلك... لا أريدك أن تقتحم خصوصيتي كما تشاء براعتك في قراءة الأفكار لا تستخدمها ضدي في كل لحظة!
كان صوتها حادًّا ا يحمل غضبًا لا تفسير له، كأنها تحاول صدّه عن شيء لا تريد البوح به.
تلونت عيناه فجأة باللون الأحمر الداكن، العلامة التي تعرفها جيدًا والتي لا تشير إلا لغضبه! أدركت فورًا أنها تجاوزت حدودها...نظرت إليه، فوجدت عينيه لا تزالان شاخصتين نحوها بثباتٍ مقلقٍ.
انعقد حاجباه قليلًا، لكنه لم ينبس بكلمة.

تحاشت عينيه بسرعة كمنٍ يهرب من مرآة نفسه، وركضت نحو الأريكة قرب النافذة منكّسةً رأسها نحو الأرض.. لا تملك الجرأة لتنظر إليه أو تشرح موقفها.
أما هو، فغادر تاركًا خلفه هواءً ثقيلًا ومشاعر عالقة لم تُفهم بعد.
كان مشهد نيوار ونجمة في الحديقة شرارةً أولى، كملحٍ رُشّ فوق جرح لم يلتئم بعد.
ورغم ما رواه لها عن أسرار عالمه ومملكته، ورغم ما عاشته معه من لحظاتٍ خارقة لكل منطقٍ بشري..ظلّت الغربة تعتصر قلبها بهدوءٍ قاتل.
فهي لم تألف بعدُ أرضًا لا تشبه أرضها، ولا سماءً لا تتنفس فيها أنفاس بني جلدتها. لم تعتد بعد على الحياة بين قومٍ ليسوا من جنس البشر أصلًا..يختلفون في الخِلقة والروح، في الحب والبوح، في الوجع والصبر.
شعرت أنها دخيلة في عالمٍ لا يشبهها وأن قلبها يحاول أن يتأقلم، لكنه يتعثر في كل محاولة.مهما اجتهد نيوار ليمنحها الطمأنينة، و يكون لها وطنًا بين اللامكان.
كثيرًا ما كانت تصيبها موجة حنين إلى دفء البيت إلى ظلّ أمها، إلى صوت أبيها إلى ضحكات محمود وميلينا.
كان دائمًا يعرف كيف يُخدّر ذلك الحنين وكيف يسكب على قلبها من أنسه ما يجعلها تنسى كل ألم. يُجيد الإصغاء ويُتقن احتواءها، يُذيب الخوف من نظراتها بكلمة.
ومنذ أن أصبحت زوجته، لم ترَ منه إلا اللين والرفق والحب، يُشعرها وكأن الكون اختُزل بين ذراعيه، حتى بدأت تصدّق أن بإمكانها الانتماء إلى هذا العالم رغم كل اختلافاته.
لكنه أيضًا... كان كثير الحديث عن مسؤولياته الكبرى وعن معاركه ضد الشياطين، وعن صراعاتٍ خفية من أجل استقرار مملكته،عن أعباءٍ يحملها على كتفيه منذ أزمان.
وقد أخبرها صراحةً أن الأيام التي يقضيها بجوارها الآن ليست سوى "إجازة مؤقتة"، مُنحت له من كبار الحكام لأجل زواجه

الجديد، خاصةً وأن عروسه لا تنتمي إلى عالمهم.
كانت تصغي إليه وتومئ برأسها، لكن قلبها لم يفهم كل شيء.
بل لم يفهم شيئًا من مشهد الحديقة.. تلك النظرات التي لا تُشبه نظرات القرابة وحديثًا مجهولًا، وصمتًا احتوى الكثير واختُتم بعناقٍ لم تفهمه!
كانت تلك التفاصيل الصغيرة كفيلة بأن تهزّ يقينها.
تسلّل الشك إلى قلبها كريحٍ باردة، وراحت أسئلة كثيرة تراودها:«ربما كنتُ نزوةً عابرة في حياةٍ مليئة بما لا أفهمه؟ ربما تسرّع حين اختارني، وربما أدرك متأخرًا أنني لا أناسبه فندم؟»
تراكمت الأسئلة وتكاثف الوجع، حتى أحسّت بالوحشة تتكاثر في صدرها.
شعرت بأنها عارية من الأمان في قصرٍ فخم لكنه ليس مألوفا. بات قلبها يُشبه طائرًا غريبًا أُجبر على التحليق في سماءٍ لا يعرفها.
انطوت على نفسها تحاول الاحتماء من عاصفةٍ لا تُرى، لكنها تقتلع في داخلها كل ما تبقّى من دفء.
دخلت في نوبة بكاء بين ذراعيها اللتين تحاولان تعويض غياب ذراعي أمها، وبقيت على حالها ساعاتٍ وساعات، لا تدري كم مرّ من الوقت سوى أن قلبها ظلّ يئن دون صوتٍ يُسمع.

♡♡♡

خرجت زُلفى من قاعة المصلى، حيث اعتادت نساء الجن أن يتدارسن القرآن وأحكام الدين في حلقاتٍ تضم نساء القصر بل وحتى بعض نساء المملكة من خارج القصر.

لاحظت غياب سبأ التي لم يكن من عادتها أن تتخلّف عن أي حلقة، فقلقها دفعها إلى التوجّه نحو جناحها. وبعد أن استأذنت ودخلت وجدتها جالسةً بهدوءٍ مُثقل:
__ما بالكِ يا سبأ؟ غبتِ عنّا، ولم نعتد منكِ هذا الغياب. هل ضايقكِ شيء؟
لتردّ عليها بما لم تتوقع أن تسمعه:
__ما زال موضوع نيوار يثقل صدري فداخلي لم يستطع أن يطمئن تمامًا.
نظرت إليها زُلفى بدهشة:
__لكنكِ كنتِ أول من وقف إلى جانبه، ماذا تغيّر الآن؟
لتردف سبأ:
__ما يقلقني هو السلالة يا زُلفى... ماذا لو حملت هذه الإنسية؟ سيكون جنيّا وإنسيّا وسيكون متختلفا عن أترابه وماذا لو كانت تتعامل مع السفليين؟ ماذا لو كان زواجها من نيوار وسيلة؟ وإن وصل هذا الوليد إلى يد من لا يرحم فمصيرنا كلنا قد يُهدَّد.
اتسعت عينا زُلفى من وقع الكلمات:
__من أين لكِ بكل هذا يا سبأ؟ أترهقين قلبكِ بظنونٍ لا دليل عليها؟ ما تقولينه مجرد توهّمات، وإن كانت ممكنة فهي ليست مؤكدة. لا تظلمي الفتاة بأفكارك!
هزّت رأسها ببطء وقالت:
__أتمنى أن تكون مجرد توهّمات... لكنني لم أعد أشعر بالطمأنينة.
نظرت إليها زُلفى نظرة عتاب:
__ألا ترين التناقض؟ كنتِ تقولين أنها زوجة ابنكِ، وفلذة كبدكِ وأنكِ ستحمينها حتى من نفسكِ... فما الذي جعلكِ تنقلبين بهذا الشكل؟ أهي نجمة؟

لم تُنكر سبأ والتزمت الصمت. زفرت زُلفى بضيق:
__كنتُ أعلم أن نجمة تلعب بأفكارك، رغم أنكِ تعلمين جيدًا أنها ترفض وجود إيليانا لسببٍ واحد... كفّي عن تصديقها يا سبأ. أنتِ أدرى بقلبها، متيمةً به مهما أنكرت ومهما ادّعت النسيان!
لتقول سبأ:
__لا يا زُلفى... نجمة لم تُسيء إليها لا تصريحًا ولا تلميحًا، غير أنها أكدت لي أنها طوت مشاعرها منذ إعلان الزواج.
فقط حذّرتني من التسرّع في الثقة المطلقة، والغريب يظل غريبًا مهما تبدّلت القوانين. ضف إلى ذلك أن شعورًا يراودني منذ ذلك اليوم الذي أُعلن فيه الزواج، فما زلتُ لم أستوعب كيف تمت الموافقة بهذه السرعة على ارتباطٍ كهذا.

♡♡♡

كانت شمس أرض الجن قد غربت وأسدل الظلام ستاره الحالك فوق أرجاء المملكة، فيما نشطت الحركة داخل القصر وبين ممراته الفخمة التي تنساب فيها الأقمشة الحريرية من السقف كالشلالات وتتلألأ الزخارف تحت ضوء الأقباس.
في عمق أحد الأجنحة جلست نجمة أمام مرآتها، لا لتُصلح زينتها كما اعتادت بل لتحدّق في وجهها مطولًا..وجه تعرفه جيدًا لكن الليلة بدا لها غريبًا، فيه ملامح امرأة أخرى وُلدت من الخيبة والخذلان. كانت تستمع لصوتٍ لا يسمعه سواها صوتٌ ينبض في أعماقها، يختمر فيه غضبٌ صامت كالجمر تحت الرماد.
مرّرت أصابعها على رقبتها وهي تقول: «أعدكِ يا ابنة الإنس لن يطول مقامكِ هنا. ستغادرين هذا العالم عاجلًا أم آجلًا، طوعًا أو كرهًا، لا فرق لدي. لكن ما أنا واثقة منه أن وجودك

لن يكتمل بسلام؛ إما أن أُقصيكِ من طريقي، وإما أن أُسقطكِ حتى لو دفعتُ حياتي ثمنًا لذلك.»
وقفت أمام النافذة العالية التي تُطلّ على الحديقة ذاتها، وابتسمت بسخرية وهي تستعيد مشهد الصباح... ردّ نيوار البارد صفَع قلبها دون رحمة. كلماته الجافة صبّت صقيعًا في أعماقها وتجاهله لألمها وتحدّثه بكبرياءٍ جارح، أشعل فتيل الحرب بصمتٍ لن يطول سكونه.
«جسدها البشري الذي لم يعتد حرارة الجن لن يصمد طويلًا.»
تقدّمت نحو خزانةٍ ضخمةٍ بزخارف نحاسية، وأخرجت منها صندوقًا صغيرًا. فتحته ببطء وكان في داخله خرزةٌ سوداء وقطعةُ حجرٍ رماديّ محفورٌ عليها نقشٌ يومض.
همست وهي تغلقه برفق: «ليس بعد... فالضعف الذي يخنقها الآن سأرعاه بعناية».

♡♡♡

كان نيوار قد غاب عن إيليانا منذ الصباح... لا لِغضبٍ منها كما ظنّت بل بسبب مهمة طارئة اضطرّته للرحيل فجأة.
عاد إليها أخيرًا، ليلمحها من بعيد متكوّرةً في الزاوية، نائمةً على الأرض بدلًا من السرير. اقترب منها بسرعة ووجعٌ يعتصر قلبه.
كانت غارقةً في نومٍ ثقيل وجهها شاحب وعيناها المتورّمتان من البكاء تفضحان ما مرّت به في غيابه.
أحسّ بسكين غُرزت في صدره... لقد تركها تتآكل قلقًا دون قصد، دون أن يعرف كم أوجعها ذلك الغياب.
فتحت عينيها ببطء، لتجد نفسها بين ذراعيه وهو ينقلها إلى السرير... أراح جسدها بلطف، واستلقى إلى جوارها.
مرّر أنامله على خدّها برقة، لكنها ما زالت تأبى أن تلتقي عيناها بعينيه.

حدّثها بخفوت:
__من الذي فعل بكِ هذا؟ أهو الحزن أم الاشتياق إلى الديار؟
رفعت عينيها نحوه وإذا بدموعها تهزمها مرةً أخرى.
__ششش... تعلمين أنني لا أحب رؤية دموعك. هذه الطاقة التي تصدرينها حين تبكين.. تُضعفني وأنا لا يليق بي الضعف أليس كذلك؟
رفعت عينيها إليه أخيرًا وابتسامةٌ تسلّلت إلى شفتيها، كسرٍّ صغيرٍ تمنحه له دون مقاومة.
ثم قال وهو يثبّت نظره في عينيها أكثر:
__أنتِ تعلمين أني لا أتطفل على أفكار من يعتبرون ذلك انتهاكًا لخصوصيتهم... لذا لا أملك إلا أن أجهل ما مرّ عليكِ ما لم تخبريني أنتِ. فرجاءً حدّثيني ما الذي أزعجكِ اليوم؟ ما الذي كسركِ إلى هذا الحد؟ يريحني أن أسمع منكِ، لا أن أُخمّن.
سألته بصوتٍ حمل عتابًا واشتياقًا:
__لماذا غبت عني كل هذا الوقت؟
_لأنني كنتُ في السجن.
شهقت بدهشة:
__سجن! أيُّ سجن لم أفهم؟
_سجن طاقتكِ... قلقكِ وانزعاجكِ سجناني بعيدًا. لم أستطع الخروج من ذلك الأسر حتى هدأتِ ونمتِ.
انفرجت شفتاها، لكنها أدركت من طريقته أن القصة مجرد مزاح، فرفعت صوتها بعفوية:
__نيوار... أرجوك، أريد الحقيقة. أين اختفيت كل هذا الوقت؟
سكنت ملامحه قليلًا ثم قال بجدّية:
_لن أستطيع أن أخبركِ، إلا إذا أخبرتِني أنتِ أولًا... ما الذي أزعجكِ اليوم؟

__هل هذا شرط؟
_نعم، اعتبريه شرطًا.
ضيّقت عينيها قليلًا وقالت بمزاحٍ ممزوجٍ بشكوى:
__إذًا أصبحتَ تعاملني بأسلوب النِدّ يا نيوار؟
_من صفاتي كجنٍّ محارب، لا تنسي.
__فقط اشتقتُ إلى أهلي وهذا ما أتعبني. ثم... أنت الآن مع إنسية ومزاجها يتغيّر بين لحظةٍ وأخرى. لا تعاملني كما تعامل نساء الجن، فأنا مختلفة.
ثم تابعت بشيءٍ من الحدّة:
__وإن كان ذلك يزعجك فربما الأفضل... أن تعيدني إلى أهلي.
ظلّ يحدّق فيها دون أن يرد، واختفت ابتسامته الهادئة.
قالت بارتباك:
__نيوار... لا تنظر إليّ هكذا. لا أحتمل هذا الأسلوب.
حكّ ذقنه ببطء وعيناه معلّقتان بها، يزن كلماتها قبل أن يجيب:
_إذًا لن تخبريني بما أزعجك!.. لكن ما الذي رأيتِه حتى ظننتِ أنني لم أعد أريدك؟ أو أنني أفكر في إعادتك إلى عالمك؟
تساءلت بحيرة: «كيف علم؟!»نعم، هذا ما كانت تخشاه لكنها لم تتوقع أن يلتقطه من كلماتها فقط.
لتقول بارتباك:
__لا... ليس الأمر هكذا. لكنّي... أريد العودة إلى أهلي، هذا فقط.
_إيليانا... ارتباطنا ليس مجرّد نزوة أو مزحة زواجنا كان عهدًا وكان من شروطه ألّا تعودي إلى عالمك قبل أن تمر سنة كاملة. ولم يمضِ حتى شهر، أفهم اشتياقكِ إلى أهلك وأقدّره لكن القرار حُسم، وأنتِ وافقتِ عليه أمام كبار قومنا.
لتقول وهي مطأطئة الرأس:

__حسنًا... أعتذر.
ثم رفعت عينيها إليه مجددًا، وسألت بصدق:
__لكنك لم تخبرني بعد عن سبب غيابك، الآن بعد أن عرفتَ سبب انزعاجي، ألم يحن الوقت!
نظر إليها طويلًا:
_ربما لم يكن من المفترض أن تعرفي... لكن بما أن الأمر يتعلق بعائلتك فسأخبرك وأرجو ألا تنزعجي أو تحزني، لأن الحزن لن يفيدك ولن يفيدهم.
اتسعت عيناها بدهشة وقلق:
__ما الذي تقصده؟! هل حدث لهم مكروه؟
_اطمئني، لم يصبهم أذى.. لكن ما حدث لم يكن بسيطًا. الجنّ العُمّار الذين أوصيتهم بحماية بيتك وأهلك قاموا بدورهم على أكمل وجه، لكن صباح اليوم بينما كنتِ غاضبة، وصلني نداءٌ مستعجل من كبيرهم. لم أترددوذهبت فورًا.
نظرت إليه بقلق، ليواصل:
__عائلتكِ... استدعوا ساحرًا إلى البيت وذلك الساحر أجرى طقوسًا سوداء واستدعى جنًّا سفليين من الكفرة المؤذين خُدّام السحر والشعوذة. هذا الأمر سبّب اضطرابًا شديدًا داخل البيت. العمّار، رفضوا هذا التدخل فهم مسلمون ولا يرضون أن يُخترق أمن أهل الدار.
وضعت يدها على صدرها، تكاد لا تصدّق لكنه أكمل:
_الأمر الأخطر أن أحد شياطين الساحر استطاع، من خلال طقوسه أن يكشف بعضًا من غيابك وعلم أنكِ في عالمنا. هذا ما أربك أهلك وأدخلهم في صدمة. كبير العُمّار تدخّل وتم طرد الساحر وتحرير المكان من طاقته المظلمة،إلاّ أن المعركة لم تنتهِ هناك... شياطينه دخلوا في صدامٍ عنيف مع العُمّار، وكنتُ مضطرًا إلى التدخّل شخصيًا وقتلت عددًا كبيرًا من خُدّامه.

جلست مذهولة، تتأوه من هول ما سمعت ثم لم تتمالك نفسها وأجهشت بالبكاء.
مسح دموعها:
_شششش... أنا هنا يا قلبي أعدكِ أن لا شيء سيؤذيهم. قيدت المنزل بحمايةٍ خاصة، ولن يمسّهم سوء... اهدئي.
أسندت رأسها إلى رقبته تتدفأ بحرارته. كانت رائحته دائمًا ما تجد سبيلا إلى تهدئتها ولملمة شتاتها في لحظة.
ثم بدأ يرتّل آياتٍ من القرآن بصوته الشجي، كما اعتاد أن يفعل عندما كان يزورها في عالمها. صوته يملأ الفراغ من حولها دون أن يُزعج السكون.
وحين أنهى تلاوته ساد الهدوء قبل أن يقول:
_ما رأيكِ أن أنتقل بكِ إلى مكانٍ آخر؟
لترد وهي تزداد التصاقًا به:
__ أرجوك، لا أريد شيئًا الآن سوى أن تبقى بجانبي.
ابتسم وهو يحتضنها أكثر.

_ سأبقى.. لكن حين ننتقل سآخذكِ إلى مكانٍ أجمل من هذا!
لم تمر لحظات حتى انتقل بها...
وجدت نفسها في مكانٍ أقل ما يُقال عنه إنه رائع؛ بحيرةٌ تصبّ فيها شلالات تنحدر من ارتفاعٍ متوسط بثباتٍ مستمر تصبّ مياهها مباشرة في البحيرة الهادئة. كان الماء يضرب السطح بقوةٍ ناعمة ويرتدّ منه رذاذ يتناثر في الهواء.
ومعه يرتفع ضبابٌ باردٌ ناعم يتصاعد من سطح المياه بتدرّج. لم يكن الضباب كثيفا، لكنه كان كافيًا ليُضفي على المشهد لمسة من الغموض والخصوصية. ينساب بين الأشجار القريبة ويتجمع على سطح الصخور حول البحيرة.
الهواء نقيًا والمكان هادئًا إلا من صوت المياه المتدفقة.

بدأت العتمة تتلاشى لتتحوّل تدريجيًا نحو زرقةٍ ناعمة.
أتى نيوار بسجادةٍ مزينةٍ بنقوش غريبة إلى حافة الصخر المطلّ على المنظر البهيج، ووضع كوبين من القهوة الساخنة ومدّ يده نحوها بإيماءة صامتة فجلست إلى جواره، تشرب قهوتها ببطء تحاول أن تلتقط أنفاسها وتتأمل المكان الذي شدّها بعمق، وجعلها تغرق في تفاصيله دون حاجة إلى الكلام. أمّا هو فكان بجانبها صامتًا مثلها، يشعر أن هذا الوقت يخصّهما وحدهما.
قاطع سكون اللحظة وهو يمرّر ذراعه برفق على كتفيها ورقبتها، ثم قرّب جبينه من جبينها:
– هل أعجبكِ المكان؟ أهدأتِ قليلًا من الضغوط التي أثقلتكِ في الساعات الأخيرة؟
اكتفت بابتسامةٍ صامتة، لكن قلبها لم يصمت فقد تسلّل إلى ذاكرتها مشهد الحديقة... حين رأته يحتضن "نجمة". كانت تودّ أن تسأله، أن تعرف ما الذي دار بينهما لكنها لم تملك الجرأة لمواجهته، فاختارت أن تُخفي السؤال خلف ابتسامةٍ مرحة وقالت:
__نعم... المكان هنا ساحر، حتى أكثر منك.
ضحك بخفةٍ وهو يرفع حاجبه مازحًا:
– أكثر منّي؟!
__أجل، سحر المكان غلبك هذه المرّة.
أومأت برأسها تأكيدًا ثم ارتشفت من قهوتها، قبل أن تضيف بلهجةٍ أكثر جدية:
__قلتَ أن زيارتي لأهلي ممنوعة، لكن يجب أن تكون أنت من يبادر. اذهب إليهم، طمئنّي عنهم وأرجوك أجبني بصراحة دون مراوغة عن حالهم.
تأمّل وجهها للحظة، ثم أومأ برأسه:
– حسنًا، أعدك.

سكتت لوهلة ثم غيّرت نبرة الحديث وهي تحاول إخفاء ما يدور بداخلها، متظاهرة بالخفة:
__نيوار... بما أنك عشت قرونًا، يعني حتى قبل أن يولد جدي وجدّه... أيعقل أنك لم تحب أبدًا؟ ولا مرّة واحدة قبل أن أظهر في حياتك؟
ضحك بنبرةٍ نصف ساخرة، ثم نظر إليها مبتسمًا، يتأمل ملامحها لوقتٍ وجيز دون أن يعلّق.
أمسكت رأسها بيديها وقالت وهي تهزّ رأسها نفيًا:
__لا، لا، لا... لا تفعلها! أنت الآن تحاول أن تعرف ما يدور في عقلي، أليس كذلك؟
ليجيبها محتضنًا إياها بعينيه:
– أمّا الغيرة من ذكرياتي فدعيها وشأنها، وأخبريها أن كلّ ما قبلكِ كان عبورًا باهتًا، وأنتِ وحدكِ من لكِ في قلبي مستقرّ ومقام لا يُزاح، أمّا ما قبلكِ وما بعدكِ فكلّه سراب.
__وهل هناك بعدي؟
نظر إليها قائلًا:
– أتحلّلين كلَّ شيء أنتِ!
__كلّ شيء.
– لكن الأمر مرهق!
__جدًا.
– إذن تخلّصي منه.
__سأحاول لئِلا يظهِر للعلن.
ثم مال نحوها قليلًا هامسًا:
– والآن... هل تأذنين لي أن نعود إلى جناحنا؟
نظرت وقد بدت عليها علامات الرفض:
__لا... لا أريد العودة. لم تمرّ سوى دقائق في هذا المكان الساحر، ولم أستمتع به بعد.

أمسك بيديها وشدّ عليهما، ثم قال وهو يحدّق في عينيها:
– اعذريني هذه المرّة... لكن أعدكِ أن أعود بكِ إلى هذا المكان في وقتٍ لاحق.
ضحكت بخجل وأطرقت بعينيها دون أن ترد، فما كان منه إلا أن احتواها بذراعيه وانتقل بها عائدًا على جناح السرعة.

♡♡♡

في تلك الأثناء...
انعقد اجتماعٌ طارئ في قاعة المجلس الكبرى، حيث جلس كبار القادة والملوك على طاولةٍ دائرية مزخرفة بشعارات القبائل. دخل رسولٌ مسرعًا، يضع على كتفيه وشاحًا أزرق يرمز لقبيلته ثم انحنى أمام المجلس وهو يقول بصوتٍ مضطرب:
__قبيلة الأزرق تستنجد! الظلاميون اقتحموا الحدود، وتكاد جبهاتنا أن تنهار... نرجو منكم الدعم العاجل، نحتاج قادةً محنّكين أقوياء يعرفون دهاليز الحرب، وإلا ستُباد القبيلة!
ارتفع صوت رئيس المجلس بحسم:
__إذا سقطت قبيلة الأزرق، فإن الخطر القادم لن يستثنينا. الحرب يجب أن تُكبح الآن، إما بهدنةٍ حاسمة أو بحدّ السيف.
همهماتٌ تعالت في القاعة ثم خيّم الصمت من جديد حين رفع كبير الملوك يده، وعيناه تلمعان بحكمة مئات القرون، وقال بصوتٍ جهوري:
__لا مفرّ من إرسال جيش، لكن الجيش بلا قائدٍ يحمل النبض لا يُجدي.
نظر إليه أعضاء المجلس بدهشة وصمت، قبل أن يوافقوا بالإجماع فصوت الحرب كان يقترب، والوقت يضيق.
وقف أحدهم ليقول:

__لكن قائد الجيوش لا يزال في عزلة زواج؟ من المفترض أن يُعزل عن كل المهام حسب أعرافنا حتى تنقضي الفترة المحددة!
هزّ الملك الأكبر رأسه بثقل وقال:
__لكن الوضع مختلف، الحرب لا تنتظر وسلالتنا لم تعرف التراجع حين تُنادى. سيُستدعى فورًا.

♡♡♡

كانت تمشّط شعرها الأثيري ببطء أمام مرآتها الكريستالية تراقب انعكاس ملامحها الشاردة. لم تكن تلك النظرات حزينة فحسب بل كانت تنضح بشرٍّ يتخمّر بصمت.
انتصبت واقفة و خرجت بخطى واثقة، مرّت بالأروقة الجانبية المفضية إلى جناح نيوار وزوجته. لم تكترث في بادئ الأمر، لكنها توقفت حين سمعت ضحكةً ناعمة تسرّبت من خلف الباب المغلق.
عادت بخفة وقلبها ينبض بعنف، ووقفت خلف الباب تتنصّت لتسمع صوتيهما وهما يضحكان ويتمازحان، كان يحدّثها بطريقة لم تتوقع يومًا أن تصدر منه، مما أوقد لهيبًا في قلبها.
وفجأة شعرت أن نيوار سيفتح الباب، فاختبأت بسرعة خلف أحد الأعمدة الضخمة تكتم أنفاسها وتضغط على صدرها خشية أن تُفتضح.
خرج وهو يتلفت حوله، وقد بدا عليه الشك، فلحقت به إيليانا وعانقته من الخلف قائلة:
__أرجوك، لا تتأخر... قلبي لا يهدأ دون أخبارهم.
نظر حوله مجددًا ثم أمسك بيدها وأدخلها إلى داخل الغرفة بسرعة وأغلق الباب خلفه بإحكام. نظر إليها بعينٍ حازمة:
__قلتُ لكِ، لا تتكلّمي دون حذر! هذا القصر لا يؤتمن...

في الجدران عيون وفي الزوايا آذان. لا تبوحي بشيءٍ دون أن تكوني محصنة.
ارتبكت، وتجمّدت الكلمات على لسانها.
ليتابع محذرًا:
__اسمعيني جيدًا... سأذهب لأتفقد أحوال عائلتك كما اتفقنا وأعود إليكِ بأخبارٍ تُسكّن قلقك. لكن أكرر لا تطيلي الحديث مع نساء القصر، لا الخادمات ولا غيرهن. أفهمتِ؟
هزّت رأسها بالموافقة والخوف لا يزال عالقًا في عينيها.
قبّل جبهتها بهدوء وقال:
__إن احتجتِ شيئًا، فتوجّهي إلى والدتي فقط. أما الآن فأستودعكِ اللّٰه.
وقف خارج غرفته يتفحّص الممرات بعينيه الحادتين. فرائحة التجسس لا تخطئه... لقد كان أحدهم هنا وبقايا أثر طاقةٍ غامضة في الهواء تؤكد له ذلك.
أغمض عينيه للحظة يستشعر المكان.
لكن قبل أن يبدأ التتبّع الكامل جاءه نداءٌ مستعجل من مجلس الشيوخ، فتلاشى عن المكان بسرعة متوجهًا نحو الاجتماع الطارئ.

♡♡♡

في القاعة العليا سادت همهمات متوترة... قبل أن يضرب كبير الشيوخ عصاه الأرض:
__الصمت! لا مجال للهلع، بل للحسم.
ثم التفت بنظره نحو المدخل الكبير، حيث كان قد شعر بطاقةٍ مألوفة تقترب من القاعة... لتُفتح البوابة ويظهر نيوار بهيبته المعهودة يلفّه رداء الليل الملكي، وعيناه تلمعان بنورٍ لم يُخْفِتْه التعب ولا الحب ولا العزلة.

جلس بوقار في مكانه المعتاد وعيناه تتفحّصان الوجوه. أدرك فورًا حجم الخطر. أُخبِر بالأمر الطارئ و لن يظل في عزلته طويلًا، بينما المملكة وقبائلها تحت الحرب.
أغمض عينيه للحظة فمرت أمامه صور إيليانا... كان قلبه مشغولًا بها لكن دماءه النارية لم تُخلق للراحة.
ثم استقام واقفًا، ولفّ عباءته حوله وحدّق في عيونهم جميعًا قائلا:
__لا يجب أن نضيع الوقت أكثر. سأبدأ فورًا بتقسيم صفوف الجنود وتجهيز القادة.

♡♡♡

مرت الساعات ثقيلة على قلب إيليانا، كأن الوقت في ذلك الجناح الراقي قد توقّف وكل ما فيه يوشك أن يذبل من الانتظار.
جلست قرب النافذة العالية، تحدّق في الأفق الرمادي حيث لا طيف ولا ظلّ لنيوار؛ لا خبر جاء، ولا وعد عاد. كانت تظن بل كانت على يقين أنه سيعود سريعًا بعد رحيله ليُخبرها بأحوال أهلها، لكنها انتظرت وانتظرت ولم يعد.
باتت خُطا الوصيفات تتردّد في ممرات الجناح؛ يدخلن بهدوء، يقضين حوائجها يهمسن بالتحية ثم يخرجن كما دخلن، دون أن تجرؤ إحداهن على البقاء طويلًا.
وكلما همّت أن تسأل إحداهن عن نيوار أو عن ما يدور خلف جدران هذا القصر، تذكّرت تحذيره الأخير: "لا تُطِلي الحديث مع نساء القصر... لا الخادمات ولا غيرهن." فكانت تبتلع فضولها وتكتم تساؤلاتها.
في خضم سكونها وبين تنهيدة وأخرى، دخلت كمن عاش في الضوء أكثر مما يليق بجنية. ملابسها مرتبة ووجهها يشعّ طيبة لا تُشبه باقي خادمات القصر.

اقتربت بخفة وخاطبتها بلطفٍ بالغ:
— سيدتي... هل تحتاجين خدمة؟
هزّت إيليانا رأسها:
__شكرًا، لا أريد.
ثم تفاجأت أن هذه الخادمة لم تغادر، بل اقتربت وجلست بهدوء عند طرف الأريكة وكأنها لا تخشى مخالفة الأعراف.
قالت بنبرة دافئة:
__أعلم أنكِ تنتظرينه وكل من في القصر يعلم ذلك، لكن...
سكتت قليلًا قبل أن تواصل، في حين ركزت إيليانا عليها بكل حواسها:
__أحيانًا يا سيدتي لا نُختار لننتظر عبثًا... بل لنكون وسط الغموض الذي يُخفي الحقيقة.
سألتها إيليانا بحذر:
__من أنتِ حقًا؟ ولِمَ لستِ كالبقية؟
ابتسمت الجنية ثم قالت:
__أنا... مجرد خادمة برتبة وصيفة، إلا أنني أحطتُ بما لم تحيطي به، ولا شيء يحدث هنا عبثًا.
ارتبكت إيليانا وشعرت بقلبها يخفق أسرع، هل كانت هذه الجنية البريئة كما تبدو؟ أم أن شيئًا ما خلف طيبتها يُخبئ سرًا أعمق؟
وضعت يدها برفق على يد إيليانا وقالت:
__يا سيدتي... أعلم أن قلبك يختنق من الانتظار وأن الغياب يحاصر روحك بأسئلته، لكن ثقي... الأمير لم يغب عنكِ بل غاب من أجلك. هو يُحارب الآن لأجلك ولأجلنا جميعًا، ولأجل أن يظلّ عالمنا آمنًا.
صمتت لحظة ثم أضافت:
__هناك قلوب حين تحب تُقاتل بصمت. وأنا رأيت في عينيه ما يكفي لأقول لكِ بثقة: هو سيعود ويمسح عنكِ كل وجع

هذه الساعات.
مسحت على كتفها بحنان:
__لا تجزعي يا إيليانا هذا القصر قد يبدو غريبًا لكنكِ فيه بين أيادٍ تحرسك جيدًا. الملكة سبأ لم تسمح يومًا أن تُؤذى زهرة في حديقتها، فكيف بابنة الإنس التي اختارها قلب ابنها؟
ختمت كلامها بهمسة دافئة:
__إن شعرتِ بالوحشة والغربة فأمسكي بيدي، سأبقى قريبة حتى يعود من يسكن قلبك، ويهدأ كل شيء.
لم تفهم إيليانا تمامًا كل ما قالته الجنية فكلماتها كانت مغموسة بلغةٍ ناعمة، فيها من السكينة ما يُهدّئ الروع، جعلت قلبها يسترخي لأول مرة منذ ساعات. أخيرًا ابتسمت إيليانا وخاطبتها بامتنان:
__تشرفتُ بمعرفتكِ يا...؟
ردّت الجنية بلطف وهي تضع خصلة من شعرها خلف أذنها:
__اسمي نيلا، ويسعدني أن أكون في خدمتك... ليس كخادمة فقط بل كرفيقة.
شعرت أن الغربة التي تخنقها في هذا القصر بدأت تتراجع قليلًا... وجود نيلا بدا مختلفًا عن كل من حولها وكأن الله أرسلها لتكون نسمة سلام في قلب هذا القلق المتكاثف.
ثم سألتها برقة:
__هل تأذنين لي أن أُحضّر لكِ شرابًا؟
ردّت إيليانا بفرح:
__ابقَي... لا أريد أن أبقى وحدي أكثر.
جلست نيلا إلى جانبها، بينما كانت رياحٌ غامضة تمر فوق ممرات القصر، تُعلن أن شيئًا كبيرًا على وشك أن يبدأ.

في الجناح الملكي المهيب، جلست الملكة سبأ على كرسيها المعتاد، حتى دخل الملك الأحمر بخطى ثقيلة، وكأنها تحمل في طيّاتها نبأً لا يُقال بسهولة.
رفعت رأسها إليه وابتسمت:
__عدتَ مبكرًا من المجلس هذه الليلة.
__نيوار غادر.
رفّت رموشها بدهشة:
__غادر إلى أين؟
أجاب بهدوء:
__إلى الجبهة. استُدعي لقيادة الجيوش على حدود قبيلة الأزرق...
لم تُظهر خوفًا فهي تعوّدت على ذهابه إلى القتال ثم عودته. كانت تثق بقوّته، لكن هذه المرّة... كان هناك شيء مختلف لم تردّ، ظلت تحدّق إليه بينما جلس قبالتها وقال بحزم:
__الأمر عاجل... لم يكن هناك متّسع ليودّع زوجته. اجتمع المجلس وأصدر القرار في لحظته. هو يعلم ما الذي عليه فعله لكنه أيضًا ترك شيئًا خلفه.
سكت لحظة قبل أن يقول:
__ترك لنا مسؤولية يجب علينا الاعتناء بها في غيابه.
نظرت سبأ إليه بقلق متداخل:
__الإنسية!
أومأ الملك قائلاً:
__لم يُخبرها برحيله، لكنه أوصاني أن أرسل لكِ وأن تكوني أنتِ من يُخبرها.
تلمّست ثِقل المهمة التي أُوكلت إليها. لم يكن مجرد خبر بل حملٌ عاطفيّ ثقيل عليها، فهي لا تزال لم تعتد على ظروف الحياة. ثم أردف الملك:

__أخبريها أن الحرب لا تنتظر، وزمن القلوب ليس دائمًا زمن الملوك.

♡♡♡

كانت إيليانا تعبث بأطراف ثوبها بشرود، ونيلا تجلس بالقرب منها تحاول التخفيف من ثقل الانتظار، لكن دوى صوت الطرق على الباب فجأة، طرقٌ هادئ ثقيل لا يُشبه طرق الخادمات.
ارتبكت نيلا على الفور، نظرت نحو الباب ثم إلى إيليانا وهمست بسرعة:
— يجب أن أنصرف.
وقبل أن ترد عليها إيليانا كانت قد انزلقت خارج الغرفة بخفّة، كمن لا يريد ترك أثر خلفه.
وقفت سبأ برهبة حضورها الملكي وعيناها تتأملان الغرفة بنظرة متفحّصة. وما إن وقع نظرها على الباب الجانبي الذي خرجت منه نيلا حتى قطبت حاجبيها قليلًا... لم يفُتها ارتباك الوصيفة.
لكن إيليانا سارعت بابتسامة باهتة لتقول:
— كانت هنا لتقضي بعض حاجاتي فقط.
لم تُعلّق سبأ، جلست أمامها وقالت بنبرة دافئة تخبئ وراءها شيئًا ما:
— وكيف حالكِ اليوم؟
— أنتظر نيوار... حسب وعده لي كان سيعود قريبًا.
أغمضت سبأ عينيها لثوانٍ، وكأنها تبحث عن الجملة التي تُخبر بها دون أن تؤلم:
— نيوار... غادر.
اتسعت عينا إيليانا بدهشة، فقلبها لم يفهم المعنى مباشرة.

— غادر؟ أعلم... لكنني أنتظر عودته عمّا قريب فقد ذهب إلى عالمي ليطمئنني على أهلي.
حدّقت سبأ فيها مستغربة:
__لا... يبدو أنكِ لم تفهمي مقصدي.
أمسكت بكفّها برفق، ثم تابعت:
— استُدعي نيوار على عجل. لم يكن بوسعه الانتظار أو حتى وداعكِ... ولم يذهب إلى أهلك، بل ذهب ليخوض حربًا.
تجمّدت الكلمات على شفتي إيليانا، ولم تستطع التفوّه بشيء. لم تعرف ماذا تشعر... أهي صدمة؟ أم خوف؟ أم خيبة؟
لكن سبأ شدّت على يدها أكثر:
— ما كان ليرحل دون أن يطمئنكِ، لولا أن الموقف لا يحتمل دقيقة إضافية. لكن اطمئني، يبدو أنكِ اتفقتِ معه على زيارة أهلك، صحيح؟
هزّت رأسها إيجابًا، وامتلأت عيناها بالدموع، لكن صوتها خرج خافتًا مرتجفًا:
— كان يجب أن أراه... أن أودّعه...
— اطمئني... سترينه ثانية. وأما عن أهلك، فسأرسل أحد الحراس ليأتيكِ بأخبارهم بدلًا عنه. لكن عليكِ أن تتهيئي وتتقبّلي حياته، فهذه قوانين عالمه، مختلفة تمامًا عن عالم الإنس؛ فنيوار ذلك الأمير وابن الملك، لا تفارقه مشاغله وأعباؤه الثقيلة. وغيابه المتكرر ركيزة من ركائز حياته، والحروب هنا لا تعرف انتهاءً.
أثقلت اللحظات صمتًا يثقل كاهلها، حتى طُرق الباب مجددًا فرفعت بصرها نحو إيليانا مستفسرةً بعينين تنطقان بالفضول:
__هل تنتظرين أحدًا؟
__لا.
أذنت للطارق بالدخول، وكانت خادمة تحمل بين يديها رسالةً ورقية.__هذه لكِ سيدتي إيليانا.

استغربت سبأ، لكن سرعان ما مدت يدها لتستلم الرسالة، فتحتها بعجلة، وعيناها تلتقطان الخط العربي الأصيل، ظنًّا منها أن المرسل هو نيوار نفسه، لكن ما قرأته أهدى لها طمأنينة غير متوقعة:

«وبعد أن أُبلغكم السلام: لقد توجهت إلى أهلك بناءً على تكليف الأمير نيوار بالذهاب نيابةً عنه، إذ حالت الحرب الطارئة دون تمكنه من الذهاب بنفسه، فغادر مسرعًا إلى ساحات القتال.

وقد نفذتُ وعده لكِ على أكمل وجه، وأطمئنكِ بأن أحوال أهلك بخير وسلام، فلا داعي للقلق عليهم.

أتمنى أن تكوني في أفضل حال دائمًا وإن احتجتِ إلى أي شيء فلا تترددي في مراسلتي أو طلبه مني، مع خالص الود والوفاء: سيف الله الحارق»

ارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة فقد كانت هذه الرسالة بمثابة أمل يروي ظمأ قلبها، خبرٌ من عالم بعيد يحمل ودًّا وصداقةً من قلب نيوار رغم بعده وانشغاله.

♡♡♡

عادت نيلا إلى جناح نجمة بخطواتٍ محسوبة، تخشى أن يتسرّب أي ارتباك من بين ثنايا حضورها. أغلقت الباب خلفها بهدوء ثم تقدّمت بخفة حتى وقفت أمام سيدتها وانحنت قليلًا:

– اطمئني مولاتي... اللقاء تم على خير. استطعت أن أعزف على أوتارها الحسّاسة وكما توقّعت بدأت تثق بي من اللحظة الأولى.

كانت عينا نجمة تلمعان بوميض فضولي مموّه ببرودٍ مصطنع ابتسامة مكر:

– جيّد... هذا يسرّني. أريد أن أعرف عنها أكثر لعلّي أجد سرّ ذلك الجاذب الخفي الذي جعله يلتفت إليها دون سواها.

ترددت نيلا ثم أجابت بحذر، تخشى أن يلتقط صوتها أي نبرة غير مواتية:
__ حسب ما بدا لي يا سيدتي، فإن الأمير يميل إلى أن يكون الحامي والحارس وهي... مرهفة المشاعر، طيبة القلب، وهذا ربما ما أيقظ فيه ذلك الشعور.
انكمشت ابتسامة نجمة وانعقد حاجباها بنظرة حادة تنفذ إلى قلب نيلا:
__أتقصدين أنها أطيب مني؟ ولهذا أحبها بدلًا عني؟
تسارعت أنفاس نيلا وأسرعت بالنفي، ملوّحة بيديها كأنها تزيح عن نفسها شبهةً خطيرة:
__ مولاتي... إنها ساذجة بل وربما يسهل التأثير عليها. وما زلت لا أفهم حقًا...ما الذي وجده فيها ولم يجده في غيرها؟
لكن نجمة رغم كلمات خادمتها المطمئنة، ظلّت عيناها معلقتين في الفراغ تلاحقان خيطًا من الشك لا تريد له أن ينقطع.

♡♡♡

مرّت الأيام ثقيلة على قلب إيليانا، تحمل فوق صدرها صخرة من الشوق والغياب. فبعد مغادرته إلى الحرب صار الحزن رفيقها الصامت، يثقل عليها النهار ويعكّر عليها المساء.
ورغم زيارات سبأ وزلفى بين حين وآخر، لم ينجح أحد في تبديد تلك الوحشة التي كانت تتسع في قلبها يومًا بعد يوم مع كل صباح لا يأتي فيه نيوار.
إلا أن هناك من رأى في هذا الغياب فرصة ذهبية لا تُعوَّض.
فغياب نيوار يعني غياب الحامي، وأي لحظة أنسب من هذه لِتُدفَع الإنسية إلى طلب العودة إلى عالمها، أو على الأقل كسر العهد الذي جمعها به؟

بدأت خطط نجمة تتشكل بين يديها ووجدت في نيلا أداة مناسبة. فصارت تتردد عليها تملأ وقتها بالحديث، وتكسب ثقتها شيئًا فشيئًا، بينما تراقب نقاط ضعفها عن كثب ثم تعود إلى سيدتها، تعالج معها التفاصيل وتدرس معها كل خطوة قادمة.

لكن نجمة لم تكتفِ بذلك بل أخذت تقترب من سبأ نفسها، وتدس السم في العسل حتى يبتلعه قلب الأم دون أن تشعر.

وفي إحدى الأمسيات، كانت زلفى تجلس مع سبأ في بهو القصر تتحدثان عن أخبار الحرب وقلقهما على الغائبين، بينما كانت نجمة متخفية تراقب المشهد بصمت.

حتى إذا انصرفت زلفى وبقيت سبأ وحدها، ظهرت نجمة بخطوات محسوبة وكأنها وصلت لتوها ولم تكن تراقب منذ البداية.

انحنت تحييها وبعد أن أذنت لها بالجلوس، قالت بنبرة تحمل مسحة حزن مصطنع:

– عمّتي... أراكِ مشتاقة إلى نيوار وقلقة أيضًا، أستنتج ذلك من ملامحك.

بادلتها سبأ نظرة موافقة:

– صدقتِ يا نجمة. يزداد قلقي عليه يومًا بعد يوم، ويزداد أكثر حين أتذكر ما تركه خلفه.

رفعت نجمة حاجبًا، كأنها تلقي سؤالًا بريئًا يخفي ما وراءه:

– تقصدين... ابنة الإنس؟

– ومن غيرها؟ إنني أحمل همّها.

هزّت نجمة ساقها ببطء، وقد ارتسمت على وجهها ملامح تفكير عميق، ثم قالت:

– أتساءل يا عمّتي... ما الذي يجعلك تثقين بها كل هذه الثقة؟ أخشى أن يختل توازن نسلنا بسببها...ففي كل الأحوال

أنا لم أعتبر زواج نيوار منها زواجًا قط بل لعنة من الإنس حلّت عليه وربما تسوء أوضاع مملكتنا جراء هذا الزواج.
تغيّرت ملامح سبأ، وتسلّل القلق إلى عينيها:
– أرجوكِ يا نجمة لا تزيدي قلقي. بالكاد أستطيع أن أُبقي تفكيري متماسكًا.
ابتسمت ابتسامة باردة:
– لا يا عمّتي... بل أحاول أن أعِدَّكِ لما سيحدث.
رمقتها بنظرة حذرة:
– وما الذي سيحدث؟
– لا أدري... لكن إحساسي منشغل، وكأنه يسبقني إلى ما هو قادم.
عادت نجمة إلى جناحها تحمل في طيّاتها شيئًا من الانفعال ثم استدعت الوصيفة نيلا التي دخلت بخضوع، لتجلس نجمة على مقعدها الوثير قائلة:
– الأمر الآن تحت السيطرة... حان وقت الانتقال إلى الخطة الرئيسية، التي ستقلب كل شيء لصالحنا.
انحنت نيلا قليلًا وأجابت:
– أنا جاهزة، مولاتي.
أخرجت نجمة الصندوق المزخرف ذاته، وكان بداخله قارورة صغيرة ذات لون أسود قاتم. تناولتها بيدها وقدّمتها إلى نيلا وهي تقول:
– هذه... ستفرغين منها سبع قطرات فقط في أي طعام تقدمينه لها.
بدا الخوف على ملامح نيلا، ثم سألت مترددة:
– مولاتي... هل هذا... سمّ؟ ألا ترين أننا نبالغ في الأمر؟ إن اكتُشف أمرنا فالعقوبة حتمًا الإعدام.
نظرت إليها نجمة نظرة حادة، واقتربت منها حتى كادت أنفاسها تلامس وجهها:

– افعلي ما آمركِ به، وإلا سيكون إعدامكِ على يدي أنا ثم إن هذا ليس سمًّا، بل سحر تضعيف وتأثير. ستكون كل أفكارها تحت سيطرتي لوقت وجيز. سيسبب لها بعض الأعراض... هلوسات واضطرابًا وخوفًا شديدًا، ثم سيسهل عليّ التخاطر معها لأبثّ في أحلامها وحتى في يقظتها، الكوابيس والوساوس التي أشاء. حاولتُ ذلك من قبل، لكن نيوار كان يحمي هالتها جيدًا. أما الآن فما إن تتأثر بهذا السحر فستسير وفق ما أخطط له.

انحنت نيلا في خضوع وهي تقول بصوت خافت:

– سأختار التوقيت المناسب وسأنفذ أوامركِ سيدتي... أكرر اعتذاري.

– أسرعي لا وقت لدينا. يجب أن ننجح في خطة طردها من عالمنا قبل أن يعود نيوار من الحرب ويفسد علينا كل شيء... لا أجرؤ حتى على تخيل ما سيفعله بنا إن اكتشف أمرنا.

انصرفت نيلا مسرعة بينما جلست نجمة تتأمل خيوط الوقت وتخطط للخطوة التالية.

في هذه الأثناء كانت إيليانا في غرفتها، تمضي وقتها بين الحنين والذكريات؛ تارةً تستحضر صور أهلها وتارةً أخرى وجه زوجها الغائب منذ أيام. زادت وحدتها من شوقها وجعلت قلبها يعتصر ألمًا، مدّت يدها إلى كتاب أهداه لها من المكتبة التي زارتها معه، ففتحته لأول مرة وبدأت تتصفح صفحاته المليئة بالمعلومات الغريبة. كان مؤلفه جنيًّا من عالمهم وقد كتب عن علومهم وأسرارهم بأسلوبٍ لم تعهده من قبل. اصطدمت بكثير من المصطلحات الغامضة، وتمنت لو أن نيوار كان بجانبها ليشرح لها.. قضت وقتًا طويلًا تحاول الفهم دون جدوى.

وبينما هي غارقة في القراءة طُرق الباب. أغلقت الكتاب ووضعته جانبًا ثم استقبلت القادمة بابتسامة مشرقة:

– أهلًا نيلا... سعدتُ بمرورِكِ، كيف حالكِ؟
– بل كيف حالكِ أنتِ، مولاتي؟
ثم انحنت احترامًا.
ضحكت إيليانا بلطف:
– لا داعي لهذه الطقوس يا نيلا ناديني باسمي، فأنا لا أحب أن أشعر أنني أعلى منكِ شأنًا. في النهاية الفارق الوحيد بيننا أن خِلقتكِ من نار وأنا من طين.
أتبعت ذلك بضحكتها الدافئة المعتادة، وظهرت على وجه نيلا ابتسامة صغيرة، بدت وكأنها تأثرت بتواضع هذه الإنسية، قبل أن تعود لتتذكر مهمتها.
– يبدو أنكِ تمرين بأوقاتٍ من الملل والكآبة!
أجابت بحسرة:
– لن أقول لا... وددتُ لو أتنزه في الحديقة الكبيرة التي أطل عليها من نافذتي، لو أخرج إلى ما وراء أسوار القصر. لكن الملكة سبأ رفضت ذلك، وقالت أنه خطر في زمن الحرب وقد يتم اختطافي كأسيرة فشددت عليّ ألّا أغادر غرفتي.
جالت نيلا بعينيها فهي تدرك أن هذا الحرص الذي تُبديه العائلة الملكية على إيليانا يثير في نفسها شعورًا دفينًا بالغيرة.
ثم تمالكت نفسها وقالت متصنّعة الطيبة:
__نعم، معهم حق... لكن أظن أنه لا مانع إن خرجتِ برفقة الحراس.
صمتت إيليانا تفكر، ثم قالت:
__صحيح... ربما سأطلب الإذن مرة أخرى فقد مللت المكوث هنا.
__وكيف حالك مع الاشتياق؟
لترد إيليانا بفضفضة عارية:
__يفتّت أضلعي، أحاول أن أتناسى لكنني لم أنجح في ذلك.
__إذن ما رأيكِ بكوب من الشاي وبعض الحلوى؟ سأحضرهما حالًا

ونقضي الوقت بالحديث عمّا يثقل قلبك.
__لا مانع لدي.
لم تمضِ سوى لحظات حتى عادت نيلا بما اقترحت. تناولت إيليانا الكوب وهي تقول بامتنان:
__أشكركِ يا نيلا كثيرًا، دائمًا تأتين في الأوقات التي أشعر فيها بالغربة والوحدة...
ضحكات نيلا وحديثها المتواصل جعلاها تتناسى تمامًا وصية نيوار بألّا تثق بأي امرأة في القصر سوى والدته، وعند الحاجة القصوى فقط.
بدأ إحساس غريب يتسلل إلى جسدها؛ شعرت بثقل في رأسها وكأن أفكارها تتشابك في دوامة لا مخرج لها. حاولت أن تفسر ذلك بالتعب أو قلّة النوم.
في تلك الليلة كان نومها متقطعًا. غفت قليلًا ثم أيقظتها كوابيس مبهمة؛ رأت وجوهًا غريبة وأصواتًا هامسة تتكرر في أذنها وطرقات مجهولة على باب غرفتها، وكأن أحدًا يريد اقتحامها.
كانت الصور تتغير بسرعة؛ مرة ترى نيوار يبتعد عنها وسط ضباب كثيف ومرة أخرى ترى نفسها وحيدة في صحراء موحشة والسماء فوقها متشققة بنارٍ حمراء.
استيقظت وهي تتنفس بسرعة وجسدها مبلل بعرق بارد.
جلست على طرف السرير تضع رأسها بين يديها، وتحاول أن تتذكر أين يبدأ الحلم وأين ينتهي الواقع.
في اليوم التالي بدت شاحبة صامتة أكثر من المعتاد. كانت تحاول إخفاء اضطرابها أمام الخدم لكن نيلا كانت تراقبها بعينٍ خبيرة، وتبتسم كلما رأت آثار السحر تتعمق فيها.

♡♡♡

__الآن يا نيوار... سأذهب إلى تلك التي اخترتها بدلًا عني وأرى كم ستحتمل من هذا العالم، وكم ستبقى وفية لك...

بعدما تأكدت نجمة أن السحر قد نال من إيليانا وأنها أصبحت تحت تأثيره وعقلها شبه مُنوَّم، قررت الذهاب إليها.
تقدّمت نحو الجناح ورغم ما تمتلكه من قوة، ازداد خفقان قلبها كلما اقتربت من الباب، وكأن ظلّ نيوار يقف بينها وبينٍ ضحيتها. حاولت طرد صورته من ذهنها ثم طرقت الباب طرقًا محسوبًا.
ـ تفضلي.
وما إن التقت أعينهما حتى عدّلت إيليانا من جلستها على عجل.
ـــ أنتِ... نجمة، أليس كذلك؟ لم أتوقع حضورك.
ـ نعم، أنا نجمة. أظن أن نيوار حدّثكِ عني، رغم أننا لم نلتقِ كثيرًا صحيح؟
ـــ لا... لم يخبرني عنكِ سوى أنكِ ابنة خاله، وتعيشين معه منذ الصغر، هذا كل شيء.
تقدّمت نجمة وعيناها تلمعان بدهاء، ثم أمسكت بذقن إيليانا.
ـ انظري إليّ يا صغيرة... نيوار لم يخبركِ بالحقيقة.
لترد إيليانا بشرود:
ـــماذا تقصدين؟
ـ أقصد أنه يخدعكِ بحبٍّ زائف، فأنا لست مجرد ابنة خال. أنا من امتلكت من زمن وخير دليل على ذلك أنه لم يُحدّثكِ عني كثيرًا لأنه لا يريدكِ أن تكتشفي أمره... صدقيني، مكانكِ ليس هنا بل في عالمكِ. أنتِ مجرد إنسية ضعيفة لا تقوين على العيش بيننا. كيف تجرأتِ على قبول عرضه؟! هو لم يتزوجكِ حبًا بل اختطفكِ من عالمك، وأهلكِ الآن في أمسّ الحاجة إليكِ.
كانت كلمات نجمة تتسرّب إلى عقلها كالدخان، بينما كانت عيناها غارقتين في بريقٍ غامض يثبّتهما في مكانهما.

قرأت نجمة في هالتها شوقًا دفينًا إلى حضن الأم وحنينًا جارحًا إلى عالمها، فاصطنعت في ذهنها صوت أمها وهي تبكي بحرقة.
ــ أنتِ بحاجة إلى أمكِ الآن، وهي أيضًا بحاجة إليكِ. يجب أن تعودي يا إيليانا، مكانكِ ليس هنا. أنتِ مجرد إنسية ساذجة استطاع التلاعب بها. اهربي... عودي قبل أن يفوت الأوان.
في البداية، حاولت إيليانا المقاومة:
__كلا... هذا كذب... غير صحيح...
لكن مع استمرار نجمة في إحكام قبضتها على هالتها وعقلها الباطن، بدأ دفاعها يتلاشى وانطفأ بريق المقاومة في عينيها حتى هوَت فجأة مغشيًّا ا عليها.

♡♡♡

تمضي أوقاته الثقيلة والروتينية في مكتبه، يؤدي أعماله بعقل شارد. بدا واضحًا أنه أصبح قليل الكلام مع زملائه، يجيب على قدر السؤال فقط ثم يعود إلى أوراقه وملفاته، محاولًا أن يملأ يومه بالعمل حتى يهرب من واقعه المؤلم، ذلك الواقع الذي بدأ منذ اختفاء ابنته وفلذة كبده.
مرّ وقتٌ طويل منذ غيابها وفشلت كل محاولاته في العثور عليها. لم يعرف إن كانت قد اختُطفت أو أصابها مكروه، أم أن الأمر كله أكبر من قدرته على الفهم. كثرت الأقاويل والفرضيات لكن لغز اختفائها ظلّ عصيًّا ا على الحل.
وفي بيته خيّم السكون وكأن الحياة تجمّدت منذ ذلك اليوم. تحوّلت ليلى من امرأةٍ نشيطة قائمة على شؤون بيتها وأولادها إلى امرأة عابسة أغلب الوقت، سريعة الغضب بلا سبب ظاهر.
كان أفراد العائلة جميعًا يعيشون أيامهم على مضض يحاولون التأقلم مع وحشة غيابها لكن الجرح كان يخمد حينًا، ويستفيق حينًا آخر لينخر الروح والقلب معًا.

كان خالد كلما أنهى عمله يعود مساءً إلى البيت محاولًا كسر الحزن، فيلاعب ميلينا أو يفتح نقاشًا مع محمود، إلا أن ليلى بقيت الأكثر انعزالًا بينهم. وإن حضرت كان جوابها مقتضبًا خصوصًا حين يذكرون اسم إيليانا.
كانت تقول دائمًا بثقة غامضة: «هي في عالمٍ غير عالمنا»، لكنها تعترف بأنها تجهل حالها بالضبط.
كانت ليلى تؤكد أن أحلامها ليست أوهامًا، وأن ما رأته في المنام تكرر مرات كثيرة. كانت ترى إيليانا تركض في حقل أخضر واسع مليء بالورود، تضحك وتقطف الأزهار بسعادة حتى يظهر رجل غريب الملامح يرتدي رداءً أسود، فيقترب منها بهدوء ويأخذها برفق. ورغم نداءات ليلى لها في الحلم كانت تمضي معه دون مقاومة ثم تختفي.
وعندما تستيقظ من هذا الحلم، يداهمها إحساس قوي بأن ابنتها مرتبطة بشيءٍ ما، وتعيش فعلًا في عالم آخر. إحساس لم يصدقه أحد من العائلة بل إن أخاها يمان اقترح عليها الذهاب إلى طبيب نفسي، لكنها كانت تثور في وجهه مؤكدة أنها ليست مجنونة، وأن ما تراه هو الحقيقة مهما أنكر الآخرون.
مرّت الأيام على هذا المنوال حتى حلّت تلك الليلة الماطرة. خيّم السكون على البيت، ولم يعد يُسمع سوى خرير المطر المنهمر، ورعدٍ يتردد صداه وبرقٍ يسطع بين حين وآخر عبر النوافذ.
وسط هذا الهدوء الموحش، أيقظت رعدةٌ قوية ميلينا من نومها. كانت تعانق دميتها بقوة، وتحاول أن تتجاهل أصوات المطر والرعد، لكن كلما لمع البرق وأضاء الغرفة ازداد خوفها. وفي لحظة خاطفة، رأت صورةً غامضة عند النافذة تشبه وجه إيليانا، تنعكس مع ضوء البرق، ثم تختفي ما إن يخبو.
اتسعت عيناها من الهلع وأخذ العرق يتصبب من جبينها

وخفق قلبها بسرعة، تسارعت أنفاسها، بينما كانت تحتضن دميتها أكثر فأكثر.
وحين لمع البرق مجددًا، رأتها ثانية... هناك، خلف الزجاج تنظر إليها!
امتزج صوت المطر والرعد بالهدوء الثقيل الذي يخيّم على البيت، فزاد المشهد رعبًا.
ارتجفت ميلينا حتى كاد صوتها يخونها، لكن في تلك اللحظة اجتاحتها ذكريات أختها: كيف كانت تضمّها إلى صدرها حين تخاف، كيف كانت تلعب معها وتغمرها بالحنان، وكيف كانت تنام مطمئنة في أحضانها. ثم تذكّرت بكاء أمها وتذمّر أبيها وضجيج نقاش العائلة حول اختفائها الغامض.
وكيف ظلّ الجميع يرددون حول هذا الموضوع الذي أثار رعبًا في نفسها، فتساءلت بخوف: هل تحوّلت إيليانا إلى شبح؟
أحقًا كانت أمي صادقة حين قالت أنها في عالمٍ آخر؟
تداخلت الأصوات والذكريات في رأسها حتى فقدت السيطرة فانفجرت ببكاءٍ هستيري وصراخٍ مذعور.
استيقظ خالد وليلى مفزوعين وأسرعا إلى غرفتها، واحتضناها وهي ترتجف في حضنهما يحاولان تهدئتها. وحين قصّت عليهما ما رأته عند النافذة، أسرع خالد إلى النافذة وفتحها ثم حملها بين ذراعيه ليُريها الحقيقة:
__انظري... لا شيء هنا، فقط قطرات المطر تتساقط من السطح. لا تقلقي يا صغيرتي كان مجرد كابوس.
ثم ضمّها إلى صدره وربّت على شعرها المبلل بالعرق، يُهدّئها حتى هدأت أنفاسها. اقترحت ليلى:
__ما رأيك يا ميلينا أن أنام الليلة إلى جوارك في سريرك؟
كانت وجنتاها محمرّتان من أثر البكاء وعيناها تلمعان بالدموع، ثم أجابت ببراءة حزينة:
__لا... لا أريد أن أنام هنا، أريد أن أنام في حضن أبي.

حملها أبوها عائدًا إلى غرفتها، بينما بقيت ليلى وحيدة في الغرفة.
جلست على طرف السرير، عيناها معلّقتان بالنافذة التي رأت منها طفلتها ذلك الوهم المخيف. ظلّت تحدّق طويلًا في الظلام، غارقة في شرودٍ ثقيل وكأنها تبحث عن ظلّ إيليانا في ومضة برقٍ جديدة.
بقيت شاردة تحدّق في النافذة التي تركها خالد مفتوحة والستارة تتراقص مع كل هبّة ريح تتسلّل إلى الغرفة. كان صوت ارتطام قطرات المطر المتدفّق من السطح يذكّرها بأنّ شيئًا ما مفقود، شيئًا لن يعود بسهولة. كلما ذُكرت سيرة إيليانا شعرت أن جدار صبرها يتصدّع أكثر، فتنهار روحها من الداخل.
انعكست أشعة القمر بعدما انقشعت الغيوم قليلًا، وبدأ ضوؤه الفضيّ ينسكب على الستارة المتمايلة. أمالت ليلى رأسها على الجدار بجانب النافذة، وعيناها غارقتان في السواد وقلبها يتفتّت ببطء. تمنت من أعماقها لو أنّ ما عاشته منذ اختفاء ابنتها لم يكن سوى كابوسٍ ثقيل، ستستيقظ منه كما استيقظت ميلينا قبل قليل. لكن الحقيقة كانت أقسى؛ الكابوس طال كثيرًا وأبى أن ينتهي.
انجرفت ليلى في ذكرياتها، في تلك الأيام التي كانت فيها ابنتها تملأ البيت، أيام كانت خطواتها لا تفارق ناظري أمها. تذكّرت كيف كانت تداعبها وترافقها في كل مشوار، وكيف كانت تشاركها أعمال البيت بحماس، ثم تجلس لتروي لها تفاصيل يومها بصوتٍ مليء بالحياة. كانت كلما جلست إلى أمها، أخذت تحكي لها تفاصيل أيامها في الحلقات؛ كيف صحّحت لها المعلّمة آلية الإخفاء عند القاف والكاف، وكيف اجتهدت في الإجابة عن أسئلة امتحان الحزب العشرين، وأين أخطأت بالضبط. وكانت تخبرها بحماس أنها أوشكت على إتمام

برنامج "السُّدُس المُنير"، وتفيض سعادةً وهي تروي فرحتها بحضور دورة شرح متن "الدُّرر اللّوامع" عند معلّمتها الثانية.
انهمرت دموع ليلى حارّة متدفّقة، كأنها تسابق قطرات المطر التي توقفت للتو. لم تقوَ على حمل ثقل قلبها، فتكورت على نفسها فوق سرير ابنتها تضم ذراعيها حول جسدها في
محاولة يائسة لاحتضان ما تبقى من الدفء. أغمضت عينيها وغفت أخيرًا، لكن الحزن ظلّ يقيم في فؤادها، يثقل أنفاسها حتى في نومها.
لترى نفسها في بيتٍ غريب، جدرانه باهتة وممراته طويلة متشابكة لا تنتهي. راحت تبحث بين أركانه تفتح الأبواب واحدًا تلو الآخر، كأنها تبحث عن شيءٍ ما. مشت بخطوات متسارعة قلبها يخفق بجنون، لكن كل غرفة كانت فارغة وكل ركن فيه يردّد صدى الفراغ.
حتى وصلت إلى نافذة كبيرة دفعتها لتطل منها. كان الخارج يغرق في ظلام دامس، لا يقطعه سوى نورٌ باهت للقمر.
شدّت بصرها أكثر فإذا بإيليانا جالسة تحت إحدى الأشجار تعبث بأناملها بالورود، وكأنها لا تعرف للحزن طريقًا.
ارتجف قلب ليلى ما إن لاح لها خلف هذا المشهد الهادئ ظلٌّ مفترس. كان ذئبًا ضخمًا يخرج من بين الأشجار بخطوات ثقيلة، تلمع أنيابه بلعابٍ متقطر وعيناه تقدحان شررًا. اقترب بخلسة من إيليانا التي لم تنتبه له، غارقة في لعبها البريء.
صرخت ليلى بأعلى صوتها من خلف النافذة، تلوّح بيديها بجنون محاولة تنبيهها، لكن لا صدى... لا مجيب.
أمسكت بمقبض الباب القريب منها، جذبته بعنف محاولة الخروج لإنقاذها لكنها لم تستطع فتحه. طرقت بجنون، ثم عادت تضرب زجاج النافذة بيديها إلا أن الزجاج كان قويًا يأبى أن يتحطم. كانت دموعها تختلط بصوتها الهستيري، وهي ترى الذئب يقترب أكثر فأكثر.

وفجأة انقضّ عليها. ارتفع صراخها المرعوب وهي تحاول الهرب، ثيابها تمزّقت وجروحٌ خطّت جسدها، والدم بدأ يتساقط منها. ركضت بين الأشجار تصرخ وتبكي، فيما الذئب يلاحقها بلا هوادة.
كادت ليلى تختنق من شدّة صراخها وعجزها، حتى ارتجّت الصورة وسمعت صوتًا بعيدًا يخترق الظلام:
ـــأمي! أمي، استيقظي! ما بك؟
فتحت عينيها مذعورة، لتجد محمود يهزّها برفق وعيناه مليئتان بالقلق.
أيقظها وهو يربّت على كتفها بلطف:
ـــأمي... لقد أذّن الفجر، ثم لماذا تنامين هنا؟ وأين ميلينا؟
رفعت عينيها نحوه ببطء، وما زالت غارقة في صدى الحلم وقالت بصوت واهن:
ـــرأيت حلمًا... مزعجًا عن إيليانا.
قطّب محمود حاجبيه وهو يحاول إخفاء انزعاجه:
ـــأمي... أرجوكِ، لا نريد أن يبدأ صباحنا بالبكاء من جديد.
توجّهت بصمت نحو الحمّام بخطوات مترنّحة، حدّقت في المرآة لتجد وجهًا شاحبًا وعينين محمرّتين من أثر السهر والدموع. لم تحتج إلى كلمات لتعرف أن ملامحها تعكس تمامًا ما يعتمل في داخلها من إنهاكٍ ومرارة.
أكملت وضوءها ثم فرشت سجادة الصلاة، وأدّت ركعاتها بخشوع يتخلّله انكسار وحين سلّمت تضرّعت بحرقة:
«اللهمً يا جامع القلوب... يا من لا يخفى عليه غياب الغائبين... أسألك أن تردّ إليّ ابنتي، أو أن تلهمني الصبر على فراقها. اللهم احفظها بعينك التي لا تنام، واكلأها برعايتك حيثما كانت وأبعد عنها كل سوء ومكروه. اللهم لا تسلّط عليها من لا يرحم واجعلها في معيتك وكنفك الدائم.»

تمر أوقاتها بطيئة، كأن الدقائق لا تمضي بل تنزف. كانت على سريرها عيناها زائغتان وشفتاها ترتجفان.
دخلت زلفى وسبأ لزيارتها، فوجدتاها طريحة السرير تهذي بكلمات متقطّعة، يلوح منها اسم نيوار كصرخة مستغيثة.
ذعرت سبأ، والتفتت إلى زلفى وهي تقول:
__يا إلهي.. ما بها؟ كيف لم ننتبه حتى تفاقمت حالتها؟ ماذا سأقول لنيوار إن أصابها مكروه؟
أجابت زلفى بقلق:
__اهدئي... سأستدعي الحكيم فورًا.
وما هي إلا لحظات حتى حضر الأطباء، يحيطون بالسرير لفحصها فيما بقيت سبأ وزلفى عند الباب تنتظران الخبر.
وبينما تسود الأروقة أجواء التوتر، ظهرت نجمة لتسأل:
__ما الأمر؟ ماذا يحصل؟
ردّت سبأ بصوتٍ مرتجف:
__لا أفهم ما الذي جعل حالتها تتدهور هكذا! اكتفيت بسماع أخبارها من الخدم... رغم أن الخادمة عفراء قالت لي إنها ليست بخير، لكنني ظننت الأمر بسبب شدة قلقها على غياب زوجها.
ضمّت نجمة ذراعيها، تُخفي ارتيابًا مدروسًا وقالت بنبرة متحسّرة:
__أرجو ألّا يكون الذي أخشاه قد وقع.
قاطعَتها زلفى محاولة تهدئة الموقف:
__اهدئي يا سبأ..
خرج أطباء الجن من جناحها، والحيرة مرتسمة على وجوههم. بعد فحصٍ دقيق لم يجدوا في جسدها علّة واضحة، فأكدوا أنها بخير من حيث الظاهر، ورجّحوا أن حالتها النفسية المتأزمة بسبب بعدها عن أهلها وزوجها انعكست على جسدها، فتفاقمت الأعراض وظهرت عليها علامات الضعف

دخلت سبأ برفقة زلفى لتطمئنا عليها، فوجدتاها غارقة في نومٍ ثقيل ووجهها الشاحب لا يفسّره قول الأطباء. وقفت سبأ لحظةً تحدّق في ملامحها بقلق، قبل أن تترك الجناح وهي تحمل طمأنينة ناقصة وثِقلاً في صدرها.

ما إن عادت إلى غرفتها حتى فوجئت بظرفٍ قديم الطراز فوق منضدتها. كان مطرّزًا بزخارف لا يعرفها إلا "حكماء الأبعاد". ارتجفت أناملها حين التقطته وفتحت الرسالة ببطء، عيناها تتسعان مع كل سطر:

«إلى الملكة سبأ، حارسة الدم الأزرق: أتتنا نبوءة قديمة من حكيمٍ من عالِم الحرف والجفر، عن اتحاد ناريّ بين بشريةٍ ووارثٍ من نسل الكبار.إن ظهرت أعراض الغثيان والنحول والنحيب الليلي، فذاك أول خيط من لعنة الحب الحرام، وإن لم يُفصل بينهما قريبًا، سيقع الهلاك.وسيكون من عواقب هذه اللعنة التي تصيب نسلكم أن تكون ذريتهم هجينة محدودة القدرات، يتخللها الضعف وتفقد جزءًا كبيرًا من قدرات نسلكم المعروفة. وذلك سيهدد أمن مملكتكم، لتصبح عديمة القوى دون ركيزة، ويُمحى أثرها شيئًا فشيئًا.»

كان الختم في أسفل الرسالة يحمل اسم "ساهن" الرمادي، أحد كبار الحكماء المعروفين، وبدا مُتقنًا إلى درجة يصعب معها كشف التزوير.

أطبقت سبأ الرسالة ببطء والتجمّد يغشى ملامحها ثم تمتمت بقلقٍ :

__ساهن؟... لم يكاتبني منذ قرون... هل يُعقل أن تكون هذه الإنسية تحمل لعنة قديمة؟

لم تحتمل الانتظار، فوقفت مسرعة وعادت إلى جناح إيليانا لتجدها ما تزال ممدّدة على السرير، أنفاسها متقطعة و وجهها يزداد شحوبًا. شهقت سبأ بخفوت واقتربت منها تسألها بارتباك:__ما زلتِ تتألمين؟ أخبريني بماذا تشعرين؟

فتحت إيليانا عينيها الغارقتين بالدموع، وقالت بصوتٍ متكسّر:__أشعر بكل شيء يضيق حولي، حتى أنفاسي أصبحت ثقيلة عليّ... أريد أمي، أريد عائلتي.
اقتربت سبأ أكثر، وضغطت على يدها برفق وسألتها__ألم تشتاقي إلى نيوار؟
بدت في عينيها غشاوة ورأسها يضجّ بحرارة وتشويش، ثم همست بعد صمتٍ طويل:
__لا أريد نيوار... أريد أمّي... أريد عائلتي...
تراجعت سبأ خطوة إلى الوراء، ملامحها متوترةوقلبها يزداد اضطرابًا. كان الشك قد غُرس فيه بالفعل... تمامًا كما أرادت نجمة.
خيم الليل على القصر وركدت أروقة البهو بلا حركة، وكأنها تحتفظ بأسرارها بين جدرانها الصامتة. كانت سبأ في جناحها عيناها تغوصان في عمق القلق تحاول إخفاء ما رأته اليوم عن زوجها، لا لتكتم الحقيقة بل لتخفيف ثقلها عن كاهله الذي أثقلته هموم المملكة وحروبها الطويلة.
تحدثت إلى نفسها:_كيف سأخرج من هذا المأزق؟ كيف أخبرهم بما وصلني؟ ربما ستكون العواقب أشد من تحمّلنا... انحنى قلبها تحت وطأة الشك والقلق، ولم تعد تعرف كيف تتصرف.
في جناحٍ آخر، كان لإحداهن رأيٌ آخر:«صدقيني يا ابنة الإنس... لن يطول مكوثك هنا أكثر كل خطواتك أمامي محسوبة، وكل شيء يسير وفق ما رسمته لكِ...
أغمضت عينيها واستحضرت صورة نيوار في ذهنها، متوهجًا بين أمنياتها القاتلة. لتقول والصرامة في صوتها تختلط بالغضب المكتوم: أما انت ستكون لي، أيها الأمير.. شئتِ أم أبيتِ، لن يذهب انتظاري سدى.

مُنعطف القدر

بينما هي غارقة في نومٍ ثقيل، أذلّها الوهن وسحقها التعب، انفتحت عيناها فجأة كأن قوةً خفية أيقظتها. اتسعت حدقتاها حتى غمرهما الهلع، وصارت دقات قلبها كطبول حربٍ تُقرع في صدرها والدم يغلي في عروقها كبركانٍ يتأهّب للانفجار.

جلست تتلفت حولها، أنفاسها متقطعة وحارة العرق يتصبب من جبينها في خيوطٍ متواصلة. في كل زاويةٍ من الغرفة اشتعلت عيونٌ غريبة لامعة لا يُعرف مصدرها وبدا لها أن الظلام نفسه أفرزها لتحدّق فيها بلا رحمة. ومن كل اتجاه أخذ يتردد صدى غامض، متشظٍ كأرواحٍ ضائعة:

ـــعودي إلى عالمك... عودي إلى عائلتك... لا مكان لكِ هنا.

لم يكن صوتًا واحدًا بل جوقةً مظلمة، ضغطت بكفيها على أذنيها لتسدّ الطريق على ذلك الهذيان، لكن الصدى كان يتسلل من داخلها لا من خارجها، ينبع من أعماقها.

صرخت وهي تهتز كغصنٍ تحت العاصفة:

ـــيكفي... يكفي! حسنًا... سأعود... سأعود إلى بيتي... سأهرب!

اندفعت من فراشها وقدماها بالكاد تحملانها.. فتحت الباب بخوفٍ وحذر وتلفتت يمنةً ويسرة. كان شعورٌ خانق يلاحقها من الخلف؛ ظلال العيون وأثر السحر والرعب تواطؤوا جميعًا على عقلها وقلبها.

خرجت من البوابة الخلفية للقصر دون أن يلحظها الحراس، وربما كان تأثير السحر قد أخفاها عن أعينهم. راحت تهرع بين الممرات الموحشة ثم انطلقت في العراء، لا تدري أي طريقٍ تسلك، سوى أن الصوت يلاحقها والخوف يدفعها والرغبة في النجاة تشدّها إلى الأمام. كل ما كانت تعرفه أنها تريد الهروب... فقط الهروب، ولو إلى المجهول.

كانت تسمع وقع أقدامٍ يتردد خلفها بأضعاف خُيّل إليها أن أشخاصًا غير مرئيين يركضون معها. أما الأصوات المنغرسة في رأسها فلم تهدأ، بل أخذت تتصاعد وتتكرر.
وضعت كفيها على أذنيها وهي تعدو. لم تنتبه كيف خرجت من القصر ولا كيف عبرت الممرات ولا كيف تجاوزت الأسوار حتى وجدت نفسها في غابةٍ لم ترَ مثلها من قبل.
أشجار شاهقة تلتف جذوعها حول بعضها كالأفاعي وأغصان متشابكة تحجب القمر، فلا يمرّ إلا خيطٌ شاحب من ضوءٍ بارد. كانت الأرض تحت قدميها رطبةً ولزجة، وكأنها تُمسك بخطواتها لتمنعها من المضي.
أخذت تتوغل أكثر فأكثر بلا وعي، تبحث عن مخرجٍ فلا تجد. تسارعت أنفاسها وشعرت أن طاقتها تنزف بقوة. نظرت خلفها
فلم تجد سوى الظلال تتحرك مع حفيفٍ مكتوم ثم أعادت بصرها إلى الأمام، فلم يكن هناك طريق واضح بل متاهة من الجذور المتشابكة.
وقفت وسط الغابة الموحشة وجسدها يرتجف،بصوت يتهدّج:
ـــأين... أين الطريق؟! أين أنا؟ لا أريد أن أبقى هنا...
لكن لم يُجبها أحد، سوى الهمسات التي عادت تدور في عقلها أقرب وأقسى من ذي قبل.
كانت الأصوات التي تسمعها لا تشبه أي شيء تعرفه؛ لم تكن أصوات بشرية ولا حتى أصوات كائنات تستطيع تحديدها. بل كانت خليطًا من الهمس والصرير، ومن صرخاتٍ بعيدة وحشرجاتٍ قريبة، تخرج من بين الجذوع ومن تحت الأرض ومن فوق الأغصان.
تداخلت حتى صارت كتلةً مشوشة من الرعب، تتساقط على رأسها كالحجارة.
تقدمت خطوة، فباغتتها ضحكة قبيحة خلفها. التفتت بسرعة

لم يكن هناك أحد!
تراجعت فإذا بنحيبٍ خافت يعلو من بين الجذورِ تحت قدميها. رفعت بصرها فرأت بين الأغصان ظلالًا طويلة وملتوية، أشبه بأشباحٍ تراقبها بصمت.
ارتجف جسدها كله وانكمش قلبها حتى شعرت أنه سيتوقف.
لم تعد قادرة على التمييزِ بين الهلاوس والحقيقة. كان الهواء ثقيلا وباردًا، يحمل رائحة رطبة خانقة.
وفجأة سمعت صرخةً حادة، ربما صادرة من حنجرة حيوانٍ مجهول. ارتدت إلى الوراء مذعورة ثم هرعت من جديد، تتعثر بين الجذور تلهث وتتنفس بصعوبة فيما الرعب يطاردها من كل اتجاه.
بدت الغابة بلا نهاية، فكلما أسرعت أكثر انغلقت عليها الأشجار أكثر وكأنها تحاصرها. وكلما ظنت أنها اقتربت من مخرج انفتح أمامها ممر جديد يقودها إلى عمقٍ أشد ظلامًا.
تاه وعيها وتبعثرت أنفاسها، حتى خارت قواها تمامًا وسقطت على الأرض.
مرّت عليها لحظات وهي تتأرجح بين الوعي والغيبوبة ثم فجأة ارتجف الهواء من حولها، ومن بين ظلال الأشجار تحرك شيء غامض، ترافقه خطوات خافتة تقترب منها لكنها لم تستطع تمييزه.
حمل جسدها برفق، دون أن تشعر بأي ألم، إلا أن رهبةً تسرّبت إلى قلبها.
__لا تحاولي المقاومة... كل شيء سيكون هادئًا...
أخذها بعيدًا عن المكان الذي تعثّرت فيه بين أشجارٍ موحشة لا يخترقها أي نور. كل شيء حولها أصبح سوداويًا وصامتًا وصدى خطواته وصوت الريح يتركان شعورًا ثقيلًا في صدرها.

في يومٍ جديد، كانت سبأ ما تزال غارقةً في دوامة أفكارها يثقل قلبها ما حملته رسالة الأمس من نُذرٍ وتحذيرات. خطر ببالها أن تلجأ إلى زلفى رفيقة سرّها وموضع ثقتها، لعلّها تجد عندها سندًا يخفّف عنها وطأة القلق. سارعت إلى جناحها وما إن دخلت حتى بادرتها بالتحية:

__صباح الخير يا زلفى.

ابتسمت زلفى بحذرٍ وهي ترحّب بها:

__أهلًا سبأ... تفضّلي.

لكن سرعان ماظهرت على ملامحها علامات القلق، فقد كان الاضطراب بادياً على وجهها.

__هل أنتِ بخير؟ أهناك أمرٌ يخص ابنة الإنس؟

__بل هناك أمور يا زلفى.

اقتربت منها وقد ازداد قلقها:

__قولي لي... ما الأمر؟

قصّت عليها ما جاء في الرسالة من إشاراتٍ مظلمة وتحذيراتٍ قاسية، لتقول زلفى بصدمة:

__لكن... هل أنتِ واثقة يا سبأ؟

__نعم، واثقة. الختم كان ختمه... أعرفه حقّ المعرفة. ليست هذه أول مرة يكاتبني وأعرف أختامه جيدًا. صحيح أن قرونًا مضت منذ آخر رسالة، لكنني لا أشكّ في صحتها.. غير أني حائرة، ما العمل؟ وكيف أتصرف؟

سكتت زلفى طويلًا قبل أن تقول بصوتٍ متردد:

__هل أخبرتِ أحدًا غيري؟

__لا... لم أخبر أحدًا وأنا تائهة الخطى، لا أدري كيف أتصرف.

__اهدئي... سنجد الحل معًا.

وما هي إلا لحظات حتى دلفت الخادمات مسرعات، وبعد أن ألقين التحايا على عجل قالت إحداهن بصوتٍ مضطرب:

__سمو الملكة... بحثنا عن إيليانا في جناحها كما أوصيتِنا ودخلنا لنقضي حاجاتها ونطمئن عليها كعادتنا، لكننا لم نجدها.
صاحت سبأ بقلق:
__لا يُعقل هذا... أفتّشتنَّ في أركان الجناح كلّه؟
أسرعت مع زلفى إلى جناح إيليانا والخادمات يتبعنهنّ بقلقٍ وخوف.
انتشر خبر اختفائها في القصر وارتجّت الأروقة بالهمس والقلق.. أمر الملك الأحمر الحراس بالخروج في دورياتٍ عاجلة للبحث ورصد الأثر، وقد غلب عليه الانفعال وهو يلوّح بيده صارخًا:
__إن اختُطفت لتُستعمل رهينةً، فالمصيبة عظيمة!
ثم التفت إلى سبأ يحدّق في عينيها بنظراتٍ ملؤها العتاب والغضب:
__ألم أحذّرك مرارًا من خطورة الموقف؟ ألم آمرك أن تشدّدي الحراسة وألّا تتركيها تبرح جناحها؟ كيف حصل هذا يا سبأ؟
قالت بصوتٍ متهدّج:
__لقد كانت الخادمات يتناوبن على رعايتها ومراقبتها وحالتها النفسية والجسدية لا تسمح لها حتى بالنهوض من فراشها!
زفر الملك بحرارة، ثم قال بوجهٍ متجهم:
__لا أستطيع الجزم بعد... لعلّها أُخذت عنوة، أو أنها خرجت إلى الحديقة فاختطفها أحد الجواسيس. كل الاحتمالات قائمة
في تلك الأثناء، كانت نجمة تتابع ما يحدث بعينٍ باردة وقلبٍ يتلذّذ، إذ وجدت في تضارب التفسيرات حول اختفائها فرصةً ذهبية تُبعد عنها أيّ شبهة. تظاهرت بالقلق متسائلة:
__عمّتي... ما الذي جرى؟ هل صحيح أنّ إيليانا اختفت من القصر؟

لكن زلفى لم تطمئن لها، وأجابتها بنبرةٍ مشوبة بالريبة:
__نعم يا نجمة... كل ما بلغكِ صحيح.
ثم التفتت نحو سبأ مضيفة:
__أريد أن أحدثكِ على انفراد.
انسحبت زلفى وسبأ بعيدًا عن الأعين، وهناك حاولت زلفى أن تستوضح الصورة، غير أنّها لم تزل غارقة في حيرتها ورفضها توجيه أصابعِ الاتهام نحو نجمة.
__لا، لا أظنها ضالعةً في الأمر... لا بدّ أنّها قد اختُطفت كأسيرة... يا إلهي، ماذا لو عاد نيوار الآن؟ ماذا سنقول له؟!

♡♡♡

في مكانٍ قصيّ من الغابة، كان كوخٌ متداعٍ يختبئ بين أشجارٍ ملتوية تتداخل جذورها في الأرض كالأفاعي. من الداخل كان الضوء الخافت المنبعث من مصابيح زيتية يتماوج على الجدران المتآكلة، ويلقي بظلالٍ غريبة تُوحي بأن المكان معبّأ بطاقةٍ ظلامية.
هناك، كان "خَبيب" جالسًا على مقعدٍ خشبي، وعيناه تلمعان بلونٍ أسود قاتم، يحدّق في جسدها الملقى أمامه بلا حراك.
كان صدرها يرتفع ويهبط بأنفاسٍ متقطّعة، تصارع بين الحياة والموت.
أطلق ضحكةٌ خبيثة وهو يقول:
«يبدو أن غباء نجمة هذه المرة منحني فرصةً ذهبية... هذه الإنسية ستفتح لي أبوابًا مغلقة منذ زمن..
دمها،طاقتها،ترددتها، كلّها مفاتيح لما أريده.»
اقترب منها وانحنى يصغي إلى أنفاسها المتقطّعة. مدّ إصبعه ولمس الأرض قرب رأسها ورسم خطوطًا متشابكة، وما إن انتهى حتى ومضت الخطوط بضوءٍ بنفسجي سرعان ما انطفأ.

ـــلن أسمح لهم باستعادتها بسهولة... سيبحثون عنها طويلًا، لكن أثرها عندي سيظلّ مخفيًّ ا.
ثم جلس في الظلّ ساكنًا كتمثال، منتظرًا لحظة استيقاظها.
مرّت ساعات ثقيلة قبل أن تتحرّك أناملها ببطء، ثم فتحت عينيها على ضوءٍ خافت، أخذت تتلفّت حولها بهلع وعادت نبضات قلبها لتتسارع.
ـــأين... أنا؟
حاولت الوقوف وجمعت ما تبقّى لها من قوّة، لكن الدوار ضرب رأسها بعنف فسقطت على الأرض من جديد.
في تلك اللحظة، دوّى وقع خطواتٍ بطيئة تقترب منها. رفعت رأسها بصعوبة فإذا بخبيب يخرج من زاوية الظلّ، وعيناه تقدحان بشررٍ خبيث. اقترب منها كمن يتفحّص صيدًا وقع بين يديه، ثم قال بصوتٍ أجشّ متلذّذ:
ـــأخيرًا... استيقظتِ.
استجمعت كلماتها وسط خوفٍ يعتصرها:
ـــمن أنت؟ ماذا... ماذا تريد مني؟ ولماذا جئت بي إلى هنا؟
جلس على مقربةٍ منها قائلًا:
ـــقدرك والذي خطّط له، هو من ألقى بكِ هنا.
حاولت أن تزحف مبتعدةً عنه، لكن جسدها الواهن لم يسعفها لتردّ عليه:
ـــالذي خطّط لقدري هو اللّه وحده، وسينقذني كما يفعل في كل مرة.
شعرت بظلّه يخيّم فوقها قبل أن يقول:
ـــأعجبتني جرأتك، لكن دمكِ... ليس دمًا عاديًا، وأن أدع فرصةً ثمينة كهذه تفوتني يُعدّ خسارة عظمى.. لا داعي للخوف سينتهي أمرك حين يحين وقت تقديمكِ قربانًا.
انتفض جسدها كريشةٍ في مهبّ ريح، فيما تابع خبيب:
ـــالكبار سيباركونني بكِ، وستكونين بوابتي إلى الارتقاء

وسلطان أكبر.
امتدت يدها تتحسّس الجدار المظلم للكوخ، علّها تجد ما تستند إليه أو شيئًا تلوّح به، لكن أصابعها لم تلامس سوى الخشب البارد الرطب. صرخةٌ مكبوتة كادت تشقّ حنجرتها لكنها لم تخرج.
كان يراقبها مستمتعًا كرؤيته لعصفورٍ مبلّل يحاول الطيران بجناحٍ مكسور.
ليقولَ بسخرية:
__أتظنين أنكِ قادرة على الهرب؟ قوتكِ الآن لا تعدو أن تكون كقوة دعسوقة محاصرة في كفّي.
انكمشت وهي تتراجع بخوف، عيناها تائهتان بين الظلام المحيط به وبين ابتسامته المرعبة. كل حركةٍ منها كانت تزيد انكشاف ضعفها، أدركت أنّ نهايتها باتت تقترب، وأنّ خيوط حياتها تُسحب من بين أصابعها دون رحمة وكلّ ما تبقّى لها هو أن تغرق في ذكريات تتلاحق أمام عينيها كشريطٍ أخير يُعرض قبل سقوط الستار.
مرّت صورة والدتها، بنظرتها الحانية ويديها الدافئتين ثم تتابعت الوجوه واحدًا تلو الآخر: إخوتها، بيتها، دفء عالمها البشريّ بكلّ تفاصيله الصغيرة؛ أصوات الحيّ، رائحة الخبز في الصباح، وضحكات عائلتها حين تجتمع حولها. كلّها انسكبت على قلبها دفعةً واحدة، تتشبّث بها في لحظاتها الأخيرة.
المسافة بين قلبها وعالمها صارت بعيدة جدًا، انهمرت دموعها وهي تحدّث نفسها: «هل هذه نهايتي؟ أن أُمحى هنا... بعيدًا عن كلّ ما أحببت!»
انحنى نحوها قائلًا:
__كلّما فاح الخوف منكِ ازددت يقينًا أنّكِ قرباني الأثمن.
شعرت أنّ الكلمات تخنقها، وأنّ ظلال المكان تزداد كثافة من حولها وفي داخلها كانت تُنازع بين الرغبة في المقاومة

والاستسلام لقدرٍ غامض يقترب بخطواتٍ محسوبة. فهذا الشيطان لن يرحمها، وهذا الظلام الذي يحيط بها ما هو إلا بداية لنهاية أشدّ رعبًا مما تتخيّل.
__اهدئي... ما كلّ هذا الرعب؟ لعلّكِ تموتين من الخوف قبل أن يحين موعدك. صدّقيني، مجرد صور الشياطين كفيلة بأن تُخرس قلبك عن النبض. فلا تقلقي... لن تشعري بوقع النصل حين يفصل رأسك عن جسدك.
رفعت رأسها بكل ما تبقّى فيها من شجاعة وعيناها تقدحان بالغضب:
__لستُ خائفة منك أيها الخسيس... ولا من أمثالك. ابتعد عني!
بضحكته الشريرة اقترب أكثر:
__أووووه! أتجرئين على نعتي بالخسيس أيضًا؟!.. ما أجرأكِ أيتها الصغيرة.
مسح على شعرها مردفًا:
__اهدئي، قولي لي... ما اسمك؟
التوت شفتاها في ازدراء وردّت بحدة:
__لا شأن لك باسمي، أيها الوغد!
كانت عيناها الواسعتان تبرقان رغم الخوف الذي اكتساهما تشعّان بعنادٍ غريب لم يره في أي فريسة من قبل. توقف برهةً يُمعن النظر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة غامضة يختلط فيها الإعجاب بالشرّ.
اقترب أكثر حتى لامست أنفاسه وجنتيها، وتمتم بصوتٍ يمزج السخرية بالافتتان:
__عجيبة أنتِ... نصفك يرتعش كطائرٍ مذعور ونصفك الآخر يتحدّاني بعناد إنسيةٍ واهنة. كم كنتُ أتوق أن أكسر هذا التمرّد بيدي، قبل أن أهديكِ قرابين لسادتي.
تراجعت إلى الوراء قدر ما استطاعت، محاولةً إخفاء رجفتها:

__لن تنال منّي... أبدًا.
في اللحظة التي أوشك فيها أن يطبق على صيدٍ نادر، جاءه استدعاء من كباره، فتصلّبت ملامحه ثم عقد حاجبيه وهو يتمتم:
__اللعنة... سأؤجّل متعتي بكِ إلى حين عودتي. جهّزي نفسكِ لي، يا جميلة.
ثم مرّر أصابعه النتنة على خدّها، تاركًا أثرًا من الخوف يسبق عودته.
ظلّ جسدها المتعب يخذلها كلّما حاولت أن تنهض. أسندت كفّيها على الأرض ثم دفعت نفسها بصعوبة حتى وقفت مترنّحة. تقدّمت نحو باب الكوخ ومدّت يدها المرتعشة وشدّت عليه بكل ما أوتيت من عزيمة، لكنه كان ضخمًا يفوق قدرتها. عاودت المحاولة مرارًا؛ جذبت دفعت، حتى جرحت أطراف أصابعها، إلا أنه ظلّ صامدًا في وجهها وكأن القيد قد صُنع خصيصًا ليكسر إرادتها.
مرّ الوقت ثقيلًا يتقطّع مع أنينها. كل محاولة فاشلة كانت تزيد من انهيارها حتى خارت قواها وانهارت قرب الباب باكية.
رفعت يديها المرتعشتين إلى عنقها تتحسّس القلادة التي لم تفارقها منذ أن علّقها نيوار على صدرها. ضمّتها بقوة إلى قلبها وهي تردّد اسمه:
__نيوار... أرجوك لا تتركني وحيدة في هذا الجحيم...
نـــــيـــــواااار... أنقذني.

♡♡♡

كان جالسًا بين جنودهوقد أنهكتهم أيام القتال، لكن وجوههم لم تزل متّقدة بنشوة النصر. ألسنة اللهب البعيدة ما زالت تلتهم معسكر العدوّ، فيما يتردّد في الذاكرة صدى صرخاتهم الأخيرة شاهدًا على معركة لم تُبقِ لهم أثرًا.

جلس المحاربون في دائرة حول قائدهم يتبادلون حكايات الحرب. ليقول أحدهم وهو يمرّر كفّه على حدّ سيفه:
__ما رأيتُ قائدًا يهاجم كالذئب الشرس إلا أنت يا سمو الأمير كنتَ تفتك بهم فتكًا وتتنقّل بينهم كأنك ريح عاصفة.. لقد قذفتَ الرعب في قلوبهم قبل أن تطعن أجسادهم.
ليردف محارب آخر بحماس:
__حقًا.. أصبتهم بعاصفة نارية فاحترقوا جميعًا.. لا رحمة في سيفك لمن يقف أمامك.
ساد الضحك بينهم وارتفعت أصواتهم، لكن نيوار ظلّ صامتًا كأنّ شيئًا لا يعنيه، لكن للحظةٍ نظر إليهم نظرةً حادّة ثم رفع يده إشارةً إلى الصمت، فخبت الأصوات دفعة واحدة. أغمض عينيه يستشعر شيئًا ما... انقبض صدره والتفت بعنف كمن طُعن بخنجر خفيّ وقف دفعة واحدة. استعدّ الجنود حين رأوه، ثم قال بصوتٍ متقطّع بالغضب:
__أصابها مكروه.. ليست في القصر!
اندهش المحاربون لكن نيوار قبض على سيفه وانحدرت الكلمات من فمه كقسمٍ لا رجوع عنه:
__لن يهنأ أحد بلمسةٍ منها، أينما أخذوها... سأستعيدها.
انتقل مع جنوده إلى حيث دلّهم الأثر. كان صدى ندائها مشتتًا يتباعد ويتلاشى، لم يكن واضحًا؛ أحيانًا يختفي لحظة بين همسات الغابة ويظهر فجأة في اتجاه آخر. لذا كان يوقفهم بين الحين والآخر يرفع يده إشارةً إلى الصمت، يغمض عينيه لحظة ويعيد التركيز على ذبذبات صوتها، كمن يستمع إلى موجة دقيقة في بحرٍ هائج.. بقي يتبع أثرها ويتقدم أكثر نحو موضعها وفي كل خطوة كان قلبه يشتعل حزمًا، مستعدًا لمواجهة أي خطر يختبئ في الظلال.

الظلام يلتف حول الغابة، والأشجار الطويلة تتمايل بطريقة عشوائية، وأصوات أوراقها المتساقطة على الأرض تصنع إيقاعًا متقطعًا يشبه خفقان قلبها.
عيناها تتوسلان النجاة تبحثان عن أي أثرٍ للهرب، لكن دون جدوى.
وفي لحظةٍ مفاجئة اخترق الكوخ صدى خطواتٍ ثابتة، تتبعها صرخات شيطانية:
__أراكِ فتاةً مطيعة، جالسة بهدوء وتنتظرين عودتي... يبدو أن الليلة ستكون طويلة وممتعة.
التفتت إليه فزعة وزحفت مبتعدة على الأرض، أصابعها تخدش التراب في محاولة لخلق مسافة:
__ابتعد عني... أيها الخسيس!
كانت عيناه تتلألآن في الظلام بطريقة مخيفة، جلس قربها على عقبيه بابتسامته الحادة كشفرات، تثير شعورًا بالرهبة في كل جسدها. ليقول بازدراء:
__يبدو أن اقتراحي لا يعجبك... صدّقيني، لم أفكر إلا بكِ عرضت عليك أن نستمتع معًا وترفضين!... ثم إن سويعاتٍ قليلة تفصلك عن ملاقاة حتفك.
تمالكت نفسها وبصقت في وجهه، لكن رده كان صادمًا صفعة قوية جعلتها تتذوق طعم الدم في فمها:
__تتطاولين كثيرًا... ارحمي ضعفك، لا تجعلي غضبي يفور وإلا قضيت عليك، وأتورط من أجلك مع من أخبرتهم بإحضار القربان.
أمسك كتفها بقوة، جسدها الصغير تحت قبضته يشعر بالعجز المطلق. حاولت الإفلات لكنه شقّ قميصها نصفين بين يديه. مرّر أصابعه القذرة الطويلة على شفتيها، كل لمسة منه قطعت الهواء عن رئتيها.

هي الآن في مواجهةٍ وحشية لا ملاذ لها، لا أحد يسمع صراخها وكل حركةٍ خاطئة قد تعني النهاية. كل ما تبقّى لها هو الخوف المطلق. تسمرت في مكانها والذعر ينهش أوصالها بينما يداه تخطّان مسارًا على عنقها النحيل حتى توقّف عند وجهها.
__ما أطيب رائحة الطين حين تختلط بالخوف... كم سيكون جميلًا أن أذوقهما معًا.
كادت أنفاسه الساخنة تلامس شفتيها، واللحظة الحاسمة آتية... إلا أن صوتًا صاخبًا اخترق جدران الكوخ وارتجّت الأرض تحت قدميه. ألسنة لهبٍ غريبة اندفعت من العدم واقتحمت الباب الموصد بقوةٍ هائلة فتطايرت بوابته المتينة إلى أشلاء متناثرة.
ظهر نيوار واقفًا، عيناه تشتعلان كالجمر يده تقبض على سيفٍ أحمر يشعّ بوميضٍ أزرق، وخلفه جنوده مثل جيشٍ من الظلال والشرر. كان حضوره كفيلًا بأن يسحقه.
ارتبك الأخير للحظة وهو يبتعد بخطوةٍ غريزية، قبل أن يُخفي ارتباكه بابتسامة ساخرة.
تقدّم نيوار وصوته يقطر غضبًا:
__لقد تجرأتَ... ولم يكن لك أن تفعل.
ساد الكوخ صمتٌ مشحون، والكل ينتظر الشرارة الأولى للانفجار.
تراجعٍ خبيب خطوتين، ثم اعتدل في وقفته قائلًا:
__أهلًا بابن مملكة الأحمر... ما الذي أتى بك إلى جحري؟ أتخشى أن أخطف من بين يديك هذه البشرية الضعيفة؟
لم يردّ نيوار على استفزازه، عيناه كانتا تركزان عليه كما يركّز النسر على فريسته، وملامحه مشدودة نحوه بحدة. تقدّم إليه وسيفه يجرّ خلفه أزيزًا يخترق قلب خبيب.
أحد جنوده زمجر من خلفه مستعدًا للانقضاض، لكنه أشار بيده إشارةً حادة فأطبق الجميع صمتًا، تاركين المواجهة له.

ليقول بصوتٍ جهوري:
__أخطأتَ يا خبيب... بتفكيرك في اللعب معي!
ضحك خبيب ورفع يديه، فانطلقت من أصابعه شرارات مظلمة مثل خيوطٍ من دخانٍ متوهّج.
اندفع إلى الأمام بخفّة، وارتفع سيف نيوار بضربةٍ حاسمة تصادمت مع طاقة خبيب، فاهتزّ المكان كأنه ينشقّ نصفين.
وضعت إيليانا يديها على أذنيها وتموّجت الأرض تحت أقدام الجميع.
اصطفّ الجنود من الخلف استعدادًا للقتال، لكنه صرخ بهم دون أن يلتفت:
__لا أحد يتقدّم... هذا لي وحدي!
__إذن... فلنرَ أيّنا سينجو.
ارتفعت أصوات الحديد والنار داخل الكوخ، وكلّ ضربةٍ بين السيف والطاقة كانت تُزلزل المكان حتى بدا وكأن جدرانه ستسقط فوقهم في أي لحظة.
كانت إيليانا في ركنها يداها ترتجفان، تارةً تتنقّل بنظراتها بين نيوار الذي يقاتل كإعصار وخبيب الذي يحاول صدّ ضرباته وهو يتراجع شبرًا بعد شبر، وتارةً أخرى تضمّ رأسها إلى ركبتيها هربًا من هذا المشهد الذي لم يسبق لها أن رأت مثله.
ثم بلمحةٍ سريعة اخترق سيفه دفاع خصمه وطرح خبيب أرضًا. رفع نصل سيفه فوق عنقه، عيناه تتقدان غضبًاوصوته يزلزل المكان:
__تكلّم! من الذي أرسلك؟ ومن الذي كلّفك؟ إذا كنت تريد فرصةً للعيش، فتكلّم!
تشنّج جسد خبيب شفتاه تفتحتا كمن يوشك على الاعتراف ليخرج صوته متقطّعًا غير مفهوم. وما إن همّ بلفظ الاسم حتى تعثّرت كلماته وجحظت عيناه، انفتح فمه بلا صوت. حاول أن

يتكلم مجددًا، لكن كلماته خرجت مكسورة بلا معنى.
زمجر نيوار وهو يمسكه من عنقه:
__من؟ أجبني!
كانت التعويذة التي ألقتها نجمة قد أحكمت وثاقه، فلا يستطيع أن يفضح سرّها ولو أراد.
__تكلّم قبل أن أفصل رأسك! من هو سيدك؟!
تراجع نيوار وعيناه تضطرمان، ثم صاح بغضبٍ هادر وهو يرفع سيفه:
__فلتَفِض روحك فداءً له إذن... أيها اللعين!
وفي ومضة، تدحرج الرأس على الأرض بينما جسده انطرح ساكنًا في بركةٍ من الدماء السوداء.
__أينما كان سيّدك... سأجده. وسيكون مصيره مثلك! هذا إن لم يكن أشد.
بعد أن هدأ صدى السيوف وتلاشى وقع المعركة، لم يبقَ في الكوخ سوى رائحة الدم الثقيلة..
في الزاوية كانت أصوات أسنانها المتصادمة تتردّد في المكان كإيقاعٍ رتيب من الرعب.
لم يسبق لها أن رأت منظرًا مهولًا مثل هذا، حتى إن نيوار نفسه أرعبها وهو على تلك الهيئة.
جفّت دموعها من هول ما مرّت به، لكن عينيها ظلّتا شاردتين فارغتين بين بقايا صور الشياطين وملامح خبيب المقتول وقد تداخل الرعب مع الصدمة حتى خارت كل قواها وفقدت وعيها.
تحرّك نيوار مسرعًا إليها. خطواته التي اعتادت أن تكون صلبة في ميدان الحرب خفّت فجأة. حملها بين ذراعيه قائلًا:
__انتهى كل شيء... أنا هنا.
أحاطها ليجذبها نحوه برفق، كمن يضمّ شيئًا هشًّا يخشى أن يتكسّر بين أصابعه.

ارتطم رأسها بصدره، وما زالت أنفاسها متقطّعة، ليقول بصوتٍ غليظ يحمل بين طيّاته وعدًا ووعيدًا:
__والذي نفسي بيده... سأقتلع جذور كل يدٍ امتدّت إليكِ،كان وعدا عليَّ.

♡♡♡

كانت الملكة سبأ تمشي جيئةً وذهابًا في البهو الكبير خطواتها المضطربة تُحدث صدى يفضح قلقها، وعيناها مسمّرتان على البوابة تنتظران أن تفتح ليحمل خبرًا يطمئنها.
تقدّمت خادمة تحمل كأسًا من المهدّئ، لكنها أبعدته بيدٍ مرتجفة:
__لا حاجة لي بالمسكّنات... فما يحترق في داخلي لا يُطفئه شراب.
مرّ الملك الأحمر وإلى جانبه وزير القصر، لحقت سبأ بهما بسرعة تسأل:
__مولاي... هل من جديد؟
__لا أثر... لا خبر... ولا أحد يعلم من أين خرجت ولا إلى أين مضت.
تنحنح الوزير وأضاف:
__مولاي، لا أستبعد أن يكون وراء الأمر اختطافٌ منظّم... يدٌ خفية تترصّدها منذ زمن.
ساد صمتٌ قصير، ثم قال الملك بصوتٍ نافذ:
__سأستدعي حكماء الغابة... وأُرسل الحُرّاس لتفتيش الحدود بين العوالم السفلى. أريد أن أعلم... من تجرّأ ولمس ضيفتنا.
لتقول سبأ:
__لكنّي أخشى عودة نيوار الآن... سيظن أننا قصّرنا في حمايتها...
دخلت نجمة بثوبها المنسدل، وعيناها البراقتان مملوءتان مكرًا. قالت بصوتٍ مموّه بالحرص:

ـــأرى أنكم لا حديث لكم إلا عن الإنسية، ولذلك يا مولاي فكّرتُ مليًّا وربما علينا أن نكون أكثر عقلانية.. من يدري؟ لعلّها لم تُختطف أصلًا بل غادرت بإرادتها؟ ربما... لم تكن صادقة كما كنا نظن.

نظرت إليها سبأ بحدة:

ـــنجمة... كُفّي عن الافتراء! لا يُتّهم أحد بغير دليل.

ارتبكت للحظة لكن سرعان ما استعادت ابتسامتها الماكرة:

ـــأنا فقط أطرح احتمالًا... فليس من عادة من ينتمي لعالم البشر أن يستقرّ بيننا بسلام. لا بدّ أن وراءها سرًّا... أو دافعًا خفيًّا.

بلغ نيوار بوابة القصر.. تراجع الخدم بهيبة، وأحنى الحُرّاس رؤوسهم.

ـــافتحوا جناح الأطباء... حالًا!

صوته دوّى كالبرق، لا يحتاج إلى إعادة.

أسرع الخدم في تلبية الأمر وانتفض القصر من أقصاه إلى أقصاه، يستعد لاستقبال أميرهم الذي عاد منتصرًا من الحرب.

قال الجدّ الأكبر الذي حضر لتوّه برفقة الملك الأحمر:

ـــمن الذي تجرّأ؟ ومن الذي سيُحاسَب؟

لكن نيوار لم يرد، كل ما فعله أنه وضعها فوق سرير العلاج.

ثم التفت إلى كبير الأطباء وقال بصوتٍ صارم:

ـــأعد لي تقريرًا طبيًا عن حالتها، ولا يُسمح لأحد بسؤالي غيري عنها.

كان في عينيه شررٌ يكفي لإحراق القصر بمن فيه.

توجّه بحديثه إلى الملك الأحمر:

ـــأريد إذنًا مباشرًا... كلّ من دخل جناحها في غيابي أريدهم أمامي الليلة.

الخبرٍ وصل سريعًا إلى نجمة عبر وصيفتها نيلا التي انحنت قائلةً بخوف:
__لقد عاد الأمير من الحرب... ومعه زوجته الإنسية... إنها بين يدي الأطباء الآن، وقد أمر بالتحقيق مع كل من دخل جناحها أثناء غيابه.
تجمّدت أنفاس نجمة، ووضعت يدها على عنقها ثم قبضت عليها بشدّة تكتم اختناقا.
__مماذا؟ عاد نيوار؟ ومعه زوجته! لكن كيف؟
أشارت لها بحدة كي تنصرف، ثم بقيت وحدها تدور في غرفتها:
__كنتُ أظن أن أمرها انتهى... اللعنة... كالشوكة في حلقي، كالعقدة في صدري.
ضربت بيدها الطاولة، وكل كلمة منها تُطحن بين أسنانها:
__يريد أن يفتّش في كل ظلّ وكل خطوة! أعلم أنه أذكى من أن تنطلي عليه ألاعيبي... سيكتشفني عاجلًا أم آجلًا، لكن رغم براعتك في اقتفاء خيوطي الخفية إلا أنني...
تنفّست بعمق وحاولت أن تستعيد رباطة جأشها، ثم قالت تقنع نفسها:
__لا بأس... سأبعد الأنظار عني، ثم سأجد الطريق المناسب للتخلّص منها.
أخذت أمرها بعينيها، ثم خرجت متجهة إلى سبأ متصنّعة القلق لتستوضح منها تفاصيل ما يجري.
في جناحها الهادئ جلست سبأ متوترة، تحدّث زلفى بأسى:
__نيوار يريد التحقيق مع كل من دخل جناح إيليانا في غيابه... حتى أنا يا زلفى، استدعاني كأنه يشكّ بي!
وضعت زلفى يدها برفق على كتفها محاولة التخفيف عنها:
__اهدئي... هذا من حقه، ولا تأخذي الأمر على محمل شخصي، فما حدث يستوجب ذلك.

__لكن يا زلفى... لم أنسَ تلك الرسالة التي وصلتني عن ارتباطهما.
__ماذا تقصدين؟
قبل أن تكمل سبأ انفتح الباب ودخلت نجمة وهي تصفق بيديها بهدوء قائلة:
__أحسنتِ يا عمتي، أو يا سموّ الملكة.. يسرّني أنكِ بدأتِ ترين الحقيقة. أليس غريبًا هذا الاختفاء الغامض؟ ثم عودتها مع نيوار تحديدًا؟ وحتى تمثيلها الآن أنها تعاني في جناح الأطباء... كل هذا ليس سوى خطةٍ محبوكة لإضعاف ثقة نيوار بأهله.. شيئًا فشيئًا سينهار كل شيء ولا أستبعد أنها ستستولي على المملكة مع من هي تابعة لهم فشّن الحرب على القبيلة واختفائها في ذلك الوقت تحديدا لا أظنه سوى خطة محبوكة... بصراحة أشعر أنها تابعةً للسفليين.
رفعت زلفى حاجبيها بامتعاض وقالت:
__مهلًا يا نجمة... ألا تظنين أن كلامكِ مبالغ فيه؟
لكن سبأ قاطعتها بنبرة حزينة:
__لا يا زلفى... لعلّ توقعاتها تلامس شيئًا من الحقيقة في هذه الإنسية. نجمة لطالما حذّرتني من إدخال الغرباء إلى عالمنا ومملكتنا.. ألا ترين؟ جزء من توقعاتها تحقق... وأظن أن تمثيلها المرض قبل اختفائها لم يكن إلا لعبةً من ألاعيبها لتصرف أنظارنا عنها، ثم عودتها متزامنة مع عودة نيوار. من يدري كيف استطاعت خداعه وإيهامه بخطرٍ مزعوم!
أردفت نجمة:
__انجذب إليها كمن يُساق تحت تأثير سحرٍ خبيث، وعاد يتهمنا ويحاسبنا بدل أن يتفطّن لحيلها... ثم ستكتشفين بنفسك إن لم نُبعدها سريعًا، أن مكوثها بيننا لن يمر دون أن يجرّ وراءه غرائب وأهوال.

أخفضت سبأ رأسها، وعيناها تهربان إلى الأرض كأنها تخشى مواجهة الفكرة التي زرعتها نجمة في صدرها، بينما زلفى كانت قد ضمّت كفّيها وصمتت على غير عادتها، ولم تجد ما تردّ به.
لم تكن الكلمات وحدها ما فعلته نجمة، بل تلك النبرة التي خلطت بين الثقة والإقناع جعلت شكوكهما تتزاحم بلا استئذان.

♡♡♡

أجفانها المثقلة بالكاد تنفتح ورأسها يئنّ بثقل الصداع. لمحت من خلال ضوءٍ خافت سقفَ جناحٍ كبير لا تعرف تفاصيله لكن شيئًا غامضًا بثّ في قلبها سكينةً عابرة.
وما إن استوعبت المكان حتى رأت الملكة سبأ تجلس بجانبها، نظراتها غارقة في وجهها تحمل مزيجًا من التفكير والقلق. التقت عيناهما للحظة، لتقول سبأ:
__كيف حالكِ الآن؟
لم تستطع أن تجيب فورًا، لسعة حزنٍ اخترقت قلبها، ثم همست بصوتٍ ضعيف:
__أين هو؟
__هو الآن في القصر... لكنه ليس كما كان.
قطّبت إيليانا حاجبيها باستغراب:
__ماذا تقصدين؟ ماذا حدث؟
ارتسمت الصرامة على ملامح سبأ :
__أنتِ الآن بحاجة إلى الراحة، وما حدث ليس إلا صفحةً من أحداثٍ أكبر تحيط بهذا القصر... لكن صدّقيني، كل شيء سيعود إلى نصابه إذا عاد كل فردٍ إلى مكانه الطبيعي.
رفعت إيليانا رأسها، تحاول تماسك مشاعرها المبعثرة لكن سبأ أضافت كلماتٍ أشبه بجرسٍ ثقيل على قلبها:

__كانت زيارتكِ لعالمنا مليئةً بالأحداث التي لم تكن في صالحنا ولا في صالحكِ... ألا ترين أنكِ تأذّيتِ كثيرًا منذ أن وطأت قدماكِ أرضنا!
اغرورقت عيناها بالدموع لكنها آثرت الصمت، لتتابع سبأ بحزم:
__يؤسفني قول هذا، لكن أرى من الأفضل أن تتوقّف علاقتكِ بنيوار هنا... لا يمكن أن تستمر أكثر، ففي النهاية أنتما مختلفان في الخِلقة وفي كلّ شيء، ولن يكون قادرًا على حمايتكِ أو إسعادكِ كما تظنين... كنّا مخطئين من البداية حينما وافقنا على هذا الارتباط.
كلماتها كصقيع العاصفة على قلب إيليانا، زلزلت كل شعورٍ بالطمأنينة واندمل جرحٌ غائر في كبريائها وأنوثتها. كل ذلك اجتمع في دمعةٍ انسابت على وجنتيها بصمت.
لتضيف سبأ:
__هذا العالم لا يرحم يا إيليانا، يحتاج قوة لا تملكينها... واستمرارك هنا لن يجلب لكِ سوى المزيد من العذاب. الحب وحده لا يكفي لتعيشي بيننا.
_لكنني... لا أستطيع العيش بدونه!
تأففت سبأ مردفة:
__أنتِ لا تدركين... الأمر أكبر من الحب، إنه حياةٌ وبقاء وصراعٌ لا يرحم. قلبك قد يكون معه لكن جسدك وروحك لن تحتملان ما ينتظرك هنا.
توالت دموعها وهي تحاول أن تجد في نفسها الشجاعة لمواصلة هذا المسار الصعب، لكن رغم كل شيء كان هناك إحساسٌ عميق في قلبها يعاند الواقع، يعاند كل ما تقوله سبأ

بين الشكّ و الحقيقة

جلس في صدر قاعة التحقيق على الكرسي الأسود المزخرف بوشاح العدل الملكي. مهابته تسبق كلماته، وعيناه الثابتتان

لا تعرفان الرأفة، والصمت بين شفتيه هو البرق الذي يسبق العاصفة.
بدّل بذلة الحرب بثوبٍ أسود مطرّز بخيوطٍ فضية قاتمة ويتدلّى من كتفيه رداءٌ مخملي، تعلو رأسه قلنسوة ملكية يزيّنها رمز القيادة العليا. في تلك الهيئة لم يكن مجرد أمير القصر، بل صار تجسيدًا للعدل... رغم أن التحقيق من شأن رجاله وخدمه، أبى إلا أن يتولّاه بنفسه.
وقف الحارس الملكي بجوار الباب ثم انحنى قائلًا:
__مولاي... حضر جميع من استُدعوا للتحقيق... إلا الملكة سبأ.
رفع بصره ببطء، و لم ينبس بكلمة في البداية لكن خطوته الثقيلة التي أعقبت الصمت أربكت الهواء نفسه.
اقترب الحارس مترددًا، يظن أن الأمير سيتفهم الغياب بوصفه امتيازًا محفوظًا لسيدة القصر... لكن عينيه كانتا تحترقان بصبرٍ مكبوت، فقال ببرودٍ قاطع:
__لم أفهم!
ارتبك الحارس ليكرر:
__الملكة سبأ... لم تحضر يا سيدي، ما تزال في جناحها.
سقط الصمت مجددًا، ثم انطلقت كلماته بحدة:
__منذ متى يُعفى أحد من المثول أمام العدالة؟
ثم التفت إلى الحارس وصوته يقطر ثباتًا:
__خذ أربعةً من الحراس وادخلوا جناح الملكة، وأخبروها أن نيوار لم يستدع أمّه... بل استدعى أحد شهود الحادثة.
كانت سبأ متكَئة على أريكتها حين دخل الحارس الملكي فال،بلطف محسوب:
__مولاتي... الأمير يكرّر استدعاءه إلى جناح التحقيق. يؤكد أنكِ لستِ متهمة و إنما شاهدة، فقط لتتضح له الصورة.

في عينيها شيءٌ من التغطرس، لكنها سرعان ما تماسكت وتداركت أن تضع عنادها جانبًا، وتقف إلى جانب ابنها في محنته هذه.
دخلت قاعة التحقيق بخطى ثابتة يسبقها حضورها الملكي وعيناها تسألان قبل لسانها.
وقف نيوار وقدم لها التحية الملكية، مشيرًا إلى المقعد أمامه:
ــ مرحبًا بكِ يا مولاتي... أنتِ لم تكوني فقط ملكة القصر بل كنتِ حارس قلبي في غيابي.. لم أستدعكِ لومًا أو شكًّا،لكن لأناقش وأستوضح بنية صافية. أريدكِ معينةً لي على الأمانة التي على عاتقي لأرعاها بغير أذى.
طأطأت برأسها وهي تقول:
__نيوار... أظنّ أن هذه الأمانة قد آن أوانها لتُردّ إلى أهلها.
وخزته كلماتها بعمق، لكنه تمالك نفسه وسألها بهدوءٍ حازم:
__أمي... من كان يتردد على جناح إيليانا أثناء غيابي غير الخدم والوصيفات؟
__لا أحد غيرهم، أضيف إليهم نفسي وزلفى حين مرضت أردنا الاطمئنان عليها.
__مرضت؟
__نعم، ألمّ بها وهنٌ شديد وإعياء. ورجّحنا أن غيابك عنها كان السبب، أو ربما اشتياقها لأهلها وعالمها ثم إنك أول من يعلم أن غربتها ليست هينة.
سكت نيوار يحدّق في البعيد كمن يحاول جمع خيوطٍ متناثرة، مستحضرًا ما سمعه من شهادات الخدم والوصيفات والحراس. قطع شروده سؤال أمه:
__نيوار... هل أنهيت أسئلتك؟
أعاد نظره نحوها وقال ببطء:
__صبرًا يا أماه... لكن أخبريني بصراحة، من دخل أيضًا جناحها في تلك الفترة؟

صمتت لحظات قبل أن ترد:
__نجمة... دخلت معي لتطمئن على حالها بعدما بلغها خبر مرضها.
__إذن... كما توقعت.. الشرّ تسلّل إلينا من باب النوايا الحسنة.
رفعت سبأ حاجبيها بدهشة:
__ماذا تعني؟
__أمي... أعذريني، فأنا لا أشك بكِ قط، لكن عليّ أن أكون القائد... حتى في وجه من أحب.
ثم أضاف بصوتٍ حاسم فيه مزيج من الألم والعزم:
__من كانت معكِ ستُستدعى للتحقيق، وقبل أن تغادري أريدكِ أن تعلمي أني لا أملك رفاهية خيبةٍ أخرى.
كانت نجمة آخر من استُدعيت وقد أدركت مسبقًا أن لحظة مثولها أمام نيوار قادمة لا مفر منها. ومع ذلك فإن فكرة اختلائها به والحديث إليه كانت عندها أثمن من كل ما يجري حولها. دخلت بثوبها الأحمر القاني، يسبقها عطرها الفوّاح كنداءٍ خفي يستدرج الحواس. وكعادتها لم تُفوّت فرصة لفت الانتباه، مستندة إلى أنوثةٍ تحمل مكرًا لا يخفى.
رفع نيوار بصره نحوها وصمته كان كسيفٍ مُصلت. أشار بيده إلى الكرسي المقابل دون أن ينطق بكلمة..
جلست محاوِلة كتمان الارتجاف في صدرها، لكن نظرته لم تكن كما عرفتها... أو لعلها كانت ذاتها، إلا أنه أصبح يُحسن إخفاءها ببراعة.
سألها بصوتٍ جاف رسمي:
__هل دخلتِ جناح زوجتي أثناء غيابي؟
_دخلتُ مع عمّتي فقط... أردنا الاطمئنان عليها.
تمهّل في سؤاله التالي، وعيناه تخترقانها:

__وهل تركتِ عطرك هناك؟
ولم يكن يقصد العطر فحسب.
لعقت شفتيها قبل أن تردّ باستهانة:
__ربما قطرة على وسادتها... لعلّها تشعر بشيء من أنوثة الجنيات.. تلك المسكينة لا تعرف شيئًا عن عالمنا.
أومأ ببطء، ثم شبك أصابعه فوق الطاولة وقال بهدوء:
__لا تستهيني بها يا نجمة.. قلبها أصفى من عطرك وسكينتها أقوى من كل سلطانك.
بينما كانت تداعب خصلة من شعرها قالت بمكر:
_لكن أتساءل... ما الذي جعلك تُلقي قلبك في هوّة كهذه؟
__أهوى المختلف، أهوى التفرّد، وأحب شجاعة الإنسِيّات حين يتجرأن على دخول عالمنا. هل يكفيكِ هذا جوابًا؟
ابتسمت ببرود:
__وتهوى أيضًا اللعب بالقلوب... أليس هذا اختصاصك؟
__نجمة... أما زلتِ على حالك؟
_بل تغيّرت.
ردّ بحدّة:
__نعم... للأسوأ.
رفعت ذقنها بشموخ وقالت:
__الحكم حكمك... والقلب قلبك.. احكم كما تشاء فلن تغيّر شيئًا من رماد قلبي.
كلماتها تركت في داخله أثرًا لم يُرد أن يُظهره. ومع ذلك وقف صامتًا يتأملها حتى قالت ساخرة:
ـ أانتهى تحقيقك؟ ماذا استنتجت؟
لم تنتظر جوابًا، بل خطت بخطواتٍ سريعة نحو الباب. غير أن نيوار استوقفها وأمسك بذراعها، اقترب حتى لامست أنفاسه أذنها:

__اسمعيني جيدًا... لا تقتربي منها مرة أخرى ابقي بعيدة عنها وإلا...
ابتسمت وقالت متحدية:
_وإلا تفصل رأسي عن جسدي؟ هذا ما تجيده، أليس كذلك؟
هربت نجمة من مواجهة حقيقتها، فاختارت أن تُداري عيوبها تحت ستار الشفقة وتُلقي بالاتهام عليه بكلماتها الملتوية.
__ما يُخفى في الصدر أرهق من كل ما يُقال.
عاد نيوار إلى جناحه بعد انتهاء التحقيق خطواته مثقلة وصدره يغلي بالأسئلة والشكوك.
جلس أمام المرآة وخلع قبعته الملكية وحدّق طويلًا في ملامحه، يبحث عن صورته القديمة التي تلاشت خلف الغضب والخذلان.
كان يعرف نجمة حق المعرفة؛ يعرف حبها وشخصيتها المريضة، لكنه يعرف كذلك مكرها وخداعها.
بدأ يتمشى في الغرفة، كفّاه خلف ظهره و عيناه تترقبان فراغ المكان.
تجمّعت الإجابات في ذهنه ولم تفارقه صورة الحبل على المشنقة. فبعد ما سمعه من سبأ ورآه بعينيه، أيقن أن تقبّل وجودها بينهم قد تلاشى.
ثم إن نجمة تتقن اللعب وتتصنّع الود لتصل إلى هدفها ومتصنّع الود أخطر من صريح العداوة.
نجمة لم تعد مجرد ذكرى قديمة، بل صارت معادلة غامضة في قلبه... تستحق المراقبة لا الشفقة.
انتقل إلى الجناح الطبي، حيث كانت إيليانا تستلقي على سريرها شاحبة الملامح، ساكنة الجسد.
وقف يراقبها بصمت وكأن الزمن توقف عند ملامحها الضعيفة. ثم جثا على ركبتيه بجانبها، وأمسك بيدها الباردة

وبصوتٍ مبحوح اختلط فيه الشوق بالذنب، حدّثها وهو يُقبّل أصابعها المرتجفة:
__سامحيني... سامحيني يا نبض قلبي، ما كان ينبغي أن أتركِكِ وحيدة ولو لبرهة. لو كنت أعلم لما فارقتكِ حتى لو كان ثمن ذلك إنقاذ عالمٍ بأسره.
فتحت عينيها المثقلتين بالدموع، وخرجت كلماتها كهمسٍ حزين:
__تعبت من الغربة، ومن الخوف... ومن ظني أنني كنت عبئًا عليك.
أسند جبينه إلى كفّها، كما لو كان يطلب الغفران من أطهر ما في وجودها.
__لا تفكري في هذا ثانية... أعدكِ أن أعوّضكِ عن كل لحظة وجع، ويؤسفني ما مررتِ به بسببي.
اقترب حتى لامست أنفاسه أنفاسها المتعبة، يستمد منها إنعاشًا لقلبه:
__دعيني أُكفّر عن كل ما حدث... لن أسمح بذبوللكِ بعد الآن أعدكِ.
ارتفعت حاجباه، وتسللت إلى وجهه محاولة ابتسامةٍ لم تكتمل، ليقول:
__تذكّري أن القوة لا تولد من الأيام السهلة، بل من الوقوف صامدين في قلب العواصف.
__لكن...
__لا وجود لـ«لكن»... مسموح لكِ أن تمِيلي، لكنني لن أسمح لكِ أبدًا بالسقوط... هل هذا مفهوم؟
وببطء ضغطت على يده الراجفة، ليقاطعهما دخول سبأ:
__أوه، نيوار... توقعت أن أجدك هنا. هل استفسرت من الطبيب عن حالتها؟

أجاب وهو لا يزال ممسكًا بيد زوجته:
ـــليس بعد... لم أتفرغ لذلك حتى الآن، لكنني سأفعل.
وقبل أن يذهب، أضافت سبأ بسرعة:
ـــإذن... مجلس الشيوخ يستدعيك في الحال.
اعتلت وجهه علامات الدهشة ثم سرعان ما تبدّلت إلى صرامة، ترددت في ذهنه كلمات أمه التي ألقتها على مسامعه أثناء التحقيق:«آن الأوان أن تُردّ الأمانة إلى أهلها...»
طبع على جبين إيليانا قبلةً طويلة، فأغمضت عينيها على الفور تخزّن أثر تلك اللمسة في قلبها، عسى أن تمنحها بعض القوة.

مجلس الشيوخ! الآن.. وباستدعاء عاجل؟

هو مُدرك تمامًا سبب النداء، لكنه يريد أن يتأكد كي يتصرّف بحكمة.
اجتمع الحكماء يتوسطهم الملك الجد، وإلى جانبه ابنه الملك الأحمر فيما تبعتهم سبأ لتترأس مقدمة المجلس. كانت ملامحها حازمة ويبدو أنها تستعد لحسم مصيرٍ لا رجعة فيه.
تكلّم الجد أولًا:
ـــحفيدي نيوار... أقدّم لك تحية إجلال على انتصاراتك التي اعتدناها. لقد كنتَ دومًا موضع فخرنا في كل عودةٍ منتصرة من ميادين القتال، وبفضل حكمتك وقوتك تمكّنا من تهدئة الأوضاع السياسية ودرء ما هدّد قبيلة الأزرق. لكن سبب استدعائك هذه المرة ليس سياسيًا يا بني.
أخفض رأسه وبقيت قسمات وجهه متجهّمة، فهو يدرك أن الحديث التالي أخطر من صراعات السياسة.
واصل الجد كلامه:

__لقد استدعيناك لأمرٍ شخصي... يمسّك بعمق.
أخذ الملك الأحمر زمام الحديث، واضعًا يده على عصاه المرصعة بالأحجار المضيئة:
__اطلعنا على التقارير التي رفعتها والدتك الملكة بشأن حال ابنة الإنس وما جرى أثناء غيابك، والرسالة التي وصلتها وما قد يترتب على استمرار هذه العلاقة.
رفع بصره نحو أمه، لكنه ما لبث أن أطرق رأسه إلى الأرض.
لتقول سبأ:
__نيوار... عليك أن تتفهم ما أقول. لا أظن من العدل ولا من الرحمة أن تبقى إيليانا بيننا، وهي تذبل وتخاف وتتألم في عالمٍ لا تنتمي إليه. فقوانين الجن وعاداتهم أقسى مما قد تتحمله وكلما طال مكوثها ازدادت معاناتها.. لقد شهدنا زيجات سابقة بين الإنس والجن لكن قليلًا منها استمر، وغالبًا ما انتهت بخيبةٍ وانفكاك، لأن الفوارق عميقة والعبء أثقل من أن يحتمله بشر. لذلك اقترحتُ على المجلس أن تُعاد إلى عالمها... صونًا لحياتها وللقلب الذي تحمله ولأجلك، ولأجل نسلنا أيضًا.
ساد الصمت، وبدا القرار كسيفٍ قاطع يتأرجح فوق رأسه.
وبملامح ثابتة وصوتٍ لا يخلو من الحزم، سأل أمه:
__أيّ رسالةٍ هذه التي وصلتكِ... ولم تخبريني عنها؟
ترددت سبأ لحظة ثم أجابت بعد صمتٍ ثقيل:
__إنها رسالة خطيرة... من ساهن الرمادي.
__ساهن؟!
__نعم يا نيوار... مضمون الرسالة واضح: ارتباطك يجب أن يُلغى وإلا ستكون العواقب وخيمة، خاصةً إذا تعلق الأمر بنسلكما.
قاطعها بحركةٍ حادة من يده، إشارةً إلى أن تكفّ عن الكلام.
تلونت عيناه بلون اللهب الأحمر وفي داخله جالت صورة

نجمة... فاشتدت قبضته بقوة ثم تقدّم إلى وسط القاعة والنيران تستعر في داخله.
نظر إلى أمه طويلًا... تلك التي علّمته أن يكون قائدًا حاذقًا فإذا بها اليوم تحاول أن تنتزع من قلبه أعزّ ما يملك.
__أقدّر حرصكم عليّ... وعلى المملكة.. لكن معذرةً، هل قررتم مصيرًا يخص حياتي الشخصية دون أن تسألوني؟
تبادل الملك الأحمر نظرةً مع الجد.
واصل نيوار حديثه، وصوته يجلجل في القاعة:
__ابنة الإنس هذه التي باتت شغلكم الشاغل، ليست مجرد إنسية ضلّت طريقها إلينا... إنها أمانتي وبيننا ميثاق زواج عُقد في أرضكم وقصركم.. أعلم أن القوانين أقسى مما تحتمل وأعلم أن زواج الإنس منا نادرًا ما يكتمل... لكنني لست كغيري. أنا نيوار ابن هذه المملكة، الذي قاتل لأجلها وضحّى بشبابه من أجلها... أفلا يُسمح لي أن أقاتل مرةً واحدة من أجل نفسي؟
لتقول سبأ:
__يا بني... الحب لا يكفي أحيانًا.. ستأتي لحظة تنكسر أكثر مما هي عليه الآن، وستلومك لأنها لم تُخلق لتحيا بيننا... فتقبّل هذا.
__إذن... دعوني أكون أنا من يتحمل اللوم، لا أنتم.
ليقول أحد شيوخ المجلس بنبرة صارمة لا تقبل الجدل:
__نحن لا نستشيرك ولا نطلب رأيك... نحن نأمرك. عليك أن تعيدها إلى عالمها وأن تُنهي هذه العلاقة رسميًا. ذلك وحده كفيل بحماية مملكتنا، وحفظ حدودنا وأعرافنا.
ألقى نظراته على الوجوه الجالسة واحدًا تلو الآخر، ثم قال بصوتٍ خافت لكنه نافذ:
__وإن رفضت؟ إن لم أنفّذ الأمر... ماذا سيحدث؟
ترددت همهمات متوترة بين الحكماء، قبل أن يرد الشيخ

ببرودٍ قاتل:
__حينها لن تكون فوق القانون. ستُسحب منك صلاحياتك وتُجرّد من مكانتك في العائلة الحاكمة، وتُسلب قدراتك. لذلك نحذّرك يا نيوار... ستُنفى كأنك لم تكن، هذا إن لم تُسجن بسبب عصيانك.
ظلّ نيوار ساكنًا يحدّق بالشيخ، كأنما يحاول أن يخترق جدار كلماته ثم حوّل نظره إلى جدّه، إلى والدته، ثم إلى كل أعضاء المجلس، وقال بحزمٍ قاطع:
__إذن... طبّقوا القانون عليّ.. من هذه اللحظة اعتبروني عاصيًا.
ساد الصمت الثقيل وتبادل الحاضرون نظراتٍ متأججة.. قالت سبأ وقد تخلل صوتها خوفٌ حقيقي من الأحكام الجائرة: __نيوار بني... عد إلى رشدك، أرجوك... أنت أعقل من هذا.
لكنه ظلّ مطرق الرأس وصوته واثق، يختم قرارًا لا رجعة فيه:
__إذا كان قراركم قد حُسم، فقراري كذلك.
غادر القاعة تاركًا خلفه ذهولًا يتردد صداه بين جدران المجلس.

♡♡♡

وقفت تنظر إلى انعكاسها بتمعّن. عيناها الواسعتان تشعّان كبريق ليلٍ مضاء بالنجوم وشفاهها مرسومة بدقة، وتحيط بها هالةٌ من الجمال الفاتن. كيف له أن يقاومها؟ وكيف يجرؤ على استبدالها بإنسيةٍ ضعيفة؟
في تلك اللحظة، اندفع الباب فجأة لتدخل وصيفتها نيلا:
__مولاتي... هناك خبر عاجل يخصّ نيوار وزواجه.
_أخبريني ما الأمر... من دون مقدمات!
__لقد عُقد اجتماعٌ طارئ بحضور نيوار، وأمروه بإنهاء ارتباطه

بالإنسية وإلا فسيُنفى... لكنه رفض، بل تمرّد على أوامرهم وقَبِل النفي على أن يتخلى عنها.
اخترقت الكلمات صدرها كسكاكين حادة، وبدا تنفسها كدخانٍ يتصاعد من فوهة بركانٍ على وشك الانفجار. وقبل أن تضيف نيلا شيئًا، دوّي صراخ نجمة يزلزل المكان:
__كفيييي... انصرفي حالًا!
وما إن غادرت، حتى هوَت نجمة على سريرها كغصنٍ مكسور ودفنت وجهها بين كفيها وأخذت تردد من بين شهقاتها:
__ألهذا الحد تغلّبت عليك تلك الإنسية؟ أتترك سلطتك ومكانتك من أجلها؟!.. وأين أنا من كل هذا؟!
رفعت رأسها وملامحها ممزقة بين الغيرة والحقد، وهي تشدّد على كل حرف:
__أقسم... أنكما لن تهنآ معًا... ستدفعون الثمن غاليًا، كلكم من دون استثناء... بأي حق تختارها وتتمرد على القوانين؟ يبدو أنني أنا من سيعلّمك كيف تتأدب مع كبار المجلس.
فجأة، شعرت بيدٍ تلامس كتفها برفق.. استدارت ببطء شديد فوجدته يقف خلفها وعيناه غارقتان في صمتٍ عميق، لا غضب فيه ولا رحمة بل خذلان أثقل من أي سيف.
قال بصوتٍ هادئ لكنه قاطع كحدّ النصل:
__تطعنينني بخناجرك وسمومك، ثم تقولين أنكِ تحبينني؟ تبثين سمومك في أفكارهم حتى صاروا جميعًا ضدي وتترصدين خطواتي في كل حين، ثم تريدين أن أعود إليكِ؟ أي نوعٍ من الحب تحملينه يا نجمة؟
لم تتوقع حضوره في غرفتها، مسحت دموعها بارتجاف وبادلته النظر محاولة أن تلتقط خيط أمل، لكنها لم تجد إلا

وهجًا باهتًا يذوي. حاولت أن تبرر بارتباك وكلامٍ متقطع:
__نيوار... أرجوك... أنا فقط... أنا... أحبك يا نيوار...
قاطعها بصوتٍ مثقل بالخيبة:
__فوا أسفاه... لم أتخيل يومًا أنكِ ستكونين مصدر تعاستي.
همَّ بالمغادرة وفتح الباب، لكنه توقف حين أمسكت به مسرعة. احتضنت وجهه بكفيها واقتربت منه بعينين دامعتين:
__أرجوك لا تتركني... لم أكن أنوي أذيتك، لم أفكر إلا بأن تكون لي وحدي... يجب أن تشعر بما أشعر به يا نيوار...
في تلك اللحظة مرّت خادمتان في الرواق ورأتا المشهد من بعيد، فظنتا أنه لقاءٌ خاص وانسحبتا مسرعتين قبل أن يلمحهما أحد.

دفع نيوار نجمة بقوة، فارتطمت بجدار الرواق الضخم حتى تشقّق من أثر الصدمة لتسقط على الأرض مترنحة. اقترب منها ورفع سبابته مهددًا:
__ابتعدي عن طريقي وابتعدي عن كل ما يخصني... وإن لم تفعلي فسيكون حسابك عسيرًا. سأصفّي القديم والجديد معًا... فلا تختبري صبري يانجمة.
وغادر، تاركًا خلفه فراغًا ثقيلًا يلفّ المكان.
بقيت نجمة جاثية، تبتلع دموعها بصعوبة وتلملم ما تبقى من كبريائها، تحاول جمع شظايا نفسها من أرضٍ مكسورة.

يا لفداحة الضياع.. لقد تهدّمت كل خططها دفعةً واحدة.

وحين ضاقت أنفاسه بالخذلان رحل إلى الجبل الذي اعتاد أن ينعزل فيه كلما اشتعلت ناره الداخلية أو انخفضت طاقته.
كان الجبل شاهقًا وصخوره السوداء تحتضن أسرارًا قديمة فيما كانت الرياح تعوي بين شقوقه بصوتٍ يعزف على لهيب روحه.

جلس على صخرةٍ حادّة الحواف، وعيناه مسمّرتان في الأفق تبحثان عن فراغٍ يبتلع كل ما يثقل صدره.
ومع أول زفرةٍ عميقة خرجت من صدره، بدأت هالته تتشكل... لم تكن مجرد وهجٍ بل طيفًا متقلبًا، تارةً يشتعل بلونٍ أزرق كالبحر الثائر وتارةً يتوهج بلونٍ أحمر قانٍ كالجمر.
كانت الهالة انعكاسًا لما في داخله، فهو يعلم جيدًا أن غضبه إن تُرك من دون قيد سيحرق من يحب قبل أن يحرق أعداءه.
لذلك لجأ إلى المكان الأبعد، حيث لا يجرؤ أحد على الاقتراب.
رفع يديه فتوهجت شراراتٌ عند أطراف أصابعه، وتصاعدت كألسنة برق ثم أطلقها نحو السماء. كانت كل شرارة تفريغًا لجزءٍ من غضبه.
تصادمت أنفاسه مع الهواء، فأحدثت دواماتٍ نارية وكانت كل ومضة تحمل صرخةً مكتومة لم يستطع إطلاقها.
ومع كل ضربة برق كانت الصخور ترتج بفعل طاقته المتدفقة.
أخرج قلمه الأثيري ذاك الذي ورثه رمزًا من سلالته، وأمسك الرقعة و بدأ يكتب بعنف، حتى بدت الحروف نفسها تنفجر فوق الورق، يسكب فيها لعناته وحزنه وخيباته.
ومع كل سطر كانت هالته تخفّ شيئًا فشيئًا، وكأن القلم يشفط جزءًا من ناره ويحبسه بين السطور.
وحين انتهى، أسند يديه إلى ركبتيه وأغمض عينيه.. كانت الهالة ما تزال تحيط به لكنها باتت أخفّ، أشبه بضوءٍ خافتٍ يوشك أن يخبو.

♡♡♡

بينما كانت في جناح الأطباء تتلقى العلاج، أخذها التفكير في غياب نيوار عنها، تتساءل عمّا دار في مجلس الشيوخ الذين استدعوه، إذ بدا ذهابه إليهم غامضًا.
تسلّل القلق إلى صدرها وضاقت روحها بالانتظار، فقررت

الخروج قليلًا للتنزّه، لعلها تكسر رتابة الملل الذي أثقلها.
راحت تجول في أرجاء القصر بين ممراته التي كانت تدهشها دائمًا بجمالها الغريب، حتى خطر لها أن تتوجه نحو جناح الخدم، تنوي التقرّب من الخادمات والتعرّف إلى أعمالهن محاولةً أن تُلهي نفسها عمّا ينهش قلبها.
لكنها لم تكن تدري أن تلك اللحظات البسيطة ستحمل معها ما هو أشد وقعًا على روحها.
في جناح الخدم، كان المكان الكبير يضج بالحركة وكلٌّ منشغل بعمله، فيما كانت الأحاديث الجانبية تتطاير بينهم كشراراتٍ خافتة.
لتقول إحدى الخادمات:
__لو رأيتن ما رأيت! أظن أن الأمير نيوار يحنّ إلى حبه القديم.
أتبعت حديثها بضحكاتٍ كان وقعها كالسمّ على مسامع إيليانا التي كانت على وشك الدخول إليهن، لكنها ما إن سمعت اسم نيوار وذلك الحديث الغامض، حتى تراجعت خطوة إلى الوراء وبقيت تسترق السمع.
تجمّع الفضول في عيون الخادمات، فسردت لهن المشهد الذي شاهدته هي وصديقتها وقد ترك في قلبيهما أثرًا لم تستطيعا كتمانه.
لكن خادمة أخرى بادرتها بحدّة، رافضةً التصديق:
__مستحيل! نيوار لا يرى في الوجود سوى تلك الإنسية... يحبها حبًا أعمى بصيرته، ألم تسمعن أنه تحدّى الجميع من أجلها؟
غير أن الأولى لم تهدأ، وأسرعت تردّ بلهفة:
__اصمتي بالله عليكِ! أنتِ لم تري ما رأيته... أظن أن الإنسية كانت مجرد نزوة أو طيش، ثم إن الجميع يعلم بقصته القديمة مع الأميرة نجمة.

دخلت بخطوات هادئة لكنها حازمة، ما إن ظهرت عند مدخل الغرفة حتى تجمّدت جميع الخادمات في أماكنهن، رفعن رؤوسهن في دهشة مختلطة بالخوف والاحترام.
__السيدة إيليانا؟
ردّت أخرى بسرعة، محاولة استجماع رباطة جأشها:
__الحمد لله على سلامتك، سيدتي...
أما الثالثة، فابتلعت ريقها وقالت بقلق:
ـ هل تحتاجين مساعدة كان بإمكانك منادتي و سأحضر حالا دون أن تتعبي نفسك.
تقدّمت خطوة خطوة، وعيناها تتفحّصان وجوههن بدقة صوتها المنخفض خرج منها يحمل حزمًا وقوة غير متوقعة:
__كررن ماكنتن تتحدثن عنه الآن..
ادركن حجم الكاريثة التي فعلنها والتزمن الصمت.. كانت تقف أمامهن و عيناها تلمعان بالغضب، صوتها الذي ارتفع مزق صمت الغرفة:
__ألا تسمعن؟! أريد أن تقصو عليا مارأيتن!
ارتعدت مشرفة الخدم "سنابل" وحاولت تهدئتها:
__سيدتي... لو سمحتِ... كان حديثًا عابرًا، لا أكثر...
لكنها رفعت يدها في إشارة قاطعة، تخبر الجميع بأن أي كلمة أخرى ستكون بمثابة الشرارة:
__أظن أن كلامي مفهوم أريد سماع كل شيء... كل ما رأيتنه!
بدأت الخادمات تتلعثم تحاول إخفاء ما شاهدنه، لكن عينيها الغاضبتين اخترقت أي تمويه. شعرن أن صبرها الذي انكسر قد خلق هالةً من القوة حولها، تجعل أي كذب مستحيلاً.
لم تعد قادرة على التحكّم في مشاعرها، فثارت في وجوههن:
__لقد مللت الكتمان والهمس! لم يُختبر صبري هكذا إلا في عالمكم؟!
تحوّل الفضول الذي كان يسيطر على الخادمات إلى خوفٍ

حقيقي. وفي تلك اللحظة، قررت أنها لن تسمح بعد اليوم بأن تُخدع أو تُستثنى من الحقائق، ففي جميع الأحوال أصبحت جزءًا من هذا العالم.
خرجت من جناح الخدم مثقلة الخطى، تتوه بين ممرات القصر غريبةٍ ضائعة، تتمنى لو أنها تستطيع محو هذا الفصل والعودة ببساطة إلى عالمها القديم.
كانت فكرة الرحيل تطرق رأسها بإلحاح، وكلما حاولت صرفها عادت أقوى.
تذكّرت حديث سبأ حين زارتها في الجناح لتحدث نفسها:«في النهاية هي أمه، ولا بد أنها تعرف أكثر من أي شخص أنه لا يزال غارقًا في حب تلك الجنية»
وكانت تقصد نجمة.
«تنتمي إليه وعاشت معه، ليس ذلك فحسب بل قريبته أيضا أما أنا فبشرية غريبة عنه لا أناسبه ولا أناسب عالمه.»
كانت تلك الكلمات تتردد في أذنها كسكينٍ يفتت قرارها.
سرت قشعريرة في جسدها كأن البرد ينبع من داخلها، فقدت الثقة في كل شيء حتى في نفسها.
أرادت أن تناديه وتتحدث معه، لكن لا... فهو لم يكلّف نفسه حتى عناء زيارتها للاطمئنان عليها.
لذلك عادت إلى الجناح الطبي و إلى صمتها.
لن تواجهه ستتركه يختار.. وحين تراه ستطلب منه أن يعيدها إلى عالمها فقط.
__الجميع هنا يرفض هذه العلاقة... فكيف لحبّه أن يصمد تحت كل هذا الثقل؟

♡♡♡

بعد أن أفرغ غضبه في الجبل وهدأت طاقته، عاد إلى القصر وهو يجهل تمامًا ما جرى في غيابه. لم يخطر بباله أن

الخادمات لمحنه وهو يدخل غرفة نجمة، ولم يتخيّل أن الهمسات ستتداول بينهن حتى تصل إلى إيليانا.
لم يعلم شيئًا عن دموعها الثقيلة، ولا عن الريبة التي بدأت تنسج خيوطها حوله. كان غارقًا في صمته، مشتّتًا كمن أضاع الطريق بين قلبه وعقله.
تمدّد على سريره يحتضن الوسادة التي ما زالت تعبق ببقايا عطرها، يستنشق الذكرى فهي الحبل الأخير الذي يُبقيه على قيد الأمل.
نظر إلى جدران الغرفة وزواياها التي كانت يومًا تمتلئ بضحكاتها، واستحضر اللحظة التي حملها إليها أول مرة حين كانت عيناها تتوهجان بالدهشة والحماس، بينما كان قلبه يخفق بها.
كان الصمت مُطبقًا والغياب سيد المكان.
لم يذهب إليها... ليس لأنه لم يشتق إليها، بل لأنه لم يعرف ماذا يقول فمجلس الشيوخ استدعاه، والقرار ما زال معلّقًا بين السماء والأرض وهي حتمًا ستسأله، وهو وسط هذه الأوضاع المتوترة لا يملك لها جوابًا.
فآثر الابتعاد لعلّه يجد في العزلة ما يفتح له بابًا للفهم، غير مدرك أن غيابه كان أقسى عليها من أي مواجهة.
أما هي فكانت تتقلّب في سريرها تُصارع دموعها فلا تفلح.
__ألن يزورها، ألن يسأل عن حالها؟ أم أن نجمة استحوذت على قلبه فمحَت أثرها!
هذا ما كانت تفكّر به لتنفجر دموعها كالسيل، تسيل على وجنتيها بلا كفٍّ يمسحها ولا قلبٍ يضمّدها.
وفيما كان نيوار يترنّح بين قراراتهم وما يجب أن يفعل في هذا الوضع الصعب، غارقًا في صمتٍ مثقل بالقلق، طُرق

الباب:
__سمو الأمير، طاولة العشاء مع العائلة قد جُهِّزت.
_حسنًا، يمكنك الانصراف.
عند الطاولة كان والداه جالسين في أماكنهما، وإلى جانبهما عمّه وزوجة عمّه ونجمة التي جلست بكامل زينتها تنتظر حضوره بترقّب مدسوس.
رفع حاجبه وأمال الآخر قبل أن ينطق بصوتٍ حازم:
__كنت سأجلس، لولا أن شيئًا يثقل عليّ ويمنعني من البقاء في هذه الدائرة، لذا سأذهب.
رفع والده نظره إليه بتساؤل:
__إلى أين تذهب يا بني؟ اجلس قليلًا، نتشاور لعلنا نجد ما يريح قلبك وعقلك ثم اذهب حيث تشاء.
__لا يا أبي... أشعر بالشبع من كل ما يدور في القصر.. أمي، لا تنسي أن تطمئني على إيليانا فهي لا تزال زوجتي إلى حدّ الساعة.
تبادلت سبأ نظراتٍ مع زوجها بصمت، بينما كانت نجمة ترمقه بعينين حافلتين، تهدف إلى لدغ قلبه قبل أن تحاول إصابته.

♡♡♡

سلك طريقه نحو سيف اللّٰه الحارق، ذلك الملاذ الذي يخفف عنه وطأة الشعور ويجد فيه راحته دائمًا، على أمل أن يضيء له دربه كما يفعل دائمًا.
كان غارقًا في ورشة عمله بين أسلحته واختراعاته كعادته حتى دخل نيوار.
– أهلاً بك يا صديقي... لم أتوقع حضورك الآن. عدتَ من الحرب كما عهدناك سالمًا!
أتبع كلامه بالضحك، لكن نيوار لم يتفاعل.. تاهت عيناه فوق

الطاولة المزدحمة بالرماحِ والخناجر والسيوف، ثم التقط واحدًا منها، يقلبه بين يديه قائلًا:
__الأسلحة تتشكل بين يديك كأنها تعرف أنك والدها.
ابتسم سيف اللّٰه وهو يمسح يديه بقطعة قماش:
__أحاول فقط أن أطور ما ورثته... بعتُ مؤخرًا مجموعة لقبيلة الأزرق ونلتُ مقابلها مخطوطات طاقية نادرة. ربما أبتكر شيئًا لم يسبقني إليه أحد.
جلس نيوار على المقعد، والسلاح ما يزال بين يديه... لكنه لم يكن يراه. عيناه مثبتتان عليه إلا أنه شارد في مكانٍ آخر.
فهم سيف أنه ليس على ما يرام، فقال:
_هل أنت بخير يا صديقي؟
__لا... لست بخير يا سيف.
_الأمر واضح... زوجتك الإنسية، أليس كذلك؟
أومأ نيوار وقصّ عليه كل ما حدث. ليقول سيف متحسرًا:
_هذا ما كنت أخشاه يا نيوار منذ اليوم الذي أخبرتني فيه بحبك لها.. صحيح أنني دفعتك إلى الزواج بها لأنني أردت أن تخوض التجربة، لكنني كنت أعلم أن الأمر محفوف بالمخاطر... قليلون من الجن نجحوا في الارتباط بالبشر. أغلبهم انتهى زواجهم بالفشل، بعضهم فقدوا أرواحهم وبعضهم نُفوا إلى الأبد عن عالمهم، تائهين بين العوالم حتى انقضت أيامهم.
توقف قليلًا ثم أكمل بهدوء أثقل:
_الأمر ليس سهلًا يا نيوار... لكنه قدرٌ علينا أن نعيشه إن أردنا أن نرتقي بأرواحنا.
صمتٌ ثقيل... ثم وقف سيف واتجه إلى رفٍّ خشبي قديم سحب لفافة جلدية وفتحها ببطء، فتكشّفت خريطة عتيقة مرسومة عليها مسارات متشابكة ورموز غامضة وبوابات

خفية.
_أنظر... هذه ليست مجرد خريطة. إنها تقود إلى مكان يُسمّى عين البصيرة.. ليس مكانًا بل اعتبره بُعدًا طاقيًا. يُقال إن من يدخلها تتجلّى له نوايا قلبه، وما عليه أن يفعله.
ثم التفت إليه بابتسامة واثقة:
_لنذهب سويًا. هناك ستعرف قلبك، وإذا عرفت قلبك... عرفت ماذا تفعل.
اتسعت عينا نيوار بدهشة لم يتوقعها، ولأول مرة منذ أيام ارتسمت على شفتيه ابتسامة:
__«عين البصيرة»... وهل تظن أن قلبي سيصمد أمامها؟
ضحك سيف وربت على كتفه:
__سنجرب!

♡♡♡

في تلك اللحظات التي تجمّدت فيها الحياة حولها، كان قلبها يئن تحت وطأة الشكوك والخيبات، وكانت أفكارها تتسابق في كل اتجاه.
بدموعٍ حارقة ونبرةٍ مهزوزة من الحزن والخذلان، حدّثت نفسها:
__كم كنتُ غبية حين اعتقدت أنني شجاعة بما يكفي لأواصل معه في دربه!
قالت ذلك وهي تحدّق في البعيد، حيث لا وجهة تعيد لها بصيصًا من الأمل.
ظلت الأسئلة تطاردها في عتمة الليل والدموع التي تنهمر من عينيها كانت أشبه بفيضٍ لا يهدأ.
تشعر أن كل لحظة تمضي كسكاكين تفتك بروحها،شيئًا ما يتفكك داخلها.
تمنت لو أن هناك من يسمع أنينها، أو من يهتم بما تحمله تلك العيون الحزينة من آلام.

كل شيء صار شديد الغربة...
وفجأة شعرت بشيءٍ غريب.. نبض قلبها أصبح ضعيفًا وتلاشت الرؤية حتى رأت نفسها تغرق في بحرٍ لا شاطئ له تتنفس بصعوبة بالغة.
بدأ صوت الإنذار المنبعث من جهاز المراقبة الخاص بعالمهم يعكر صمت الليل، وصار أكثر حدةً وإلحاحًا، ليهرع الأطباء.
بينما كانوا منشغلين بفحص حالتها كان قلبها يبطئ بشكل غير طبيعي... استسلم جسدها الهزيل لما يمر به من ضعفٍ شديد فتوقفت قدرتها على المقاومة وانغلقت عيناها ببطء.
في تلك اللحظة لم تعد تسمع الأصوات التي ملأت الغرفة، ولا تدرك حركة الأطباء فقد انفصلت تمامًا عن كل ما يحيط بها.
ربما جسدها قد خَدَّر نفسه من شدة ما يعانيه، فتوقفت استجاباته شيئًا فشيئًا حتى غابت عن الوعي.
أخيرًا قررت سبأ أن تطمئن على حال زوجة الابن المنبوذة.
توقفت عند باب المدخل لتجد المكان يعجّ بحركة الأطباء وأصوات الأجهزة تختلط بأوامرهم السريعة.
__ما الذي يجري؟ أخبروني ماذا أصابها؟
توزّعت النظرات المرتبكة بين الأطباء، ثم أجاب أحدهم:
__حالتها تدهورت فجأة...
حاولت أن تتمالك نفسها واستدعت نيوار مرارًا وتكرارًا، لكن لا ردّ ولا حضور منه.
مضت الدقائق ثقيلة وازدادت ملامحها اضطرابًا، لم تعد قادرة على الانتظار أكثر، فاستدعت هذه المرة زوجها الملك الأحمر.
لم تمضِ لحظات حتى دخل بخطوات واثقة وقسماته تحمل هيبة لا تُخطئها العين. نظر إلى زوجته أولًا، ثم إلى الباب الموصَد حيث أصوات الأطباء فقرأ المأساة قبل أن تنطق أي كلمة.

__لا أعلم ما الذي حدث لها فجأة... أخشى أن يصيبها مكروه.
ناديت نيوار لكنه لم يجب.
ثم تابعت بغضب:
___المصائب تتوالى علينا.. أرأيت مالذي يحصل!.. كل هذا بسبب نيوار، يُحملنا مسؤلية مالاطاقة لنا به.. أن نُحاسب عند الله بسببها هذا آخر ماكنت أتوقعه.
قطّب الملك الأحمر حاجبيه متسائلًا في حيرة:
__لكن لماذا نُحاسَب؟
لتردّ عليه: __ألا تُعدّ خطيئة؟ نحن من الجن وهي إنسية... ألسنا بذلك قد تعدّينا على عالمٍ لا يخصّنا؟
رمقها الملك الأحمر بنظرة مذهولة، فقد هزّت كلماتها يقينه، ثم قال بسرعة:
__لا، لا تقولي هذا يا سبأ.. نحن لم نختطفها، هي من اختارت أن تسلك هذا الطريق بمحض إرادتها. نيوار لم يجبرها بل هي تركت عالمها طوعًا... دعينا ندعُ الله أن ينجيها بسلام، ثم سنرى في الأمر. فنيوار بفعلته هذه قد حطّم كل المقاييس.

♡♡♡

بدأ الجسر أمامهما؛ أحجاره زرقاء مضيئة ممتدًا بين ضفّتين غامضتين وتحتَه نهرٌ من الضوء، تتحرك فيه صور تُدرك بالقلب لا بالعين.
وقف سيف عند الحافة وقال بصوتٍ حازم:
__من هنا لا عودة بلا بصيرة... إن خطوت، سيظهر كل شيء أمامك وتنكشف لك الحقيقة التي كنت تخشاها أو تنكرها.
نظر نيوار إلى الأمام وقال:
__وماذا لو كانت الحقيقة لا يمكن احتمالها؟
أجابه سيف بثبات:
__هذا هو الامتحان... أن تتحمّل الألم وتحفظ من تحب في

الوقت نفسه.
تنفّس نيوار بعمق وتقدّم خطوة، ثم أخرى.
ومع كل خطوة أضاءت الحجارة تحت قدميه، وظهرت في نهر الضوء مشاهد من حياته: إيليانا وهي تضحك... تبكي...
تتجلّى. وصورته هو صامتًا، مترددًا.
ثم تجلّت صورتها بوضوح أكبر من الصور الأخرى، تحدّق به.
توقف ورفع صوته بقرارٍ حاسم:
__أريد أن أحتفظ بها أكثر من أي وقت مضى..
فانفتح الجسر بنوره وانكشفت طريق العودة من أمامه، اندفع نحوها بخطوات ثابتة.
ثم خرج من سرّ عين البصيرة وهو يعرف ما يريد، وعيناه لا تخشيان المواجهة.
وعندما رآه سيف يعود من الضفة الأخرى، قال بصوتٍ منخفض:
__ماذا تبيّن لك؟
_كنت أظن أن الحب شعور فإذا به عهد ومسؤولية... رأيتها في قلبي بوضوح.. إن لم أعد إليها أقوى سأفقدها... وإن عدت كما يجب، ستحملني في قلبها ما دامت على قيد الحياة.
تشاور نيوار مع سيف طويلًا حول مصير علاقته بزوجته وأهله، حتى اتخذ قرارًا لا رجعة فيه.. قلبه الذي كان مضطربًا بدأ يهدأ والطريق صار واضحًا أمامه. لم يعد للتردد مكان، فقد حسم أمر و سيواجه حقيقته.
عاد إلى القصر متجهًا نحو الجناح الطبي. لكن ما إن اقترب من الرواق المؤدي حتى توقف..
كان والداه واقفين أمام غرفة إيليانا وتتداخل في نظراتهما الحيرة والقلق.
ضربت الصدمة قلبه. للحظة شعر أن الزمن توقّف وأن اللقاء الذي تمنّاه يومًا بينه وبين والديه جاء في أكثر اللحظات قسوة

اقترب بخطوات متسارعة والقلق يرتسم على ملامحه.
استوقفته نظرة أمه الحزينة، بينما كان والده يرمقه بتساؤلٍ حاد:
__أين كنت يا نيوار؟ انتظرناك طويلًا... ما الذي يحدث معك؟
تردّد،. عالقًا بين عيني والديه وباب الغرفة المغلق.
_بل أنتما أخبراني... ماذا يحدث؟ ولماذا أنتما هنا؟ ولما لم تناديانى؟
نظرت إليه سبأ مطولًا، تحمل في عينيها ثِقل الكلام الذي لم يُقل:
__ناديتك كثيرًا... وناصحتك أكثر. حذرتك أنها لا طاقة لها بعالمنا، ووضعتك تحت حكم المجلس كي تعود إلى رشدك قبل أن يتفاقم الأمر... لكنك لم تُصغِ، بل اعتبرتني...
لم تكمل حديثها، فقد اخترقت كلماتها قلبه كطعنة.
اندفع متجاهلًا كلامها واقتحم الغرفة، ليجد مشهدًا أشد قسوة.
كان الأطباء في حالة استنفار، والأجهزة تصدر أصواتًا متلاحقة والوجوه متجهمة.
في تلك اللحظة لم يعد يملك سوى قلبه المعلّق بها، وأملٌ يتشبث به بكل ما بقي فيه من قوة. كان يعلم أن جسور العلاقات مهما كانت متينة، لا بد أن تعصف بها الرياح، إما لتهزّها حتى أقصاها أو لتُسقطها.
لم يكن هناك شيء يمكن أن يهيئه لما رآه.
هناك... وسط الأجهزة والأطباء والطاقة المنخفضة كانت مستلقية على السرير، جسدها ساكن وكأن الحياة قد انسحبت منه، فانهار كل ما بداخله دفعةً واحدة.
ركض نحوها، لكن الأطباء وقفوا حائلًا بينه وبينها ليعلو صوته كالرعد:
__يجب أن تفعلوا أي شيء لإسعافها، وإلا ستنالون حتفكم

جميعًا...
أمسك الطبيب ذراعه محاولًا تهدئته:
__سمو الأمير... نحن نبذل كل ما بوسعنا لكشف علتها وتدارك مضاعفاتها، لذلك أرجوك ألا تشتّت تركيزنا.
جثا على ركبتيه، وقال بصوتٍ مكسور:
__يا من بيدك نفسي ونفسها، لا أسألك ردّ القضاء لكن أسألك اللطف فيه.

♡♡♡

مرّ يومان على غيبوبة إيليانا، وكان نيوار يتردد على الأطباء لعلّه يجد جوابًا يطفئ قلقه. لكن كلماتهم كانت واحدة، تتكرر ببرود:
__ستستيقظ... لكن لا نعلم متى، لا نستطيع تحديد المدة.
جلس في رواق الجناح تائه الخطى، مشتّت التفكير إلى جانبٍ أمه التي كانت ترافقه، وقد أسدل الصمت بينهما ستارًا ثقيلًا.
كان قلبه يعتصره الألم وعيناه غارقتين في بحرٍ من الحزن.
لتكسر سبأ الصمت:
__بعد كل ما يحصل، ماذا قررت يا بني؟
كانت كلماتها، رغم ما تحمله من حقيقة ليست في الوقت المناسب بالنسبة إلى نيوار.
__أمي، بالله عليكِ هل هذا هو الحل الأنسب؟ هل أنا حقًا ابنكِ؟ هل تشعرين بي؟
كانت كل كلمة تجرفه أكثر نحو الهاوية.
شعرت سبأ بكمّ الحزن الذي أحاط بعينيه وهو يرمقها بهما فاحتضنته بين ذراعيها.. وفي تلك اللحظة كان كطفلٍ صغير يحتضن أمه في صمتٍ طويل، محاولًا الاختباء من كل الهموم في صدرها الحنون. فرغم رباطة جأشه، يبقى حضن الأم الملجأ الوحيد الذي يخفف وطأة الشعور مهما اشتدّ.

من زاوية المدخل كانت نجمة تراقب هذا المشهد وعيناها تغرورقان بالدموع. فهي الأخرى تشعر بالألم، لكنه ألم مختلف؛ ألم مشحون بالانتظار وبالنوايا الخفية التي بدأت تتسلل إلى قلبها وكل ثانية تمضي تكشف لها جانبًا آخر من الحقيقة.
تأملت ذلك المشهد النادر الحدوث، لكن الإنسية هي من أوجدته.
رسّخت سبأ يقينها بأن حالِ ابنها أعمق من أن تداويه الكلمات وظل الصمت يحلّق حولهم.
لتخرج نجمة من ظلالها واقتربت في جوٍّ ممزق. شعرت أن اللحظة قد حانت، وأن تغييرًا يلوح في الأفق حتى لو جاء على حساب الألم.
نظرت إليها سبأ، لكن نيوار لم يبالِ بمن اقترب. كانت جفونه متورمة وتشعّ بالحزن العميق، إلا أن عينيه رغم ألمهـما، ما زالتا تسحرانها.
توجهت نحو النافذة التي تطل على غرفة إيليانا فلمحت وجهها الشاحب الذي لا يحمل سوى علامات الغياب.
نظرت إليها بحقدٍ دفين وكرهٍ لم يستطع قلبها إخفاءه:
__تمنيت لو أنكِ رحلتِ إلى الأبد، أو عدتِ إلى عالمكِ حيث تنتمين، لكن وجهكِ يا إيليانا هو ما يمزق روحي لأنه السبب في كل هذا الألم الذي يعانيه نيوار... لا أستطيع إلا أن أراكِ مصدر شقائه.
أغمضت عينيها بشدة، تحاول أن تدفع مشاعرها بعيدًا عن قلبها لكن الكلمات التي لم تُقل كانت تتناثر في ذهنها كرصاصٍ مؤلم.
اتكأت على الحائط وعيناها تراقبان السكون الثقيل الذي خيّم على المكان:
__كل هذا بسببها... يبدو أنها نجحت فعلًا في أن تصنع لنفسها موطئ قدم بيننا.

تأملت حال نيوار، فلم تره يومًا على هذه الصورة من قبل.
عقدت حاجبيها بغضب:
__أيعقل أن يحدث كل هذا من أجلها؟ ولماذا أنا دائمًا على الهامش؟ ألا يستحق قلبي أن يُحزن لأجله هكذا؟
قبضت على يديها بشدة تحاول كبح انفعالها، ثم اندفعت بخطوات سريعة نحو سبأ وأمسكت بيدها وقادتها إلى النافذة المطلة على غرفة إيليانا، ثم قالت بصوتٍ معاتب:
__انظري إليها... ألا يُفترض أن تكون الآن في عالمها بين أهلها يتكفلون هم بعلاجها أو حتى بموتها؟.. أظن أن مكانها ليس هنا بعد كل ما حدث ويحدث!
لم تجب سبأ واكتفت بالصمت وهي تحدّق في وجه إيليانا.
ثم تابعت نجمة بإصرار:
__انظري إلى حال نيوار... مجرد رجل فقد عقله، غارق في دوامة لم يعرفها من قبل. أهذا هو ابنك الذي تعرفينه؟
هزّت سبأ رأسها وقالت:
__وما عساني أن أفعل؟ كلنا نصحناه بأن يعيدها إلى عالمها وينهي زواجه منها، لكن الأحداث تتسارع وتربكنا جميعًا. لم نعد نعرف ما القرار الصائب!
_جيد جدًا يا عمّتي... يبدو أن تلك الإنسية لم تكتفِ بنيوار، بل نجحت أيضًا في الاستحواذ على عقولكم.. وما أدراكِ أن غيبوبتها ليست سوى حيلة منها لتبقى مدة أطول بينكم، ريثما تجد وسيلة تجعلها جزءًا من عالمنا؟
ثم انصرفت تتمتم بتهكم:
__عجيب... كيف أصبح الجميع بلا عقل.. عجيب كيف استطاعت أن تتلاعب بكم وتستولي عليكم كما تشاء!

انتقلت نجمة إلى غرفتها وهي تعضّ أناملها من الغيظ:
__لهذا الحد ليس لي وجود بينكم؟.. خُلقتُ من ذات النار التي خُلقتَ منها، ننتمي إلى ذات السلالة وقاسمتك العيش منذ كنا صغارًا... أليس هذا كافيًا؟
ضغطت على قلبها المرتجف وقالت بسخريةٍ مُرّة:
__وتقع في عشق إنسية دخيلة ضعيفة؟
اشتعلت نيران الغيرة في أعماقها وتاهت نظراتها في أرجاء الغرفة، تبحث عن شيءٍ تُثبّت به جنونها.
ثم دخلت في دوامةٍ من الجنون، لتخرج من غرفتها مسرعة خطواتها لاهثة، تتلفّت خلفها بحذر...
وتوجّهت بخفة الجنّ وسرعتهم إلى جناح نيوار وإيليانا.
دفعت باب الغرفة ودخلت... توقفت في منتصفها، تنظر حولها بنظراتٍ حارقة.
هناك كان السرير الذي طالما حلمت أن تشاركه معه شاهدًا على عشقٍ ليس لها.
ثم التفتت نحو حامل الملابس، فوقعت عيناها على وشاح نيوار الملكي.
مدّت يدها نحوه واستنشقته بجنون، لكن ذلك لم يُطفئ نار قلبها. فاتجهت إلى خزانة إيليانا وبدأت تفتّش بين ثيابها حتى وجدت ذلك الثوبِ الذي ارتدته في أول يومٍ لها في القصر.
حدّقت فيه مطولًا تودّ لو تمزقه، ثم خلعت ثيابها وحاولت ارتداءه، لكنه كان ضيقًا يضغط على جسدها ويعاند شكلها.
أما رائحته فكانت قوية وغريبة عنها؛ فرائحة الطين لا تشبه بتاتًا رائحة النار، تعبق بعطرٍ لا يشبه عطور عالمهم.
__رائحة الإنس أيعقل أن يكون هذا هو السر؟ هل عطرها أقوى من عطري؟
وبينما كانت شبه عارية والفستان بالكاد يغطيها والجنون يعصف بعقلها، فُتح باب الغرفة...

دخل نيوار بخطى ثقيلة وعيناه نصف مغمضتين، طاقته منخفضة جدًا. كانت تبدو عليه علامات الإرهاق وكأنه عاد من حربٍ طاحنة للتو. أغلق الباب خلفه دون أن يلتفت...
نزع عباءته الملكية ورماها أرضًا بلا اهتمام.. أما نجمة فقد تجمّدت في مكانها، لا تدري إلى بأي فعلٍ شيطاني وقعت..
ارتمى على سريره غير آبهٍ بما يحدث حوله فقد جعلته طاقته المنهكة يبحث عن مأوى، عن راحة، عن ظلٍّ يحمل رائحة من يحب.
لم يلحظ شيئًا ولم يشعر بوجودٍ غريب خلف الستار.
ثبتت عيناه الشاردتان في السقف وهو يغوص في بحر لحظاته. وفي وسط هذا الضياع والشتات، لم يملك عقله إلا أن يعود به إلى ذكرياتها؛ يوم كانت في عالمها تمشي بخفة بين صديقاتها في حلقات المسجد وضحكتها النقية، وصوتها العذب وأحاديثها..تذكّر ظهوره الأول لها وتذكّر تلك الرهبة في عينيها ثم الألفة ثم الحب ثم الذوبان.
تذكر دمعتها يوم أرادوا تزويجها دون رضاها، وانكسارها في كل ليلة بعد أن غادرها. وتذكّر تلك اللحظات التي وطأت فيها قدماها عالمه لأول مرة؛ ذهولها من عظمة المكان وفضولها الطفولي، ارتباكها من مخلوقاتٍ لم ترَ مثلها قط.
ثم تذكّر تلك اللحظة التي تعلّقت به كأنه نجاتها الوحيد..
ربما يصعب عليها أن تكمل الدرب معه، لكن كيف له أن يكمله من دونها؟ فهي تحييه كل يوم بتفاصيلها ونظراتها، وبكل شيء. لم تكن إيليانا بالنسبة له مجرد امرأةٍ من طين... بل كانت التردد الروحي الوحيد الذي استطاع أن يطفئ لظى نيرانه الملكية ويمنحه شيئًا خارقًا لطبيعته.
بينما هو منصهرٌ بذكرياتها، كانت نجمة مختبئة خلف ستار النافذة.تتنفّس من وراء فستانٍ لا يشبهها، تنظر إليه كمن يرى حلمه المستحيل، ممددًا هناك فاتحًا ذراعيه غارقًا في

حبٍّ ليس لها.
حاولت الخروج دون أن يراها، لكنه لمح صورة إيليانا أمامه...
مشوّهة ضبابية كأنها نسخة باهتة خرجت من حلمٍ ثقيل.
حاول عقله الإمساك بالوضوح:
__أهذه إيليانا؟ لا... ثمة شيء ناقص.. العطر حاضر... لكن الروح غائبة، الملامح أنثوية لكن الدفء مفقود. تلك العيون... غريبة. ليست هي!
وفي ذروة التشوّش، أفاق من سُكر الوهم لتتضح له الرؤيا: نجمة بهيئتها المبتذلة بجرأتها، بسطوتها المزيّفة ترتدي ثوب إيليانا الضيق في قعر داره!
فانفجر الغضب في ملامحه و رفع يده وصفعها بقوةٍ ساحقة جعلت عروق وجهها تتصلّب من شدّة الألم:
__أجننتِ! لماذا أنتِ في غرفتي؟ كيف وصلتِ إلى هنا ومن سمح لكِ بالدخول؟
وضعت كفّيها على وجهها تخفي العار والخذلان في آنٍ واحد. لا تدري أتهرب منه أم تستجديه الرحمة. ثم قالت بصوتٍ متقطّع يتوسّل الفهم:
– كان يُفترض أن تكون هذه غرفتي.. أنا أولى أن أكون زوجتك! كل ما منحته لتلك الإنسية كان من حقي أنا.. أمضيتُ عمري أنتظرك لتربطني بك... ثم تأتي.. بكل قلبٍ بارد بإنسيةٍ لا تعرف عنك شيئًا وتتزوجها وتكسر كل القوانين من أجلها!.. وتجعلني مجرد ظلٍّ في أرشيفك! بينما أنت هدفي وكل حياتي!
كانت تتمزّق أمامه عارية القلب، مهشّمة الكرامة.
وفي الخارج كانت سبأ تقترب من جناح ابنها.. حملها الشوق والقلق للاطمئنان عليه... لكن ما شدّها أكثر صوت أنثى تبكي بحرقة.

توقفت فجأة:
__أيُعقل أن تكون... إيليانا قد استفاقت ونُقلت إلى جناحها؟
أول ما خطر في بالها أن إيليانا ربما تحسّنت حالتها، وأن نيوار قد يكون يصارحها بقراره المصيري بإعادتها إلى عالمها بعدما حصل...
مدّت يدها إلى المقبض، تكاد تفتحه بلهفةٍ أمومية غير آبهة بالخصوصية، لكن ما تسرّب إلى سمعها جعلها تتوقف!
صوت نيوار الذي كان يقول:
— كيف تتسلّلين إلى غرفتي، ماذا لو رآنا أحد؟
ارتجف قلب سبأ:
— من... تلك الفتاة؟!
همست قبل أن تتراجع خطوةً مذعورة، تتخبّط بين صدمتها وأسئلتها.
في الداخل كان نيوار يواجه نجمة التي تحوّلت إلى عاصفة من الانكسار. كلماتها اخترقت شيئًا داخله، نيوار رغم صلابته لم يكن صخرًا..دموعها وارتجاف جسدها، صوتها الممزّق وثوب إيليانا الضيّق... كلّها قيّدته بين شفقةٍ جارفة وألمٍ مبهم.
حاول تهدئتها فقط ليُسكت نحيبها أو ربما ليُسكت صوت ضميره...
فسقطت نجمة في حضنه كما تسقط أوراق الخريف على صدر الأرض، كأنها وجدت كل ما حلمت به حتى لو كان وهمًا مغموسًا بالشفقة.
وفي اللحظة ذاتها، انفتح الباب...
وظهرت سبأ واقفةً كالتمثال.سقط الصمت كالصاعقة على المكان، لينقسم الزمن إلى نصفين: ما قبل الباب... وما بعده.

♡♡♡

في المكتب المختلف عن أي عيادة بشرية، حيث لم تكن الجدران من حجرٍ أو خشب بل من ألواح بلورية مضيئة تنبض بخفقات ضوءٍ هادئة، مثل شرايين عملاقة تنقل الطاقة بدل الدم. كانت رفوفٌ عالية تصطف على جانبي القاعة تعلوها مخطوطات قديمة مكتوبة بحبرٍ فوسفوري، وإلى جانبها قوارير من الزجاج الشفاف بداخلها ضباب يتحرك ببطء تحمل كل قارورة طاقةً أو دواءً مخصصًا لأجساد الجن.
في يده اليمنى أمسك التقرير الطبي الذي دفعه الفضول إلى الإشراف على هذه الحالة. وما إن قرأ أول السطور حتى همس بدهشة:
__انفصالٌ طفيف بين الروح والجسد!... ضغطٌ طاقي ناتج عن اختلاف الأبعاد!... الجسد الإنساني لم يتحمل ارتجاج بوابات العبور والطاقات المحيطة به؟
ثم تساءل بدهشة:
__حالة إنسية في عالمنا... وفي جناح مملكتنا؟
دفعه فضوله إلى متابعة القراءة، وكان مفاد التقرير الطبي الصادر عن مجلس المعالجين في بلاط الملك الأحمر:
《المريضة: إنسية أُدخلت إلى عالم الجن حديثًا.
الحالة الاجتماعية: متزوجة من أحد النخب وسادة القصر.
الحالة الراهنة: غيبوبة جزئية – سبات وقائي.
الملاحظات الأولية: ظهرت على المريضة علامات إنهاك جسدي شديد بعد عبورها بين العالمين، مما أحدث تغيرًا مفاجئًا في ضغط الطاقة المحيطة (الانتقال من طاقة أرضية معتادة إلى طاقة عليا مكثفة)، فتسبب ذلك باضطراب في الجهاز العصبي والذهني.》
تسجيل ذبذبات عالية في محيط القلب والعقل نتيجة تداخل مشاعر الخوف والارتباط العاطفي.
السبب المباشر للغيبوبة: الجسد الأثيري لم يحتمل التوازن

بين طاقة الأرض التي فُطر عليها وفيض الطاقة الماورائية لعالم الجن. وقد أنتج هذا التضاد صدمة عصبية-روحية دفعت العقل الباطن إلى الدخول في حالة سبات لحماية الذات من الانهيار الكامل.

التشخيص: غيبوبة وقائية ناتجة عن صدمة روحية طاقية وهي حالة ليست مرضية بالمعنى البشري، وإنما رد فعل طبيعي لجسد غير مهيأ للعيش في بيئة تفوق طاقت ترددات المريضة دون فترة تأقلم تدريجية.

الاحتياطات الواجبة: إحاطة المريضة بمجال طاقة معتدل يدمج بين ذبذبات أرضية وأخرى من عالم الجن لتسهيل التكيف، ومراقبة نشاطها العقلي والروحي عبر الأحلام، إذ ستشكّل نقطة التلاقي الوحيدة بين وعيها المغلق وعالمها الجديد، والامتناع عن تحفيزها عاطفيًا بشكل مفرط، لأن التوتر القلبي يزيد من عمق الغيبوبة.»

من توقيع: «معالج الأرواح والطاقات في بلاط الملك الأحمر».

اشتعل الفضول في داخله، فقرر الإشراف بنفسه على هذه الحالة المثيرة للجدل.

ـــزوجة من تكون هذه؟

كان السؤال يتردد في ذهنه وهو يتجه نحو الغرفة التي ترقد فيها المريضة. كان واضحًا أن هذه ليست حالة عادية وأن الفضول الممزوج بالمسؤولية يشدّه لرؤيتها لأول مرة.

ـــإنسية... هنا، في جناحنا؟ لا أزال غير مستوعب!

♡♡♡

فتحت عينيها ببطء.. كان رنين جهاز قياس نبضات القلب يقرع في أذنيها كدقات زمنٍ مفقود. كانت تجهل تمامًا كم

مرّ عليها من الوقت، وظنّت أنها نامت بضع سويعاتٍ فقط.
جالت بعينيها في زوايا الغرفة المغمورة بسكونٍ ثقيل ثم
ثبتت نظرها على الباب المغلق، والتفتت بعد ذلك إلى
النافذة الصغيرة المطلة على الرواق، لكنها لم تجد أحدًا خلف
الزجاج.
عادت بها الذاكرة كما تفعل دومًا عند الوهن، إلى تلك الليلة
نفس السرير، ونفس الوحدة ونفس الدموع...
تذكرت آخر ما سمعته من خادمات القصر عن نيوار ونجمة
وتذكرت كلام سبأ واحتمال انتهاء علاقتها به، فتزاحمت
الأسئلة في صدرها، وعادت دموعها تنساب بعدما انتظرت
روحها أن تفيق لتعود إليها.
وفي الوقت نفسه، كان الطبيب الجني يتقدم بخطواتٍ
تُحدث رجع صدى خفيفًا.
كان طويل القامة، متوشحًا برداءٍ واسع وما هي إلا لحظات
حتى دخل غرفتها يحمل ملفًا في يده يقرأه دون أن ينتبه إليها
فورًا.
ثم لاحظ فجأة أنها قد استفاقت من غيبوبتها، فتوقف وقال
بدهشة:
__أوه... مريضتنا استيقظت! الحمد لله على سلامتك.
أسرع نحوها بخطوات متعجلة، وظهر الرفق واللين بوضوح في
صوته:
__أيتها الإنسية، هل تسمعينني بوضوح؟
_نعم... أسمعك.
التقت أعينهما لأول مرة؛ في نظرته دهشةٌ وغرابة وفي نظرتها
سؤالٌ عميق.
وقف أمامها محافظًا على توازنٍ بين رسمية الفحص
والاهتمام الشخصي بغريبةٍ جاءت من عالمٍ آخر، ثم بدأ عمله
وهو يخفي فضوله.

راح يفحصها ويتحقق من وعيها واستجابات جسدها. راقب حركات عينيها وردود أفعالها البصرية، واتساع الحدقة واستجابة البصر للضوء، كما لو أنه يقرأ موجاتٍ طاقية تكشف له قوة الروح بعد الغيبوبة.
وضع يده على معصمها ليقيس نبضها، لكنه لم يكن نبضًا جسديًا فحسب بل كان يقيس أيضًا تفاعل طاقتها مع محيطها الروحي.
ثم أخرج من ردائه رقعةً مضيئة صغيرة، ورسم فوقها دوائر متشابكة تتحرك ببطء لتقييم طاقتها الروحية والنفسية.
طلب منها أن تغلق عينيها مرةً أخرى وأن تتنفس بعمق، بينما أخذت الرقعة تتوهج متزامنةً مع نبض قلبها.
وبهذه الطريقة كان يقيس التوازن بين جسدها الأرضي وطاقتها في عالمهم.
بعد ذلك انتقل إلى الفحص الصوتي والتواصلي...
__كيف تشعرين؟ هل تسمعينني وترينني بوضوح؟
كان يحلل كل نبرةٍ من صوتها بدقة، لأنها تكشف عن تأثير الصدمة الطاقية على جسدها.
ثم انتقل إلى التقييم الشامل للطاقة المحيطة بها، فاستخدم بعض الأدوات البلورية التي تمرر إشارات ضوئية خفيفة فوق جسدها. كانت هذه الأدوات تتتبع أي تسرّب طاقي أو تشويش ناتج عن انتقالها بين البعدين وأي اهتزاز أو وميض غير متناسق كان يُسجَّل تلقائيًا على رقعة التقرير.
وبعد كل الفحوص العملية التي أجراها، بقي واقفًا يراقبها بصمت، يدرس حركات جسدها الطبيعية وتنفسها، وحتى رمشة عينيها إلى جانب هالتها الطاقية.
هذه الملاحظات الصامتة تمنحه صورةً كاملة عن درجة تأقلم طاقتها وجسدها مع عالمه.

بعد أن أنهى الفحص، وضع الرقعة المضيئة جانبًا وقال:
__لقد تحسنتِ بالفعل... جسدك وطاقتك تجاوبا بشكلٍ جيد مع الفحص. لم أعد أرَ أي علامات خطورة.
_حقًا... أنا أشعر بتحسن، شكرًا لك.
أخرج إبرةً متوهجة بضوءٍ أزرق:
__هذه إبرة الطاقة ستعيد لكِ النشاط الكامل، وتزيل الخمول والإعياء اللذين شعرتِ بهما. ستكونين قادرة على الشعور بنفسك كما أنتِ بلا ثقل، بلا تعب.
نظرت إليه بعينين متسعتين، تلمع فيهما الثقة والحذر معًا:
_ هل هي مؤلمة؟
__لن تشعري بألم، فقط ستشعرين بدفق طاقةٍ خفيف يتنقل في جسدك... كل خليةٍ فيكِ ستستيقظ من سباتٍ طويل.
وضع الإبرة على معصمها، ونقل المصل ببطء، لتشعر أنها تستعيد نشاطها ووعيها تدريجيًا.
مع كل لمسةٍ من يده، شعرت بدفءٍ غريب يملأ جسدها. كانت طاقته الشفائية تحيط بها، تداعب أعصابها برقة وتزيل عنها أي شعورٍ بالخمول أو الإعياء. لم تكن مجرد يدٍ تمارس فحصًا طبيًا، بل كانت تمنحها شعورًا بالأمان الكامل.
أصبحت تحت رعايةٍ لطيفة، جعلتها تثق به بالكامل وتستسلم للراحة التي انبعثت منه.
حينما أنهى علاجها، لم يستطع كبح فضوله فسألها بهدوء:
__لو قرأتُ في ملفك أنك تزوجتِ من أحد الجن من عامة الشعب، لما كنتُ سأتدخل... لكن بما أنني علمتُ أنك متزوجة من أحد سادة القصر ذوي الرتب، فلا بد أن تخبريني... من هو زوجك؟

_أنا زوجة الأمير نيوار ابن الملك الأحمر!
ارتفع حاجباه، وامتزجت نبرة صوته بين المزاح والدهشة:
__بالله عليكِ... زوجة نيوار نفسه؟ ابن عمي!
_بما أنك ابن عمه تشرفتُ بمعرفتك، لكن نيوار لم يخبرني عنك.
أجابها وهو لا يزال مذهولًا:
__حتى أنا لم أسمع عنك. لطالما عرفتُ أنه يهوى التميز والخوض في الأمور الغريبة والخطرة، لكن لم أتوقع أن يصل الأمر إلى هذا الحد.

♡♡♡

ما أبصرته عيناها لم يكن بالحسبان، فرؤية نيوار يحتضن نجمة جعلت الأمور أعقد وأشد وقعًا.
تراجع عن نجمة كمن استفاق من غيبوبة:
__أمي... الأمر ليس كما تظنين.
_ما هذا الذي أراه يا نيوار، وفي هذا الوقت تحديدًا؟.. هذا الفعل جلل! أنت متحصّن بزوجتك، فلا يحق لك أن تلمس امرأةً أخرى دونها. هذا لن يرضاه الدين ولا الأعراف، ولو رأى أحد القادة هذا الفعل، ماذا كان سيفعل بك؟
همّت نجمة بالكلام وعيناها ما زالتا تغرقان بالدموع، لكن سبأ قاطعتها:
_اصمتي.. ليس هذا وقت البكاء على قلبك، هناك من تبكي الآن على حياتها.. انصرفي في الحال.
خفض نيوار رأسه عاجزًا عن الدفاع عن نفسه. كانٍ يعلم تمامًا أن والدته على حق وأن ما فعله وإن لم يكن خيانةً كاملة، فهو زلّة لا تليق برجلٍ مثله.
تابعت سبأ:

__إذا كنت لا تزال تحب نجمة، فلماذا تزوجت الإنسية؟ وترفض فك عهد الزواج بها؟ أنا لم أعد أفهمك يا نيوار... لكن مسؤولية الإنسية على عاتقك وحدك، وما رأيته الآن لن يُمحى من ذاكرتي بهذه السهولة.
غادر مسرعًا، هاربًا من تلك الصورة وانتقل إلى الجناح الطبي حيث كانت إيليانا.
بقيت سبأ تائهة غير قادرة على استيعاب ما حدث، أمام تمرد ابنها وعدم خضوعه للأوامر. ولم تمضِ لحظات حتى وصلها نداء زلفى، تدعوها للانتقال إليها.

♡♡♡

كانت زلفى في القاعة الملكية برفقة الجد والملك الأحمر وزوجها، وملامح الفرح والسرور بادية على وجوههم جميعًا.
فور وصول سبأ، أسرعت زلفى لتعانقها:
__يبدو أن هناك أخبارًا سارة... أثلجي صدري يا زلفى، ماذا يحدث؟
__ابني "ضيغم" عاد إلى القصر... وليس مجرد زيارة، بل أنهى دراسة الطب وتدريبه الطويل، وحصل على الختم الطبي ليصبح معتمدًا رسميًا في مجلس المعالجين ومستعدًا لمواجهة أي حالة، مهما كانت معقدة أو خارجة عن المألوف.
__أوه... هذا خبر سعيد! لقد اشتقنا إليه. مرّ قرنان على آخر زيارةٍ لنا!
__أبشرك يا سبأ، لم يعد ضيغم مجرد زائر؛ فقد أنهى فترة تدريبه، وعُيّن مباشرةً في مصحتنا.

♡♡♡

بقلبٍ مُثقلٍ بالشوق، توجّه إليها متوقعًا أنها لا تزال في غيبوبة لكنه فوجئ بها جالسةً تنبض بالحيوية إلى جانب

الطبيب ضيغم، الذي لم يُعره أيَّ انتباه. فقد أنسته رؤيتها بصحةٍ وعافية كلَّ ما حوله، حتى ابنَ عمه الذي لم يره منذ فترةٍ طويلة...
دخل كمن نُفخت فيه الحياة من جديد، وعيناه تتسعان بفرحٍ غامر، ركض نحوها بقلبٍ لا يحتمل المزيد واحتضنها بعنفٍ متناسيًا أن يُرفق بجسدها، ففي الأخير قوتها لا تضاهي قوته قدر أنملة.
ليقول الطبيب:
__أرجوك سمو الأمير... تمهّل.. جسدها لا يزال هشًّا لا يحتمل عنف حبك، ولا يتناسب مع ضخامة حنينك.
تراجع نيوار قليلًا:
__آسف، حبيبتي... هل أنتِ بخير؟
أمسك بكفّيها، يطبع عليهما قبلاتٍ ويتفحّص ملامحها بكفيه
وضع جبينه على جبينها:
__أتدرين ما الذي فعل بي غيابك؟ رُوحي سُحبت مني وأُعيدت الآن برؤيتكِ... أرجوكِ، لا تغيبي عني مجددًا.
لكن إيليانا كان لها رأيٌ آخر، إذ كانت عيناها تُعاتبانه بصمتٍ أشدَّ قسوةً من الكلمات.
نظر في عمق عينيها قائلًا:
__لِمَ تبكين، يا نبض قلبي؟ أنا هنا... لن أتركِكِ بعد الآن، أعدكِ. يا حبة فؤادي، سأخبئكِ في عينيَّ.. كفّي دموعكِ عني، فأنتِ تعلمين جيدًا ما أثرها عليَّ.
ظلَّ صمتها يُربكه، ليهمس مجددًا:
__إيليانا... قولي شيئًا، هل أنتِ متعبة؟
وأخيرًا تكسّر صمتها، بنبرةٍ باردة:
__أين كنت؟ لماذا لم تزرني؟

ردَّ عليها متلعثمًا:
__كنت... كنت هنا، بجانبكِ...
_أنت تكذب عليّ.
صُدم من حدّة ردّها، ثم ابتسم ابتسامةً مرتبكة وقال:
__كنت أزورك، لكنكِ أنتِ من كنتِ غائبة. أتعلمين؟ غبتِ عني يومين، وها هو اليوم الثالث... وأنا لم أبرح سريركِ.
_لم أفهم ما تقصده... كيف غبتُ يومين؟
ابتسم وهو يضغط على يديها:
__نعم يا قلبي... لقد دخلتِ في فقدانٍ للوعي دام يومين كاملين، ولم تفتحي عينيكِ حتى هذا اليوم الثالث!
لم تكن تعلم أصلًا أنها كانت غارقةً في غيبوبة طوال تلك المدة. وفي تلك اللحظة، دخلت سبأ وزلفى وغمرت وجهيهما ابتسامةٌ عريضة، كأن البهجة عادت إلى القصر بعد غيابٍ طويل.
وقف نيوار وعانق ضيغم، يبادله التهنئة والمباركة بمناسبة عودته وتعيينه طبيبًا معتمدًا في القصر.
__نيوار ليس ابن عمي فقط، بل هو مثل أخي تمامًا.. يؤسفني أنني لم أكن حاضرًا في عرسكما، أهنئكما الآن وأتمنى لكما حياةً سعيدةً وذريةً طيبة.
بمجرد أن نطق بكلمة "ذرية"، ارتجف قلب سبأ فقد كان ذلك آخر ما تتمنى سماعه... كانت نجمة قد ملأت عقلها بالشكوك حول هذا الأمر.
ليقول نيوار:
__صدقًا يا ضيغم... الأقدار تسير كما يشاء الله، ولسنا إلا منفذين لإرادته. لا بأس يا أخي... إن فاتك حضور عرسي، فأنا الذي سأحرص على حضور عرسك.
تعانقت الضحكات بينهما، ليأتي صوت زلفى مقاطعًا:
__هيا يا بني، المجلس وأعضاؤه يتشوقون لرؤيتك... الكل في انتظارك.

ابتعد ضيغم مع أمه يحدثها مندهشًا:
__أخبريني يا أمي، كيف تسللت هذه الإنسية إلى عالمنا؟ أقسم أنني في حيرةٍ لم أعهد مثلها قط!
_كلنا تفاجأنا بزيجة نيوار هذه... لم يكن أحدٌ ليتوقعه.
__ لطالما رأيته يميل إلى شيءٍ من الطيش... لكن أن يصل الأمر إلى أن يهمس بكلمات العشق أمامي! لقد كاد يُغرقها بنظراته، كأنما الدنيا بأسرها اختُزلت في ملامحها... القصر تغيّر كثيرًا بعد غيابي... حقًا، عجائب وغرائب لم تكن لتخطر على بال! هيّا يا أمي، أتوق لسماع القصة من بدايتها إلى نهايتها...

♡♡♡

نقل نيوار إيليانا إلى جناحهما بعد أن تأكد من تعافيها، وأخيرًا عاد ضوءه بعد عتمةٍ طويلة.
فتح باب الجناح بهدوء فاستقبلته رائحة البخور التي ملأت المكان. أجلسها برفق على الأريكة قرب النافذة المطلة على حديقة القصر، ثم مدّ يده ليلمس أطراف أصابعها.
__طيلة غيابكِ عني، كنت أسمع صدى صوتك.. لقد كنتِ غائبةً عني، لكنكِ كنتِ حاضرةً في كل زاويةٍ من زوايا قلبي.
ابتسمت بخجل، ليقترب منها أكثر حتى تلامست أنفاسهما.
__أتدرين يا إيليانا... هذا الجناح لم يكن له طعم منذ أن فارقتِه. الآن فقط عاد البيت بيتًا، والهواء هواءً، والليل ليلًا وأنا... أنا.
لم تقل شيئًا، فابتسامتها كانت كافيةً لتروي ألف حكاية.
ثم وقف واتجه نحو الخزانة، وأخرج منها علبةً صغيرة من المخمل.. قال وهو يجثو على ركبةٍ واحدة:
__خاتم ارتباطنا ضاع منكِ منذ أن تدهورت حالتكِ بعد غيابي

وبعد أن وجدته... وعدتُ نفسي ألا أضعه في يدكِ إلا حين أراكِ تبتسمين من جديد.
__فليشهد الله أنني ما أحببتُ سواكِ، ولن يسكن هذا القلب إلا أنتِ.
وكانت نظراتهما لبعضهما تمهّد لما ستبوح به الليلة من حكايةٍ ستُروى بحروف الشوق ولهيب اللهفة.

♡♡♡

في صباحٍ جديدٍ أشرقت فيه أنوار القصر على غير عادتها عمّت أرجاء المملكة البهجة حين أعلنت هيئة كبار المجلس إقامة حفلٍ كبيرٍ هذه الليلة، احتفاءً بعودة ابن العائلة الملكية ضيغم بعد أن أتمَّ دراسته الطويلة وتجاربه الممتدة على مدار عقودٍ من الزمن.لقد عاد اليوم يحمل ختم المجلس الأعلى، ويُعيَّن رسميًا من أمهر أطباء المملكة، ليواصل مسيرة الطب في خدمة أبناء مملكته. وتزامن هذا الحدث البهيّ مع عودة نيوار منتصرًا من ميادين الحرب.
بدأت ملامح المساء تتشكل، وتراقصت الأستار الحريرية بألوانها الطيفية المطرزة بخيوطٍ فضية تتخللها رموزٌ ملكية تخص سلالةً عريقةً من ملوك الجن.
أقبلت أنواعٌ كثيرة من الجن، بعضها لم ترَه إيليانا من قبل...
كان الطبيب ضيغم العائد من غيابٍ طويل، يجتمع مع أصدقائه الذين لم يلتقِهم منذ قرون، وعلى الجانب المقابل كانت نجمة تتألق فى أبهى حُلّة، تحيط بها صديقاتها وبنات قبيلتها، يتبادلن الأحاديث والضحكات الناعمة.
غير أن عيني نجمة لم تكونا تشاركان في الحديث بل كانتا تترقبان شخصًا ما؛ فنصف زينتها كان لأجله ونصفها الآخر لعلّه يراها كما تتمنى. كانت تبحث بعينين تنضحان بالشوق والترقب، فكل ما حولها كان باهتًا أمام حضوره.

في الجناح الخاص داخل القصر، كانت إيليانا تستعدّ للحضور بين حماسةٍ تخالطها رهبة، في صحبة إحدى خادمات القصر تضع اللمسات الأخيرة على إطلالتها.
ارتدت هي الأخرى فستانًا أحمر قانيًا يضيق عند خصرها، ثم ينفتح بانسيابٍ، تتوسطه فراشة كبيرة أما شعرها فرفضت تسريحه على الطريقة التي اقترحتها عليها مساعدتها باعتبارها دخيلة عن ذوقها، لتتركه ينسدل بحرّيته حتى منتصف ظهرها، مزينًا من الخلف بفراشةٍ حمراء كبيرة تشبه تلك التي على فستانها، لتكتمل طلّتها بلمسةٍ إنسيةٍ ساحرة.
وأخيرًا رشةٌ من عطرها الخاص، فتفوّق عبيره على كل بخور الجن وروائحهم.
اقترب منها نيوار يقبّل عنقها:
__لقد أسكرتِني بهذه الطلّة، أظنني لن أدعكِ تحضرين الحفل سأغار من العيون التي تراكِ.
ضحكت ضحكتها الدافئة، تلك التي يسكن فيها سحرٌ لا يُقاومه فضمها إلى صدره قائلًا:
__لو أضمن عدم سؤالهم عنكِ، لمنعتكِ من الحضور.
ثم وضع يده على جبينها، يتلو آيات التحصين لتقول:
__لقد تشوقت لأن أرى فتياتكم، ما الذي سيرتدينه الليلة؟ أعجبتني أناقتهن رغم غرابتها عني!
وهو يتأمل عينيها:
__ويلي من فتنة هؤلاء الفتيات... أتظنين أن إطلالتكِ ستتفوق عليهن؟
نظرت إليه بعبوسٍ زائف:
__ما الذي تقصده؟
رفع حاجبًا دون الآخر كما يفعل كل مرة يستفزها فيها:
__ربما ستكونين مختلفة... بكل ما أنتِ عليه.
ثم تشابكت يده مع يدها:
__لنخرج معًا، فالحفل لا يكتمل إلا بكِ.

على جانبي الممر وقفت صفوف من الحرس الملكي بأزيائهم الموشّاة بالرموز النارية، يحملون رماحًا تومض أطرافها بوهجٍ أحمر، فيما كانت قرعات الطبول تتصاعد بإيقاعٍ مهيب.
امتزج صوت الطبول بهمسات الحاضرين فارتفعت نظرات الفضول والإعجاب والدهشة من كل صوب.
علا صوتٌ جهوريّ رخيم من البوق:
__اليوم نحتفل بعودتين... عودة الطبيب ضيغم وعودة الأمير نيوار بعد انتصاره الأخير. فليكن هذا المساء شاهدًا على عهدٍ جديد، يجمع قوى المملكة وأمنها على وحدةٍ مع القبائل لا تُكسر.
إلا أن نيوار التفت نحو إيليانا وهمس في أذنها:
__أما عني، فاحتفالي هو بعودتك إلى أحضاني!
في الزاوية المقابلة، حدقت نجمة فيهما بنظراتٍ حادة وتقلصت ابتسامتها التي كانت مرسومة منذ بداية الحفل. لم تكن تنتظر هذا الظهور... لا بهذه الأناقة، ولا بهذه الهيبة التي جعلتها تسرق الأضواء بلا جهد.
شدّت ثوبها بغيظٍ دفين تذكّر نفسها أنها ما زالت أول من عرفها وأنها الأقرب إليه، حسب اعتقادها.
ومع آخر إيقاعٍ من الطبول، أمسك نيوار بيد إيليانا، كأنما يعلنها أمام الملأ: «هذه زهرتي... ومن أراد الاقتراب فليحذر الشوك!»
عن إيليانا، فكان الخجل يوشّح وجهها بحمرةٍ وأحكمت قبضتها على يده بارتباكٍ، تتشبث بها كملاذٍ آمن في عالمٍ لم تألفه بعد... عالمٍ صاخبٍ بالجمال لكنه مهيبٌ بعوالمه وأهله.
شعر نيوار بارتباكها، فمال نحو أذنها:
__لا شيء يدعو للقلق... أنا معك.
أجفلت نظراتها نحو الأرض، لكن في داخلها كانت الغربة تعصف بصمتها؛ فلا العالم عالمها ولا الديار ديارها ولا حتى

الناس من جنسها...
ومع ذلك، أخفت ذلك الشعور خلف ابتسامةٍ صغيرة أرادت أن تُقنع قلبها قبل أن تُقنع الحاضرين بأنها بخير. تحدثت إلى نفسها تشجعها بصمت: «لا شيء مخيف يا إيليانا... تشجعي حاولي أن تندمجي، وأن تتعرفي إلى فتيات هذا العالم»
تركت يده وسارت بين الحاضرين بخطىً يغمرها الخجل و قلق التجربة الأولى، حتى وقفت قرب مجموعةٍ من الفتيات بينهن نجمة، التي رفعت عينيها نحوها بتمعّنٍ لم يخلُ من الفضول.
__السلام عليكنّ.
ردّت الفتيات السلام، وتبادلت بعضهن النظرات المتفحصة وساد صمتٌ قصير، قبل أن تقول إحداهن:
__أهلًا بكِ في عالمنا ومرحبًا بكِ بيننا.
ظلّت نجمة ترمق إيليانا بنظراتٍ غريبة جعلتها تخترق سكينتها، فخفضت رأسها نحو الأرض وتشابكت أصابع يديها في توترٍ واضح. انقبض قلبها لوهلة لكن صوت الطبول الذي دوّى فجأة شقّ سكون اللحظة.
وبينما كانت نجمة تترصد مشاهد الحفل، صادفت عيناها ضيغم والتقطت شيئًا غريبًا في نظراته. في البداية ظنت أنه ينظر إليها فقوّمت وقفتها وأصلحت شعرها بثقةٍ، لكنها سرعان ما أدركت أن نظره لم يكن موجهًا نحوها، بل كان مركزًا على فتاةٍ أخرى.. على إيليانا تحديدا!
توهجت عيناها بلمعانٍ غامض. فكرةٌ جهنمية بدأت تتكوّن في ذهنها.
انتقلت إليه وتدثّرت بابتسامةٍ زائفة: __أهلًا ضيغم.. أما آن لك أن تُلقي التحية؟
_مرحبًا نجمة، كيف حالك؟
__دعك من حالي، وأخبرني عن حالك... وأحوال قلبك!

ضحك بخفة، غير مدركٍ تمامًا لما ترمي إليه ثم سألها بفضول وقد لاحظ وجودها في المجموعة التي كانت فيها إيليانا: __تلك الفتاة التي كانت معكن... هل هي تلك الإنسية زوجة نيوار؟
_آه، إيليانا؟ نعم، كانت بيننا للحظة... أرادت أن تتعرّف إلينا يا لجرأتها! تتصرّف وكأنها من بنات القصر!
ابتسم دون أن يردّ على سخريتها، فقد كان مشغولًا بتأمل الغريبة. الأمر بالنسبة إليه مزيجًا من الغرابة والفضول وفي عينيه لمعةٌ خفية التقطتها نجمة بوضوح..
قالت محاولةً إخفاء ما اشتعل في صدرها:
__ألا يزعجك أن ترى فتاةً إنسية تسرق أنظار أمراء الجن؟
أجاب، وعيناه ما زالتا تلاحقان أثر إيليانا:
__ليس غريبًا أن تفعل!
غلت الغيرة في صدرها لكنها رسمت ملامح المعركة التي قد بدأت... غير أن الخصم لم يدرك بعد أنه صار طرفًا فيها.
أدارت نجمة عينيها الحادتين نحو هدفٍ آخر... نحو من تراه لها وحدها منذ زمنٍ بعيد.
كان نيوار واقفًا بين أصدقائه بوسامته الهادئة وهيبته التي لا تشبه أحدًا.
ذهبت إليه وفستانها يهفهف حولها، تعرف تمامًا كيف تُتقن الظهور حين يكون هو المقصود.
وبينما كان غارقًا في ضحكه وحديثه، تعكّرت ملامحه بعد أن لمحها ثم حاول مداراة ذلك.
__مرحبًا، نيوار كيف حالك؟
التفت إليها بابتسامةٍ دبلوماسية، من النوع الذي يحتفظ به للزيارات الرسمية أو للضيوف غير المرغوب فيهم.
__بخير.، ردّت بتنهيدةٍ مصطنعة: __أما عن حالي فتحسّن الآن بعد رؤيتك.

اكتفى بابتسامةٍ نصفها ضجر، وأمسكها بحدّةٍ وهو يدفعها جانبًا بعيدًا عن جمعه:
__لا أحد سأل عن حالك، لذلك انصرفي الآن، ولا تفسدي مزاجي... وإلا فسيحدث ما لا يُرضيك أبدًا.
اتّسعت ابتسامتها رغم الخيبة التي يُشعرها بها دائمًا، إلا أنها لا تجدي نفعًا.
__ألا تفتقد جلساتنا القديمة؟ أيام كنّا نجلس وحدنا تحت شجرة الإينوار... بعيدًا عن الصخب؟
رمقها بنظرة غضب، وقال ببرودٍ جليدي:
__تلك الأيام مضت ولكل زمانٍ قلبه الخاص.
ثم انصرفت وهي تحمل بريق وعدٍ لا يبشّر بالسلام.

♡♡♡

توجّه إليها بخطواتٍ يملؤها الحماس وشعورٌ لا يعرف له اسمًا. كان لقاؤها الأول به في ردهات المستشفى، حين فتحت عينيها من غيبوبتها، أما اللقاء الثاني فهاهو في الحفل.
لكن نيوار الذي كان يحرسها بين الفينة والأخرى تجمّد للحظةٍ حين رآها تقف مع ضيغم، تحدثه براحةٍ.. يبدو أنها اطمأنت له أكثر مما يحتمل قلبه!
في داخله اشتعلت نغمةٌ لم يسمعها من قبل. ليقترب منهما بعجلة:
__أرى أنكما تعرّفتما سريعًا.
_كان لقاؤنا الأول حينما استفقتُ في جناح الطب.. لم أكن أعلم أنه ابن عمك، ولا هو كان يعلم أنني زوجتك.
ابتسم ضيغم وأجاب:
__بالفعل، استغربتُ كثيرًا عندما وجدتُ إنسيةً في الجناح وزاد عجبي حين علمتُ أنها زوجتك.

تابعا الحديث والضحك دون تكلّف، بينما بقي نيوار جامد الملامح، صامتًا.
كان كلام ضيغم صريحًا للغاية، لكن في عينيه... شيءٌ لا يُخفى.. نيوار الذي اعتاد أن يصغي إلى ما لا يُسمع، ويلتقط الأفكار وهي تحلّق في الهواء لمح شيئًا مختلفًا.
ألقى نظرةً مقتضبة إلى ضيغم، أشبه باستئذانٍ لا ينتظر ردًّا ثم جذب إيليانا نحوه بخطواتٍ حاسمة، واتجه بها نحو رواق القصر.

_نـ... نيوار.. ما بك؟
سألته بصوتٍ مرتجف، تحاول مجاراة خطواته المتسارعة فيما ظلت ملامحه مغلقة.
التفت إليها ونظر إليها طويلًا قبل أن يقول:
__إيليانا... يكفي.. لم تتعافي بعد ولا أريدك وسط هذا الزحام.
نظرت إليه بدهشةٍ حائرة. لم تتوقع منه هذا الاندفاع ولا هذه النبرة.
__لكنني بخير، ثم إن الحفل لم ينتهِ بعد!
قاطعها بحزم:
__وأنا عالمي يبدأ وينتهي بكِ، فلا تعبثي بتفاصيله.
رفع كفها إلى صدره وتابع:
__هنا مكانك... لا في أي دائرةٍ من دوائر الآخرين.
_نيوار... في كل مرةٍ أشعر أنني لم أكتشفك بعد، ولم أعرف من حقيقتك إلا القليل...
أجابها بصرامةٍ :
__إلى الجناح، الآن.
حاولت أن تقول شيئًا لكن كلماته سبقتها، وصمته كان أبلغ.
دخل جناحهماثم أسندها إلى الحائط:
__لا تسأليني عمّا بداخلي، لأنه كثير... أكثر من أن يُقال.

عادت الأفكار تزلزل عقلها وعاد باب الخطر يلوح في قلبها. لا تزال تفكر في تلك الرسالة التي وصلتها منذ أشهر حول اللعنة التي ستصيب سلالة ابنها نيوار لو حصل الإنجاب. لذلك وبعد أن تأكدت أن إيليانا قد تحسنت وتجاوزت تعبها، رأت أن هذا هو الوقت المناسب لتعيد المياه إلى مجاريها، حسب ظنونها وأن تعيد فتح الملف الذي أُغلق بسبب الأحداث الأخيرة التي حصلت معهم.

أبواب المجلس تُفتح بهدوء، وتطلب سبأ الإذن بأن تطرح عليهم موضوعًا.

انحنت باحترام وقالت بصوتٍ ثابت:

__هل تأذنون لي أن أعيد طرح مسألةٍ سبق أن فتحناها؟

قُبل طلبها وأشار لها الملك الأحمر بالجلوس.

__إنه الأمر الذي يخص الارتباط القائم بين نيوار وابنة الإنس...

_نعم، نذكر ذلك.. كان القرار الأخير أن تُنهى هذه العلاقة، وأن تُعاد الفتاة إلى عالمها قبل أن يترتب على ذلك عواقب لا ندري مدى خطورتها، لكن... سرعان ما تغيّرت الأمور وساء حالها.

أومأ رئيس المجلس قائلًا:

__صحيح... وأجلنا الموضوع إلى وقتٍ آخر، وأظن أن الوقت قد حان.

لتقول سبأ:

__أعلم أنه سيرفض، لذلك سأحاول التحدث إليه...

يوم جديد

من خلف النافورة الكبرى التي تتوسط حديقة القصر، خرجت إيليانا تبحث عن لحظة صفاء تهرب إليها من ضجيج قلبها وغربتها التي تشتد يومًا بعد يوم. مشت بين أزهارٍ ما زالت تلمع بندى الفجر، حتى وقعت عيناها عليه...

من خلف النافورة الكبرى التي تتوسط حديقة القصر، خرجت إيليانا تبحث عن لحظة صفاء تهرب إليها من ضجيج قلبها وغربتها التي تشتد يومًا بعد يوم. مشت بين أزهارٍ ما زالت تلمع بندى الفجر، حتى وقعت عيناها عليه...
كان نيوار هناك يضحك بعفويةٍ ناعمة مع البستاني العجوز. مشهدٌ بسيط، لكنه بعثرها.
إذ تسلل إلى ذهنها المشهد القديم الذي جمعه بنجمة في ذات المكان... حين أمسكت يده ثم اندست في حضنه.
الصورة أعادت ارتجاج الشعور ذاته الذي ظنت أنها دفنته.
اختبأت خلف أعمدة النافورة ،تخفي جسدها فيما عيناها تتابعانه بصمت. حاولت أن تقنع نفسها أن نيوار كان حازمًا مع نجمة، وأن الموقف لا يستحق شكوكها إلا أنّ قلبها لم يصدقها.
ذاك الخيط الرفيع من الريبة عاد يتسلل إليها كنسمةٍ باردة من نافذةٍ مواربة.
شرودٌ طويل اعتصر تفكيرها:
«هل ما قالته الخادمات محض صدفة؟ أم أمنيةٌ دفينة أن يعود إلى نجمة، ربما لأنها تنتمي إلى طبيعته الكونية وعالمه بينما هي إنسية غريبة لم يهضمها القصر بعد! لكن... لماذا؟ لماذا كان يدخل جناحها وهي طريحة الفراش في الجناح الطبي؟ ألم يكن من الأولى أن يكون بقربها؟ أن يكون لها وحدها؟»
عضّت شفتها بتوتر، ثم استدارت لتغادر بخطىً سريعة لا تريد أن يراها أحد. و بذور الشك بدأت تنمو فعلًا في تربة قلبها.
كانت سبأ تجلس بهدوءٍ مضطرب تلتمع في عينيها علامات القلق والتردد، قبل أن تستدعي نيوار الذي حضر في الحين.
__بني... هناك أمرٌ هام يجب أن نتحدث فيه.
__تفضلي.

__إيليانا استعادت عافيتها.
ابتسم وأصغى باهتمام، لكن حواسه تنبهت حين تغيّر صوتها إلى الحزم:
__وأنت تعلم ما مرت به منذ أن دخلت عالمنا!
بانت عليه الحيرة غير أنها تابعت دون أن تمنحه فرصة للسؤال:
__مجلس الشيوخ اجتمع ليلة الأمس، وأعاد النظر في شأنكما أنت تعرف شروط الزواج في ديننا: قبول الطرفين وهذا حصل. لكن حضور الولي وقبوله هذا لم يتم. إيليانا لم ترَ والدها ولم يوافق على زواجها، بل لا يعلم بوجودك أصلًا وهذا لا يمكن تجاهله.
تغيّر لونه، إلا أنها لم تترك له مجالًا للرد:
— الحب وحده لا يكفي يا نيوار. نحن، أنا وأنت، ارتكبنا خطأً كبيرًا.
__ أيُّ خطأٍ ارتكبناه وقد عقدنا الميثاق... وأنتم كنتم شهودًا!
رفعت يدها لتمنعه من الاسترسال:
— نعم... تزوجتما في عالمنا. لكن في عالمها لا يرون إلا فتاةً خُطفت إلى المجهول. نيوار... اختلاطنا بالبشر محرَّم، فكيف بالزواج منهم؟ ثم إن إيليانا لم تُتمَّ تسعة عشر ربيعًا... في عالمهم تُعدُّ مراهقة، أما عندنا فعمرها لا يكاد يكفي ليجعلها كائنًا يافعًا من جنسنا.
__ أمي... البشر ليسوا مثلنا، وأعمارهم تختلف عن أعمارنا!
هزّت رأسها بأسى:
— أعلم... وهذا ما يجعل الاختلاف بيننا عائقًا كبيرًا، يشكّل خطرًا على كل الأطراف.. في النهاية لكلٍّ عالمه وقوانينه وهذا آخر كلامي لك يا نيوار. أنت تعلم جيدًا ما ينبغي فعله.
حاول أن يعترض لكنه قابل وجهها العابس وكلماتها الصارمة:
— دون أي كلامٍ زائد، الآن يجب أن تتصرف وإلا سأضطر إلى التصرّف بدلًا عنك.

كان وقع كلماتها على مسامع نيوار كالسُّم المقطَّر، يسري ببطء في قلبه. انطفأ بريق عينيه وبدأت فكرة الرحيل تبدو جادّة.
كانت إحدى الخادمات قد سرقت السمع، ولم تستطع كتم دهشتها حين سمعت الحوار الذي دار بين الأم وابنها، فسارعت إلى نقل الخبر إلى زميلاتها.
وكان ردُّ إحدى الخادمات:
__ستفارقنا... كانت لطيفةً جدًا.
بينما علّقت أخرى ببرود:
__هذا هو القرار الصائب... لا يجب أن تبقى هنا أكثر.
لكن من كانت تترصّد الخبر بصمت، هي الوصيفة نيلا وما إن التقطت الحديث حتى اندفعت إلى جناح سيدتها، تحمل بشرى طال انتظارها.

♡♡♡

وقفت أمام النافذة الضخمة والزجاج يُكبّل ذاكرتها. كانت عيناها تحدّقان في البعيد، لكن قلبها كان ضائعًا بين ما حدث وما يحدث... تائهًا بين شكٍّ تكرهه وحنينٍ يأكل أطراف روحها.
اتجهت نحو مرآتها وجلست أمامها، حدّقت طويلًا في انعكاسها.
من هذه؟ لا الملابسُ ملابسها، ولا تسريحةُ الشعر تسريحتها ولا حتى الهيئة، هذه ليست إيليانا التي تعرفها.
تذكّرت نفسها القديمة... تلك التي كانت ترتدي بيجامتها البسيطة المزيّنة بالدببة وتمسك هاتفها المليء برسائل صديقاتها، فيضحكن ويتبادلن الكتب والصور.
وكان أكثر ما يقطع قلبها صورةُ أمها وأبيها. اجتاحت الذكريات صدرها دفعةً واحدة وسقطت دمعة ساخنة على خدها تبعتها أخرى...
ارتدت طقم الصلاة وفتحت درجها حيث وضعت مصحفها ثم

جلست تتلو ما تيسّر... لعلها تستعيد بعض دفء حياتها القديمة.
في تلك الأثناء دخل نيوار جناحه بصمت، ليُصعق بذلك الصوت الذي سكن روحه ذات يوم. وجد حبيبته ترتّل بعذوبة جعلت قلبه يذوب نقطةً نقطة. ضمّ ذراعيه إلى صدره، وأمال رأسه إلى حافة الباب واكتفى بتأملها.
كانت شفتاها تتحركان وعيناها مغمضتين، صوتها يبعث السكينة في وجدانه. ظهرت عليه ابتسامة موجعة محمّلة بأسئلة لا يريد طرحها.
وبينما كانت مستمرة في التلاوة، توقفت...نسيت الآية!
فتحت عينيها لتراجع في المصحف، فرأته.
__متى دخلت؟ لم أشعر بك...
اقترب منها بخطىً وئيدة ثم جلس قبالتها متربعًا، يبحث عن طريقةٍ لا تؤذيها، ليقول ما يخاف أن تعرفه:
__إيليانا، هل تشتاقين إلى عالمك، إلى عائلتك؟
نظرت إليه بعينين محمّلتين بما لا يُقال ولم تجبه. لكنه تابع بصوتٍ يملؤه الأسى:
__وهل... أنتِ مرتاحة هنا، في مكوثكِ في عالمنا؟
بعد صمت، أومأت وهي تجيبه:
__لماذا تسألني وأنت تعرف الإجابة...؟
_لا، لا أعرفها... في السابق كنت أظن أنني أعرف، لكن الظن لا يغني من الحق شيئًا... كل شيء ضاع، حتى يقيني بإجابتك.
غاص في أعماق نظرتها، وامتد الصمت بينهما حتى صار أثقل من الكلام.
وبعد لحظات، قطعت السكون قائلة:
__الظروف قست، لكن عينيك اعتذرتا، لذلك سأقول لك أن أيامي تمضي كما يمضي المسافر في طريقٍ طويل، عيناه تبحثان عن معالم وطنٍ لا وجود له. كلما أغمضت عيني عن

هذا المكان، شعرت أنني غريبة... أمشي بين الناس دون أن أرى من يشبهني.
كانت كلماتها ترتطم بقلبه كسكاكين حادة، لكنه بقي صامتًا يستمع وملامحه تتفتت بالحزن.
__لا أنكر أنني أحاول... أحاول أن أندمج، أن أكون جزءًا من هذا العالم، لكنني في كل مرة أكتشف أنني لا أملكه ولا هو يملكني.
وهو لم يملك الشجاعة ليخبرها بما جاء لأجله ولا القدرة على احتمال المزيد من الوجع.
تحولت عيناه إلى لهب وما إن رمشت هي، حتى كان قد اختفى كخيط دخان.
لم يستطع البقاء لحظةً واحدة في القصر. اندفع كالعاصفة يهرب من كل شيء... وانتقل إلى أقصى نقطةٍ يمكن أن يختبئ فيها عن الحقيقة.

♡♡♡

«أخيرًا... ستغادر الإنسية الحقيرة حياتنا.»
وبينما كانت تردد ذلك، متجهةً إلى غرفتها قررت تغيير وجهتها إلى جناح إيليانا.
__لا بد أنها تحتاج إلى مواساة إثر ما يدور في القصر، فعلينا أن نفعل الواجب.
وبوجهٍ يشع خبثًا نفذت ما طرأ على بالها.. وقفت عند مدخل الغرفة وقالت بنبرةٍ مصطنعة من اللطف:
__كيف حال عروس القصر؟.. يحزنني أنكِ سترحلين قريبًا زيارتك لم تطل كثيرًا، رغم أنها كانت ثقيلةً بعض الشيء.
انتفض قلب إيليانا، وقالت متسائلة:
__أرحل! إلى أين؟ لم أفهم...
_آه... ألم يخبرك نيوار بما أُعلن؟ غريب... ظننت أنه أخبرك بما قرره مجلس الشيوخ.

ارتسمت الصدمة على ملامحها. ما زالت لا تستوعب ما تقوله نجمة، ثم سألتها مرةً أخرى بدهشة:
__ماذا قرر مجلس الشيوخ؟
_اهدئي يا إيليانا، قرروا إعادتك إلى عالمك وإنهاء العلاقة.
سكتت قليلًا، ثم زادت الطعنة بابتسامةٍ صغيرة وهي تنظر إليها:
_ربما لم يجد الشجاعة ليقولها بصوته، فترك الأمر لي...
تسمرت في مكانها ونبضات قلبها تكاد تُسمع. أدركت فجأة أدركت كل شيء.
الوجه الحزين الذي دخل به نيوار، والأسئلة التي طرحها والصمت الذي تبعه، والهروب الذي لم تفهمه حينها كل شيء صار واضحًا الآن... واضحًا حدَّ الوجع.

♡♡♡

مرّت ساعات الليل طويلة عليها وضوء القمر يُضيء بقايا الحزن الساكنة في الزوايا. تأخر الوقت والفجر يوشك أن يُعلن قدومه... دموعها تبلل الوسادة بصمت وعقلها غارقًا في دواماتٍ لا تهدأ. أين ذهب نيوار؟ ولمَ لم يعد حتى الآن؟ أستُعاد إلى عالمها بكل بساطة، ولن تراه ثانية؟
منذ أن سألها تلك الأسئلة وردّت عليه بقلبٍ صادق لم تره بعدها.. أسئلةٌ كثيرة تدور في عقلها دون جواب. ألم تكن كافية؟ أكان وجودها بينهم يشكّل تهديدًا، أم أن اختلافها عنهم هو ما دفعهم لرفض قلبها؟
ثم السؤال الأصعب المؤلم الذي لا إجابة له:
ماذا بعد؟.. حين تعود إلى عالمها، ماذا ستقول؟ وأين كانت؟ من ستُقنع، من ستُخبر، ومن سيُصدقها؟
لا العالم الذي جاءت منه بات يرحّب بها، ولا العالم الذي أحبّته احتواها. وبقيت بين عالمين كغيمةٍ فقدت السماء.

عناق الفجر الأخير

بات التنفّس مهمةً شاقة و لم تعرف كيف يمضي الوقت من حولها؛ جفناها يرفضان النوم والدوامة التي تدور في رأسها تتسع بدل أن تهدأ.
حاولت أن تتماسك على قدميها لكنها كادت أن تسقط.
اتكأت على الجدران تمشي ببطء نحو الحمّام. غسلت وجهها بالماء البارد لعله يوقظها من هذا الثقل لكن معدتها الخاوية تمرّدت وتصاعد الغثيان بسرعة حتى انحنت تستفرغ.
ظنت أن حالتها النفسية تلتهم ما تبقى من قوتها الجسدية لكن التعب صار لا يُطاق. عادت إلى سريرها بصعوبة تجرّ خطواتها ثم تمددت على جانبها...
لحظاتٌ حتى فُتح الباب وعاد الترياق إلى جسدٍ يحتضر.
وقف نيوار طويلا.. لم يكن متأكدًا أهي نائمة أم مستيقظة فالوقت متأخر بالنسبة لها كبشرية.
غلّف الصمت الغرفة، لذلك فكّر ألا يوقظها. ثم اقترب منها وألقى نظرةً على وجهها المنهك،لتفتح عينيها وتلاقت نظراتهما... دون كلمة مجرد أعينٍ تذوب في بعضها.
أخذ يمرر أصابعه بين خصلات شعرها، ولم يكن يعلم أن قلبها قد فُجع بالقرار، وأن الكلمات الخبيثة التي نُثرت في أذنيها كانت كالسكاكين تذبحها بصمت.
__إذًا... ستنتهي علاقتنا قريبًا!... لم أكن أعلم أنني سأكون ذكرى عابرةً فقط.
علم أن الخبر وصلها فتفاجأ، ولم يعرف من أين يبدأ أو ماذا ينفي. اشتدت قبضته وبرزت العروق في يده، ثم قال بصوتٍ ملؤه الغضب:
__من تجرّأ وأخبرك؟ كان من المفترض أن تسمعي ذلك مني أنا.
_لا يهم من أخبرني... ففي كل الأحوال كنت سأعرف... لكن لماذا؟ أكنت تنوي إخفاء الأمر عني؟

تنفّس بحدّة، قائلًا:
__ليس تمامًا يا إيليانا... لكن الأمر يخصّني وكان يجب أن أخبرك به بطريقتي أنا وفي وقتي أنا. والآن... قولي لي، من أين علمتِ؟
_لا يهم يا نيوار ففي الحالتين... القرار حُسم ثم أرجوك، ليس وقت انفعالك.
لمح في عينيها شيئًا أشدّ من الأسى، ففهم أن لحظته ليست لحظة انفجار بل لحظة إمساك بما يمكن إنقاذه قبل أن يضيع.
أحاطها بذراعيه، محاولًا أن يثبت ملامحها في ذاكرته قبل أن تُنتزع من بين يديه، ثم قبّلها قبلةً بطيئة تشبه محاولة تهدئة جرحٍ لا يُراد له أن ينزف أكثر.
__إيليانا... وددت لو أخفيك عن كل الأعين وعن كل المصائر وعن كل القرارات وعن الصعوبات التي واجهتنا.
ارتعشت نظراته عليها، يقفان معًا على حافة نهايةٍ لا يريد أحدهما الاعتراف بها.
كانت هذه الليلة آخر ما سيجمعهما قبل أن يمضيا في دربين لا يلتقيان.

اليوم الموعود

في القاعة الملكية اجتمعت الملكتان سبأ وزلفى، ولحق بهما ضيغم، وكان حديثهم يدور حول ما سيحدث في مجلس فك العهود بخصوص نهاية علاقة نيوار بزوجته.
قالت زلفى وهى تتنهّد:
__لا أدري ماذا أقول لكِ يا سبأ... هل ترين أن هذا القرار هو الأفضل للطرفين؟
فردّت بشرودٍ عميق:
__لا أعلم إن كان مناسبًا أم لا، لكن هذا ما يجب أن يحدث والذي يشغلني فعلًا هوء كيف ستكون حياة نيوار بعد أن

يُفصل بينهما؟ وهل سيتزوج نجمة؟
__استدعيه نسأله ونطمئن على حالهما!
لبّى نيوار نداء أمه وحضر إليهم جامد الملامح؛ لا حزن ولا فرح فقط انطفاءٌ ثقيل.
قالت زلفى مواسية:
__ابني نيوار... أعلم أن ما فُرض عليك ليس سهلًا... حاول أن تتمالك نفسك يا ولدي، وسلِّم أمرك لله.
لكن نيوار لم يرد بكلمة... ولم يرفع حتى رأسه.
أضافت سبأ:
__وكيف حال إيليانا؟
_وكيف سيكون حالها في رأيكم؟... لا أدري إنها تمر بوعكةٍ صحية أجهل سببها، تستفرغ كثيرًا وتشعر بوهنٍ غريب.
ليقترح ضيغم، الذي كان متحفظًا:
__ما رأيك أن تأتي بها إلى الجناح الطبي؟ نفحصها بسرعة قبل أن تتم العودة!

♡♡♡

في غرفة الكشف كان ضيغم يجهز نفسه ليكشف علتها، فيما وقف نيوار بجانبها، ذراعاه متشابكتان يُحاول أن يبدو ثابتًا لكن قبضته على ساعده فضحت اضطرابه.
سألها ضيغم عن الأعراض التي ظهرت عليها، بينما كان نيوار يتابع كل كلمة بعينين تتّسعان شيئًا فشيئًا.
ثم استعمل أداةً صغيرة تُستخدم للكشف الطاقي ومرّرها عليها ابتداءً من رأسها حتى أخمص قدميها، فتوهّج خيط رقيق من الضوء، لمع بطريقة لم تحدث مع أي فحص سابق لها.
بعد أن أتم الفحص، انفرد ضيغم بنيوار وتحدثا طويلًا. لم تسمع إيليانا ما دار بينهما، لكنها سمعت بوضوح نيوار وهو

يأمر ضيغم:
__بصفتك طبيبًا أشرفت عليها، يجب أن تتولى مسؤولية إخبار المجلس.

♡♡♡

انتقل إلى المجلس الأعلى، الذى كانت تُرتَّب فيه طقوس فك العهد بين أميرهم والإنسية.
— ما بالك يا ضيغم؟ أهناك ما يستدعي المقاطعة؟
أجاب بثبات:
— نعم يا مولاي. أمر عاجل... بل بالغ الأهمية.
بعد أن تم الكشف على الإنسية زوجة الأمير وبصفتي المشرف على كشف حالتها، تبيّن لي أن الأعراض التي عانت منها مؤخرًا كانت بسبب حمل.
لحظة واحدة كانت كافية لتُجمّد القاعة.
تجهّم أحد الأعضاء قائلًا:
— يبدو أن الأمر تجاوز كل الحدود المخطَّط لها. هل أنت متأكد؟ لا مجال للخطأ في مثل هذا الخبر.
__ متأكد، ولا شك عندي.
شدّ الملك الأحمر على عصاه ونظر إلى مجلسه:
— حدث ما لم يكن في الحسبان. وجود نسلٍ من الأمير يغيّر كل الأحكام... استدعوا نيوار فورًا. هذه المسألة تخصّ سلالة القصر بأكملها، ويجب إعادة النظر فيها.
تسرّب خبر الحمل ووصل إلى سبأ، الخبر الذى طالما خشيت سماعه. فانتقلت إلى زلفى سريعًا:
— زلفى... زلفى، أرجوكِ ماذا أفعل الآن؟ كيف أتصرف؟!
__ اهدئي يا سبأ... ما الأمر؟
— اللعنة... اللعنة ستقع قريبًا... النسل سيتأذى، والمملكة ستهلك!

ـــأي نسل؟ عن أي لعنة تتحدثين؟
_ إيليانا... حامل يا زلفى.
اتسعت عينا زلفى بصدمة مفاجئة، فالخبر لم يكن ضمن أي احتمال مطروح. كان من المفترض أن تُحسم العلاقة اليوم وينتهي كل شيء...
ـــ اسمعيني جيدًا يا سبأ... أنتِ امرأة حكيمة وعاقلة لا يليق بكِ هذا الذعر... ثم إنكِ لم تتأكدي بعد من تلك الرسالة و لا تنسي أنها اختفت فور أن قرأتها.
بدت الحيرة على وجهها:
_ماذا تقصدين؟!
ـــأقصد أنه ربما كانت رسالةً مزوّرة... رسالة أُرسلت ربما لتخدم مصالح شخصية لا أكثر.
_رسالة خطيرة كهذه؟ ومن سيتجرأ على العبث بي؟!
ـــ لا نعلم تحديدًا، لكن أعداء نيوار كُثر، والرافضون لزواجه من إنسية كثيرون. نحن لا نعرف ما الذي يمكن أن يدفع الناس إلى حدودهم القصوى... تعالي الآن، لنتحقق من خبر الحمل أولًا ثم سأقول لكِ شيئًا آخر.. إياكِ أن تتدخلي في قرار عودتها بعد الآن... انظري بنفسك كيف تتحرك الأقدار.

♡♡♡

هرعت نيلا إليها مذعورة، تقف عند باب الغرفة تتنفس بسرعة وكأنها تركض من خوفٍ لا من مسافة.
– سيّدتي... هناك خبر... خبر يدور في القصر
لم تلتفت نجمة فورًا كانت غارقة في نشوتها الخاصة، تنتظر نهاية اليوم بفارغ الصبر... اليوم الذي حلمت به طويلًا انفصال نيوار عن الإنسية.
– وما شأني بما يدور؟ الأخبار الوحيدة التي تهمّني هي ما سيحدث بعد لحظات.
ازدادت رعشة نيلا، ثم تجرأت:

– لكن... سيدتي الإنسية حامل.
حدقتا عينيها الزمرديتين صارتا مرآتين للرعب ذاته.
– ماذا... تقصدين بـ"حامل"؟
__ أي... أنها سـ... ستُنجب... طفلًا.
انطفأت انفعالاتها كلها، لتتحول إلى صمت بارد. جلست على حافة سريرها، تضم ذراعيها حول جسدها،لا لتتدفأ بل لتمنع نفسها من الانهيار شعرت أن غرفتها تتقلّص من حولها.
– لعينة... كلّما ظننتُ أن قصتكِ انتهت، خلقتِ لنفسكِ بابًا جديدًا للبقاء لكن لا بأس... سنرى من منا سيكون له الفصل الأخير.

انعقد اجتماع طارئ في المجلس

اصطفّ الأعضاء بوجوهٍ متجهمة، بعد نقاشات طويلة حول هذا الأمر.
كان نيوار حاضرًا بينهم بوجهٍ عابس ورأسٍ مطأطأ، لا يجرؤ على النظر في أعينهم بعدما وُجّه إليه اللوم مرارًا، واتُّهم بعناده الذي جرّ عليهم هذه التبعات.
وفوق ذلك، لم يكن يعرف ما القرار الذي سيتفوّهون به خلال لحظات: هل ستُعاد إيليانا إلى عالمها وتنتهي علاقته بها؟ أم سيُسمح لهما بالاستمرار؟ وماذا لو أصرّ المجلس على قرارهم السابق! ما مصير الطفل؟
كان يدرك تمامًا أن حياة إيليانا ستُدمَّر لو أعادوها إلى عالم البشر وهي حامل.
وفيما كانت هذه الأسئلة تعصف برأسه، قطعه صوتُ تنحنح الجدّ الكبير استعدادًا لإعلان القرار.
— بعدما تشاورنا طويلًا في شأن هذه العلاقة التي نعدّها مخالفةً لأعرافنا، وإذ كنّا نحرص دائمًا على عدم تدخل أحدنا في عالم الإنس، فقد وقع الأمر وانتهى. ولولا أن الله أذن

للإنسية بالدخولٍ إلى عالمنا، لما استطاعت.. لذلك نحمّل المسؤولية كاملةً لسليل العهد "نيوار".. أنت المسؤول عمّا آلت إليه الأحوال.
تجمّدت ملامحه وامتزج فيها الخوف بالحزن على مصيرها ومصير ابنه.
تابع الجد كلامه، ثم أشار إلى الملك الأحمر ليكمل:
— إن عادت الإنسية إلى عالمها وهي حامل، فستتعرض هي والجنين لتأثيرات العبور وتداخل الترددات الطاقية بين البعدين، مما سيؤدي إلى ولادة طفلٍ مشوَّه بالكامل ولن يعيش إلا فترةً قصيرة. أما الإنسية فستُتَّهم بين أهلها، وتُدمَّر حياتها تمامًا.
رفع الجد يده مشيرًا إلى الصمت، ثم أكمل بنفسه:
— نيوار، لقد فعلت فعلتك التي فعلت وأنت وحدك المعرّض للمساءلة أمام الله قبل المساءلة أمامنا، ففي الأخير نحن الذين نراهم من حيث لا يروننا، وكان بإمكانك الإعراض عن قلبك وعدم الظهور لها أو التدخل في حياتها.
ظهرت طاقته المنخفضة جليةً أمام المجلس وكباره.
ثم تابع الجد حديثه، ليعلن القرار الذي كادت أنفاس نيوار تتوقف من انتظاره:
— وبما أن حق المسلم على المسلم واجب، وباعتبار ابننا هو من تعدّى على حرمات الله في بنات الإنس، فإننا نقبل هذا الولد" ذكرًا كان أم أنثى"، نقبله بيننا ابنًا مكرّمًا ووارثًا للعهد. وسيعيش مرفوع الرأس بين قومه، تكفيرًا للذنب الواقع على أمه.
أشرق وجه نيوار، وانفرج صدره بارتياح لم يستطع إخفاء فقد نجا هو ومحبوبته وثمرة حبهما من مصيرٍ كان سيهلك الحرث والنسل.
ثم أكمل الجد:
— أما الإنسية فسنكون مضطرين إلى قبولها بيننا،حكمًا

للضرورة بسبب المولود، إلى أن يتبيّن لنا حكمٌ آخر في قادم الأيام.

♡♡♡

وبينما كان مصيرها يُحاك، كانت تلفّت يديها حول بطنها لا تعلم هل ستفرح أم ستخاف! فتجربة الحمل من جنيٍّ شيءٌ لم يخطر على بالها يومًا، لم تكن تعلم إن كانت ستبقى أم ستُنقل إلى عالمها بعد هذا الحدث، فحتى هي لم تستوعب خبر الحمل.

عيناها الفاتنتان ذابلتان وملامحها متعبة، لا تعرف ما يجب عليها فعله في هذه الساعة الحاسمة.

لكن خطر لها شيء قد يخفّف من ارتباكها شيئًا كثيرًا فتوجهت إلى علبتها وأخرجت مساحيق التجميل، مرّرت أحمر الشفاه على شفتيها اللتين تشبهان شكل القلب الصغير، شعرها المنسدل على كتفيها رفعته كحبة طماطم فوق رأسها، إلا أن أفكارها تبعثرت عندما سمعت طرقًا على الباب!

وضعت المرآة جانبًا، ونظرت إلى الباب بعيون فارغة من الصبر، ظنّت أنه نيوار:

– تفضّل!

لكنها ما إن رأت الداخل حتى تجمّدت...

تقدمت نحوها بخطاها الرصينة، تجرّ ثوبها خلفها وملامح وجهها خالية من أي تعبير.

نظرت إليها إيليانا بنظرات تمتزج بالخوف والاستغراب لتجلس قبالتها ببرود:

– نجمة... ماذا هناك؟

__لم آتِ لأبارك لكِ الحمل، بل جئت لأقول لكِ كلمتين..ضعيهما حلقتين في أذنك.

أومأت إيليانا برأسها إيجابًا، وهي تنتظر ما ستقوله:

– إيليانا... هذا الاسم له أثرٌ ثقيل على قلبي، أتعلمين أنكِ دائمًا تقفين في وجه سعادتي؟
اتسعت عيناها دهشة، لكن نجمة أكملت دون أن تمنحها فرصة للكلام:
– أتعلمين أن نيوار كان... وما زال يسكن قلبي؟ أحببته حبًّا لو وُزِّع على أهل الأرض لكفاهم جميعًا. وكان لزامًا عليه أن يتزوج وينجب ويواصل حياته مع شريكة... وكان يُفترض أن تكون الشريكة أنا. وكل من في القصر كان يعلم ذلك.
توقفت لحظة ونبرتها تمتلئ مرارةً مكبوتة، ثم تابعت:
– لكن نزوةً واحدة منه... كانت كفيلة بأن توقعه في شِباك فتاة لعينة تتشبث به مثل الاصق.. لو أنكِ فقط لم تتجرّئي ولم تتعدّي حدودك، لكنتُ أنا اليوم مكانك.
ردّت إيليانا بانبهار:
– لا أفهم ما الذي تحاولين قوله.
ارتسمت على شفتي نجمة نصف ابتسامة مكر وهي تقول:
– اسمعيني يا ابنة الإنس... ما ليس لكِ سيتعبك وهذا يشمل كل شيء، حتى الجنين الذي بين أحشائك. لذلك خذي بنصيحتي، اطلبي العودة إلى عالمك طوعًا قبل أن يعيدك كرهًا لأنكِ كما أخبرتك، كنتِ مجرد نزوة وعليه أن يكفّر ذنبه عمّا سوّلت له نفسه ذات يوم. ليس حبًّا وإنما اضطرارًا وفي النهاية أنتِ مجرد دخيلة.. ومرجعه إلى ابنة أصله وعالمه لا محالة.
لمعت في عيني إيليانا دموع حبيسة بين أشفارها، قبل أن ترد:
– لا أدري ما يتوجب عليّ قوله... لكن نيوار وحده من يملك القرار، إن اختارك أنتِ فهنيئًا لكِ به.. صدقيني سأنسحب من حياته كأني لم أكن يومًا، ووعدٌ مني لكِ أنكِ لن تري وجهي ثانيةً في عالمكم هذا. وفي حال اختارني أنا وابنه فحينها أنتِ من يجب عليها الخروج من حياته.

أيّام جديدة

كانت جالسة تتأمل بطنها الصغير وقد بدأ يعلو ويتكور. تقلبات الحمل لا تزال تعبث بها؛ بين دمعة وابتسامة، وبين دفء مفاجئ وغيرةٍ تشتعل كعود ثقاب. لكن شرارة الغضب هذه المرة لم تأتِ من فراغ، بل من ذكرى تسللت إلى رأسها.
عادت بها الذاكرة إلى همسات الخادمات في تلك الليلة حين كانت غائبة عن الوعي، كلمات قيلت بعشوائية، لكنها غرزت في صدرها. ثمّ كان هناك شيء آخر، ماذا كانت تقصد نجمة حينما قالت أنها كانت تعتني به في غيابها؟ ولما لم يخبرها!
ضاق المكان عليها وفتحت باب الغرفة بعنف وخرجت.
كان الغضب على وجهها لا يشبه أي نوبة مرّت بها من قبل.
سارت عبر الأروقة تبحث عنه. توجهت إلى جناح السيدة سبأ وقلبت البهو، وعبرت الحديقة... ولم تجد له أثرًا.
وأخيرًا وصلت إلى البوابة الوسطى. سألت الحارس فأشار قائلًا:
__كان هنا قبل قليل... أظنه اتجه نحو الحديقة الخلفية.
شقّت طريقها راكضة، وسط الزهور الغريبة الشكل والرائحة في تلك الحديقة الواسعة وقفت عند حافة البحيرة ولم تجد له أثرا.
جلست على الأرض وافترش ثوبها التراب كأميرة مطرودة من عرش الأمان. غطّت وجهها بكفيها وهي تصرخ:
__أين أنت يا نـــيوار... أين؟!
انفجرت باكية..حتى ظهر أمامها.
__إيليانا أنتِ هنا؟ لم أكن أتوقع... ما الذي جاء بكِ؟ وما سبب بكائك؟
لم تُجبه وقفت بسرعة كعاصفة تجمع شتاتها. حدّقت فيه طويلًا، ثم قالت بحدّة:
__بحثت طويلًا عنك ولم أجدك!
_لكن لماذا تبحثين عني، وكان بإمكانكِ فقط مناداتي وسأحضر في الحال؟

أجابته بغضب:
__لم تتوقع مجيئي؟ إذًا من كنت تنتظر؟
قال وهو يدرك أن حالتها لا تبشّر بخير:
_أممم... لا أنتظر أحدًا.
__ربما كنت تنتظر نجمة! أو توقعتها هي...؟
ضمّ حاجبيه مستغربًا، ثم هزّ رأسه نفيًا:
_نجمة!... ولماذا خطرت على بالك نجمة دون غيرها؟
فأجابته بعدائية لاذعة:
__ربما لأن حنينك إليها يدبّ من لحظة إلى أخرى!
اتسعت حيرته وهو يراقب تصاعد انفعالاتها قبل أن تبدأ بضرب صدره بكفيها، والدمع ينهمر بلا توقف.
لتضيف بين شهقاتها المختنقة:
__لم أعد أطيقك... لم أعد أطـــــــيقك! أعدني إلى عالمي.
وقف ثابتًا لم يتحرك. ضمّ مرفقيه وترك لها المساحة لتسكب غضبها وحين خفّ تنفّسها، نظر إليها بابتسامة تعجّب وقال:
__هل انتهيتِ؟...
ثم حملها على كتفه، وقال بمرح:
__الحمل غيّر تذبذباتك كثيرًا.
كانت ما تزال تضرب ظهره وتصرخ مطالبةً بأن يُنزلها، فمال برأسه وقال بسخرية:
__أظن أنكِ قابلتِ نجمة في غيابي... أشمّ رائحة عبثها عليك.
أعادها إلى جناحها، ليجلسها على سريرها بصمت ودموعها لم تجف بعد. مسح بكفيه على وجنتيها ثم أزاح خصلات شعرها التي كانت تغطي جانبًا من وجهها.
__ارتحتِ قليلًا؟!... اسمعيني جيدًا يا إيليانا، أتذكرين تلك الأيام التي كنت أظهر لكِ فيها في عالمك، وأنتِ تشعرين بالخوف مني؟
هزّت رأسها إيجابًا، ليتابع:
__أتعتقدين لو كان في قلبي إحداهن، هل كنت سأجازف

وأظهر لكِ وأنا محفوف بالمخاطر، وأعرّضك أيضًا للخطر المحدق؟
سكتت ولم تلق عليه جوابًا، ثم واصل كلامه وهو ينظر إلى عينيها، بينما كانت تهرب بنظراتها كما تفعل في كل مرة يقابلها بعينيه الصارمتين.
__إيليانا، عليكِ أن تفهمي أن قلبي لا تسكنه إلا واحدة فقط.
رفع سبابته مشيرًا إليها لكنها لم تُجبه، لا تزال تنظر إلى الأسفل.. وفي قلبها ألف سؤال.
جرأتها لم تسمح لها أن تقول كل ما يجول في عقلها، تريد تفسيرات لمواقف عدة لكنها لم تسأله.
أرادت أن تراه يتكلم دون أن تُجبره وأن يبرّر لأنه يريد، لا لأنها تطلب. وهو هذه المرة لم يستعمل قراءة الأفكار بل فقط نظر إليها طويلًا، ثم همّ أن يغادر، وقبل أن يختفي التفت إليها قائلًا:
__لا تسمحي لأحد أن يعبث بعمق حبنا، حتى لو كانت مجرد شكوك. اصرفيها يا إيليانا.
ثم خرج...بقيت وحدها، تفكر في الكلام الذي ألقاه على مسامعها، لتهمس لنفسها:
__ولكنك لم تنفِ...؟

♡♡♡

في جناحٍ آخر... كانت تقف أمام المرآة، تمرّر أصابعها في خصلاتٍ شعرها الطويل الذي زادها فتنةً وهيبة. وبينما هي شاردة تحلّل المواقف وتعيد ترتيب خطواتها وتدبّر وتكيد كانت تعلم جيدًا أن كلماتها ومواقفها السابقة قد أصابت موضعها، وأن سمّها تسلّل إلى حيث أرادت.
لكن اللعبة لم تنتهِ بعد، ولا بدّ أن تُكمل معركتها حتى تبلغ مبتغاها بأي سبيلٍ كان.

بنظرة خاطفة التفتت نحو وصيفتها الواقفة قربها وقالت بنبرة آمرة:
__أخبري الإنسية أنني أودّ مقابلتها... واحرصي ألّا يكون هذا الطلب أثناء تواجد الزوج المحترم!
لتظهر على شفتيها ابتسامة لا تشبه الودّ إلا من بعيد...
كانت لا تزال تشعر بالضياع... تلك اللحظة العابرة التي ارتجف فيها قلبها وأحست أن هذا الحمل لم يكن له أن يكون، لا تدري ما السبب بالضبط لكن كل ما تعرفه هو أنّ هذا العالم رغم جماله وغرابته، لا يشبهها ولا يناسب هشاشتها الإنسانية.
تقول أن مشكلات عالمها كانت أهون بكثير مما أوقعت نفسها فيه هنا.تشعر وكأنها عارية من الداخل أمامهم...
هم بارعون في كشف ما تخفيه، في قراءة طاقتها وترددداتها وحتى توقّع ردود أفعالها.
الأمان يتلاشى شيئًا فشيئًا مع مرور الأيام بينهم وحتى الحنين يبدو أنه اتفق مع الظروف! فهي اشتاقت إلى أمها وعائلتها حدّ الوجع.
متى ستنتهي السنة التي فُرضت عليها حتى يُسمح لها بزيارة أهلها؟
لم يمضِ سوى أشهر لكنها تشعر وكأن دهورًا مرّت عليها.
وبينما هي كذلك، غارقة في دوامة من الأفكار اللامتناهية...
لم تنتظر نجمة إذنًا بل دخلت بخفّة القطط، كأنها صاحبة المكان.
جلست قربها، ثم قالت بأسلوب ناعم يخبئ حدّة:
__أرى أن الحمل فعل فعلته بك، وأفقدكِ الكثير من توازنك لكن ما عساي أن أقول؟ ثمن الدِّية باهظ... والحمل بهجينٍ مختلف تمامًا عن الحمل العادي.
أتبعت حديثها بضحكة مكر...

كانت إيليانا تضم حاجبيها، تراقبها وتراقب الحركة الخبيثة في عينيها، ثم قطعت ضحكتها بسؤال مباشر:
__لماذا جئتِ إلى جناحي؟ ماذا تريدين بالتحديد؟
سكتت نجمة لحظة، وكأنها تزن الكلمات، ثم قالت:
__أريد أمرًا واحدًا فقط... لو فعلتِه ستوفرين عليّ الكثير (وكذلك على الكاتبة التي ستكتب قصتك).
ردّت إيليانا بحنق:
__هاتِ ما عندك، ما هو هذا الأمر؟
تشنج وجه نجمة قليلًا، فهي لم تتوقع ردًّ ا بهذه القوة، لكنها خبأت انزعاجها وقالت:
__أمممم... دعينا منه الآن، فحين يحين وقته سينفَّذ رغم أنوف الجميع.. وأخبريني عن سبب خروجك من جناحك وأنتِ في حالة هستيرية وتسألين عن نيوار، حتى ظنّ الجميع أن مكروهًا أصابه، أهذا صحيح؟
__وأنتِ... سمعتِ ذلك أم كنتِ تراقبين؟
ضحكت نجمة قبل أن تقول:
__يبدو أن الحمل يؤثر كثيرًا في عقول الإنسيات.. سأحاول أن أشرح لكِ: القلق على نيوار أمرٌ مشترك فهو ليس زوجك فقط بل ابن عمّتي، وقد ترعرنا معًا.. قلتُ لكِ هذا كثيرًا، لكن يبدو أنني مضطرة لتذكيرك به كل مرة.
شعرت إيليانا بوخز عميق إثر كلماتها ثم أضافت نجمة وهي تنظر إلى بطنها:
__طفل قادم... أتساءل، هل سيتحمّل نيوار عبءَ الأبوة؟ فهو لم يكن يومًا صبورًا...
_بما أنه استطاع الوقوف في وجه الجميع وتحمّل مسؤولية زواجنا رغم التحديات، فأظن أن الأبوة ليست أمرًا يعجز عنه.
ابتسمت نجمة وكانت ابتسامة شخص خسر الجولة الأولى.
ثم عدلت من وقفتها وغادرت، تاركةً خلفها مؤامرةً لم تنتهِ بعد..

وبينما كانت نجمة تخرج من جناح إيليانا بوقارٍ مصنوع
لم تكن تريد أن تُصادف أحدًا في هذا الممرّ بالذات.
لكن في اللحظة نفسها كان نيوار يقترب منهمكًا في أفكاره
قبل أن تتقاطع نظراتهما فجأة.
توقفت في مكانها:
__نيوار... صدفة لطيفة.
لم يُجبها مباشرة فقط نظر إلى الباب الذي خرجت منه ثم إلى
وجهها الذي يحمل أكثر مما يقول.

__أظنك تدركين جيدًا أنكِ من الضيوف غير المرحّب بهم في
دائرتي الخاصة.
أومأت مرتبكة ثم قالت وهي تحاول استعادة هدوئها:
_أعلم... لكن قلبي الطيب يرفض أن أُستبعد من دائرتك.. لا
تقلقٍ أردت فقط الاطمئنان على إيليانا فالحمل ليس أمرًا
سهلًا كما تعلم!
قهقه ساخرًا:
__ومنذ متى بات أمر إيليانا يعنيك؟
_منذ أن اختلطت الأعراق.. شئنا أم أبينا، هي الآن ليست
زوجتك فقط بل أمّ لطفلك.. تجذرت بيننا وما علينا إلا أن
نتقبل الأمر وننهي القصص القديمة والمشاحنات التي لا
تجلب إلا المتاعب.
كان كلامها مُتقنًا لا يخلو من أسلوب الإقناع، لكنها تعلم أيضًا
أن حيلها لا تمرّ عليه.
همّمت بالابتعاد قائلة:
__كن لطيفًا معها... الحمل يجعلها شديدة الحساسية.
ظلّ واقفًا مكانه، يحدّق فيها حتى اختفت...
ثم فور دخوله، لقي بصره إيليانا بعينين تحملان كل شيء
ليقول متسائلا:

__منذ متى كانت هنا، وماذا قالت لك؟
لم تُجب وارتمت على سريرها، أخفت نفسها تحت بطانيتها علم أن نجمة ربما لعبت بأفكارها، لكنه تذكر أيضًا أن مزاجها هذا الصباح لم يكن على ما يرام فأسقط السبب على الحمل اقترب منها، ووقف قرب سريرها وهو يقول:
__لا تتجاهليني بهذا الشكل! فهذا لا يليق بمقامي! أنا لست إنسيًّا!

أزاحت غطاءها بغضب وعدّلت من جلستها:
__وأنا لست جنية!
_لكن أنتِ زوجتي وعليكِ أن تتصرفي معي بشكل يليق...
ردّت عليه وهي تكابر:
__وهل أنا جاريتك؟ ثم لماذا عليَّ أن أطيع أوامرك؟ ولماذا يجب عليَّ أن أنفذ كل ما طلبتموه مني، أنت وعائلتك؟
تلونت عيناه باللون الأحمر، وهذه الإشارة تعرفها جيدًا! ومع ذلك واصلت عنادها وهي تتابع حديثها:
_لماذا عليَّ أن أطيع أوامركم؟ ولماذا قراري المصيري أنتم من تقررونه؟ لماذا منعتموني من زيارة أهلي؟ ولماذا لم تستشيروني حينما حدث هذا الحمل اللعين؟ إذا ما كنت سأقبل أن أتم في هذه العلاقة أو أن أجهض هذا الحمل وأعود إلى عالمي، لماذا قررتم بد...
صرخ نيوار صرخة جعلتها تكتم أنفاسها:
__يـــــكفـــــيـــــ..
ارتجف جسدها كمن صُعق، ليتابع وصوته يعلو مع كل كلمة:
__أنتِ تعلمين أن كل ما صدر هو قرار مجلس الشيوخ والأحكام العليا، التي صدرت ليس لنا أي يد فيها.. لكن لو علمت أنكِ تريدين إنهاء علاقتنا هذه وتريدين قتل هذا الطفل الذي في بطنك، ما كنتُ لأقف في وجه كبار قومي من أجلك

وما كانت بعضٌ من قدراتي قد اختفت عقابًا لي؛ لأني تجاوزت القوانين وتزوجت بكِ كإنسية، ناهيك عن العقوبات التي ستُنفذ عليَّ بعدما ننهي السنة الأولى من زواجنا.
كانت إيليانا تضم وجهها بكفيها وهي تسمع كلامه الذي كان يلقيه عليها بصوتٍ عالٍ. أدركت أنها تجاوزت حدودها، ثم إنه لم يخبرها عن العقوبات التي فرضت عليه بعد السنة الأولى!
سألته ولم تكن لها الجرأة على أن تفعل، فطاقة غضبه تلك أحدثت فوضى عارمة في الغرفة. فالمرايا قد تكسرت والزجاج تطايرت شظاياه في كل مكان حتى الزينة من اللوحات الفنية التي كانت تزين الحائط سقطت على الأرض وتكسرت المزهريات الزجاجية الضخمة التي كانت في الزوايا.
ثم بصوتها المهزوز المذعور قالت:
__نـــ.. نيوار، أنا أعتذر على ما بدر مني.
كاد أن يذهب لكنها استجمعت شجاعتها وسألته:
__أرجوك، أخبرني ماذا تقصد بالعقوبات التي ستنفذ عليك بعد أن تمر سنة على زواجنا!
هدأ قليلًا بعد أن رأى وجهها المذعور وشعر بقلبها الذي كان سيخرج من مكانه:
_نعم كنت سأنقلك إلى عالمك كزيارة بعد أن تمر سنة حسب ما جاء في شروط المجلس، وكان يُفترض حينها أن أُسجن في سجن الغياهب.
__ماذا تقصد بسجن الغياهب؟
_سجن الغياهب هو أكثر السجون رهبة في عالم الجن، يقع في طبقة طاقية لا تخضع للزمكان؛ طبقة لا تخضع لقوانين أي مملكة ولا لسلطة أي ملك. لا أحد يستطيع تحديد موقعه

ولا حتى كبار العارفين لأن الداخل إليه يختفي أثره كليًا.. يُنفى إليه الجنيّ العاصي أو من تُفرض عليه عقوبات جسيمة ولا يمكن دخوله إلا عبر بوابة طاقية تُفتح بإذن خاص من كبير حراسه. وبمجرد عبور الجنيّ تلك البوابة... يبدأ العقاب الحقيقي فهناك تُسحب طاقة الجني سحبًا كاملًا فيفقد قوته وقدرته على التواصل وعلى الإرسال أو الاستشعار أو الانتقال وحتى موقعه الطاقي يختفي. فلا يعود أي أحد قادرًا على تتبع أثره، هو أشبه بالشلل عند البشر لكن بالنسبة للجن هو موت مؤقت أشدّ قسوة وأكثر عزلة.

نظر بأسى، ليتابع:

__وقاعدة هذا السجن لا تقبل الجدل، كل جنيّ يكسر القوانين أو يخالف الأعراف، أو يتصرف بدون إذن نهايته الغياهب.

استطاعت النظر إليه هذه المرة بعدما قاله، لكن بعينين مليئتين بالحزن، دموعها دائمًا ما تغلبها في مثل هذه المواقف لتسأله:

__وكم ستمكث فيه؟

_مدة العقاب في سجن الغياهب ليست ثابتة ولا يمكن التنبؤ بها. فقد تكون ساعة جنّية واحدة تعادل سنة بشرية كاملة وقد يتحول الأمر إلى تعليق في الزمن لا يشعر فيه الجني بمرور الأيام أصلًا. بعضهم يُسجن سنين معدودة...وبعضهم لا يُسمح له بالخروج إلا بعد أن تُطهَّر طاقته بالكامل مهما طال الزمن أو قصر. أما عن حالي... فأنا أجهل تمامًا كم سأمضي هناك ربما سنة ربما سنين وربما حتى قرون.

__قروووون؟!

_نعم، ربما قرون وحتى إن قضيت سنة فالسنة عندنا لا تعادل السنة عندكم.

__ماذا تقصد؟!

__أقصد ربما سنة أقضيها في هذا السجن ستعادل سبع

سنين من وقتكم أو ما يزيد...
سألته بحيرة مجددًا:
__أنا لم أفهم أيَّ شيءٍ من كلامك.
_ليس واجبًا أن تفهمي... يكفي أن تعي ما سيحصل.
واصلت أسئلتها وهي تحاول تجنب النظر إلى عينيه:
__أأفهم من كلامك أن زيارتي إلى بيت أهلي، بعدما تنتهي المدة المحددة ستكون زيارة بلا رجعة؟
_لا أدري ما سأجيبك يا إيليانا... لكن في ذلك أبواب كثيرة...
__كيف أبواب كثيرة، ماذا تقصد؟! وحتى إن قضيتَ قرونًا في هذا السجن فأنا سأكون حينها في عداد الموتى، بل أنا من سيُفقد أثره حينها. سيتغير كل شيء وسيكون زمنًا آخر.
أطرق برأسه ثم قال:
_مثلما قلت لك هناك أبواب كثيرة كي أشرح لك، وعقلك البشري لن يستوعب ما سأشرحه لذلك سأحاول أن أفسر لك بابًا واحدًا بشكل مبسط.
نظرت إليه بعينين تركزان أكثر مما تنظران، ليواصل هو حديثه:
_كما تعلمين نحن الجن أعمارنا تفوق أعماركم بكثير...
قاطعته قائلة:
__هذه المعلومة أعرفها وليست جديدة عليَّ، لذلك أخبرني بما أجهله يا سيد نيوار.
حدق فيها بعينين حادتين جعلتاها تغطي وجهها بكفيها وتبعد إصبعًا عن عين واحدة كي تطل عليه، ثم قال:
_يجب عليكِ ألا تقاطعيني حينما أتكلم معك في أمور كبيرة مثل أمور عالمنا، وإلا...
ردت عليه معتذرة:
__أعتذر... أعتذر... أرجوك، واصل!
تابع حديثه قائلًا:

_أما في حال انتهت عقوبتي بعد قرون فسيكون العهد الذي بيني وبينك لا يزال قائمًا لكنكِ أنتِ لن تكوني وستصبحين في خبر كان. لذلك سأعود إلى أحفادك و...
قاطعته للمرة الثانية وهي تقول:
__ماذا؟... ستتزوج مرة أخرى بحفيدتي، وتأتي بها إلى عالمكم وسيحصل معها ما حصل معي؟!
نظر إليها وهو يضم حاجبيه:
_ألم أقل لك إن من شروط الحديث في هذه الأمور ألا تقاطعيني...
__حسنًا، أعدك أن تكون المرة الأخيرة.
_سأغفر لك هذه المرة فقط وإن حدث وقاطعتني للمرة الثالثة سأضطر إلى إيقاف الحديث فورًا.
__تمام، اتفقنا.
تابع حديثه:
__سأحاول أن أختار حفيدةً تشبهك في طاقتك ونقائك وحتى ترددات روحك، كي تسمح لي بأن...
ولأن الحديث كان يحمل من الحماس ما أثار غيرتها قاطعته مرةً أخرى:
__وستتزوجها بدلًا عني، وتخون العهد!
سكت قليلًا وهو ينظر إلى عينيها اللتين حملتا بريقًا غير معهود، ثم قال:
_ومن قال إني سأتزوجها!
أرادت أن تتحدث لكنه واصل حديثه مقاطعًا إياها:
_بما أنكِ خالفتِ الشرط وقاطعتِني للمرة الثالثة، فاتفاقنا كان واضحًا وأذهبتِ عن نفسك بقية الحديث.
ثم انتصب واقفًا وبينما كان متجهًا إلى الخارج، كانت هي تتوسله أن يكمل الحديث بإلحاح لكنه لم يعرها أي اهتمام وخرج من الجناح غير آبهٍ بها.

صكّت أسنانها من فضولها الزائد الذي منعها من معرفة ما سيحصل.
ثم التفتت من حولها فكان كل شيء في حالةٍ كارثية وكأن زلزالًا ضرب المكان وأحدث تلك الفوضى. تأففت بقلق ثم نادت إحدى الخادمات كي تنظف وترتب الجناح. ولم تمضِ إلا لحظات حتى دخلت الخادمة التي تأوهت من هول ما رأت ففهمت أن شجارًا قد دار... بالطبع لن تفوّت الفرصة في أن تنقل الخبر إلى صديقاتها!

♡♡♡

توجّه إلى هيئة كبار المجلس وكانت نيّته أن يطعن في القرار الذي صدر منذ شهور، رغم علمه أن الطعن في القرار بعد هذه المدّة يُعدّ مخالفة، ما سيفرض عليه عقوبات إضافية قد تصل حتى إلى إيليانا، إذا ما صرّح أن رغبتها هي العودة إلى عالمها. فحسب أعرافهم وقوانينهم الصارمة يُعتبر ذلك دليلًا على أنها لم تكن كفؤًا للمسؤولية التي اختارتها.
وبعد أن وصل إلى القاعة العليا ولم يعد يفصل بينه وبين الحكّام سوى بضع كلمات ليبيّن سبب مجيئه، قرّر أن يعود ليسألها ويتأكّد من كلامها للمرّة الأخيرة ثم ليحدث ما يحدث.
عاد إلى جناحه وخطواته تتراجع إلى الوراء.
فترةً وجيزة مرّت.. بعد ما حصل بينه وبينها.
دخل الجناح هذه المرّة وقوّته خائرة، تحمل ملامحه الحزن أكثر من أي شيء آخر. كلماتها التي ألقتها عليه عن رغبتها في العودة إلى عالمها وإنهاء العلاقة بل وإجهاض ثمرة حبّهما كانت ثقيلةً جدًا على مسمعه، لم يتوقّع أبدًا أن إيليانا يمكن أن تفكّر في شيء كهذا.
نزع رداءه وألقاه بعشوائية على غير عادته ثم تقدّم إلى السرير الذي طالما جمع حبّهما وجلس متربّعًا في وسطه.

بعد لحظات من شروده خرجت هي من الحمّام تلفّ منشفةً على بدنها وشعرها يتناثر مبللًا حول كتفيها. كان وجهها مبللًا بقطرات ماء تسيل برفقٍ على خدّيها لتختلط بدموع ساخنة وكأن الحزن لم يجد مكانًا يسكن فيه إلا أهدابها.
بعد لحظات من النظرات المسترسلة بينهما أزاحت عينيها عنه وتقدّمت نحو المرآة المتشقّقة الوحيدة التي سلمت من الدمار. أمالت شعرها إلى جانب واحد وراحت تجفّفه متجاهلةً له لكنه ما لبث أن مدّ يده إلى كتفها:
— إيليانا، أنا...
ردّت دون أن تلتفت:
— لا تعتذر... لا أريد منك اعتذارًا.
__كما تشائين، لكنني أريد تأكيدًا للمرة الأخيرة.
— تأكيدًا على ماذا؟
__ عن حديثك الذي أثار جنوني وأفقدني صوابي.
سكت قليلا ينتظر ردّها، وحين لم تجب تابع:
__أقصد رغبتك في إنهاء العلاقة وإجها...
قاطعته بنبرة باكية:
— هكذا إذن؟ كنت تريد تأكيدًا وكأنني عبء عليك، تنتظر شرارةً لينتهي كل شيء...
وضع يده على فمها:
— شششت... أبدا، جئت لأستوضح منك فقط كي لا أجعلك تعيشين حياةً لا تريدينها ولا طفلًا هجينًا ربما لن تتقبّليه.
أردت التأكد كي تحصلي على ما تريدين لا لأنني أريد... أما إن سألتِ عن قراري أنا فلن أجيبك لأنك ستعتبرينه تعدّيًا على حرية اختيارك.
صمت وهو ينظر إليها منتظرًا كلمةً أو اعتراضًا، لكنها أخفضت رأسها إلى الأرض وصمتت.

— إيليانا، قولي شيئًا وإلا سأعتبر صمتك تأكيدًا لما قلتِ سابقًا.
توجّهت إلى خزانتها وأخرجت ملابس النوم وارتدتها ثم علبتها الخاصة بلوازم التجميل. أمسكت مشطها وراحت تسرّح شعرها بعد أن وضعت عليه بلسمًا يفوح بعطر الفراولة. وبما أن المشط يحتوي على مرآة من الخلف، استعانت بها لترسم أحمر الشفاه ببطء، ثم أخيرًا رشّة عطر.
كان نيوار يراقب كل ذلك بدقّة وحين انتهت، نظرت إليه وجدته ما يزال يثبّت عينيه عليها، ليقول وهو يضمّ ذراعيه:
— ما زلت أريد تأكيدًا.
تكلّمت أخيرًا:
— إحدى مشاكل الإنسيّات الأزلية أنهن حين يغضبن يقلن كلامًا لا يعنينه، وبطريقة متطرّفة يقلن عكس ما يردن.
ابتسامة عريضة على وجهه، كلماتها نزعت سمًّا كان ينهش قلبه، ثم أخذ يديها بين يديه وخفّض صوته حتى صار همسًا:
— ابنة قلبي... ما تزالين خائفة!
ابتسمت بخجل، وأجابت بنفس همسه:
— بعض الشيء...
ـــ إيليانا... لا تصمتي قولي كل ما في قلبك.
كانت مترددة بين الصمت وكشف ما تخفيه من أفكار متشابكة، ثم قالت:
— وجودها يؤرقني... أشعر أن قلبي يُطعن كلما أرادت أن تحدثني، ثم إن إحساسًا يداعبني أنك تميل إليها وتحنّ.
هزّ رأسه إيجابًا وهو مبتسم:
ـــ تقصدين نجمة؟
— ومن غيرها!
ـــولمَ لم تسأليني؟
— لأنني كنت خائفة من الجواب.

__نجمة كانت دائمًا موجودة... بل قبلك بقرن وأكثر... لكن أبدًا لم تفعل ما فعلته أنتِ في لحظة خاطفة!
— وماذا فعلت أنا؟
__ أقمتِ حربًا عنيفة في مملكة قلبي... وانتصرتِ دون سيف هذا ما فعلتِه بالضبط.
اقترب حتى لم تعد تفصل بينهما إلا أنفاسه الحارة وكعادته ألصق جبينه بجبينها،وهو يتحسس بطنها:
__ دعكِ من كل هذا، وأخبريني عن حال ابننا؟
أمسكت يده بسرعة، لتقول متلهفة:
— انظر... إنه يتحرك! هذا مخيف... يخيفني تمامًا كما يفعل أباه حين يغضب.
قهقه بصوت جهوري، ضحكته المهيبة كانت تعكس فرحه العميق.
— نيواااااار! وما المضحك في الأمر؟
__ لا شيء، سوى أشياء!
— تذكرت!... أريد أن أسأل أمك عن التحولات الغريبة التي تطرأ على جسمي هذه الأيام.
— حسنًا... حسنًا...سأخبرها غدًا أنك تريدينها.

طمأنينته حين يتكلّم تشبه يدًا ترفع قلبها من حافة الخوف في كل مرّة

توجّه إلى أمه ليحادثها في أمرٍ هام يشغل باله.
كانت سبأ برفقة مجموعة من الجنيات يتدارسن العلوم الخاصة بعالمهم. لكن نيوار طلب الإذن من أمه ليحادثها بشأن موضوعٍ وأكّد لها عبر التخاطر أن الأمر مستعجل، فأنهت جلستها وانصرفت الجنيات إلى موعدٍ آخر.
انتظر حتى خلا المكان تمامًا، ثم انحنى قليلًا وهو يلقي التحية على صاحبة المقام.
— ما الأمر يا نيوار؟ أربكتني بتعجّلك هذا!

ـــ لا تقلقي يا أمي، لكن يجب علينا اتخاذ إجراءات صارمة حول شخصٍ ما.
تساءلت بحيرة، وبدأ القلق يتسرّب إلى ملامحها:
— لا تُلمّح كثيرًا وتكلم مباشرة... وأُحيطك علما أني على دِراية بما حصل في جناحك هذا المساء.
نظر إليها بوجهٍ عابس:
ـــ أعلم أنه وصلك، وكيف لا يصل؟ والقصر مليء بالجواسيس وليس هذا فحسب، الأخطر أن مهمة الجواسيس لا تقتصر على نقل الأخبار عن حياة نيوار فقط، بل على تدميرها أيضًا.
— نيوار، تأدّب.. أنت مع أمك قبل أن تكون مع ملكة القصر!
ـــ أعتذر جلالتك، لكن بعض الأرواح لا تليق بهذا القصر ولا ترضي سلامه ولهذا... قررتُ أن تغادر ابنة أخيك الجناح الملكي، وأن تنتقل إلى دار الضيافة الخارجية إلى حين ترتيب أمر انتقالها إلى قبيلتها، حيث أصلها وأهلها.
— أجننت! ما هذا القرار؟ نجمة ليست ضيفة القصر، بل ابنة الدم والعهد أتريدني أن أنقض العهد مع أخي؟
ـــ وأنا ابن ملك هذا القصر وأميره،ولا أقبل أن يبقى فيه شخص يزعزع استقرار حياتي ويهدد طمأنينة من فيه.
ارتعش جفنها، وقالت بنبرة لاذعة:
— أممم جميل!.. منذ متى تقرر مصير من في القصر من تلقاء نفسك؟!.. أرى أنك تتطاول كثيرًا على أمك.. أم أن لقلوب بعض البشر سحرًا قويًّا؟
ـــ أرجوك يا أمي، حاولي أن تفهميني ولو مرة واحدة منذ كنا أطفالًا أنا ونجمة وأنتِ دائمًا تقفين إلى جانبها بحجة أنني ابن القصر وهي يتيمة، رغم أن أباها على قيد الحياة وتلك

الحجج الواهية. فما شأن البشر بقصتنا القديمة هذه؟
رفعت يدها مشيرةً إليه أن يصمت، وقالت بعينين ناريتين:
— الآن سأستدعي نجمة، وستقصّ عليّ أمامك ما الذي فعلته حتى جئتني بهذا القرار الذي لا أساس له من الصحة.
زمجر نيوار بتأفف محاولًا منعها فهو لا يريد رؤيتها، لكنها لم تُعر رفضه اهتمامًا. ذكرت اسمها مرتين حتى طُرق باب الإذن.
دخلت نجمة وانحنت تلقي التحية وعلى شفتيها ابتسامة خبيثة:
— مرحبًا سمو الملكة، مرحبًا سمو الأمير.. أرى أن جلالتك تريدني؟
_ تقدّمي يا نجمة وأخبريني ماذا فعلتِ اليوم لنيوار حتى هو غاضب منك؟
ضم نيوار كفيه خلف ظهره، واستدار إلى الجهة الأخرى كي لا تتقاطع نظراته مع أمه أو مع نجمة، التي بدت تمثّل البراءة والاحترام ببراعة.
— عمّتي، أرجو أن يتكلم نيوار عمّا فعلته له وجعله يغضب مني، فأنا أجهل تمامًا ما حصل!
نظرت سبأ إلى نيوار وقد صارت عيناها كشعلتي لهب، تمامًا كما يحدث له حين يغضب:
— نيواااار!
صرختها كانت كافية ليعدّل من وقفته فتابعت:
— هذا المشهد منذ طفولتكما، ما زال يتكرر رغم أنكما كبرتما وأصبحتما رجلًا وامرأة.. أتذكر حين كنتما تتشاجران وتأتيان إليّ لينصف أحدكما، وكل منكما يدّعي الظلم!
__ أذكر... بل أذكر جيدًا أنكِ كنتِ تنصفينها في كل مرة، لأنها تجيد إخفاء حقيقتها عنك.
— يكفي يا نيوار! أريد أن أعرف ما الذي فعلته نجمة لك

وأرجوك ألا تخبرني أن ما حصل في جناحك كان بسببها!
قاطعتهم نجمة بدهشة مصطنعة:
— وماذا حصل في جناحه حتى يكون لي يدٌ فيه؟
رفع نيوار كفيه مستبعدًا:
— لم يحصل شيء... لم يحصل شيء، كان توهّمًا مني.. أعتذر كالعادة. أنا آسف يا سيدة نجمة لكن في المرة القادمة إن حصل ما يثير جنوني أكثر من هذا، أعدكما أن الأمر سيُرفع إلى الملك الأحمر لا إلى زوجته...
همّ بالانصراف لكن سبأ أوقفته:
— نجمة ابنة أخي وقد قطعتُ له وعدًا أن تكون جزءًا من هذا النسيج. قد تختلف القلوب لكن لا يُقصى الدم من بيته.
عُلِم؟
— عُلِم.
— انصرفا الآن ولا أريد مشاجرةً أخرى بينكما.
ابتسمت نجمة بمكر فدائمًا ما تقف عمتها إلى جانبها منذ الطفولة وحين همّا بالمغادرة همست قرب أذنه:
— وما شأني بكما إن كانت بعض القلوب الضعيفة تحتاج تدريبًا أطول على الثقة؟
ليردّ عليها بغضب:
—انفذي بريشك ما استطعتِ، لكنني أعدكِ يا نجمة... هذا القصر لن يحتمل لعبةً أخرى منكِ وإلا فالمؤدِّب سيتصرف بنفسه.
ضحكت وهي تعضّ على شفتها السفلى:
— أتساءل... كيف سيؤدبني؟

♡♡♡

يوم آخر

كانت تضيء غرفتها شموعٌ سوداء.. جلست بجانبها تفرقع أصابعها الطويلة، تنتظر شيئًا بفارغ الصبر.
لم تمضِ لحظات حتى دخلت بملامح غريبة؛ عيناها سوداوان لا يظهر فيهما أثر للرحمة وقالت بخنوع:
— أنا تحت أمركِ سيدتي... اعقدي النية وسترَين عجبًا.

♡♡♡

في جناحٍ آخر كانت سبأ تجلس إلى جانب إيليانا يتبادلان الحديث حول الحمل الذي بدا لها غريبًا على غير ما تعرفه.
لتقول وهي تلمس بطنها بقلق:
— لا أعلم إن كان ما أشعر به طبيعيًا أم لا..هل يختلف الحمل في عالمكم؟ أظن أن بطني تنتفخ بسرعة غير مألوفة بالنسبة إليّ. في عالمنا يستمر الحمل تسعة أشهر أما هنا فلا أدري كيف سيكون الأمر.
__بالطبع يختلف.. الوقت بين العالمين لا يُقاس بالحسابات ذاتها. حملكِ سيكون أسرع مما تتخيلين وحفيدنا ذكرًا كان أم أنثى، لن يتأخر كثيرًا قبل أن يرى النور بين يديكِ.
توهّج وجهها بلهفة فرح:
— إذن سيُختصر وقت الحمل! هذا رائع... لكن حماسي لا يخلو من الخوف.
__ من الطبيعي أن تشعري بالخوف فهذه المشاعر جزء من طبيعة الأمر. ثم إن فكرة الهجين وحدها مرعبة.
شعرت إيليانا بوخزٍ في قلبها إيقاعٍ ثقيل في كلماتها! قطع ذلك حضور زلفى التي كانت تضيء ملامحها ابتسامة مرح:
— سبأ لقد سبقتِني إلى زوجة ابنك، ألم تقولي إنك ستصطحبينني معك؟ لِمَ تركتِني وحدي، هاه؟
— آه يا زلفى... ذاكرتكِ ما زالت بخير، وتكفيكِ لمعرفة وجهة الجناح.

ـــ أتصدقين إن قلت لكِ إن الأجنحة الكثيرة تختلط عليّ أحيانًا وأتوه بين ممراته، فهو كبيرٌ للغاية.
رحبت إيليانا بهما من جديد وسألتها زلفى باهتمام:
— أخبرينا عزيزتي، كيف حالكِ مع الحمل؟ بلغنا هذا الصباح أن نيوار أرسل في طلبنا للمجيء إليكِ. جميعنا متشوقون لرؤية حفيدنا قريبًا.
قاطعتها سبأ بثقة:
— لا داعي للقلق.. كل شيء سيسير على ما يرام وتحسبًا لذلك، أرسلت طلبًا لاستقدام خادمة جديدة خصيصًا لمساعدتها في هذه الفترة.
وبينما كنّ الثلاث يتبادلن أطراف الحديث كانت آذانٌ أخرى تسترق السمع في الخفاء تراقب وتُدبّر وتدرس الموقف بعناية قبل رسم خريطة الهجوم.
وحين همّت زلفى وسبأ بالانصراف، استوقفتهما إيليانا بسؤالٍ.
— أخشى أن يأتيني الطلق فجأة ونيوار كثير الغياب، يختفي دون أن يخبرني إلى أين يذهب أو متى يعود. ماذا لو حدث ذلك ولم يكن بجانبي، كيف سأتصرف؟
قالت زلفى باستغراب:
— لكن يكفي أن تنادي باسمه وسيكون أمامك فورًا.
ـــ أعلم... لكن أحيانًا لا يستجيب لندائي.
تدخلت سبأ قائلة:
— لعلّه يكون منشغلًا باستشراف بعض الأمور وإدارتها، لذلك يتأخر عن الحضور. لا تقلقي إن حدث شيء يكفي أن تنادي الخادمات.
وأضافت زلفى:
— أو حتى أنا... يمكنكِ مناداتي.

رمقت سبأ زلفى بنظرة اعتراض صامتة، فذلك لا يليق بصاحبات المقام والسمو وفق أعرافهم.
شكرتهم إيليانا قبل أن يغادروا لتبقى هي غارقة في أفكارها تتساءل عن الغموض الذي يلف هذه المرحلة.

♡♡♡

في إحدى الليالي، كانت تغفو على صدره بعد ليلة هادئة جمعتهما.. كان هناك أمرٌ واحد ظلّ يشغلها وتعود إليه مرارًا "الحمل".
تتحدث عنه بلا هوادة؛ عن الولادة وعن رعاية رضيع في عالمهم، وعن الاختلافات التي قد يحملها طفلهما القادم.
أسئلةٌ متداخلة عشوائية أحيانًا، تمتزج بحكاياتها ومخاوفها.
كان نيوار يجيبها تارة ويصغي إليها تارةً أخرى باهتمام، بينما ينتظر اللحظة التي تنتهي فيها من حديثها الامتناهي ليخبرها بالأمر الذي طرأ عليه.
لكنها لم تعرف للحديث نهاية، لذلك قاطعها:
— لكنني لن أكون معك بعد هذه الليلة.
ابتلعت كلماتها فجأة ورفعت رأسها نحوه بعينين اتسعتا حزنًا:
— نيوار... إن لم يكن هذا مزاحًا فماذا تقصد؟
__ لست أمزح.. عليّ أن أغيب لبعض الوقت.
— إلى أين؟
__لمهمةٍ دورية.
— وكم ستغيب؟
__ لا أعلم... قد تطول المدة وقد تقصر بحسب ظروفها.
— أفهم من كلامك أنك لن تعود قبل موعد ولادتي ولن تكون معي في هذا الحدث المهم.
— هذا واردٌ جدًا.

— تقولها بكل هذا البرود؟ ضف إلى ذلك... ما هذه المهمة التي تصبح أهم مني وأنا في هذه الفترة؟
عدل من جلسته ومرر أصابعه على شفتيها وبعدما تأملها لحظات، انتقي أثر كلماته بعناية:
— اسمعيني يا إيليانا.. أتذكرين حين تزوجنا؟ أخبرتكِ أنني صاحب رتبةٍ عليا وهذا لا يعني أن أكون إلى جوارِكِ في كل وقت.. يتطلب مني ذلك مهامًا كثيرة، حروبًا وإدارة شؤونٍ لا تحتمل الإهمال ولا التقصير. ولسوء الحظ استُدعيت في هذه الفترة لنوبة الحراسة العليا... وهي مهمةٌ لا تسمح لي بالانشغال بشيءٍ آخر.. أحيانًا تُفرض علينا الظروف أن نحمي من نحب بالغياب لا بالقرب.. أرجوكِ.. تفهّمي قسوة ظروفي عليكِ.
دلفت إلى حضنه، تداري دموعها بصمت.
ثم فتحت جفونها لاحقًا لتجد نفسها مستلقيةً في سريرها مغطاةً بعناية. تفحصت المكان بعينيها لكنه لم يكن هناك. وحده ضوء النهار الذي يتسلل من النوافذ" لا بأس إيليانا سيعود" شعرت بحزنٍ ثقيل قبل أن يقطعه طرقُ استئذان لتدخل جنيةٌ ذات هيئةٍ مريبة.
الخادمة الجديدة التي أُرسلت خصيصًا إلى جناحها بأمرٍ من سبأ وبتدبيرٍ خفي من نجمة.
قالت بابتسامةٍ هادئة:
— صباح الخير سمو الأميرة.. أنا خادمتكِ الجديدة و اسمي "عاصفة".
وقد سُمّيت كذلك لأنها لا تدخل بيتًا إلا وتُخلّفه مدمرًا من الداخل، دون أن يُكسر فيه كوبٌ واحد.
نظرت إليها إيليانا ورغم الابتسامة، لم تشعر بأي دفء.
تجاهلت إحساسه وهمّت بتناول فطورها بينما كانت عاصفة تراقبها بصمت. وكانت تلك أول خطوةٍ من خطوات الفحص التي تسبق التخطيط.
تمر الأيام على مهل بينما كانت إيليانا ممددةً على سريرها

كان بطنها متكورًا يحمل ثقل غيابه ويعيد إليها آخر صورةٍ رأته فيها.
قررت أن تبتعد عن جدران الجناح وأن تخرج إلى الحديقة لعلّ النسيم العذب يعيد إليها شيئًا من طمأنينتها ويخفف عن قلبها المُتعب.
تحت ضوء القمر الفضّي المنساب على أوراق الأشجار المتعانقة كانت السماء مزدانةً بالنجوم اللامعة، تتخللها شهبٌ تعبر بسرعةٍ خاطفة.
وبينما كانت تسير بخطواتٍ بطيئة، كانت عيونٌ ما في الأفق تلاحقها بفضول.
عبير الزهور أيقظ في قلبها ذكرياتٍ دافئة فضمّت ذراعيها إلى جسدها ورفعت عينيها نحو السماء، تتأملها وتتدبر في خلق الله ما زال هذا العالم يأسرها بتفاصيله الغريبة والجميلة.
وفجأة... قطع سكون الليل وقعُ خطواتٍ تقترب.
كان هناك شيءٌ في تلك اللحظة يوحي بالغموض وبالقلق الذي تسلّل إلى أنفاسها المتسارعة...
قبل أن تلتفت سبقها صوتٌ دافئ ألقى السلام:
— أوه، يا لها من مصادفةٍ جميلة...
التفتت إليه وإذا بعينيها تلتقيان بعيني الطبيب ضيغم بادلته نظراتٌ تشقّ طريقها إلى قلبه كالرمح.
ردّت عليه السلام بابتسامةٍ خجولةو شعرت بارتباكٍ في البداية لكن ضيغم بلطفه، عرف كيف يفتتح حديثًا ينثر الطمأنينة في قلبها.
جلسا معًا على مقعدٍ حجري يقابل البحيرة التي يضيئها القمر وبدأ يحدثها عن الحمل ولأنه طبيب واطّلع على كثيرٍ من العلوم كان يشرح لها الفروق الدقيقة بين حمل الإنسيات والجنّيات وكيف يتعامل جسدها مع هذا المزج العجيب

وماذا سيحدث لرحمها وجسدها رويدًا رويدًا.
كانت تنصت بكل حواسها فهذا الحديث هو ما يشغل بالها في هذه الفترة ووجدت فيه كل الشرح الذي كانت تبحث عنه.
نظراتها تلك كانت تغرقه وتسحبه إلى عمقٍ لا يملك فيه حيلة لكنه حاول أن يتحاشى التحديق فيها.
وفي المقابل طاقته أيضا حملت طمأنينةً ساحرة وبعضًا من الأمان الذي تسلل إلى قلبها، فهو ثاني جنيٍّ تتكلم معه بهذه الارتياحية بعد نيوار. في هذه اللحظات أدركت أن إناثهم تختلف كثيرًا عن ذكورهم...
على بُعد مسافاتٍ قصيرة بين أشجار الحديقة كانت هناك عيونٌ تتعقبهما عن كثب ترى في هذا اللقاء مصيدةً ضخمة.

♡♡♡

طُرق باب جناح الملكة سبأ ففتحت الباب بحذر، لتجد أمامها الوصيفة الجديدة "عاصفة":
— أعذريني جلالتك على الإزعاج لكن الأميرة إيليانا كانت قد طلبت مني كأسًا من شراب الزهور قبل نومها وانشغلت ببعض المهام ونسيت... والآن ذهبت لأقدّمه لها، فلم أجدها.
شعرت سبأ بانقباض قبل أن تقول:
— لعلها في الحمام!
ـــ بحثت في كل مكان، ولم أجد لها أثرًا.
في تلك الأثناء كان نيوار قد عاد إلى القصر ومهمته تلك قد انقضت في فترةٍ وجيزة، على عكس ما حدّث به إيليانا واعتبر ذلك مفاجأةً مبهجة لها، تقصّدَ أن يدخل بهدوء وهو يتوق لرؤيتها له، لكن الجناح خالٍ من أثرها!
قبل أن يسرح في قلقه فُتح الباب ودخلت بثوبها الفاتن وشعرها المتماوج كألحانٍ عُزفت على أوتار المكائد، أغلقت

الباب واتكأت عليه، وعلى وجهها ملامح شوقٍ يذوب في مكر.
زمجر بعنف:
__نجمة!.. رؤيتك لن يأتي بعدها إلا المصائب.
_لِمَ كل هذه القسوة؟ لو أعطيتني فقط دقائق من وقتك نتسامر أطراف الحديث تحت ضوء القمر... ولا تحدثني عما فعله البشر بقلبك، فقط أعطني الطريقة التي اعتمدتها في مسح كل ملفاتي من قلبك وعقلك، لا لشيء فقط لأتداوى منك.
اقترب منها نيوار بعصبية، وأمسك معصمها:
__اخرجي من هنا قبل أن أفقد صبري!
لكنها قاومته، تمسكت بذراعه وقالت بحرارةٍ متكلفة:
_حسنًا تمهل، سأطلب منك أن تكون عادلًا في حق نفسك وليس في حقي أنا.. بينما زوجتك الحنون تعطي من وقتها في هذه الأثناء إلى رجلٍ آخر، أقترح عليك أن تعطيني أيضًا من وقتك!
همّ أن يغلق الباب في وجهها لكن كلماتها الأخيرة أوقفته.
(حقًا، إيليانا ليست في الغرفة، ماذا تقصد نجمة بهذه الكلمات الأخيرة؟) ليفتح الباب في الثانية نفسها:
__ماذا تقصدين بأن زوجتي في هذه الأثناء تعطي من وقتها لرجلٍ آخر...
_لا أرى شرحًا آخر مناسبًا إلا الذي سمعته!
سكتت قليلًا وهي ترى شروده في عينيها، ثم أضافت:
_نيوار.. ربما ستسمع الحقيقة من الشخص الخطأ لكن لا تأتمن قلبك على أحد... حتى أولئك الذين يبهرونك باستثنائيتهم
أطلق ضحكةِ استهزاء:
__وهل تظنين أني سأصدق شخصًا مثلك! هل جننتِ يا امرأة! انصرفي ولا تفكري في العودة هنا ثانية.

_مثلما تريد.. من حقك ألا تصدق مجرد كلامٍ قيل، لكن لا أظن مطلقًا أنك لن تصدق عيناك.
استدارت لتذهب وهي تصطنع اللامبالاة لكنها تابعت:
_خارج القصر في حديقته وعند البحيرة بالتحديد.
انصرفت نجمة أخيرًا إلا ان ذهابها هذه المرة لم يكن عبثًا بل مخططًا له بعناية.
تردد في البداية أن يصدقها لكن بدا عليها شيءٌ من الثقة حينما دلته بدقة على البحيرة والحديقة.
حاول أن يطرد وساوسها عنه، وهو يحدث نفسه:
«كلا، نيوار لا تدعها تؤثر عليك، لا تصدّقها، لا تدع حيلها تنطلي عليك ربما هي مكيدةٌ منها لتختبر ثقته بها وإيليانا تراقب معها من طرفٍ خفي.»

هذا ما راود ذهنه فكر، جلس يفكرو يهزّ رجله وكأنها أصيبت بصعقة بينما يمسك ذقنه بيده في وضعية المفكر، يحاول أن يستطرد فكرة الذهاب إلى المكان الذي حدّدته نجمة.
لكن تبادر إلى ذهنه سؤالٌ جعله ينتصب واقفًا بسرعة:
«ماذا لو كان ما قالته نجمة حقيقة؟»
لحظات حتى انتقل إلى المكان المحدّد.. وهناك كانت هي تجلس بجانبه لم تكن بينهما مسافة أمان بل بالقدر الذي يطمئن الرائي.
تضحك بهدوء وهي تُصغي لكلامه وخصلات شعرها تتراقص على كتفيها وبفعل الرياح تذهب لتلامس أطرافه، ذلك ما جعل ترددات تنبعث منه، لن يراها إلا جنيٌّ مثله فهمها نيوار جيدًا!
ما جعل حممًا بركانيةً تفيض في قلبه لكن ما قتله بطريقةٍ لاذعة إيليانا التي كانت مطمئنةً له ولا تدري بأي أرضٍ وقعت. أهذا ما تستحقه يا من نُسجت لك الأساطير؟

تصلَّبت عروقه وأحكم قبضته على يديه لكنه في ذات اللحظة تعقّل فالاندفاع والتسرع في مثل هذه المواقف الحاسمة ليست من صفاته.
حاول التأني والسيطرة على مشاعره. أُختبر من قبل في كل شيءٍ إلا مشاعره وعليه أن يُثبت الآن أنه ذو قوةٍ وهيبة.
لذلك قرر أن يعود إلى جناحه.. جلس يمارس طقوس تفريغ شحنات طاقته النارية ليتماسك ويُخضع إيليانا لاحقًا إلى اختبار كشف، يستطيع بهذا الاختبار أن يتحرّى صدقها أو كذبها...

♡♡♡

بينما كانت سبأ تبحث مع عاصفة في أرجاء القصر عن إيليانا وبعد أن قاما بدورةٍ تفتيشية ولم يجدا لها أثرًا، اقترحت عاصفة:
_ما رأيك أن تسألي الحرس؟ ربما رأوها!
لتتوجه سبأ إلى أحدهم مهرولةً :
__نعم جلالتك رأيتها تمر من هنا.. كانت متجهةً نحو الحديقة في هذا الاتجاه.
تنفست سبأ الصعداء، وهي تردد باطمئنان:
__الحمد لله أنها بخير.
ثم نظرت إلى عاصفة:
_فكرة ذكية منك أن نبدأ بالحرس.
تقدمتا نحو الحديقة يغوصا فيها يحاولان رؤيتها، حتى لمحاها تجلس عند حافة البحيرة وبقربها رجل، لم تكن ملامحه واضحة، لتقول سبأ:
__آه، لا شيء يدعو للقلق إنها مع نيوار!
لكن عاصفة كانت لا تزال تلعب على حبال السّم:
_أعتذر جلالتك لقد أزعجتك بلا داعٍ... من حسن الحظ أنها مع زوجها، الدكتور ضيغم.

التفتت لها سبأ وهي تشرح لها ظنًّا منها أن الأسماء اختلطت عليها لكونها جديدةً بينهم:
__ضيغم؟!... زوجها نيوار... نيوار ابني وليس ضيغم.
تلعثمت عاصفة، ثم قالت معتذرة:
_أعتذر مجددًا... اختلطت عليّ الأسماء لكنني متأكدة أن الذي معها الآن هو الطبيب، رأيته هذا الصباح في جناح الأطباء.
انصدمت سبأ، ثم اقتربت لتتأكد.
كان ضيغم يحدّثها عن الحمل بين الجنّ والإنس، يشرح تحوّلات الجسد وطفرات الروح والدهشة في اتحاد الخِلقتين:
_ لا تقلقي من هذا الجانب أبدًا..سيحمل بهاء أبيه لكنه سيملك عينيكِ... هاتين العينين اللتين إن وقعت فيهما نظرة، ضلّ الناظر طريق العودة.
ومع آخر جملةٍ له وقفت سبأ في مواجهتهما وريح غضبٍ هبّت من وجهها.
تسمرت إيليانا مكانها وتجمد ضيغم وابتسم القمر بسخرية.
سبأ بصوتٍ يكاد ينفجر من تحت الغضب المكبوت:
__أنتِ، ما الذي تفعلينه هنا؟.. لو احتجتِ من يشرف على حالتك لكنتُ أرسلتُ لكِ طبيبة... أم أن الخصوصية صارت مطلبًا فجائيًا لمن هبّ ودبّ!
توتر ضيغم، لكنه حاول الحفاظ على هدوئه المهني:
__سمو الملكة... لا تذهبي بتفكيرك بعيدًا كنت فقط أشرح لها بعضًا من أمور الطب الخاصة بعالمنا.
قاطعته بنبرةٍ صارمة، تخترق الحياء وتفتت الأعذار:
_تشرح لها أمور الطب؟ أم تغرق في عينيها وتصف جمالها كما لو كنت شاعرًا لا طبيبًا؟
أحست إيليانا أنها في موقفٍ لا تُحسد عليه وبسبب

الموقف القوي الذي زعزع كيانها خرجت كلماتها مثقلةً بالخجل:
_لم أكن أقصد... فقط شعرت برغبةٍ في التنفس قليلًا و... الدكتور... مرّ صدفة فـ..
تدخل هو، محاولًا كسر حدة الموقف:
_أنا من عرضتُ المرافقة بعد أن لمحتُ عليها القلق لم أقصد شيئًا غير مهني...
لكن سبأ رفعت يدها، تقطع عليه الجملة:
_أيها السيد... مهنيتك كانت ستبدو أجمل في الجناح الطبي وبين الأطباء والممرضين، لا تحت ضوء القمر وعلى ضفة البحيرة!
ثم التفتت إلى إيليانا:
_ يبدو أنك نسيتِ زوجةَ من أنتِ... ووجودكِ مع رجلٍ غريب عنكِ ليس أمرًا هيّنًا.
تجمعت الدموع في عينيها وتكاثفت غصتها في الحلق هزّت رأسها بأسفٍ صامت ولم تُجب.
أمسكت سبأ بيدها بقوة حتى شعرت بالألم، ليس فقط من قبضة اليد ولا من الموقف ذاته بل من ذلك التوهان الذي تسلل إلى روحها، بردٌ غريب لم تكت تشعر به في جلدها لكن في أعماقها.
عادت بها إلى جناحها وقبل أن تدخل حذرتها سبأ بحدة:
_اسمعيني جيدًا ما حدث الآن لا يجب أن تقصّيه على نيوار أبدًا، لا أريد أن يُزرع الشك في قلبه بسبب لحظة طيش.
أومأت إيليانا برأسها وكانت تود أن تعارض كلامها لكن يبدو أنها عزمت على أمرها ولن تصدقها أبدًا.
حاولت أن تخبرها أن نيوار غائب لكن سبأ اختفت في طرفة.
فيما كان نيوار يتخبط في صراعٍ بين ثقته وهمسات الشك التي نفثتها نجمة، وبين ما رآه في الحديقة ما جعل قلبه يخفق بعنف.

متاهة القلوب وريح الشك

دخلت إيليانا ووجهها يحمل تعبيرًا متقلبًا.. تفاجأت بعودته ولم تتوقع أن يعود بهذه السرعة لكنها لم تستطع أن تخفي ارتباكها.

لاحظ نيوار اضطراب ملامحها فازداد قلقه لكنه كتم مشاعره وقال بنبرةٍ خاليةٍ من كل شيء:

__أين كنتِ؟

حاولت أن ترسم ابتسامة:

_هل عدت منذ وقتٍ طويل؟

__لا يهم.. ما يهمني أن تجيبي على سؤالي.

كان هناك جمودٌ غريب في صوته، لتقول بتعثر زاد الطين بلة:

_كنـ... كنت... شعرت بالجوع، يبدو أن ابنك يأكل بشراهة.

ثم أتبعت ذلك بضحكةٍ مزيفة محاولةً التخفيف من توتر الأجواء.

لكن تلك الكذبة الصغيرة في ظاهرها كانت كجمرةٍ أُلقيت في صدر نيوار، وكان هذا هو اختبارها الذي رسبت فيه.

لم يقل شيء لكنه ظل يحدث نفسه « لماذا كذبتِ؟ لِمَ لم تقولي الحقيقة؟»

♡♡♡

كانت نجمة تجلس برفقة عاصفة وكلتاهما تضحكان وتتناولان ثمار خبثهما.

_ألم أقل لكِ يا نجمة أنا لا يُستهان بي، وأعرف كيف أُخفي آثار الجرائم برشاقة!

ضحكتا الاثنتان بهستيريا، لتقول نجمة:
_إذا كانت هذه البداية فكيف ستكون النهاية، أيتها العاصفة المدمرة؟
وقبل أن تضحك نجمة مرةً أخرى عادت عاصفة إلى حدتها لتقطع ضحكها وهي تسألها مرةً أخرى:
_أتوق إلى المقابل الذي اتفقنا عليه.. إياكِ يا نجمة إن فشلتِ في الحصول عليه سيكون موتك على يدي، وأنت تعلمين جيدًا أنني لا أراهن إلا على الأرواح.
تتوالى الأيام والخبيثتان تُمعنان في مراقبة الذبولٍ المتصاعد في علاقة نيوار وزوجته كأنَّ ما بينهما كان حديقةً ندية فمرّت عليها يدٌ خفية فجفَّفت ماءها وقطعت عنها الشمس والهواء.
كانت إيليانا لا تزال تجهل ما الذي بدّل نيوار فما حدث عند البحيرة ظنّت أنه انتهى هناك، دفنته نظرةٌ حادة من سبأ ووعدٌ بالصمت لا يتجاوز العتاب.
لكن نيوار تغيّر جدًا حتى باتت كلماته لها قصيرة عابرة وابتساماته جوفاء لا يسكنها دفء.
الدلال الذي اعتادت أن تغمره به أصبح يقابله الآن إما بفتورٍ أو بصمتٍ يقطع الحديث من جذوره.
أما نجمة فكانت تتفنن في الظهور له.. مرةً بالصدفة ومرةً بلا نية بخبثٍ أنثوي مدروس. لم تعد تُظهر لهفتها عليه كما كانت تفعل في السابق بل تظاهرت باللامبالاة التي تجعله دون وعي يفكر في برودها الذي لم يألفه منها!
كل هذا من تخطيط عاصفة، شيطانة الظلال التي عرفت كيف تُقنع نجمة أن الحب يُصنع أحيانًا من التجاهل أكثر من المطاردة.

نيوار الذي اعتاد أن يكون سيد الكلمات غرق في صمته محاصرًا بدوامة شكوكه.

فجوةٌ عميقة اتسعت بينهما لا تُردم بالصمت ولا بالانتظار.
جلست إيليانا على مقعدٍ بينما استرسل هو في النظر إليها وقد تجمدت أفكاره.
كانت الشكوك تؤلمه لكن الألم الأعظم تسلل من سؤالٍ واحدٍ لا يرحم:
— هل كان حبكِ حقيقيا كما ظننت؟ أم أنني كنت أعيش على مشاعر مؤقتة!
اكتفت بنظرةٍ حزينة ورجّحت في داخلها أنه أفاق من سكرتها وأن قلبه أُنعش بحبه الأول" نجمة" أو حتى ربما بجنيةٍ أخرى تنتمي إليه وينتمي لها.

لم تكن تعلم أن الحقيقة كانت معكوسةً تمامًا
استجمعت من قوتها لتواجه السؤال:
_لا أعلم ما الذي يحدث تحديدًا لكن جُلَّ ما أعلم أني صرت أبحث عنه وهو أمامي.
في زوايا القلب حين يختلط الحب بالشك وتتقاطع نظراتٌ لم تعد تقوى على الكلام، تولد متاهاتٌ لا يخرج منها إلا من واجه الحقيقة، لا من فرّ منها.
كان الحوار المعلّق بينهما الموشّى بالألغاز كظلٍّ بلا جسد لا أنار طريقًا ولا أطفأ حريقًا بل زاد التيه ودفعها إلى دهاليز من الأسئلة بلا إجابات.
ربما لم تكن كافية، ربما ندم نيوار لأنه لم ينهي علاقته بها حينما طُلب منه! ربما وجود الطفل بينهما هو ما يجعله يواصل العلاقة مكرهًا! ربما نجمة تلك التي تنتمي إليه نارًا وأصلًا
استطاعت أن توقظ فيه ما لم تستطع هي.
في النهاية هي مجرد غريبة على عالمه دخيلة بقلبٍ بشري لا تجيد طقوس الجن ولا تفهم خفاياهم.

وفي زاويةٍ مظلمة من ذات الغرفة، حجب نيوار نفسه عنها وكان يراقبها وهو يغرق في أسئلته هو الآخر.
أيعقل أن قلبها سكنه ضيغم بدلًا عنه؟ ما الذي جعلكِ تنجذبين إليه بهذه السرعة؟ هل مارسِ عليكِ تعاويذ أو طلاسم جعلتكِ تذوبين فيه متناسيةً حبنا؟ ربما صدقت نجمة وهي كذوبة حين قالت:«لا تأتمن قلبك على أحد.. حتى أولئك الذين يبهرونك باستثنائيتهم.»
تحوّل كل ما كان بينهما إلى انعكاسٍ ضبابي وكلما حاول نيوار أن يجد في قلبه موطئًا لإيليانا ابتعد أكثر مختبئًا خلف سحبٍ كثيفة من الشك، صار حبّه لها شيئًا غائمًا لا يستطيع لمس حقيقته.

في يومٍ رتيبٍ كسابق أيامه كان نيوار يجلس في جناح مكتبة القصر، محاطًا بكتبٍ ثقيلة المحتوى جلُّها يتناول أسرار الجفر وعلومه، وبعضها يتحدث عن "الإليك"، ذاك المصطلح الغامض الذي يحوي في طياته علمًا قديمًا لا يُفكُّ إلا بصفاءٍ خاص.
كان منكفئًا على قراءته يتنقل بين صفحات الكتب بتركيزٍ ظاهر وأمامه كومةٌ من المجلدات المرتبة بعشوائية، محاولًا بذلك التناسي.
لم يُعر اهتمامًا لصوت الخطوات التي اقتربت فالمكتبة مكانٌ عام، والزوار فيها كُثر.
لكن المقعد المجاور له تحرك فرفع رأسه ينظر دون حماسة وإذا به يلمح وجه ضيغم.
عبست ملامحه دون أن يكلّف نفسه حتى بإخفاء الضيق و ربما ازداد عبوسه.
سلّم ضيغم ببشاشته:
– مرحبًا يا ابن العم... كيف حالك؟

ليرد دون أن ينظر إليه:
– أحمد الله إليك.
__وكيف حال إيليانا؟ فموعد ولادتها قد اقترب.
توقف نيوار عن تقليب الصفحات ورفع بصره ببط وبنظرةٍ مشحونةٍ بالشك:
– تقصد زوجتي؟
ارتبك للحظة وبابتسامةمحايدة قال:
– نعم، نعم... أقصد السيدة إيليانا طبعًا.
ردّ نيوار وهو يطوي أحد الكتب أمامه بقوةٍ:
– بخير... لكن أتساءل ما الذي يدفعك لمناداتها باسمها هكذا كأنهاصديقةٌ لك؟
– أعتذر إن أزعجك سؤالي أو طريقة مناداتي لها، لن يتكرر ذلك.
ثم أضاف وهو يهمّ بالمغادرة:
– تمنيت فقط أن تمرّ فترة حملها على خير بدون مضاعفات وأتمنى لها السلامة.
خطا خطواتٍ قليلة مبتعدًا، ثم توقف، قائلًا:
– سألتك عنها فقط... لأنني أول من كشف عن حملها حين جاءتني يومًا للفحص، لا أكثر.
لم تكن القسوة متوقعةً من رجلٍ ظنه مشرق العين والنية كلماته في ظاهرها كانت مطمئنة محايدة لا تحمل خبثًا إن نظر إليها من عين العقل، لكن نيوار لم يكن في مزاج العقل.
_سأكشف نيتك الحقيرة.. وحين أراك تمسك بخيط الجريمة لن أرحمك...سأفصل رأسك عن جسدك بيدي وقتها فقط...
ردد في نفسه.

أمومة معلقة بين عالمين

شعرت إيليانا بثقلٍ لا يُحتمل على غير المألوف، لا فقط من الحمل بل من تراكم المشاعر التي تركها نيوار خلفه كسحابٍ رماديّ لا يمطر.
لكن ألمٌ فاجأها كخنجرٍ بارد غُرس في بطنها، قبضةٌ شديدة صعدت من أحشائها حتى صدرها لتصرخ بقوة:
_نيواااار!
إحدى الخادمات حضرت عندها مذعورة:
_سيدتي ما الخطب؟!
لم تستطع الرد فقط كانت تتنفس بقوة من شدة الألم حتى ظهر في الرواق ضيغم الذي كان عائدًا لتوّه من جناحه الطبي هرع إليها مسرعًا وأسندها بذراعيه، حاول أن يجعلها تمشي لكنها كانت تفقد توازنها.
لم يفكر كثيرًا.. حملها وانتقل بها مسرعًا نحو جناح الولادة.
في هذه الأثناء كانت الخادمات يُسرعن في نشر الخبر في القصر...

♡♡♡

في الجناح الطبيّ المخصص كان الليل قد أرخى ستائره الثقيلة فوق القصر واحتشد النورٍ كله في نقطةٍ واحدة.
ضمّت صغيرها الذي يشبه قطعةً من القمر ودّت لو توفر له كل عناية العالم.
مخلوقٌ لطيف ممزوج بين الطين والنار ورغم أنه حديث الولادة إلا أن حضوره يوحي بالقوة والغموض.
حرّك رأسه الصغير نحو صدرها وكأنه يدرك أنها مصدر الأمان الوحيد الآن.. حاولت أن ترضعه لكنها كانت تجهل تمامًا خطوات الرضاعة الطبيعية.
حاولت مرةً واثنتين حتى استقام فم الصغير تلقائيًا مع ثدي أمه وأثناء ذلك شعرت بدفءٍ يملأ قلبها بحبٍ غير مشروط

وارتباطٍ أبدي بين روحين مختلفتين.
لكن إيليانا عرفت شيئًا واحدًا بلا شك: هذا الطفل الهجين هو جزءٌ منها ونصف سرّها الأجمل، الذي سيظل يربط بين عالمين ما حييت...
كان نيوار يقف عند المدخل صامتًا يراقب المشهد بعيونٍ تفيض بالفرح والدهشة.
لم يكن هناك حاجة للكلمات فكل شعور، كل إحساس، كان يتبدد فور رؤيته لإيليانا وابنه.
كانت أناملها تتحسّس وجنته الناعمة وكأنها لا تصدّق أن هذا الملاك خرج من رحمها وصار بين يديها.
قطع هذا المشهد دخولُ ضيغم:
__أسأل الله أن يبارك فيما رزقكم، ويجعله من مواليد السعادة.
شعرت إيليانا بانقباضةٍ خفيفة حاولت إخفاءها بابتسامة وهي تهزّ رأسها إيجابًا.
في المقابل شدّ نيوار ذراعيه إلى الخلف وعيناه ترصدان أدقّ التفاصيل بلا تعليق.
لكن قبل أن يُقال المزيد دخلت نجمة، وأول ما وقع بصرها عليه الرضيع في حضن أمه.
__جئت لأبارك... هل يُسمح لي بالدخول؟
سكت الجميع، قبل أن يتدخل ضيغم بلطف:
__مرحبًا بك.
تقدّمت وجلست قرب إيليانا وعيناها تفحصان وجه الرضيع بتمعّنٍ بارد.
لتقول وهي تلتفت نحو الجميع:
__نسخة من...
ثم أتبعت كلماتها بقهقهةٍ خبيثة، وهي تضيف:

__لكنني أتساءل... لمن يُشبه هذا الهجين؟
ردّ ضيغم بنيةٍ بريئة:
__خليط بين الإنس والجنّ.. يصعب أن تجد له شبيهًا.
أتبع كلامه بضحكةٍ جاءت تمامًا كما أرادتها نجمة...
فقد قيلت الجملة التي كانت تنتظرها وانطلقت معها شظايا الخطة.
أما نيوار الذي راقب كل شيء بصمت فشعر ببردٍ يزحف إلى أطرافه...
تمنّت نجمة في لحظةٍ خرساء لو كانت هي أمه ثم غادرت مخلفةً هواءً ثقيلًا متجاهلة لنيوار الذي اعتاد منها اهتماما خاصا كلما كانا في مكانٍ يجمعهما، فسكنه سؤالٌ ملحّ «ما خطب نجمة وما سر تجاهلها له» بضع خطواتٍ بعد مغادرتها ليتبعها..
توقف الزمن لحظةً عند سماع اسمها بصوته وهو يناديها.
التفتت نحوه بازدراء:
_نيوار يناديني، أم أن أذناي تصطنعان الوهم!
__فقط... أردت أن أخبرك أن حضورك لم يكن ضروريًا وسأعتبر ذلك آخر مرة تقتربين فيها من زوجتي وابني.
كان يختبر ردّها، ينتظر منها اعترافًا أو حتى تلميحًا لمكانه في قلبها.
لكنها ردّت بجفاءٍ بارد:
_أهذا فقط سبب مناداتك؟
__نعم... لا أكثر.
وفي تلك اللحظة بالذات كانت إيليانا قد رصدت نيوار وهو يتبع نجمة وما رأته كان كافيًا ليمزق ما بقي في قلبها من طمأنينة، متساءلة في سرها: «هل يُعقل؟ حتى بعد أن أنجبتُ لك ابنك... تتركني وتتبعها؟»
ضمّت صغيرها بقوة.. ظنت أن هذا الطفل لحظة خروجه

إلى الحياة سيجعل أباه يعود كما كان.. لكن الفجوة التي حصلت في علاقتهما كسرت ركيزةً متينة ولا بد أن الثمن سيُدفع باهظًا.
ضيغم الذي كان يقف في الزاوية بصمت يعدّل الخيوط الأثيرية الموصولة بيدها رأى التعب ورأى الألم الذي لا علاقة له بالولادة...وربما تمنى أن تُعامل بطريقةٍ أحسن من هذه.
ناولته الطفل وكأنها تسلّمه أمانةً عابرة أو لعلها كانت فقط تريد أن ترتاح لحظةً من حملٍ أرهقها جسديًا ونفسيًا.
لكن ما لم تكن تعلمه أن عودة نيوار تزامنت مع ابتسامتها وتقديمها الطفل لضيغم فجعلت من دسيسته فاصلة، لا نقطة.
كان ضيغم يحمل الطفل بين ذراعيه يتأمل ملامحه الصغيرة وابتسامةٌ دافئة تشقّ وجهه دون قصد.
لكن ما إن تلاقت نظراته مع نظرات نيوار حتى رأى شرارةً تخرج من عينيه.
حاول كسر التوتر وسلّمه مولوده قائلًا:
_حانت لحظة تسمية الصغير... ماذا قررتم؟
أخذ نيوار ابنه بين يديه في صمت وشعر أن العالم من حوله قد تراجع خطوتين إلى الخلف، ليركز عدسته على هذا الكائن الصغير الذي يشبهه ويشبهها خليط بين ناره وطين محبوبته.
ثم أعلنت إيليانا الاسم:
_ولأنه أسر قلبي سأسميه "آسر".
__جميل... ليُجمِّله الله بالتقوى.
ثم قرّب جبين صغيره إلى فمه، يتمتم بأدعية التحصين.

♡♡♡

عادت إيليانا إلى جناحها مع زوجها وهذه المرة لم يكونا لوحدهما بل معهما صغيرهما آسر.
توافد إليهما أفراد العائلة الملكية وأول من زارهما الملكتان سبأ وزلفى وكلٌّ منهما تحمل الهدايا.
ومن خلفهما كان صاحب المقام الملك الأحمر الذي لم يتوقعا أبدًا أنه سيأتي إلى جناحهما بدل أن يستدعيهما.
جاء ليبارك الثمرة الهجينة من نسل ولده الوحيد ليقول برضى:
_سبحان من أذن لهذه العلاقة أن تتحد رغم العوائق والأعراف التي لم تكن لتسمح لولا أن شاء وحده لا شريك له، وكيف أثمرت من ينعها بحفيدٍ نحسبه سيكون قوةَ ظهرٍ لمملكته من بعد أبيه... مُرحبًا به بيننا.
ابتسم الجميع متهللين يباركون بينما إيليانا كانت تشكرهم بنظرات مجاملة، لكن في أعماقها ما يزال الألم نازفًا من جفاء ما آلت إليه العلاقة.
سبأ التي كانت متخوفة من أمر السلالة حينما رأت عيني آسر ذابت كما لم تذب من قبل والأمر الذي جعلها تتعلق به من النظرة الأولى هو شبهه الكبير لابنها، بالإضافة إلى طاقة القبول الرهيبة التي كانت تحوطه.
_نأمل أن يكون ناصرًا لوحدتنا.
__بشارة عهدٍ جديد نسأل الله أن يجعله قوةً لملكنا وعزًّا لأهله وسيفًا ناصعًا في وجه كل ظلام.
بعدما خلا المكان من الضيوف حملت صغيرها ترضعه وأسئلةٌ كثيرة تدور في نفسها، لتكسر جمود نيوار بسؤالٍ دون سوابق:
_لم أعد أراك لم أعد أتعرف عليك.
كان صوتها المتقطّع الممزوج بالبكاء موجعًا كأنه يشق قلبه نصفين.

_ لا أعلم ما الذي غيّرك لكن أيًّا ما كان... أريدك الآن أن تواجهني به لا تهرب، لا تختفِ هذه المرة!
ظلّ صامتًا يرمقها وعقله يغوص في تيهٍ قاتم، يصارع وساوسه، يصارع شكوكه، يصارع ذكريات الليلة المسمومة عند البحيرة... لكنه لم يملك شيئًا قاطعًا بعد ليبوح به أو ربما كانت شكوكه ليست في محلها فيهدم أكثر مما هُدم.
لذلك اكتفى بأن يهزّ رأسه نفيًا قبل أن يقول:
— الأمر ليس كما تزعمين!
__نيوار! أنت تأبى أن تقول الحقيقة.. إذًا سأقولها عنك... سبب تغيرك هي نجمة!
سكت الاثنان وهما يسترسلان في النظرات، تنتظر منه نفيًا بينما يتمنى أن المشكلة كانت كما تتصور وليس كما هو مصور لها
واصلت بصوتٍ يرتجف كشمعةٍ على وشك الانطفاء:
— أنت... تمنّيت لو كان هذا الطفل منها هي، أو ربما حتى لو لم يكن موجودًا من الأساس حتى ينتهي كل شيء، وأصبح مجرد ورقةٍ قُطعت من كتابك لتعود بعدها إلى أحضان حبيبتك وتكملا قصتكما معًا!
كان وقع كلماتها عليه كصفعةٍ أيقظته من غفلته تهاوت الصور والظنون وفتح ذراعيه كما لم يفعل منذ وقتٍ طويل وضمها إلى صدره بقوة.
أرادت من عمق وجعها لو تذوب فيه تدخل بين جنبيه وتبقى هناك إلى الأبد.
وبعد العناق الذي أعاد لهما جزءًا من الوصال الذي فقداه حاوط بكفيه الكبيرتين وجنتيها وهو يبتسم لأول مرة منذ فترةٍ ليست بالقصيرة:
_سأحبكِ حتى آخر يومٍ في حياتك ولا شيء سيغير هذا.

في صباحٍ جديد استيقظت على صوتٍ يحمل نغمةً حانية ممتلئةً بالحاجة والشوق.. بكاءِ رضيعها الذي علا بشدة.
ولأنها تثاقلت أيقظها نيوار قائلًا:
— استيقظي أيتها الكسولة... أصبحتِ أمًّا الآن عليكِ أن تكوني نشيطةً بما يكفي لطرد النوم.. أعلم أن البشر يحتاجون ساعات نومٍ طويلة، لكن يبدو أنكِ أكثرهم طلبًا له!
أسرعت إلى ابنها ولا تزال تحتفظ ببقايا دفء حضن نيوار الذي قضت ليلتها فيه.
وبينما كانت تحاول تهدئته كان نيوار يراقب المشهد عن كثب عيناه تتبعان كل حركةٍ منها.. بدت له وكأنها نضجت بشكلٍ مختلف في تلك اللحظة.
وبينما كانت ترضع صغيرها وعيناها تلمعان بالفرح قالت:
_ إنه يشبهك كثيرًا... لا أصدق أنني أعيش هذا حقيقةً وليس حلمًا.
__ وهل تظنين أنه يشبهني وحدي؟ أم يحمل جزءًا منكِ أيضًا؟
_ لا أعلم... لكن ملامحه نسختك.
__ صحيح، لكنه بالتأكيد سيختلف عني في قدراته.
سألته بتردد:
_وهل ذلك ضعف؟
__ لا بل طبيعته وماهيته. عليه فقط أن يتقبل اختلافه ومع الوقت سينمّي قدراته.. لا تقلقي.

♡♡♡

حيث يخيم هدوءٌ مريب، جلست نجمة في غرفتها تلاعب خصلات شعرها وبجانبها خادمتها عاصفة.
عيناهما ممتلئتان بشرٍّ مستتر.. لم يكن حديثهما يحيد عن الخطط الخفية تلك التي تسير ببطءٍ نحو نهايةٍ لا مفرّ منها.
لتقول نجمة بحماس:

— لم يتبقَّ الكثير!
_ نعم... بضع خطواتٍ فقط. وعندما نبلغ مرادنا سأحصل على ما اتفقنا عليه.
— ستحصلين على المقابلٍ... فقط إن نجحت الخطة.
التفتت عاصفة إليها التفاتةً خطيرةوتغيّرت نبرتها إلى حدّة:
— سواء نجحت الخطة أم لا، عليكِ أن تفي بوعدك...
أساعدكِ فيما تريدين وأحصل على المقابل في كل الأحوال.. أسمعتِ؟
نظراتٌ متشابكة مشحونة بالتهديد ثم تابعت:
— وإلّا... أنتِ تعلمين جيدًا ما الذي يمكنني فعله بكِ.
— حسنًا... حسنًا... ستحصلين على المقابل في كل الأحوال
لكن... كيف سننفذ الخطة التالية؟
أجابت وهي تمسك بخيوط اللعبة:
_تمكنتُ من جمع أسرارها ونقاط ضعفها.. سأستغل أكثرها حساسية ومن خلالها سأسرّع نهايتها...
اتسعت عينا نجمة دهشةً ولم تستطع إخفاء انبهارها بما سمعت فسألتها باستغراب:
__ومن أين حصلتِ على كل هذا؟
_من قرينها.
__لكنني حاولتُ التحدث إليه سابقًا واكتشفت أن نيوار قام بتلجيمه منذ أن استطعتُ التأثير عليها بالسحر والتعاويذ أثناء غيابه، وأيضًا تحسبًا لأي شيطانٍ قد يترصد بها... كيف استطعتِ أنتِ فعل ذلك؟
رفعت حاجبها وردت بنبرةٍ خبيرة:
_صحيح، هو ملجّم ومحجوب عنها منذ زواجها من نيوار..
لقد حصّن هالتها وأغلق كل منافذ الاختراق.. لكن القرين ما

يزال يحتفظ بكل ما عرفه عنها قبل الحجب.
تأملت نجمة كلماتها قليلًا، ثم قالت ببطء:
_إذًا... أفهم من كلامك أن المعلومات التي حصلتِ عليها قديمة؟
__قديمة، نعم... لكنها دقيقة، سألته عن كل شيء: ما تحب وما تكره وما يضعفها وما يقويها وأشياء كثيرة من هذا القبيل..
وأحيانًا الماضي وحده يكفي لإسقاط الحاضر.
_سترين يا سبأ... كيف تحلّ اللعنة الحقيقية علي ابنك وكيف سيدفع ثمن اختياره وثمن قلبي الذي نزف طويلًا.

كانت سبأ على شرفة القصر برفقة صديقتها الوفيّة ورفيقة العمر زلفى، ترتشفان شرابهما المفضل وتتسلّل أحاديثهما على مهلٍ مع نسمات الحديقة العليلة.
قالت سبأ وعيناها تلمعان بشغفٍ صادق وهي تحكي عن حفيدها الجديد :
— عجبًا لهذا الطفل... كيف زرع الله حبّه في قلبي بهذه السرعة... لم أكن أتوقع أن يرتعش قلبي عليه إلى هذا الحدّ حتى إنني أشعر أنه سبق نيوار في مكانته داخلي.
ضحكت زلفى وقالت ممازحة:
— ما على الرسول إلا البلاغ وما عليّ إلا أن أنقل حديثك هذا لنيوار.. أخبره أن حبه تراجع إلى المرتبة الثانية بعد أن أصبح أبًا.. ولن أنكر... لقد غرت! متى سيتزوج ضيغم وينجب لي حفيدًا أيضًا؟ أريد أن أذوق هذا الشعور... أريد أن أصبح جدة!
تبادلتا الضحك وقررتا أن تزورا إيليانا لرؤية الحفيد.

♡♡♡

كعكة الحنين المميتة

دخلت عاصفة تحمل صينيةً من الحلوى؛ كعكةَ برتقالٍ تفوح منها رائحة الذكريات، تُشبه تلك التي كانت تملأ مطابخ البشر دفئًا.

سألتها نجمة:

— ما هذا؟!

_ألا ترين؟ إنها كعكة.

— أرى، لكنها لا تشبه مأكولاتنا في شيء... من أين جئتِ بها؟

_وهذه هي النقطة الفاصلة.

— ما زلتُ لم أفهم؟

_ أحضرتها من عالم الإنس.

— حسنًا... ولكن ما علاقتها بنا؟

رمقتها عاصفة باستخفاف وقالت:

_نجمة غباؤكِ بلا حدود! بالطبع لا علاقة لها بنا، لكنها على صلةٍ وثيقة بخطتنا.. أم حسبتِ أنني أحضرتها لجمال عيونك؟

ارتبكت نجمة وهي تسألها مرة أخرى:

— غبائي معكِ لا عذر له... لكن كيف فعلتِ هذا؟ وماذا تنوين فعله؟

_تعلمين جيدًا أن التشكّل ليس أمرًا صعبًا عليّ.. تجوّلتُ في شوارع البشر على هيئة عجوزٍ متسوّلة، دخلتُ أحد محالهم وحرصتُ على اختيار كعكة البرتقال المفضّلة لدى إيليانا.. ثم تركتُ خلفي ضجّة من الدهشة والشتائم... لم أترك مالًا فقط شبح امرأةٍ عبرت كالوهم.

قهقهت نجمة وهي تحدّق بالكعكة وتتأمّل مصيرًا لاذعًا ثم قالت:

— لكن كيف عرفتِ أن إيليانا تفضّل كعكة البرتقال دون غيرها؟

_لا أدري إن كان غباؤكِ يجعلكِ تنسين، أم أن ذاكرتكِ تخونك أم أن الإثنان إجتماعا على عقلك!.. ألم أُخبركِ منذ ليلةٍ قريبة أنني تحدّثتُ مع قرينها؟ و كشف لي أشياء كثيرة عنها وقلتُ لكِ إنني سأستغلّها في الخطة التالية.
عدّلت نجمة جلستها تحاول طرد ما أشعرتها به عاصفة لتقول:
— آه، صحيح... لم أنسَ. إذن كانت هذه واحدةً من الكشوفات التي ستساعدك في تنفيذ الخطة.. لتُقدَّم إذن عبر الخادمة نيلا كانت وصيفتي السابقة، سنضحي بها كي لا تُشمّ فينا رائحة الشر وحين يُكشف ما سيصبها بالتأكيد ستتهم الخادمة فلتذهب إلى الجحيم فداءً لخطتنا...

اغتنمت عاصفة الوقت وترقبت مرور الخادمة نيلا في الرواق حاملةً صينية الفطور، واختارت اللحظة التي يغيب فيها نيوار عن الجناح.. أخفت وجهها خلف قناع آخر:
— ها أنتِ أيتها الخادمة،خذي هذا إلى إيليانا وأخبريها أنه صُنع بحبٍّ من امرأةٍ تحبّها وتشتاق إليها بعدد نجوم السماء.
حدّقت نيلا في وجههاتحاول التقاط ملامح لكنها لم تجد سوى ضبابٍ من الغموض وحين همّمت بالسؤال كانت عاصفة قد اختفت بسرعة الضوء.
دخلت نيلا على إيليانا التي حدّقت في كعكة البرتقال بدهشة وشرحت لها ما حدث وكرّرت لها العبارة حرفيًا.
— غريبة!... كيف دخلت؟ ومن تكون؟
لكن حين وقعت عيناها على الكعكة وترددت في مسمعها «بعدد نجوم السماء» لامستها نار الذكرى.
— يا إلهي... إنها كعكتي المفضلة.. كانت أمي تصنعها لي كلما أتممتُ حفظ حزبٍ من القرآن.

حدّقت فيها مليًّا، ترغب بتذوقها بشغف وكأنها تحتضن ماضيًا بعيدًا.. واعتقدت أن نيوار هو من أهداها لها بهذه الطريقة المراوغة.لا أحد يسرق من عالمها ذكرياتها سواه ربما دخل بيتها خلسة وأخذها من مطبخ أمها فقط ليهديها فرحةً تعيد لملمة بعضٍ من حنينها.. ضحكت وهي تتخيل أمها تبحث عن الكعكة قائلة: «أين اختفت؟»
جلست على أريكتها وبين يديها قطعة من الكعكة التي اشتاقت إليها كما يشتاق الظمآن لأول قطرة ماء.
كانت عيناها تلمعان وقلبها يقفز فرحًا ستعود إلى ذكريات عالمها إلى طعم الأمان، وكم اشتاقت لأكل أمها لرائحة بيتها ودفء عائلتها. قرّبت الكعكة إلى شفتيها تنفست عبير البرتقال المختبئ بين حبات السكر وتذوقت الحنين...

♡♡♡

في الحديقة حيث تُرى زوايا الجناح من بعيد، كانت نجمة مع خادمتها تراقبان الأحداث بتوتر. تنتظران نتائج خطتهما الماكرة وتتساءلان إن كان ما خططتا له قد نجح؟ وهل أكلت إيليانا الكعكة المسمومة؟ أم أن الرياح ستجري بما لا تشتهيان!
أكدت عاصفة لنجمة أن العمل الجيد لا يُظهر ثماره بسرعة وأن عليهما فقط الصبر والانتظار، وأن كل شيءٍ مرتبٌ بعناية فليس هناك ما يدعو للخوف.

لكن الوقت لن يسعفك!

عاد نيوار إلى القصر واتخذ قراره أخيرًا؛ سيواجهها بالحقيقة سيفتح أبواب الأسئلة التي ظلّ يطمرها تحت ركام الظنون لعلّه ينقذ ما تبقّى من علاقتهما قبل أن يجتاحها إعصارٌ لا يرحم.

ما إن دخل حتى استقبله صوتُ بكاءٍ حادٍّ متواصل..
كان الرضيع يبكي بحدّة ويبدو أنه يبكي منذ فترة ولم ينتبه له أحد لكن... إيليانا.. أين هي؟
_أين عساها تكون؟!
تقدّم نحو الرضيع ليحمله لكن عينيه وقعتا فجأة على جسدها المُلقى على الأرض تجمّد في مكانه، كانت إيليانا فاقدة الوعى اندفع نحوها، تتنازعه ألف فكرةٍ وفكرة ماذا حدث؟ كيف؟ منذ متى؟
نقلها على جناح السرعة إلى الجناح الطبي.
لحظاتٌ من القلق حتى خرج الحكيم ودعا نيوار لينفرد به أخبره أنه حسب ما تبيّن في الفحص والتحاليل الأولية، فإن زوجته تناولت سمًّا ا فتّاكًا!
زمجر بغضب وهو يشدّ على قبضة يده:
_يجب أن تنقذوها، يجب أن تفعلوا قصارى جهدكم حتى لا تدعوا السمّ ينال منها.
حاول الحكيم تهدئته وأكد له أنهم سيفعلون ما بوسعهم وفي الأخير ليس هناك إرادةٌ فوق إرادة الله وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.
انطلق كالبرق نحو جناحه وأدرك أن مكيدةً حِيكت لقتلها.. فتح الباب بقوة ودقق في الأثر الأخير الذي دخل جناحه، لكن يبدو أن الفاعل متمرس فالصينية التي لمحها قبل أن ينقل إيليانا قد اختفت وكأنها لم تكن!
بغضب معتم استدعى الخدم المخصوصين بالجناح:
ــ أين الطعام الذي كان هنا؟ أين الأطباق؟
تسابقوا يجيبون بتلعثم:
ــ سيدي... نحن لم نلمس شيئًا... لم ندخل بعد أن غادرت الأميرة... لم ينظف أحد الغرفة حتى الآن.
الغضب أحرق عقله وشعورٌ غريب بالريبة بدأ ينمو داخله

حدّق في الفراغ وعيناه تومضان:
ــ سأجد من تجرأ على الاقتراب منها، مهما كان ومهما اختبأ.
لكن أحدهم كان له رأيٌ مختلف:
ــ لن يجدوا شيئًا، لو بحثوا العمر كله.. كل الأدلة ابتلعتها الظلال.

في جناح الأطباء كان الحكيم العجوز قد وصل بعدما أرسل أمر بطلبه رغم أنه قد استقال منذ زمن بسبب تقدمه في السن وبسبب أنه قدّم الكثير لبني شعبه وكان ولا يزال يُعد أمهر طبيب في قبائلهم.
جسّ نبض إيليانا بعناية وفحص عينيها الغارقتين في عالمٍ آخر ثم طلب عينةً صغيرة من دمها.
بملامحٍ عابسة لا تبشّر بخير، قال:
ــ ثمةً شيءٌ دخيل... مادةٌ غريبة تسرى فى جسدها وقد دمّرت معظم الخلايا الدماغية والقلبية. لا بد أن تحدث معجزةٌ لإنقاذ هذه الفتاة.

♡♡♡

انقلب القصر رأسًا على عقب بعدما اتشر الخبر كالنار في الهشيم: الإنسية زوجة الأمير،قد سُمِّمت والفاعل مجهول.
شُدِّدت الحراسة إلى أقصاها وأُغلقت الأبواب ومُنع أي دخول أو خروج.
فُرض حظر التجوال على جميع القاطنين في القصر من خدمٍ وحرس وحتى أصحاب الرتب العليا وأهل المهمات الخاصة.
لا أحد يُسمح له بالمغادرة قبل انقضاء هذه الأيام العصيبة.
في جناح الخدم كان المشهد أكثر فوضوية.
الخادمات في حالةٍ هستيرية وخصوصًا أولئك اللواتي كُلِّفن بخدمة الجناح الخاص بإيليانا، الذعر كان حاضرًا في العيون والهلع يختنق في الصدور ومع ذلك حاولن التماسك وحاولن

بما تبقّى لهن من قوة مواساة نيلا، التي كانت آخر من قدّم لإيليانا الفطور فهي المتهمة الأولى والكل يعلم ما يعنيه ذلك.

بينما كانت الأمور تتسارع في القصر كان نيوار في حالةٍ من الضياع، يتنقّل بين غرف التحقيق وقاعات الاجتماعات.
من كان وراء السمّ الذي دُسَّ في طعام إيليانا؟ أيُعقل أن تكون نجمة؟ أإلى هذا الحدّ بلغ بها الأمر؟
كان يتخبّط بين أسئلةٍ بلا إجابات ورغم أن اسم نجمة خطر في باله فإنه لم يكن يملك دليلًا قاطعًا.. ومع ذلك عزم على البحث عن الحقيقة مهما كانت مُرّة.
في وسط قاعة مجلس الدفاع الملكي كانت الخادمة نيلا تخضع للتحقيق بعد أن استُدعيت.. أخذت تروي قصة الكعكة المسمومة وكيف اختفت تلك الغريبة التي سلّمتها إياها
قالت أنها استغربت الأمر في البداية لكن ما إن نقلت الجملة التي قالتها الغريبة إلى الأميرة إيليانا حتى اطمأنت إليها كثيرًا.
حاولت منعها، لكنها رفضت الاستماع إليها.
قاطعها نيوار بعينين مقطّبتين:
— كرّري الجملة التي قالتها لكِ الغريبة.
ابتلعت نيلا ريقها وقالت:
— «اشتقتُ لكِ كعدد النجوم في السماء».
أصابت كلماتها جميع الحاضرين بالذهول لكن الحيرة ازدادت في قلب نيوار، إذ شعر أن الجملة مألوفة له على نحوٍ مقلق.
وبدموع تتساقط على وجنتيها، تابعت:
— أقسَم أنني أخبرتها ألا تأكل منها حتى نتحقق من أمر تلك الغريبة!
لكن نيوار، الذي كان يستمع بقلقٍ شديد استفاق فجأة من شروده وأصابته نوبة غضب.
_من كانت تلك الغريبة؟ كيف دخلت القصر؟ أين كان

الحرس؟ وكيف سُمِح بدخول الغرباء؟ سيُستدعون واحدًا تلو الآخر وسيُحقَّق معهم جميعًا!
انفجر بغضبٍ هائل واقترب من الخادمة وعيناه تتطاير منهما شرارات الغضب:
— أنتِ! كيف لم تخبريني بذلك فورًا؟ كيف تتجرئين على التغاضي عن أمر كهذا؟
الخادمة التي عجزت عن رفع رأسها أجهشت بالبكاء وكررت اعتذاراتها مؤكدةً أن ما حدث لم يكن سوى زلّة لم تحسب لها حسابًا.
في الجهة الأخرى من القصر كان ضيغم يراقب ما يحدث عن كثب. اقترب من والدته زُلفى التي كانت برفقة سبأ وعيناه تفيضان بحزن لم يستطع إخفاءه.
— كنتُ أودّ لو أستطيع التدخل... لو أبحث مع الفرقة عن علاج أو عن ترياقٍ للسم الذي دخل جسدها، ولو كان في أسافل الأرض لجلبته. لكن نيوار منعنى منعًا باتًا من الاقتراب.
نظرت إليه سبأ بقلق:
— ضيغم أرجوك... لا شيء يمكننا فعله الآن، لكن يجب أن نكون حذرين.
تنهد ضيغم وقال:
— مؤسفٌ حقًا... لكن من كان وراء هذا؟ إذا كانت تلك الغريبة هي السببٍ، فماذا عن الخدم؟ ماذا عن كل من حولنا؟
مضت الأيام ثقيلةً على قلب نيوار وكل يومٍ يمر كان يثقل روحه أكثر، بينما كانت إيليانا لا تزال غارقةً فى غيبوبتها العميقة.
كلما نظر إليها شعر بأن قلبه ينزف وأن الندم يمزقه من الداخل. كان يتذكر معاملته الأخيرة لها، تلك اللحظات التي سمح فيها للشكوك أن تعبث بعلاقتهما ويتساءل في حيرة:

من كان ذلك الشخص الذي تجرأ على الاقتراب من حياتها، وسعى إلى سلبها روحها؟
كانت أيامه تمضي بين متابعة التحقيقات والتساؤلات التي لم يجد لها جوابًا. وكان يقسم في نفسه أنه متى عرف من كان وراء هذه الخيانة فلن يتركه حتى يسحقه ولن يسامح نفسه على غفلته.
عضّ على يده بشدة، وهو يستشعر عجزه وقسوته على نفسه.
أيعقل أن يكون ضيغم وراء كل هذا؟
تساءل في نفسه ثم استبعد الفكرة بسرعة إذ إن ضيغم ظهر بشكلٍ مباشر في كل الأحداث، ولا بد أن الجاني استعمله طُعمًا فقط ليختبئ خلفه.
لا... لن يسمح بأن يُستغفَل مرةً أخرى أو أن يسير وفق ما رسمه الفاعل، فيلقي الشبهات على ضيغم.
إذن من وراء كل هذا؟ نجمة!
ربما كانت نجمة لكنها ابتعدت عن طريقه وأظهرت برودًا تامًا تجاهه ولم يعد يرى لها أثرًا في دائرته منذ فترةٍ ليست بالقصيرة.
فإذا لم تكن هي فهل كانت الأحداث مجرد صدفة؟ هل كان السم الذي تناولته إيليانا فخًا نصبه أعداءٌ خارجيون يريدون قتلها وتشتيت انتباهه بينما يخططون لحربٍ محكمةٍ وفتاكة؟
هكذا كان نيوار يتوه بين أفكاره ويدور في حلقةٍ لا تنتهي من الشك والريبة ومع مرور الوقت كان أمل استيقاظها من الغيبوبة يبدو بعيدًا جدًا، كبصيص ضوءٍ يتسلل من آخر النفق.

♡♡♡

أشار مسؤول التحقيق إلى الحراس أن يُحضروا المتهمة الأولى نيلا، تلك التي كانت مسجونة منذ يوم الحادثة
دخلت مكبلة اليدين ترتجف كفرخٍ صغيرٍ سقط من عشه.
ما إن خطت داخل القاعة حتى سقطت على ركبتيها تقسم

أنها بريئة من كل ما نُسب إليها. تحدثت وهي تغالب رعبها والدموع تبلل خديها بينما تبادل المسؤولون نظراتٍ قاسية فالقوانين في القصر لا تعرف الرحمة. الخيانة أو الإهمال الذي يعرّض الأسرة الملكية للخطر عقوبته الإعدام أمام الملأ.
وفي الساحة الكبرى اجتمع الجميع ليكونوا شهودًا على تنفيذ الحكم.
رفعت نيلا عينيها نحو القصر في نظرةٍ أخيرة، كأنها تستجدي الغفران من جدرانه.
هوى سيف الجلاد بضربةٍ قاطعة فسقط رأسها.
سكن كل شيءٍ للحظة ثم علا صوت نيوار جافًا مفزعًا
ــ هذا سيكون مصير كل من تسوّل له نفسه المساس بعائلتي! سأفصل رأسه عن جسده بلا رحمة! الدور آتٍ...
وأقسم بالعزيز ذي الانتقام لن أرحم من كان السبب في كل هذا!

وفي ركنٍ معتمٍ من الشرفة العليا المطلة كانت نجمة تراقب المشهد وبين يديها كأس شرابٍ ترتجف أطرافه مع دقات قلبها.
ضاقت عيناها بغيظٍ متأجج بينما كانت عاصفة واقفة إلى جانبها تبتلع ريقها.
ــ يبدو أن الأمور تسير على النحو المُرتَّب...
لترد نجمة:
ــ لن يهنأ لي بالٌ حتى تموت اللعينة.

♡♡♡

كانت التقارير الطبية تتوالى من الأجنحة المخبرية
تردّد نداءٌ عاجل في مسامع نيوار فهرع كالصاعقة وعيناه تقدحان لهبًا.
وقف الطبيب أمامه يطأطئ رأسه بأسى وهو يمسك التقارير

بين يديه.
ــ سمو الأمير... النتائج سلبية للغاية.. السم فتاك وقد دمّر معظم خلايا الجسد ولم تعد تستجيب لأي علاج قدمناه لها، إلا أن يشاء اللّه...
لم يُكمل الطبيب جملته حتى دوى صوته جارف مزّق هدوء الجناح:
ــ كفى!
قلب الطاولة بما عليها من أوراق وتقارير فأحدث اضطرابًا قويا في الجناح.اندفع نحو الطبيب وأمسكه من ياقة قميصه وهزّه بعنف وهو يصرخ بجنون:
ــ عليكم إنقاذها! أفهمتم؟ حتى لو اقتلعتم قلوبكم حتى لو متم جميعًا! لا أريد أعذارًا... أنقذوها!!!
ركض ضيغم مع عددٍ من الحراس والأطباء في محاولةٍ يائسة لتهدئته وابعاده إلا أن الغضب الذي اجتاح نيوار كان أعظم من أن يُروَّض...
غادر القصر كعاصفةٍ عاتية لا تدري أين سترسو واختفى في الأفق إلى وجهةٍ مجهولة يسابق الزمن والموت.
كانت سبأ تراقب ما يحدث بقلبٍ مكلوم لتقول لزلفى:
ــ إنه حكمٌ بالإعدام البطيء... لم يستطع حمايتها ولا الحفاظ عليها رغم أن الجميع حذّره منذ البداية، أخبرناه أنها لا تستطيع التأقلم مع هذا العالم المختلف عنها، وقلنا له أنه أخطأ حين اختار فتاةً من الإنس.. حذرناه من أن التحديات التي ستواجههما لن تكون سهلة أبدًا، لكن عناده وإصراره أوصلاه إلى ما هو فيه الآن.
تنهدت زلفى وقالت:
ــ أنتِ تعلمين يا سبأ أن نيوار، منذ صغره عنيد ولا يسمع إلا لما تمليه عليه نفسه وكل ما هو مألوف يبعث في نفسه الملل.

أطرقت سبأ برأسها، ثم قالت بصوتٍ أثقلته المرارة:
ــ سئمت... حقًا سئمت. أرجو أن تعود سالمةً غانمةوحينها فقط سيكون لي تصرّفٌ آخر.

وفي ظلّ هذه الأجواء المكهربة كان الرضيع بين أيدي الخادمات يأبى أن يسكت. بكاؤه يملأ الجناح ويهزّ أرواح كل من يسمعه.
يداه الصغيرتان تبحثان في الهواء عن شيءٍ ماربما عن أمّه أو عن أمانٍ فقده منذ غابت والدته عن المكان.
دخلت سبأ بهدوء، وقلبها يعتصره الألم.
اقتربت من المهد وحملت الطفل بين ذراعيها تهدهده بحركاتٍ حنونة، وهي تعلم في قرارة نفسها أن هذا الاحتضان لا يعوّض فقده.
ثم قالت بصوتٍ مكسور:
ــ ستعود أمك يا صغيري.
سألت الخادمات الملتفّات حولها:
ــ هل أرسلتم في طلب المرضعات؟
أجابت إحداهن:
ــ نعم جلالتك... لكن الطفل رفضهن جميعًا!
إلا أن السيدة زلفى اقترحت على الحراس البحث عن جنيةٍ مرضعة على أن يكون أحد أبويها من الإنس.. وبعد بحثٍ طويل وجدوا واحدةً بالكاد تنطبق عليها الشروط بسبب التكتّم الشديد على الأمر، تُحضر الآن إلى القصر بشكلٍ دوري وهي الوحيدة التي لم يرفضها الطفل.
تساءلت سبأ باستغراب:
ــ غريب... ولماذا لم تخبرني زلفى بذلك؟
ثم أضافت:
ــ على كل حال، يُحسب لها هذا.

ينام الحزن في عينيه ويصحو بين أهدابه

مرّت الأيام والشهور ثقيلةً على قلبه وكل لحظةٍ تمضي كانت تُحسب قرنًا من الألم المكتوم.
كان آسر يكبر ببطءٍ بين ذراعي جدته سبأ، التي تعلّق بها أكثر من أي شخصٍ آخر بينما كانت إيليانا ما تزال رهينة الغيبوبة مسجونةً في براثن غياب طال أكثر مما يحتمل الرجاء.
أما نيوار، فلم يعرف للراحة سبيلًا. كل خطواته تستعر بنارٍ لا تهدأ، يتابع سيرورة التحقيقات ويبحث بعنادٍ مسعور.
وكلما أوغل في البحث ازداد الغموض التفافًا حوله وتعاظم غضبه، كأن يدًا خفيةً تتفنن في إخفاء الحقيقة عن ناظريه.
في حين كانت نجمة تتلهف لسماع خبر وفاة إيليانا، تترقب اللحظة التي يُذبح فيها الأمل ذبحًا دون رحمة.
وعن عاصفة فكانت تنتظر المقابل الذي وُعدت به ذلك الذي يرفعها درجةً أخرى في سلّم القوى الظلامية.. تراقب تطورات الأحداث بقلبٍ باردٍ لا يعرف التردد.
وكان ضيغم يشرف بعنايةٍ دقيقة على حالة إيليانا فقد سمح له نيوار بذلك بعدما تآكل الأمل في صدره.
شدّ رحاله إلى جزر الهند، باحثًا عن كبار أطباء الجن الذين تتلمذ على أيديهم، يلتمس عونهم في إجراء الكشوفات والفحوصات.
تنقّل بين الأمكنة متشبثًا بكل خيطٍ مهما بدا رفيعًا.
وفي القاعة الملكية العليا عُقد اجتماعٌ سرّي، حُسم فيه مصير إيليانا إن كتب لها الشفاء.
صدر قرارٌ صارم بإجماع الجميع... عدا نيوار: إن استعادت عافيتها ونجت من محنتها فستُعاد فورًا إلى عالمها وأهلها.
لقد تيقّنوا أن هذا العالم لم يعد آمنًا لها وأن نيوار رغم جبروته وقوته أخفق في الوفاء بعهده.

أرادوا بذلك أن يغسلوا أيديهم من خطيئة أخذها من عالمها حتى وإن كانت هي من اختارت؛ فقد كشف لهم القدر قسوة هذه الأرض على الغرباء.
كما تقرر تقديم نيوار إلى المحكمة النورانية العليا لتُطبَّق عليه أحكام الجان، وذلك بعد نقل إيليانا إلى عالمها وتبرئتها من جميع العهود والمواثيق.
كان قرارًا نُقش في الحجر... ولا رجعة فيه.

♡♡♡

حمل نيوار صغيره بين ذراعيه وأدنى وجهه منه، تأمّل ملامحه التي بدأت تتفتح كزهرة ربيع.. مضت شهورٌ طويلة لم يجرؤ خلالها على النظر إليه.
بدأ الصغير يصدر أصوات الرضّع العذبة ويبتسم له ابتساماتٍ بريئة هزّت جدران قلبه المحطّم، ولأول مرة منذ شهور الغياب ارتسمت على وجهه ابتسامة وجعٍ ممزوجةٍ بالحياة.
التقت عيناه بعيني صغيره فباغتته لحظة إدراكٍ بأن إيليانا لم تنجب سوى نسخته المصغّرة في النظرات، في الابتسامة، في ذلك الحنان الغريزي الذي فاض فجأة على جرحه المفتوح.
آنذاك أحسّ بأن قطرة أملٍ سقطت في قلبه اليابس.
لم يفكر كثيرًا؛ حمل هذا الأمل معه ومضى إلى إيليانا.
جلس إلى جوارها يحدّثها عن صغيرهما.. كان يعلم أنها غارقة في عالمٍ آخر لكنه كان يفعل ذلك كلما اشتد به الشوق؛ يسارع إليها ويفضفض لها بكل ما يريد، وبكل ما يخطر على باله..
لا يعلم إن كانت تسمعه أم لا، لكن ذلك كان دأبه دائمًا.

ذاكرة البيت

كانت تُلاعب ميلينا، وتتنقّل بين الغرف كما تفعل كل صباح.
وفي الغرفة المقابلة جلست ليلى على كرسيها الخشبي

تُخيّط ثوب زوجها بدقةٍ وهدوء.
دخلت إيليانا وجلست قبالتها مستندةً بركبتيها:
— لا أزال أعجز عن تفسير كيف تُطيعين الخيط والإبرة بهذا الحب والانتظام... أنا أكره حقًا كل ما يتعلّق بالخياطة.
__أحيانًا يا ابنتي، تفرض علينا الحياة أشياء لا نطيقها.. لا تكون خيارًا بل إجبارًا، وهكذا أفعل.
راقبت إيليانا يدي أمها تنسجان الخيوط بصبرٍ مألوف ثم قالت:
__ عمتك اتصلت اليوم وقالت إنها مدعوّة إلى عرس جارتنا سارة.
— سسس... سارة؟! سارة تزوّجت؟
__ لا تستغربي نعم... سارة تزوّجت.
اتسعت عينا إيليانا بدهشةٍ ممزوجة بحزنٍ خفي.
— لكنها... كانت صديقتي المقرّبة كيف لم تدعُنا؟ كيف...؟
__ حسنًا حين تتزوّجين أنتِ... لن ندعوهم إلى الحفل.. هكذا نأخذ بثأرنا!
هزّت إيليانا رأسها موافقةً لكن ما إن نطقت أمها بكلمة «حين تتزوّجين» حتى بدأ المشهد من حولها يذوب ببطء كأن تلك الكلمة ضغطت زرًا خفيًا في ذاكرتها.
نظرت إلى أمها بعينين متوهجتين بغرابة.
— أمي... أشعر بدوار دعيني أضع رأسي في حجرك.
وضعت رأسها في حضن والدتها فراحت الأم تمسّد شعرها برفق لكن إيليانا شعرت بشيءٍ غير طبيعي.
أغمضت عينيها بقوة كأنها تحاول أن توقظ نفسها من حلمٍ غريب، ثم نظرت إلى يدها...كانت تتحرّك، لكنها لم تكن هي من حرّكها!
شعرت بقوةٍ خارجية تدفعها و بشيءٍ ضبابي يتحرّك داخل

عقلها...أصواتٌ متداخلة وضحكاتٌ بعيدة، همساتٌ قريبة.
شرارةٌ انطلقت من يدها وتوغّلت ببطءٍ إلى قلبها.
ربما حلمت أنها في مكانٍ غريب.. قصرٍ يشبه قصور العصور القديمة وحديقةٍ تزهر بزهورٍ لا تنبت في أرض البشر، ورجلٌ... كان ينظر إليها كما لم ينظر إليها أحدٌ من قبل.
وجهه مألوفًا وصوته عميقًا يخترق أعماقها ورغم غرابته كانت تعرفه جيدًا...
امتدّت يدا ذلك الرجل نحوها لا كدعوةٍ عابرة بل كعرضٍ لعمرٍ كامل.

تسارعت الذكريات كشريط في عقلها..
وقوفها أمام مرآةٍ من الكريستال وضعت تاجًا على رأسها ضحكاتها وهي تختبئ خلف ستائر القصر، ويدا ذلك الرجل تطاردانها بحبٍّ جارف.. ركضا معًا في حدائق معلّقة يتقاسمان شيئًا يشبه التوت من يد خادمةٍ تُدعى نجمة!
لكن شيئًا من القلق تسلّل إلى روحها حين رأت تلك المدعوة نجمة، الاسم يحمل ارتجافة إنذار.. كانت روحها تهوي في أعماق مشهدٍ قديم مشهدٍ ظنت أنها لم تعشه بعد!
وفي الحقيقة...
كان نيوار قد لمح إصبعًا من يدها قد تحرّك. استبشر وجهه وتوقفت أنفاسه فاقترب منها أكثر وانحنى يناديها باسمها ويتحدث إليها من جديد...
اختلف المشهد لترى إيليانا نفسها جالسةً في غرفة أخيها محمود، تتعالى ضحكاتهما وهما يجلسان أمام بعضهما يلعبان لعبة البلايستيشن بتحدٍّ وحماس.
– أعدك أنني سأكون الفائزة هذه المرة.
قالتها بتحدٍّ ليرد محمود وهو يضغط أزرار اللعبة بحماسة:
– لا أظن، لكن إن فزت فسأجعلك تحضرين لي كعكة.

سرعان ما تلاشى صوته حينما سمعت كلمة «كعكة» حتى دوّى طنينٌ في أذنيها. أغمضت عينيها بشدة وشعرت بنداءٍ خافت من بعيد كأنه صوتٌ رجولي!
لا... لا...سرعان ما أدركت أنه صوت أمها يناديها:
– إيلياناااا... إيليانا...
فتحت عينيها بسرعة كأنها تخرج من حلم لتجد نفسها تمشي نحو المطبخ بينما كانت أمها تضع الملابس في آلة الغسيل وهي تقول:
– خذي هذه السلة، وانشري الغسيل.
حملت السلة وصعدت إلى سطح البيت كان الهواء العليل يداعب شعرها برقة وفيه شيءٌ مألوف..لكنه غريب كأنه يحمل ذكرى لا تستطيع الإمساك بها.
بدأت تنشر الملابس وما إن مدّت يدها إلى قميص أبيها الأبيض حتى فاحت منه رائحة تشبه المسك الثقيل، كدهن العود مثلًا.
استنشقتها بعمق، وهمست:
– أين شممت هذا العطر من قبل؟
عادت تلك الأصوات مجهولة المصدر ومعها صوت امرأةٍ تقول:
– مرحبًا بكِ في عالمنا يا ابنتي...
الهواء لا يزال يلاعب شعرها، ثم رأت وردًا أحمر على حافة السطح.
اقتربت منه:
– متى زُرعت هذه الورود هنا؟ لم تكن موجودة من قبل..
كانت تلك هي الورود نفسها التي رأتها في حديقةٍ ما!
قطفت وردةً منها وما إن فعلت حتى تسللت منها ذات الرائحة القوية التي انبعثت من قميص أبيها!
و دون أن تنتبه إلى أنها كانت تقف على حافة السطح تعثرت قدمها وسقطت من العلو.

لكن السقوط لم يكن نحو الأرض بل نحو السماء، كأنها تطير
بينما احتضنها ضوءٌ أبيض من كل الجهات، ثم فجأة...
فتحت عينيها على سقفٍ أبيض...
أجهزةٌ طبية غريبة، أنفاسٌ متقطعة وصوتُ جهازٍ يعدّ نبضات قلبها..استعادت ذاكرتها قطرةً قطرة ونطقت من دون تخمين:
ــ نيوار..

♡♡♡

كان ضيغم في جناحه الطبي يتنقل بين ملفات المرضى، لكن عقله دائمًا عند إيليانا. صورتها تتصدر خياله مهما حاول التركيز.
أنهى أوراقه بآليةٍ باردة ثم حمل خطاه إليها كما اعتاد، يتفقد حالتها بين الفينة والأخرى.
لكن هذه المرة وجد نيوار واقفًا أمام النافذة يرمقها بنظراتٍ مكسورة.
ــ لما لا تدخل إليها؟ لاتكتفي بالنظر من بعيد، ادخل، المس يدها، كلّمها..
أجاب نيوار بصوتٍ يائس:
ــ أفعل ذلك دائمًا... وقبل قليل كنت عندها وقد حرّكت إصبعها.
اتسعت عينا ضيغم وقال:
ــ هذا خبر جيد.. جرّب مرةً أخرى، فقد يحدث ما لم تتوقعه.
وبينما أنهيا حديثهما بقيا يراقبانها وفجأة لمحاها تحرك رأسها إلى الجهة الأخرى.
نظر كلٌّ منهما إلى الآخر بصدمة، ورددا بصوتٍ واحد:
ــ استفاقت!
اندفع نيوار إلى الداخل مسرعًا وجثا على ركبتيه إلى جوارها.

أمسك يدها بكل حذر وحدّق طويلًا في وجهها كأنه ينقش ملامحها على جدران قلبه.
ثم قبّل جبينها ومرّ بخديها حتى توقف قرب شفتيها المرتجفتين. كانت قبلاته تخيط شروخ روحه قبل أن تُسكن الشوق..
وسط هذا الصمت الذي يعجّ بالرجاء، التفت نيوار إلى ضيغم قائلا:
ــ أخبرني... لست في حلم أليس كذلك؟ هذه حقيقة؟
ابتسم ضيغم وقد لمعت عيناه بالفرح:
ــ لم أفقد الإيمان ولو للحظة بأنها ستعود.
كانت عينا نيوار تتوسلان الحياة من عينيها ثم رفع يدها إلى صدره، حيث كان قلبه يخفق بعنف وقال بصوتٍ اختلط فيه البكاء بالشكر:
ــ أحمده حمدًا طيبًا مباركًا فيه ولا أُحصي له ثناءً إلا كما أثنى هو على نفسه... أتدرين يا ضوء قلبي كم كان ليلي حالكًا لأن قمري غاب عني؟
ابتسمت بوهن، لكن تلك الابتسامة كانت كافيةً لتشعل في قلبه ألف حياة.

فور انتشار خبر استفاقتها توافد إليها أفراد العائلة الملكية واحدًا تلو الآخر حتى الجد، عظيم المهابة والحضور.
وبعدما اطمأن الجميع على حالها، لم يكن يشغلها سوى أمرٍ واحد.
— أريد... أريد آسر... أين ابني؟
ربّت نيوار على يدها مطمئنًا:
— اطمئني... أعلم كم تشتاقين إليه لكنه بخير في حضن أمي آمنٌ ومطمئن لا يمسّه سوء، سأخبرها أن تأتي به.

ومع خيوط الغروب دخلت سبأ بعد أن وُجّه إليها النداء تحمل بين ذراعيها قطعةً من قلبها.
وفي تلك اللحظة استعادت إيليانا بعضًا من ألوان وجهها وهي ترى فلذة كبدها أمامها. مدّت يديها المرتجفتين نحوه ونادته بهمسةٍ بالكاد خرجت من بين شفتيها الذابلتين:
— تعال... تعال يا سكر عمري وأجمل أشيائي.
لكن الصغير نظر إليها بنظراتٍ يملؤها الخوف وعدم الألفة ثم انفجر بالبكاء، متشبثًا بثياب جدته بكل قوته نافضًا ذراعيه الصغيرتين بعيدًا عنها.
كان بكاؤه كرمحٍ أصابها دفعةً واحدة ومع ذلك تماسكت ومدّت يدها من جديد، لكنه ظل ينفر منها.
ضمّته سبأ تهدئه ثم قالت قبل أن تأخذه وتنصرف:
— أظنه يحتاج إلى وقت..
ضمها نيوار سريعًا وقال:
— لا عليكِ يا حبيبتي..يحتاج إلى وقتٍ فقط، لعله نسي ملامحك من طول الغياب لكنه سيعود إليكِ، تمامًا كما عدتِ إلينا.
أتبع كلماته بابتسامةٍ باهتة محاولًا تلطيف الأجواء وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من قلبها.
أومأت برأسها بصمت لكن دموعها خانتها للمرة الألف.
ومرت الأيام التالية ثقيلة..
كانت تفيق كل صباح وتجاهد الإعياء، تحاول أن تقترب من صغيرها، لكن آسر ظل على حاله يشيح بوجهه عن حضنها ويبكي كلما اقتربت منه.
تحولت المسافة بينه وبينها إلى وادٍ من الغربة والخذلان. اعتادت روحه الصغيرة غيابها ونمت مساحات النسيان في ذاكرته الطرية، فصار يراها غريبة لا أمًّا.
ظل نيوار رغم مسؤولياته يعود إليها سريعًا كلما سنحت له الفرصة، لكنه كان عاجزًا عن جبر ألمها.. كان يواسيها ويكرر أن كل شيء سيعود كما كان، لكن حتى الرياح التي اعتذرت للأشجار... بقي غصنها مكسورًا.

تعافت إيليانا نسبيًا وهي الآن في جناحها برفقة زوجها لكن التعافي كان جسديًا فقط.
شعر نيوار بذلك الحزن وذلك البرود الغريب يتسللان منها إليه.
داهم شرودها وجلس في مواجهتها يضم وجهها بين كفيه.
ـــ أما زلتِ تتذكرين... تلك الأيام؟
ـــنعم أتذكر.. وكيف أنسى؟
ساد الصمت، ثم سألت بصوتٍ مبحوح:
ـــمنذ متى وأنا غائبة؟
ـــ منذ فترةٍ طويلة..
ـــ توقعت ذلك.. آسر الذي نفر مني ثم كبر حتى ازداد شبهًا بك.. توقعت أنني غبت طويلًا.
ـــ لقد كانت غيبوبةً طويلة.. جعلتني أراجع نفسي وأرى كم كنتُ أحمق حين ظننت أنني أحميكِ بينما كنتُ أخسركِ.
ـــ تحميني؟... تحميني من ماذا؟
ـــ لا أريد أن أضغط عليكِ الآن يا ضوء قلبي... فقط كنتُ أتساءل، ألا تذكرين من أحضر لكِ الطعام يومها؟
كأن صدمةً كهربائية سرت في جسدها، قالت متفاجئة:
ـــ الكعكة! نعم... كعكة البرتقال!
اتسعت عيناه وهو يراها تتذكر تفاصيل كان يظن أنها قد طُمست إلى الأبد. أنصت بكل ما فيه وهي تواصل:
ـــ أنت من أحضرها لي.. أليس كذلك؟ ذهبت إلى عالمي وأحضرتها من أمي.. صحيح؟
لم يرد، بقي ينظر إليها بعينين تمتلئان بالأسى.
ساد الصمت مرةً أخرى قبل أن تكمل وهي تعبس بخيبة:
ـــ يبدو أنني كنتُ مخطئة... توقعت ذلك فقط.
ـــ إيليانا... تلك الكعكة لم تكن كما ظننتِ، كانت السبب في كل ما حدث.

وبصوتٍ خفيض راح يحكي لها عن المؤامرة التي حيكت حولها وعن الخادمة، وعن الحقيقة الموجعة التي حاول حمايتها منها طيلة ذلك الوقت.
تأوهت وهي تضع يدها على فمها:
ــ لماذا؟... لماذا أعدمتم الخادمة؟ كانت بريئة!
حدّق في عينيها المتوسلتين ولم يملك سوى أن ينكسر أكثر أمام حزنها.
ــ يا إيليانا يا حبيبتي.. كانت مسؤولة عن الطعام الذي قُدِّم إليكِ، لم نعدمها ظلمًا.
ــ لكنها كانت تخدمني... كانت لطيفةً معي.
ضمّ يديها بين يديه يريد أن يزرع الطمأنينة قسرًا في جسدها الواهن.
ــ أعلم... أعلم أنها بدت لطيفة لكنها خبّأت السم خلف ابتسامتها، وأنا من عجز عن كشف ذلك مبكرًا. كنت مخطئًا حين ظننت أنني أدير علاقتنا بحكمة وسط هذا الكمّ من التحديات.
تنفّس بعمق ثم تابع وكأن الكلمات تُنتزع من صدره:
ــ أعدكِ... سأحاول أن أعوّضكِ عن كل شيء.. حتى ثمرة حبّنا سيألفكِ وسنجتمع معًا مرةً أخرى لكن قبل ذلك سأتخذ إجراءاتٍ أخرى كي نعيش بسلام.
رغم دفء يديه ورغم صدق صوته كانت تعلم أن الحظ لا يحالف المرء في كل مرة، وأنٍ بعض الشروخات لا يُرمّمها الحب وحده مهما كان صادقًا.
كانت لا تزال تتبادل الحديث مع نيوار عن الأيام التي مضت حتى قاطعهما طَرْقٌ على الباب يستأذن بالدخول.
دخلت سبأ وهي تحمل آسر بين ذراعيها وتغني له بألحانٍ دافئة، وقد تعلّق كلٌّ منهما بالآخر على نحوٍ لم تتوقعه خصوصًا بعدما بدا أنه اختارها.

رحّب بها نيوار بحرارة وقال مازحًا وهو يمدّ يديه ليحمله:
ــ ناوليني يا أمي... ناوليني هذا الشقي الصغير الذي ترك أمه وتعلّق بجدته!
ــحان الوقت لتُردّ الأمانة إلى أهلها.

امتنّت إيليانا كثيرًا لسبأ وشكرتها على رعايتها لطفلها في غيابها.
ثم تقدمت بسرعة مدفوعةً بنداء الأمومة، وحين حملته بلهفةٍ أخيرًا، قبّلته بشغفٍ ودمعةٍ عالقة إلا أن الرضيع ما لبث أن انفجر بالبكاء، وخيّم الحزن على ملامحها.
— إذًا... ما زلت تراني غريبةً عنك!
تناوله نيوار سريعًا من بين يديها محاولًا كسر وطأة اللحظة بخفة:
— عجبًا لك أيها الصغير! لا تعرف مصلحتك البتة... تترك أمك وتصرّ على جدتك! لا بد أن أعيدك إلى جناحها.. هذا إن لم يطردني أبي ويحمّلني المسؤولية وحدي!
ابتسمت إيليانا ابتسامةً حزينة تخفي خلفها وجعًا لا يُقال.

♡♡♡

في هذا الوقت كانت نجمة تجلس مع عاصفة، تتبادلان حديثًا مثقلًا بالقلق عمّا جرى مؤخرًا.
لم تكن نجمة تتخيّل يومًا أن تنقلب الموازين بهذا الشكل فموت إيليانا كان يطرق الأبواب والخلاص بدا وشيكًا لكن ما حدث حطّم كل خططهما.
نجمة بغيظٍ مكبوت:
— لم أتوقّع أبدًا أن تنجو تلك اللعينة! بل إن علاقتها بنيوار ازدادت قوة وحظيت باهتمامٍ مضاعف من العائلة الملكية وليس من نيوار وحده. ماذا عليّ أن أفعل الآن حتى أتخلّص منها! هل أخنقها بيديّ أنا مباشرةً حتى تبتعد عن طريقي؟!

قهقهت عاصفة بتهكّم وهي تسخر من نجمة وانفعالها وحقدها الذي يزداد مع كل دقيقةٍ تمر.
— أيتها الجنية اللعينة، أظنكِ فعلتِ كل ما بوسعك وأكثر.. لقد نفّذتُ كل ما رسمتهِ لكِ بدقة وبذلتُ جهدًا جبارًا لكن يبدو أن الموازين لا تنقلب لصالحك في كل مرة.. لذلك لم يبقَ لي هنا سوى القليل وقد حان وقت الحصول على المقابل الذي اتفقنا عليه.
— وما فائدة المقابل إن كانت الخطة قد فشلت؟!
بادلتها عاصفة بنظرةٍ متقدةٍ كاللهب وبرزت أنيابها الطويلة وانسدل لسانها الذي يشبه لسان الأفعى، ثم أطبقت أصابعها المخلبية حول عنق نجمة بإحكام فأصدرت حفيفًا مرعبًا.
اقتربت من وجهها تشدّها إلى الخلف وهي تقول بنبرةٍ لاذعة:
— أنا الآن لا أهددك..بل سأُنفذ حكم الإعدام عليكِ بدلًا عنهم وستكون نهايتك على يدي أيتها الماكرة.
حاولت نجمة التفلّت وتلوّت بيأس، لكن قبضتها كانت أقسى من أي مقاومة، عجز صوتها عن الخروج حتى لطمتها عاصفة بقوة وارتطمت بالأرض.
وقبل أن تهوي الضربة القاضية رفعت نجمة يدها المرتجفة تستجدي:
— حسنًا... أرجوك... سأدبّر الخطة التالية وستحصلين على المقابل... أرجوك، توقفي!
لكن عاصفة تقدمت بخطواتٍ محسوبة ثم صفعتها بكل ما أوتيت من قوة، وقالت ببرودٍ قاتل:
— لا تجربي اللعب معي مرةً أخرى، فأنا أسحق دون تفكير ولستُ مسالمةً أبدًا، وأنتِ أكثر من يعرف ذلك.

♡♡♡

حان الوقت أن تُرد الأمانة إلى أهلها
الغيابة...

في هدوء الصباح فتحت إيليانا عينيها ببطء.. لم تجد نيوار إلى جانبها.
تساءلت عن غيابه لكنها سرعان ما تجاهلت الأمر؛ فالاختفاء لم يكن جديدًا عليها منذ عرفته، ألفت ظهوره واختفاءه كجزءٍ أصيلٍ من طبيعته.
بعد أن أتمّت حمامها دخل نيوار:
— أظنكِ تخاطرين... لقد استيقظتُ وشعرتُ بكِ.
أجابته بابتسامةٍ باهتة ثم تقدّمت نحو المرآة تمشّط شعرها كان يراقبها في صمت، غارقًا في تفاصيلها بابتسامةٍ غير معلنة، بينما كانت ترتّب نفسها بلا اكتراثٍ ظاهر.
ارتدت ثوبًا أسود رغم أنه طلب منها أن تختار الأحمر، اللون الذي كان يراها فيه أكثر جمالًا بعينيه.. تجاهلت طلبه أو لعل في قلبها شيئًا لم تفصح عنه بعد.
وبينما كانت تتهيأ، دخلت الخادمة تحمل صينية الفطور كالمعتاد لكن نيوار رفضها وقرر أن يتولى بنفسه إحضار أخرى.
نظرت إليه إيليانا متسائلة:
— لماذا فعلتَ ذلك؟
__ لن أثق بأحد بعد الآن.. بعد أن استعدتِ عافيتكِ وبعد كل ما مررنا به، قررتُ أن أتولى بنفسي كل ما يخصكِ... حتى أحصل على الإذن بخصوص القرار الذي اتخذته.
— وأنا أيضًا يا نيوار... اتخذتُ قرارًا مهمًا.
نظر إليها بدهشة، ثم ابتسم:
__وما هو قرارك؟
_ أنت أولًا... أخبرني بقرارك ثم سأخبرك.
أصغى إليها مبتسمًا، لكن شيئًا غريبًا كان يضغط على صدره فمنذ غيبوبتها ورغم تجاوبها معه كزوجة، كان يشعر بأنها تحمل في داخلها مسافةً غير مرئية، وغموضًا يبعدها عن تلك العفوية التي كانت تملأ قلبها من قبل.

وبينما كانا يستأنفان احتساء قهوتها على مهل، ظهرت على ملامحه دهشةٍ مفاجئة. فقد وصله نداءٌ عاجل من المجلس لكن الغريب أنه لم يكن من مجلس الشيوخ المعتاد على استدعائه بل من المجلس الأعلى، وهو أعلى سلطة قضائية ولا يُستدعى إليه إلا في الأمور المفصلية والمصيرية!
التفت نحوها يداري قلقه خلف ابتسامة قائلا:
— وصلني نداء من المجلس... سأرى ما في الأمر وأعود لتخبريني عن هذا القرار، أيتها الفراشة التي بدأت تُصدر القرارات!
وختم كلامه بضحكةٍ فيها شيءٌ من السخرية العابثة.
وما إن اختفى حتى أسرعت دموعها في النزول، واحدةً تلو الأخرى.. جالت بنظراتها في سقف الغرفة وزواياها بتمعّن ثم توجهت نحو النافذة المطلة على عالمٍ أدهشها بجماله الغريب عالمٍ أجادت فيه البكاء حتى صارت الدموع أقرب صديقاتها لكنها أبدًا لم تُجد الفضفضة ولا الشكوى، حتى لأقرب المقرّبين.
كلما ثقل قلبها وضعت يدها عليه وتصبّرت بأن كل شيء سيمر، وأن الله سيُصلح كل شيء فقط حين يحين الوقت الذي قدّره.
كانت تؤمن أن ذلك الوقت سيأتي كمنبّهٍ يرن فجأة، فيُغيّر كل شيء.
كثيرًا ما كانت تحمد الله وهي تعني ذلك بصدق.. هي الآن وبعد كل ما مرّت به، لا تحتاج إلى حلّ ولا إلى نصيحة... فقط تحتاج إلى من يفهم أنها مُتعبة وتريد العودة إلى الأصل دون مبررات ودون كلامٍ كثير.
لطالما تظاهرت بالقوة في كل ما اجتازته وتظاهرت بالصمود لا لأنها لا تتألّم، بل لأنها لم تجد مساحةً تضع فيها ألمها دون أن تُجرح أو يُساء فهمها.

كثيرًا ما احتاجت أن تتحدث عن أشياء صغيرة تؤذيها ولم تملك القدرة على شرحها، لذلك تضرعت، تردد:«إني أشكو إليك ضعفي، وعجزي، ووحدتي، وقلة حيلتي... سأستودعك يا الله شيئًا من روحي وقطعةً من قلبي وأثري في هذا العالم يامن لا تضيع عندك الودائع».

♡♡♡

الهواء من حوله مشبعٌ بالهيبة، يهمس بأسرار الذين مرّوا قبله وبأحكامٍ لا تُنسى وبمصائر فُصل فيها فوق هذا البلاط المقدّس.
بلغ البوابة الكبرى للمجلس وقد نُسجت عليها تعويذةٌ لا تسمح بالدخول إلا لمن يحمل السلالة الملكية من ذوي المراتب العليا.
وها هو المجلس ماثلٌ أمامه..
قاعةٌ مهيبة تتوسطها مائدةٌ بيضاوية يلتف حولها اثنا عشر شيخًا، لكلٍّ منهم عباءةٌ بلونٍ مختلف ترمز إلى حكمته وما يمتلكه من قدرات.
وجوههم هادئة لكن أعينهم تلمع ببصيرةٍ لا ترحم.
انطلق صوتٌ نافذ من أقصى المجلس:
__ الأمير بن الملك الأحمر، ووريث السلالة العلوية المباركة حفيد الشعلة الحمراء... آن أوان القرار.
تقدّم نيوار ونزع رداءه ووضعه في الوسط إشارةً إلى الطاعة المؤقتة لا الخضوع الكامل.
لكن المجلس اليوم لم يكن كسابقه كانت الجلسة مسكونةً بثقل الاتهام.. نقاشاتٌ طويلة وهمساتٌ تخترق الأعماق حتى نُطق الحكم بصوتٍ صارم:
__ ستُنقل الإنسية إلى عالمها ويُفكّ الارتباط بينك وبينها

ولا يُمنح لك حق المعارضة ولا الرفض، ولا حتى الطعن في القرار.
كان صمت نيوار أشدَّ من أي احتجاجٍ صريح.
لكن المجلس أكمل دون تردّد:
__وبعد إرجاعها وفكّ جميع العهود معها، ستُحال إلى المحكمة العليا حيث سيتم الفصل في نوع السجن الذي ستُسجن فيه بالإضافة إلى سلب جزءٍ من قدراتك.. وهذا ما سيُبتّ فيه هناك.
أخفض نيوار رأسه وقلبه ينزف تحت عباءة السكون.
لكنهم لم يتركوا له حتى ما تبقّى من دفء:
__أما الطفل فسيعود إلى العائلة المالكة، وستتولى المتكفلة بأمره حاليًا مواصلة التكفّل به حتى يبلغ أشدّه.
قال بصوتٍ مخنوق:
_ لكنه لا يزال بحاجة إليها.. لا يزال يحتاج إلى رعايتها.. لا يمكن أن يُفطم عنها بهذا الشكل.
__انتهى وقت استدعائك يمكنك الانصراف.
خُتم القرار بأختامٍ نارية وبقي نيوار واقفًا يتلقّى فصله عن روحه قطعةً تلو الأخرى.
خرج من المجلس وكأن قدميه غارقتان في وحلٍ ثقيل وعقله مشوّش بين قراراتٍ حاسمة، وقلب يحترق من الداخل.
لم يكن هناك ما يشده أكثر من الممر الضيق الذي قاده خارجًا. كلمات والدته التي قالتها له يومًا لا تزال تلتف حوله مثل خيوطٍ خفية:"لا تقف ضدهم، يا بُني، لأنك ستكون وحيدًا في هذه المعركة."
تحرك بطاقةٍ منخفضة محاولًا مقاومة الأثر الغاصب، لكنه لم يمتلك القدرة على التصدي لقرارٍ حاسم، قرارٍ طُبع على قلبه دون أن يملك ترف الرفض.
حدّث نفسه: ربما هذا جزائي لأنني اقتربت من أمرٍ لم يكن

ينتمي إليّ... ولا أنا أنتمي إليه.
لكن نيوار أدرك شيئًا واحدًا: ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.
ابتعد بلا وجهة ليس كزعيمٍ قوي كما كان يظن، بل كعصفورٍ ضائع في الرياح العاتية.

♡♡♡

صدمة اليقين

تقول إيليانا إن قصور عالمهم ليست كقصور البشر بل هي أنفاسٌ من الرفعة والجمال، وكل زاويةٍ تتنفس عطر الحكماء وسحر الحكمة الموزونة.
مرَّ اليوم ونيوار لم يعد إليها، لذلك كانت خطواتها مسرعة نحو جناح سبأ، حيث قلبها الصغير يعيش دونها.
اقتربت من الباب الموارب ومجرد نظرةٍ سريعة كانت كافية لتتجمد في مكانها أمام المشهد:
سبأ تضم الرضيع إلى صدرها ونيوار بجوارها، يتكلم بنبرةٍ تشي بثقلٍ ينوء به صدره.
— أمي أرجوكِ حاولي أن تفهميني.. كيف قررتم أن نعيدها إلى عالمها؟ ألم تسألوا عن صغيرها؟ كيف سيكبر من دون أم؟ أليس هذا ظلمًا آخر لها؟
جاء رد سبأ كصفعةٍ سقطت على قلب إيليانا قبل سمعها:
— وما المانع، ألستُ أنا أمَّه؟ لو لم يعتبرني كذلك، لما تعلّق بي دون أمه... هو لا يريدها ولا يعرفها، وقد نسيها تمامًا.
__ لكن، أمي... ماذا سنخبره حين يكبر؟!
— سيعتبرني أنا أمه، وسيكون الوضع كذلك.
__حسنًا... إذا كنتِ أنتِ أمه فمن أكون أنا؟ أخاه أم أباه؟!
قطّبت حاجبيها قليلًا، ثم قالت بعدم اكتراث:

— سنُخفي عنه الحقيقة.. سنخبره أن أمه جنّية، وتوفيت منذ أن وُلد.
__ أتقصدين أن نخفي عنه حقيقة أن أمه إنسية؟!
أغمضت إيليانا عينيها بقوة من ثقل ما سمعت، ثم أعلنت حضورها ودلفت إلى الداخل.
— هل تسمحون لي أن أحمل صغيركم... للمرة الأخيرة؟
أجابت سبأ وقد أدركت أنها سمعت ما دار للتو:
— ليس كما تظنين، إيليانا... هو طفلكِ أنتِ، وأنتِ أمه مهما جار الزمن.
اقتربت إيليانا تحمل ابنها وقد ضاقت رؤيتها من الدمع وهي تقول:
— لكنه لم يعد لي... كان قدري أن أجيء به إلى الحياة ثم تنقطع صلتي به.
انفجر نيوار بصوتٍ يائس مشبع بالحزن:
— لا، إيليانا... لن ترحلي إلى أيً مكان بل سنرحل؛ أنتِ وأنا وصغيرنا بعيدًا عن القصر وعن هذا الحكم، وعن هذا العالم كله.. لن أدعهم يدمّرون ما تبقّى من قلبي ولن أسمح لهم بتفريق شمل عائلتي.
عمَّ هدوءٌ ثقيل ولم يبقَ فيه إلا أنين القبلات التي كانت تطبعها على جبين صغيرها، تحاول اختزان روحه في قلبها قبل الرحيل.. كانت تقبّله بنهم تتحسس وجنته وتشمّ عنقه تقبّل أصابعه الصغيرة برعشة يدٍ لا تعرف إن كانت ستراه مجددًا.
تتوسله دون أن تنطق:"سأرعاك بدعائي ما دمت أتنفس."
كان نيوار يراقبها بصمتٍ مشلول وقد تلونت عيناه بالصرمدي المعتم، دلالةً على أن حزنه بلغ منتهاه، كل نظرةٍ من إيليانا إلى صغيرها سكينًا جديدًا يُطعن صدره.

لتقول بنبرةٍ مهزوزة تحاكي وجعها:
— وقُدِّر لك يا صغيري وآسر قلبي أن تفارقني وأنت احدى نبضاتي.. ستمضي عن صدري وأنت صنيعة قلبي، لكن لا بأس ودائع الرحمن لا تضيع أبدًا.
نظرت إلى نيوار بعينين دامعتين، ولأول مرة منذ أن عرفها هرب بنظره عنها.
لتقول:
— هو سؤالٌ واحد... هل كنتَ ستسمح لهم لو أنني اعترضتُ على هذا القرار؟!

ظلّ صامتًا وكأنّ الصمت صار وسيلته الوحيدة للاعتذار.
ثم أخرج جوابًا من عمق الألم:
__ أبدًا... ما كنتُ لأسمح.
قالت بهدوءٍ موجع:
ـ لكن القرار الذي كنتُ سأخبرك به هذا الصباح، هو ذاته قرارهم.
__ علمتُ... لذلك لا أملك حقَّ التدخّل.
ثم سلمته الصغير برفق:
ـ اعتنِ به جيدًا..لقد تركتُ لك قطعةً من روحي، فارعَها بحب.
حمل عنها الرضيع وبقي مسترسلًا في نظراتٍ مشبعة بالحزن والخيبة، وكل ما له صلة بذلك.
التفتت إلى سبأ:
ـ هل تسمحين لي بعناق الوداع؟
__أعتذر عن ذلك سأكتفي بالمصافحة إن أردتِ، فشيفرة ترددات لا تسمح بالاستواء مع ترددات، خاصةً في هذه اللحظة.. طاقتك منخفضة جدًا ولا أريد أن يتعبك الأمر أو يصيبك مكروه.
صافحتها إيليانا مودعةً ومعتذرة وهي توصيها على فلذة كبدها.

ـ كنتِ زائرةً لطيفة وخير إنسية عرفتها، أما عن ابنك فلا تخافي ولا تحزني، واعلمي أنه استوطن في صميمي وفعل بقلبي ما لم يفعله أبوه.
اطمأنت إيليانا لكلامها وابتسمتا ابتسامةً مشروخة ثن التفتت إلى نيوار:
_أنتظرك في جناحنا.
وانحنت مودعةً سبأ:
ـ أبلغي سلامي إلى زلفى، وزوجها، وابنها، وإلى كل الخدم والخادمات، وإلى الملك الأحمر، والجد، وكل من عرفني من قريبٍ أو بعيد.
ومضت تغادر الغرفة بخطًى متماسكة، بينما ظل هو يحدق فيها كأنها تأخذ روحه معها.

♡♡♡

كانت نجمة تختبئ خلف أعمدة القصر، تتربّص بنظراتٍ ماكرة، عيناها تقدحان شرًّا وشفاهها ترتجف بحماسةٍ مكتومة...
تنتظر اللحظة التي يُترك فيها الصغير وحيدًا، لتسلّمه إلى عاصفة.
بعدما انفردت سبأ بآسر وقد غرق في نومٍ بريء لا يعرف من الدنيا شيئًا، حدّقت فيه بعينين ممتلئتين بالأسى..
غطّته بعناية ثم وضعته في مهده وأغلقت الباب عليه بحذر.
فيما كانت إيليانا تجلس عند النافذة التي طالما كانت إطلالتها تبهجها وتشعل في قلبها حنينًا لعالمها البعيد.
ضمّت ركبتيها إلى صدرها تحاول احتضان نفسها، أو لملمة ما تبقّى من قلبها.
دخل نيوار واقترب منها بخطًى ثقيلة وجلس مثل جلستها.
تبادلا نظراتٍ طويلة صامتة، ممتلئة بكل ما لم يُقَل وبكل

وبكل ما فُقد.. ضمّها إلى حضنه، في حين شعرت أن بكاءها في قاع بئرٍ عميق.
كان صوتها كالهشيم في قلبه يكسره دون رحمة.
قبّل رأسها وكأنه يعتذر عن اللحظة التي دخل فيها حياتها أصلًا، ثم قرّب فمه إلى أذنها هامسًا:
— لقد كان عامًا مليئًا بكِ..مليئًا بوجودكِ الطيّب الذي هوّن عليّ متاعب الحياة وصلابتها.. أحبك يا أعظم ما حصل لي في كل الدهور التي عشتها والتي سأعيشها ⵜⵜⵓⵙⵓⵖ ⵜⵜⵉⵎⵙⵓⵖ ⵜⵜ.
— أعدني إلى عالمي الآن... وعدني أنك لن تعود، لا بحثًا عني ولا صدفة ولا حتى ذكرى.. كأنك لم تكن وكأني لم أكن.
اتّسعت عيناه صدمةً وشعر أنها طعنته في ما تبقّى من أمل.
لكنها شدّت على ثوبه وكررت بصوتٍ أشدَّ قسوةً على نفسها منه عليه:
— عِدني...
حملها كما تُحمل الأحلام الراحلة وانتقل بها.

♡♡♡

استغلّت نجمة خلوّ غرفة الرضيع من الجميع وتسلّلت بأنفاسٍ مكتومة، اقتربت من السرير وحدّقت فيه لثانيةٍ خاطفةٍ وما أبهرها أن ملامحه كانت تصرخ باسم نيوار، نسخةً مصغّرةً عنه ما جعل الجريمة أثقل في صدرها.
تردّدت للحظة..لحظةٍ واحدة فقط، ثم حملته وخرجت إلى الرواق بسرعة، نظراتها تتقاذف يمنةً ويسرة وقلبها يخفق بجنون، تخشى كل ظلٍّ وكل حركة.
لكن ما لم تحسب له حسابًا أن مشرفة الخادمات سنابل كانت تمر في الرواق ذاته، فلمحتها من بعيد وهي تحمل الطفل بوجهٍ مضطربٍ وخطواتٍ محسوبة، ذلك ما أثار فضولها وجعلها تختبئ و تتربص بها.

ثم تبعتها دون أن تُشعرها.
لتصل نجمة إلى زاويةٍ مظلمة حيث كانت عاصفة تنتظرها
لكن وجهها المغطّى جزئيًا وملامحها الغامضة، لا تؤكد
هويتها.
دون تبادل كلمات سلّمت نجمة الرضيع واختفت عاصفة
بالطفل نحو وجهةٍ مجهولة.
لتعود نجمة أدراجها تتلفّت حولها وتتحسّس خطواتها، غير
مدركة أن الخيانة هذه المرة لم تمرّ دون شاهد.

العودة والحنين

وجدت نفسها في غرفتها القديمة، كلّ شيءٍ كان كما تركته
الستائر الشفافة، مكتبها الذي يحتوي على أقلامها ودفاترها..
وفي زاوية المكتب كتبها مرتبة بعناية وخزانتها ما زالت في
مكانها.. كلّ شيءٍ ما زال يكتم أسرارها.
لكن الغبار كان سميكًا كثيفًا لدرجةٍ جعلتها تتوقع أن غرفتها
قد هُجرت منذ زمنٍ طويل.
النور المتسلّل من النافذة كان واهنًا، عاجزًا عن بثّ دفءٍ أو
طمأنينة. لاصوت، لا حركة..
صمتٌ كئيب يلفّ الغرفة كما يُلفّ الجرح بضمادٍ بارد.
وقفت تجرّ خطواتها الثقيلة وأخذت تتفقّد الغرفة مرّرت يدها
على سطح المكتب، على غلاف كتابٍ قديم، على إطار صورةٍ
لها مع والدتها ثم سارت نحو الباب وفتحته بحذر، توجهت
إلى باقي غرف البيت.
لكن المنزل كان مظلمًا تشوبه رائحة العتق، هواءٌ ثقيل لم
يُجدَّد منذ دهر خفق قلبها بقوّة.
__أين الجميع؟
تقدّمت بخطى متردّدة نحو غرفة والدتها وقفت أمام الباب
ثم تراجعت.
__ماذا سأقول لها؟ كيف سأشرح غيابي؟ هل ستسامحني؟

فتحت الباب لتجد الغرفة فارغة، لا أثر لأحد..بدأ الخوف يتسلّل إلى أطرافها.
هرعت إلى غرفة أخيها، فارغة هي الأخرى.
— أين أنتم؟
ركضت بين زوايا البيت تبحث وتنادي اسمًا بعد اسم، ذكرى بعد ذكرى، كلّ الأبواب مغلقة وكلّ الغرف صامتة البيت بدا لها مهجورًا وتركها وحدها تواجه فراغًا لا يُحتمل.
دفعتها الوحدة إلى الخارج إلى الشارع الذي لطالما حفظت تفاصيله عن ظهر قلب.
الحيّ وجدران البيوت مألوفة لكن شيئًا خفيًّ ا تغير، سيارات جديدة اصطفت مكان القديمة ومبانٍ أُعيد طلاؤها وأخرى ارتفعت حيث كانت المحال الصغيرة.
الحيّ هو نفسه لكن روحه لم تعد كما عهدتها.
مشت ببطء وعيناها تتنقّلان بين الوجوه تبحثان عن ملامح مألوفة تطمئن قلبها أو عن نظرة حانية تعيد لها يقينها.
لكن العيون كانت تنظر إليها بدهشة وهمسٌ يتردّد بين المارّة بعضهم يبطئ خطاه وبعضهم يطيل التحديق.
نظرت إلى نفسها...
ثوبها الذي ترتديه كان جميلًا لكنه من عالمٍ آخر، قماشه الغريب وتطريزاته كلّها كانت تصرخ بأنها لا تنتمي إلى هذا المكان!
تردّدت في أن تسأل أحدًا ثم اقتربت من امرأةٍ مسنّة تجلس على كرسيٍّ خشبي أمام منزلها تلفّ شالًا على كتفيها وتراقب الشارع بصمتٍ ثقيل.
— عفوًا سيدتي هل تقدّمين لي معروفًا؟.. أبحث عن عائلتي كان هذا منزلنا. وأشارت بيدها.
رفعت العجوز نظرها إليها ودققت النظر:
— من أنتِ؟ وكيف لي أن أعرف أهلك يا ابنتي؟

بأسف أدركت إيليانا بعد لحظة صمت أنّ لا جدوى من الإطالة، اختصرت الطريق واعتبرته سؤالها الأخير.
نطقت بلقب عائلتها واسم والدها علّها تصل إلى أي خبر، أي أثر.
— العائلة التي تسألين عنها غادرت المدينة منذ سنوات وتحديدًا بعد اختفاء ابنتهم.. التي يعلم الله وحده ما فعل بها ذلك الغياب.
ذُهلت إيليانا وقالت برجاءٍ يكاد ينكسر:
— هل تعرفين إلى أين ذهبوا؟ أرجوكِ أحتاج لرؤيتهم.
_ سمعت أنهم انتقلوا إلى بلدةٍ أخرى.. لكني لا أعرف عنوان إقامتهم تحديدًا.
بقيت إيليانا واقفة، تحمل خبرًا أثقل من قدرتها على الاحتمال بحث عن عائلةٍ صارت هي الأخرى أثرًا من الماضي.
عادت أدراجها إلى البيت محمّلة بخيبةٍ أثقل من قدرتها على الاحتمال لم تعد تملك ترف الانهيار، عليها أن تشق طريقها وتبحث عن أهلها مهما طال الطريق.
دخلت غرفتها واتجهت نحو المرآة التي كان الغبار يكسوها مسحت سطحها بيدٍ مرتجفة فتجلّت صورتها أمامها.
يا الله... كم تغيّرت!
وجهٌ شاحب وهالاتٌ سوداء تحاصر عينيها، جسدٌ نحيل كأن الحياة سُحبت منه بالتدريج، وشعرٌ متناثر بعشوائية على كتفيها، عينان لا تشبهان تلك الفتاة التي كانتها قبل الرحيل.
عينان رأتا ما لا يُرى وحملتا ما لا يُحتمل.
ألقت نظرةً إلى أشيائها مرةً أخرى، وأدركت أن أمها رفضت أن تأخذ أشياءها ربما محاولةً منها لقطع ذاكرة الألم أو خوفًا من لمس أثر الفقد.
فتحت خزانتها فإذا بالملابس التي كانت ترتديها يومًا ما تزال معلّقة والأخرى مطويّة بعناية حتى أدقّ التفاصيل.

دباديبها، ماسكات الشعر، تلك التفاصيل الأنثوية الصغيرة التي تشبهها تحاول إعادة بناء نفسها من بقايها
غريبة ابديار
— يا له من ضياع... يا له من غياب.
اختارت لباسًا كان من أحبّ ما ترتديه قديمًا. وكان لا بدّ قبل البحث عن أهلها أن تستعيد بعضًا من ملامحها...
بدت مختلفة لكن صورتها القديمة بدأت تتضح، وكأن غبار العالم الآخر أخذ ينجلي عنها شيئًا فشيئًا.
خرجت من البيت بخطواتٍ مترددة. نسيت كيف ينتقل الناس في هذا العالم!
السيارات، ضوضاء الشارع، الحياة التي كانت يومًا ما عادية بدت لها الآن من كوكبٍ آخر.
مرّت سيارة أجرة فأوقفتها بتردّد و أخبرت السائق بعنوان المدينة التي ذكرتها لها العجوز.
طيلة الطريق وهي تحدّق من النافذة بذهول، غربةٌ قاسية عصفت بها حتى النخاع.
وصلت أخيرًا لكنها تذكّرت فجأة النقود! يا إلهي كلمةٌ نسيتها تمامًا، من أين تأتي بها؟
اعتذرت للسائق بخجلٍ شديد واقترحت أن تعطيه الخاتم الذي كانت ترتديه رغم خصوصيته رغم أنه من عالمٍ آخر
لكن ماذا تفعل؟ كانت محرجة ومضطرة. وافق في البداية فالمسافة
بعيدة وله حقّه لكن ما إن أمسك الخاتم وتأمّله..
حتى انفعل وأعاده لها بشدّة وهو يسأل بقلق:
— من أين أتيتِ بهذا الخاتم؟
نظرت إليه والتزمت الصمت. كيف تخبره بقصتها؟
سيحسبها جنونًا أو هلوسة وقبل أن تنطق قال:

— أتدرين أنه خاتمٌ روحاني؟!
ثم أردف بتحذير:
— احتفظي به ولا تورّطي الناس فيه.. أفهمتِ؟ يمكنكِ النزول الآن.
تجمّدت مكانها مذهولةً من كلامه ماذا قصد؟ وكيف عرف؟ لكنّها تعلّمت درسًا واحدًا: أن هذا الخاتم ليس شيئًا يُتداول و عليها أن تحتفظ به لنفسها فقط.
ربما كان هذا السائق يعرف عن هذه الأمور أكثر مما توقّعت.
مضت تمشي في شوارع لا تعرفها أبدًا تسأل المارّة عن لقب عائلتها وعن أسمائهم، لكن لا أحد كان يعرفهم ومع كل سؤال ازدادت وحدتها وغربتها.
بحثٌ طويل ومعاناة أنهكت جسدها وروحها، قضت ليالي باردة في الشارع بلا مأوى ولا يقين.
وفي أحد الأيام بينما كانت تسير بلا هدف وقعت عيناها على شرطي مرورٍ ينظّم حركة السير.
لحظتها انقدحت الفكرة في رأسها، بعدما كانت غائبة عنها تمامًا:
— الشرطة... مركز الشرطة.
لا بدّ أن تذهب إلى مركز الشرطة الإقليمي فهناك حتمًا سيبحثون عن عائلتها. وبالفعل فعلت ذلك.
خضعت لإجراءاتٍ قانونيةٍ مطوّلة وأسئلةٍ كثيرة ومحاضر رسمية، وانتظار ثقيل حتى وجدت ضالتها أخيرًا.
وقفت أمام بابٍ غريب الهيئة لا يشبه شيئًا من ذاكرتها لكن قلبها كان يعرف أنه المكان الصحيح.
هذا هو بيتهم الجديد.
تنفّست بعمق وطرقت الباب مرة، ثم مرةً ثانية وبعد ثوانٍ فُتح الباب..

وقف أمامها رجلٌ في بداية الثلاثينيات، قوي البنية، بهيّ الطلّة ونظرةٌ تحمل جدية.
تأملته بذهول وكل ما بداخلها صرخ بالحقيقة
إنه أخوها محمود، ملامحه ما زالت نفسها رغم أنه كبر وتغيّر كثيرًا.
قال بنبرةٍ رجولية:
— نعم من تكونين و ماذا تريدين؟
ازدردت ريقها وابتسمت بألم:
— أنا... أنا... أنا إيليانا.
عقد حاجبيه، وقال بتوجّس:
— نعم.. إيليانا!
قالت بسرعة والرجاء يتسرّب من صوتها:
— ألا تملك أختًا اسمها إيليانا؟ اختفت منذ سنة؟
ضحك بسخرية، قال وهو يهمّ بإغلاق الباب:
— سنة؟ عن أي سنةٍ تتحدثين؟ ليت غيابها كان مجرد سنة.
ثم أضاف :
— على العموم، لا أريد أن أعرف من تكونين ولا ماذا تريدين من اسم أختي، بالمختصر إيليانا لم تعد موجودة شكرًا.
حاول إغلاق الباب.
لكنها أمسكت به ونزعت الوشاح عن رأسها، قالت و عيناها تغرقان بالدموع:
— محمود.. أخي أنا إيليانا أختك.. أقسم أنني إيليانا.
تجمّد في مكانه، عقله يرفض التصديق وقلبه يخفق بقوةٍ لا يفهم سببها.
ثم قال:
_أنت.. تشبيهينها.. لكن هذا غير منطقي!
_كل ماحصل غير منطقي بالنسبة لكم، لكن المنطقي

الآن هو أنا إيليانا بشحمي ولحمي عدت إليكم.
اقتربت منه خطوة.
كانت ترغب في ضمّه لكنها احترمت دهشته وأضافت محاولةً إقناعه:
— كنتَ تدعوني للعب معك على ألعاب الهاتف، كنت أحب النوم كثيرًا، وكنت آخر من يستيقظ في العائلة، كنتَ تناديني دائمًا بالدبّ الكسلان.
تراجع خطوة إلى الخلف وصوته خرج مترددًا:
— هذه التفاصيل.. لا يمكن لغريبٍ أن يعرفها.
ابتسمت بألم وهمست:
— بل أنا.. أنا فقط.
ضمّها بقوةٍ عنيفة احتوت سنوات الفقد والحزن والانتظار وكأن هذا العناق، يحاول ترميم ما فعله غيابها الطويل بهم جميعًا.
كان محمود لا يزال يحتضنها حين سُمع صوتٌ من عمق البيت، صوتٌ مألوف تغيّر مع الزمن لكنه لم يفقد نبرته:
— محمود... من على الباب؟
ارتجف قلب إيليانا فذلك الصوت اخترقها مباشرة دون استئذان.. إنه صوت أمّها!
تصلّبت بين ذراعي أخيها وتسارع نَفَسها.
اقتربت الخطوات، ثم ظهرت ليلى
وقفت عند مدخل الصالة تحمل بيدها قطعة قماش وعلى وجهها ملامح تعبٍ طويل.
ما إن وقعت عيناها على إيليانا، سقطت القماشة من يدها واتسعت عيناها وكأن الاسم عالقٌ في حلقها ولا يجرؤ على الخروج.
خطت خطوةً بطيئة ثم أخرى، تحدّق في وجهها في عينيها في ملامح تعرفها جيدا.

— لا... هل هذا... مجرد حلم كالأحلام السابقة؟
تحرّرت إيليانا من ذراعي أخيها وتوجهت إلى أمها:
— أمـــــــــــــي...
لم تصرخ ليلى ولم تبكِ لكن ساقيها خانتاها فجثت على الأرض.
وضعت يدها على صدرها، تتنفّس بصعوبة وعيناها لا تفارقان وجه ابنتها.
أمسكت إيليانا يديها المرتجفتين وقبّلتهما بحرقة ثم احتضنتها بكل ما تملك من قوة.
تعالت همهماتٌ وبكاءٌ ثقيل، خرج من أعماق حزن السنوات.
— كنتُ دائمًا أشعر... أن هذا اليوم سيأتي...
في تلك اللحظة، خرجت فتاةٌ من إحدى الغرف وتوقّفت عند مشهد العناق.
فتاةٌ طويلة نسبيًا، نضجت ملامحها وشعرها مربوطٌ على عجل، في عينيها فضولٌ وحذر.
— ماذا يحدث هنا؟... ومن هذه؟!
رفعت ليلى رأسها ببطء ودموعها لم تجف بعد.
— ميلينا إنها أختكِ إيليانا، قد عادت إلينا.. ألم أخبركِ أنها ستعود يومًا؟ لقد تحقق ما انتظرته طيلة السنين.
عقدت ميلينا حاجبيها. فذاك الاسم الذي لطالما كان يرفرف كطيفٍ في الليالي و كقصةٍ تُروى عن غيابٍ طويل لا يُفهم!
بحثت فيها عن ملامح الفتاة التي رافقتها لسنينٍ قليلة،ثم اختفت.
— هل يُعقل... أن يكون هذا مجرد حلم؟
__ لا ليس حلمًا، أنا إيليانا... لقد عدت... عدت إليكم.
— لكن... أين كنتِ طيلة هذه السنوات؟
هزّت إيليانا رأسها نفيًا:
— إنها... مجرد سنة!

أبدت ميلينا دهشةً صريحة:
— سنة!... لقد مضت ثماني سنوات على غيابكِ!
تعانقت الأختان بحرارة، بينما كان محمود يتصل بوالده مرارًا بصوتٍ متوتر، يُلحّ عليه أن يعود إلى المنزل فورًا لأن الأمر مستعجل.
لم تمضِ ساعة حتى ارتجف باب الدار من جديد صوتُ المفاتيح وخطواتٌ مسرعة ثم فُتح الباب بعجلة ودخل رجلٌ بدا عليه الإرهاق واللهفة.
لكن الزمن لم يُبقِ عليه كما كان فقد أكل الشيب من رأسه وغاصت تعابير وجهه بين التجاعيد، انحنى ظهره قليلًا من أثر السنوات التي أثقلت كاهله بحنينٍ مُرّ وأملٍ لا ينطفئ.
وقف عند عتبة الغرفة، بتساؤل:
— ماذا حصل؟
التفتت ليلى نحوه وقالت بحماسٍ ممزوج بالبكاء:
— دائمًا ما كنتُ أخبرك أنها ستعود.. شعور الأم لا يخطئ.
نظر إليها بعدم فهم، ثم تنحّى محمود وميلينا جانبًا وظهرت إيليانا أمامه.
تأمّل وجهها طويلًا بينما هي بادلته بنظراتٍ حملت كل خيبات الزمن، وشوق الطفلة التي غابت عن حضن أبيها.
— أبـــــــــي.
هوت الكلمة على قلبه كالرعد ثم ركضت إليه ليضمها إلى صدره الحنون.
تجمّعوا حولها جميعًا وكلّهم ينظرون إليها ويرمّمون ما خلّفه غيابها المرير.
جلس الأب إلى جوارها بعدما خفّت حدّة الدموع لكن أثرها ظلّ ثقيلًا في العيون والقلوب.
كانت ليلى لا تزال ممسكةً بكفّها كأنها تخشى أن يتبدّد هذا الحضور في أي لحظة وميلينا تراقب ملامح أختها بصمتٍ

مدهوش بينما وقف محمود خلف الكرسي ساكنًا، يحدّق في المشهد بعينين لا تزالان تشكّان في اليقظة.
قال الأب بصوتٍ واهن حمل وجع السنين وقلق الأسئلة:
— حلّي اللغز يا ابنتي... أين كنتِ؟ وبأي أرضٍ حطّت رحالك؟ منذ اليوم الذي اختفيتِ فيه لم نعرف للنوم طعمًا بحثنا وسألنا وطرقنا كل باب بكينا كثيرًا ودعونا أكثر.
أخفضت عينيها وشدّت على كفّ أمها كأنها تستمدّ منه شجاعة البوح:
— أبي... لو كان للكلام أن يتّسع لما عشته لما ضاق صدري الآن.
ليقول محمود:
— لا أفهم ما تقولين، هل كنتِ مريضة في مستشفى؟
التفتت إلى أبيها قائلة:
— لا تسألوني كثيرا فقط عدت لأن القلب اشتاق ولأن الحكاية بلغت حدَّها.
أغمض الأب عينيه قائلا:
— ما يهمّني الآن أنكِ بيننا. أمّا القصة... فسنفهمها مع الوقت. فقط ابقي ولا تغيبي بعد اليوم.

♡♡♡

حين غربت شمس ذلك اليوم كانت إيليانا في غرفة ميلينا التي تتنفّس باللونين الوردي والأبيض، أقمشة هادئة لا تشبه ما ألفته في ذلك العالم ستائرُ وردية تراقصها النسائم فتُلقي على الجدران ظلالًا متحرّكة.
جلست على طرف السرير تلامس الغطاء بأصابعها وتستنشق رائحة الزهر المنثور، ثم أخذت تُقلّب ناظريها في المكان تستعيد ذاكرة هذا العالم الذي تركته ذات يوم دون وداع.
دلفت والدتها وهي تحمل طبقًا من الفاكهة المقطّعة والمحلاة كما كانت تفعل قديمًا، وعيناها ممتلئتان بالحب والحنين.

ابنتي... جهّزتُ لكِ حمّامًا دافئًا، أمّا الثياب فيمكنكِ أن تستعيري من ميلينا ريثما نتسوّق ونشتري لكِ ما يلزم.. وبمناسبة رجوعكِ إلينا، سيكون عشاء الليلة كما تحبّين.. لا أحد هنا يشتهي طعامًا غير الذي يشتهيه قلبكِ.

في المطبخ كان خالد ينظّم طاولة العشاء على غير عادته فعودة إيليانا بعثرت النظام كله، محمود يرتّب الكراسي بعجلة وميلينا تزيّن الكعكة التي حضرتها الأم بشرائح البرتقال تضيف لمساتها الأخيرة، بينما تفوح رائحة الشاي على مهل استعدادًا لسهرة الليلة.
دخلت إيليانا على مهل بعد أن أخذت حمّامًا دافئًا شعرت أخيرًا أنها عادت إيليانا القديمة.
نظرت إليهم جميعًا وسكنت في قلب اللحظة.اليوم بالنسبة للعائلة هو يوم عيد.
جلست على الطاولة كزهرةٍ عادت لتنمو في تربتها الأولى بعد عاصفة غياب، الأطباق تُقدَّم واحدًا تلو الآخر بألوانٍ وروائح تحفظها الذاكرة جيدًا.
كان الجميع يراقبها لا يشبع من رؤيتها ثم انحنى محمود نحوها وأسند رأسه على كتفها قائلًا:
— إيليانا أرجوكِ يا أختي... لا تلعبي معنا لعبة الغميضة مرة أخرى فلعبك ممل ويطول جدا.. ثم صدّقيني لم أكن أعرف أنني أحبكِ بهذا القدر حتى غبتِ.
تسلّل المزاح إلى صوتها:
— لحظة، لحظة! محمود تغيّر كثيرًا... لا أذكر يومًا قال فيه أنه يحبّني..
انفجر الجميع بالضحك ثم تتابعت الأحاديث وتحدّثوا عن كل ما حصل في سنين غيابها من تغيرات، عن حقيقة إلياسيف وكيف انتهت قصته، وعن انتقالهم إلى هذا البيت الجديد

عمّن تزوّج ومن سافر، وعن خيباتٍ صغيرة، وأفراحٍ لم تكتمل.
قالت إيليانا بدهشة:
— لكن كل هذا حصل في ظرف سنة!
وضع والدها يده على يدها وقال:
— بل غبتِ ثماني سنوات يا ابنتي.. خرجتِ من هذا البيت وأنتِ في الثامنة عشرة واليوم أنتِ في السادسة والعشرين.
اتّسعت عيناها:
— ثماني سنوات كاملة! إذًا... الزمن ليس متماثلًا أبدًا.
أضاف وعيناه تجمعان بين الحسرة والامتنان:
— أخاك تخرّج من الكلية والتحق بسلك الأمن وأختكِ أصبحت في المرحلة الثانوية و العالم تغيّر.. لكن قلوبنا يا ابنتي لم تتغيّر عن حبك.
حين هدأت الضوضاء وخمدت الضحكات في زوايا البيت انسحبت إيليانا وجلست إلى جوار عائلتها في سهرةٍ ليليةٍ طويلة.
— هناك أشياء كثيرة لا أعرف كيف أقولها... أشياء لا تُصدَّق ولا تُشرح بسهولة.
شدّت الأم على يدها وقالت محاولةً طمأنتها:
— فقط بوحي وسأكون خير مستمعة.. سأسمعكِ بقلب أمٍّ انتظرت عودة روحها إلى جسدها.
تنفّست بعمق قبل أن تردف:
— لم أكن في هذا العالم كنتُ في عالمٍ آخر مختلف قد يثقل هذا على مسامعكم لكنني كنتُ في عالم مختلف حيث لا بشر ولا القوانين التي نعرفها ولا زمن يسير كما يسير هنا.
اتّسعت عينا ميلينا بدهشةٍ امتزجت بالخوف:
— أمي سأنام عندكِ الليلة نوم المضطر.. لكن رغم ذلك أشعر بالحاجة الشديدة لمعرفة المزيد.

— سأخبركم... لكن ما سأقوله ليس سهل الهضم.. كنتُ في عالم الجن، لكن...
وقبل أن تُكمل قاطعها:
— أووووه كنا جميعًا نشكّ في ذلك لكن أن تعودي وتحكي لنا التفاصيل فهذا يُعدّ تهديدًا مباشرًا لصحتنا العقلية!
قالها مازحًا فلكزته ميلينا قائلة:
— محمود كفى مزاحًا زائدًا أرجوكِ إيليانا أكملي ولا تلتفتي إلى ردود أفعالنا فما عشتِه ليس سهل التصديق.
ردّت إيليانا بابتسامةٍ جانبية:
— أعلم وأنا أكثر من يعرف ردّة فعل محمود، لذلكِ أنا مضطرة لأن أقولها بوضوح تزوّجتُ جنيًّا وأنجبتُ منه طفلًا.
قالت ذلك وأغمضت عينيها.
رمقها محمود بدهشة ثم هتف بصوتٍ مدهوشٍ ساخر:
— يعني... أنا خال جنيٍّ.. يا لطيف يا الله!
غطّت إيليانا وجهها بخجل فالإقرار حاضرٌ بلا إنكار.
واصل محمود:
— أبي أنا آسف لكننا مضطرون لأخذ إيليانا غدًا!
— إلى أين؟
— إلى المصحّة العقلية للتأكّد من سلامة عقلها ونفسيتها. ربما أصابتها هلوسات أو اضطرابات منذ أن صدمها ذلك الرجل بالسيارة وأخذها لتعيش معه كل هذه السنوات سترًا على جريمته!
سأله الأب:
— ومن أين أتيت بهذه القصة؟
— لأنها الفرضية الوحيدة التي كنت أُسكّت بها نفسي طوال سنوات اختفائها. كنت دائمًا أشعر أنها ستعود وعودتها بهذه الطريقة أكّدت الفكرة التي تيقّنتُ منها الآن، بعد كل ما سمعناه.

ميلينا قاطعت ضحكاتهم وهي تتوسل إيليانا أن تكمل:
— وكيف قبِلوكِ في عالمهم؟، كيف كانت بداياتكِ هناك؟
ماذا كنتِ تأكلين وتشربين؟ وكيف يكون الزواج عندهم؟

أن تعيش وفي قلبك عالم لا يستطيع أحد تصديقة ولا الوصول إليه.

عاد البيت إلى ضجيجه المعتاد، لكنّه لم يكن ضجيج الأواني ولا وقع أقدام الإخوة في الممرّات بل ضجيج الهمس ونبض الأخبار التي تتسلّل من تحت الأبواب كالدخان.
عادت إيليانا من عالمٍ لا يشبه عالمهم، بعينين تحملان غرابة المسافات وبصمتٍ مشبعٍ بحكاياتٍ كثيرة لم تُروَ بعد.
قرّرت العائلة أن تحتفظ بسرّ ابنتهم، أخبروا الناس أنّها كانت مريضة في بلدةٍ بعيدة وأنّها فقدت ذاكرتها فترةً من الزمن وتكفّلت بها عائلةٌ هناك طوال هذه السنوات.
العودة لا تعني النسيان بل الاحتمال صارت إيليانا تعرِف أكثر من أيّ وقتٍ مضى أنّ الحياة بين عالمين ليست نعمةً دائمًا ولا لعنةً خالصة لكن اختبارٌ لصبر القلب وقدرة الروح على التأقلم فآثرت الحذر في حديثها مع الجميع وبدأت تعود إلى روتينها شيئًا فشيئًا.
واعتبرت ما حدث لم يكن سوى غيمة تمحيص مرّت في سماء العمر.
رغم أنّها تمضي أيّامها كأيّ فتاةٍ عاديّة، لا ترى ما هو غير مألوف إلّا أنّها كانت تشعر بجمرٍ خامدٍ تحت رماد الصبر.
تحاول أن تبدو طبيعيّة أن تبدو قويّة لكن حين تختلي بنفسها، تشعر أنّ جزءًا منها لا يزال هناك في العالم الذي لا يُرى.صوتُ بكاءٍ صغيرٍ كان يوقظ أمومتها كلّ ليلة.
وفي إحدى الليالي زارها حلمٌ غريب، رأت نفسها تمشي في القصر ذاته في جناحها كما تذكره تمامًا، بتفاصيله الدقيقة

لمحت نيوار ممدّدًا على السرير الذي كان يجمعهما يومًا
بين ذراعيها كان آسر صغيرها نائمًا على كتفها بطمأنينة.
راحت تجولِ في زوايا الجناح و تهمس بكلماتٍ غير مفهومة
كأنّها تعويذةٌ لا تعرف معناها ولا أصلها.
وفجأة بدأت الأرض تتلاشى تحت قدميها و حوافّ الحلم
تنزلق إلى العدم.
تشبّثت بالهواء لكنّ ابنها أفلت من ذراعيها وسقط في فراغٍ
رماديّ تشكّل من دخانٍ وسواد.
حاولت أن تمسكه أن تنادي باسمه إلا أن صوتها اختفى.
استفاقت تصرخ بهلع..
أسرعت ميلينا التي كانت تنام إلى جانبها تحيطها بذراعيها
وتناولها كوبَ ماءٍ وهي تهمس بالطمأنة.
الشوق إلى نيوار وآسر يتضاعف يومًا بعد يوم ولم تكن قادرةً
على نسيانهما ولا على إقناع نفسها بأنها انفصلت عنهما.
كانت مدركةً بشكلٍ موجع أن ابنها يكبر ويترعرع بعيدًا عنها و
لربما أصابه مكروه!
وما كانت تجهله: أكان ذلك الحلم مجرّد كابوسٍ عابر؟ أم نداءً
خافتًا من عالمٍ لا يزال يهتف باسمها؟

♡♡♡

بين الحزن والهلع، جلس نيوار وحيدًا في غرفته تلك التي
فقدت روحها منذ غابت إيليانا.
لا ضوء فيها سوى وهجٍ خافتٍ يتراقص من شمعةٍ ذائبة
لم تكن إيليانا مجرد إنسية مرّت في حياته كانت عالمًا كاملًا.
أما الآن فهي مجرد ذكرى ليست كغيرها من الذكريات؛ إنها
موجعة، لاذعة، تقتله ببطءٍ صامت.
كان الندم يعصر قلبه كما يُعصر الدم من جرحٍ غائر.
وفي لحظة ما انقطع خيط الذكريات..

أصواتُ فوضى دوّت من الخارج وتعالت نداءاتٌ متداخلة أمّه... أبوه... المجلس.
اندفع خارج الغرفة بسرعة البرق ومرّ بوالدته التي كانت تبكي بحرقةٍ لم يرَ مثلها من قبل...
دخل إلى المجلس الكبير، حيث كان الملك الأحمر يوزّع أوامر عاجلة بتجهيز كتيبةٍ من الجنود والحراس لتمشيط الحدودمع الممالك والقبائل والمناطق المحيطة.
— نيوار... ابنك خُطف من القصر، تحققنا من الأمر ولم نجد له أثرًا.
انفجر كإعصارٍ عاد من الهاوية.
— من هذا الذي يسعى لتحطيمي؟ تالله لأفصلنّ رأسه عن جسده، ولأُحرقنّ كلّ أرضٍ مرّ بها!

أهوال القصر ودوّامة الخطف

لم يهدأ القصر منذ إعلان اختفاء الصغير، توترٌ مُضاعف يسكن الملك الأحمر، الذي بدا عليه الغضب أكثر من أي وقتٍ مضى.
فيما كانت سبأ في جناحها تضمّ وسادة حفيدها ودموعها تسيل حينًا وتنهمر بنحيبٍ حادٍّ حينًا آخر، قلبها خُطف مع حفيدها.
إلى جوارها زلفى تحاول تهدئتها بكل ما تملك من مواساة.
أما نجمة فقد احتُجزت منذ أن بلّغت عنها المشرفة سنابل، لكنّ الأمر أُخفى عن نيوار ووالدته وعن كلّ من فى القصر ريثما تتبيّن الحقائق كاملة، خوفًا من أن ينهار التوازن الهشّ أكثر ممّا هو عليه.
ما الذي سيفعله الملك إن ثبت أنّ نجمة تلك التي ربّتها زوجته بين ذراعيها كابنة هي ذاتها من طعنتها في خاصرة ثقتها؟ كيف يُخبرها أن ابنة أخيها التي آوتها ومنحتها مكانًا في

القلب هي من خانت وغدرت وسلّمت فلذة الكبد لظلمةٍ لا ترحم؟، أيُعقل أن تكون اليد التي امتدّت يومًا بالعناق هي ذاتها التي امتدّت بالخيانة؟
إنّها صدمةٌ فوق الاحتمال فكيف إذا جاءت الخيانة من البيت ومن الحشا؟
تزاحمت الأفكار في ذهنه لكنّه آثر الصمت منتظرًا أن يُستكمَل التحقيق.
لم يطل الانتظاراستُدعيت نجمة وكانت في محبسها تعدّ الثواني و تسمع اقتراب نهايتها مع كل دقّةٍ من دقّات قلبها المتسارعة.
شحب وجهها حين نودي باسمها لكنها تماسكت ودخلت مجلس التحقيق بكبرياءٍ مرتجف.
أنكرت، راوغت.. إلا أن عينيها قالتا ما لم تنطقه شفتاها.
وبعد ساعاتٍ من التحقيق والتدقيق ظهرت النتائج واضحة.
رُفع التقرير إلى مجلس الشيوخ وكان القرار جليًّا لا لبس فيه:تبقى نجمة محتجزة إلى أن يعود نيوار من رحلة بحثه... يجهل تمامًا بأيّ ريحٍ عاتيةٍ سيصطدم.
مرّت أيّامٌ ثقيلة كالجمر، أيّامٌ من لهفةٍ لا تُطفأ وبحثٍ لا يُسكن. بحث فيها نيوار وجيوشه في كلّ القبائل القريبة والبعيدة وفي شتّى الممالك؛ سأل، وراقب من بعيد، شقّ الجبال والوديان وسأل العارفين... لكن آسر لم يكن له أثر وكأنّ الخاطف خبّأه في لُجّةٍ لا تُطال.
عاد إلى القصر مثقلًا وعيناه اكتستا بالسواد القاتم؛ فقد انخفضت طاقته إلى حدّ الانهيار وخيّم الحزن على قلبه.
رحيل إيليانا لم يشفَ منه بعد، ثم اختفاء ابنه الذي كان يتصبّر به، جعلاه يذوق الموت البطيء، يتقاطر عليه قطرةً قطرةً.

دخل جناح المخابرات بخطىً مُثقلة علّه يجد خبرًا، بصيص رجاء، أيَّ شيء، فإذا بالمجلس يستدعيه على عجل طالبًا لقاءه.
تكلّم كبيرهم:
– كنّا نرجو أن تعود بأميرك الصغير.. تضاعفت جهودكم في الخارج، كما تكثّفت أعمال الهيئة العليا في الداخل وقد اكتملت التحقيقات واتّضحت الرؤية.. يمكنك استجواب المتهمة نجمة.
ضيّق نيوار عينيه؛ كان دائمًا يشكّ بأنّها وراء ما حصل، إلّا أنّه لم يملك دليلًا يواجههم به. واصل الكبير كلامه:
– رُوي لنا من أحد الشهود أنها من سلّمت الرضيع للمجهول وقد تبيّن لنا لاحقًا أنّ الخادمة التي تُدعى عاصفة قد اختفت منذ اختفاء الرضيع، وهذا ما جعلنا نربط الخيوط ونوقن بوجود مؤامرةٍ نُسجت.
ها هو الدليل الذي كان يبحث عنه ليسلّمه لهم؛ لقد أدركوا حقيقتها أخيرًا. همس لنفسه بغصّة:« لكن... بعد ماذا؟ بعد أن أنهتني، دمّرتني، وسرقت سعادتي؟»
تضاربت كلماته المكتومة في صدره ثم قل بصوتٍ جليّ:
– أين هي؟
__في جناح الاحتجاز.. لم تعترف وما زالت تدّعي البراءة.
خرج من المجلس كمن خرج من معركةٍ لم يخضها بعد، لا يحمل سوى الغضب.. أراد أن يواجهها، أن يقتلها أو لا، أراد أن يثير شفقتها علّها تنطق بمكان طفله قبل أن تُصفّى
الحسابات. وفي طريقه إليها عصفت الأسئلة وتلاطمت الأفكار..
وصل إلى مكان احتجازهاو فتح الباب ببطء..
كان صريره يشكّل موسيقى مزعجة، ككابوسٍ يسبق لحظات الظهور.. و إذا بها تجلس هناك عيناها تترقّبان الداخل وقلب يكاد ينتهي

نبضه.
ها هو القادم الذي كان يومًا حلمًا صار كابوسًا وجلّادًا لروحها قبل جسدها.
اقترب نيوار بخطىً وئيدة وجلس قبالتها...
ثم خرج صوته متهدّجًا:
– لماذا؟
لم تُجبه، اكتفت برفع ذقنها محاولةً التمسّك بقناعها الأخير.
عاد يسأل بهدوءٍ أشدّ وقعًا:
– أين هو ابني... أين؟
وحينما لم يلقى جوابا همس بصوتٍ يحمل بين ثناياه وجع الدنيا كلّه:
– أكنتُ أستحقّ كلّ هذا؟!
قالت بنبرةٍ متهكّمة كأنّها تتلذّذ بتمزيق قلبه:
– أنت من أراد العبث وأنت من اختار أن يلعب معي.. تعلم أنّني أحببتك، وتعلم أيضًا أنّني أفعل كلّ ما يُتوقَّع وما لا يُتوقَّع لأحصل على ما أريد وأنا لست آسفة على ما حدث.
نظر إليها بنظراتٍ كادت تمزّقها.
لتتابع بكبرياءٍ مرير:
– أعلم أنّك أتيت الآن لتنتقم لذلك لا أريدك أن تنهي حياتي وأنت لا تعرف سوى القليل ممّا فعلت.. سأخبرك بكلّ شيء... منذ قرّرت الزواج بإنسية وأحضرتها إلى القصر وصولًا إلى ابنك، الذي لم يكن سوى"المقابل"لتلك الشيطانة التي جئتُ بها لتخدم الإنسية بينما الحقيقة لتخدمني أنا..
ونجحتُ في فصلك عنها والتخلّص من أثرها.
أمسكت بذراعه، وتابعت:
– نيوار... صدّقني هذا ما كان يجب أن يحدث منذ البداية لعنة الإنس يصعب التخلّص منها ولهذا ساعدتك.. لا لشيء فقط لأنّني مدينة لك بحبّي.
كان بركان الغضب يفور في عروقه، صكّ أسنانه بحنق تحمّل

اقترابها الذي لم يفصل بينهما سوى سنتيمترٍ واحد، تحمّل يدها على معصمه ثم قال متظاهرًا بهدوءٍ يسبق العاصفة:
– هذا ليس جديدًا عليّ.. أعلم أنّك وراء كلّ مصيبةٍ أصابتني لكن ماذا فعلتِ بآسر؟ أين هو الآن؟
اقتربت أكثر فيما ظلّت عيناه جاحظتين في نقطةٍ واحدة:
– تقصد الهجين؟... إنّه الآن يُقدَّم قربانًا لأسيادها، لأحد ملوك السفليّين الكبار كي تترقى في...
قاطعها بإشارةٍ حادّة من يده فصمتت. كانت تتوقّع أن يفصل رأسها عن جسدها في تلك اللحظة.
لكن نيوار لم يفعل شيئًا.
جلس على ركبتيه وانهارت قواه دفعةً واحدة ليقول:
__كان يجب أن أتخلّص منك منذ كنّا صغارًا، حين كنّا نهرب من القصر ونلهو بعيدًا.. يومها أدركت كم أنتِ مؤذية.. كان عليّ أن أنهي الأمر. ولو سألوني لكنتُ ادّعيت الجهل بمصيرك.
توقّف لحظة، ثم تابع بانكسار:
– أمّا الآن وبعدما دمّرتِني وبلغتِ مبتغاك... فأشفقي فقط على أمي التي كانت دائمًا تفضّلك رحمةً وشفقة بحالك..
أخبريني أين أخذت تلك الشيطانة ابني؟
قالت ببرودٍ قاتل:
– أخذته إلى مملكةٍ من ممالك الأبالسة في عرش الماء... ولا أظنّك ستجده حيًّا.
كان عليه أن يقود جيوشًا ويخوض حروبًا لكنّ الخطر على ابنه كان أعظم من أيّ معركة.
لذا قرّر أن يذهب وحده، يتسلّل خلسة ليستعيد ابنه بيديه... رغم خطورة هذا إلا انه أفضل قرارٍ اتّخذه.
العرش الذي تسكنه الأبالسة حيث لا زمن، ولا شمس، ولا رحمة.

يعلم جيدًا أنّ من يدخل تلك المياه الملعونة لا يخرج منها بسهولة، بشجاعته المعهودة توجّه إلى ثكنة العتاد النورانية وتجهّز بالصولجان الأحمر؛ ذاك الذي لا يُستعمل إلا حين تشتدّ الحروب مع العفاريت وذوي القدرات الفتّاكة، إضافةً إلى مجموعة سيوف السلالة الحمراء.
ما إن استخرج الصولجان من وعائه حتى أضاء بشررٍ كاللهب وقد تحصّن بتعويذةٍ لمعت حروفها بطاقاتٍ عالية التردد تصعق كلّ من يقترب منها.
تمتم وهو يحمل الصولجان:
«يعود للميدان بآيةٍ تُذلّ العدوان وسيفٍ مأمون وعلمٍ مخزون عندها تبدأ حروف المكنون، بإمامٍ جامع وسيفٍ لامع، أصله معروف وبالحُسن موصوف، علمه هو كلّ الحروف».
ثم انطلق وهو يردّد:
«كم من فئةٍ قليلة غلبت فئةً كثيرة، والله يحبّ الصابرين».
وحين أوشك على الوصول إلى البوابة قابله حارسان ضخمان أحدهما من صنف الغوّاصين والآخر من الزواحف، يحملان سيوفًا ورماحًا يحرسان بها البوابة.
حاول التململ والتنقّل خلسة لكنّه ما إن اقترب حتى عجز عن الدخول؛ شعرا بأثره وكانا على استعدادٍ كامل لأيّ هجوم، مما صعّب الأمر عليه.
وبعد وقتٍ من التفكير، توصّل إلى خطةٍ لم يكن يتوقّع يومًا أن يلجأ إليها: أن يتحوّل إلى هيئة شيطان.
كان ذلك أقذر شكل تخيّل أن يتشكل فيه قرونٌ طويلة وأنيابٌ فارهة و شكل بشعٍ.
استنزف جهدًا هائلًا من طاقته حتى تمكّن من التحوّل ثم تقدّم نحوهما ملقيًا التحية بطقوسهم التي سبق أن تعلّمها حين قرأ كتابًا في مكتبته بعنوان «أسرار العدو».

أجرى الطقوس فتبادل الشيطانان نظرات الريبة، ووفقٍ قوانينهم يُطرح سؤالٌ على الزائر؛ إن لم يُجب عنه إجابةً صحيحة يُقتل في الحين. كانت تلك شيفرتهم ورغم أنّ هيئته تشبههم إلى حدٍّ كبير إلا أن الشك تسلّل إليهم سأله أحدهم فيما استعدّ الآخر للهجوم:

– التناظر، التناغم، السبب والنتيجة... خمسة... أربعة... ثلاثة...

أدرك نيوار أنّ عليه اختيار كلمةٍ واحدة، كلمةٍ فاصلة بين الدخول والموت. أغمض عينيه بقوّة وفصل إحساسه عن اللحظة.. وكان العدّ قد بلغ واحدًا حين قال :

– السبب والنتيجة.

فُتحت البوابة وأدرك أنّه نجا من الاختبار.. واصل الدخول إلى المملكة الإبليسية وقد أخفى أثره كليًا ورغم احتفاظه بالهيئة الشيطانية، ظلّ الحذر المضاعف واجبًا.

تسلّل عبر أنفاقٍ طويلةٍ مظلمة وأخرى تتّقد لهبًا، تنبعث منها روائح الدم والروث طعامهم المقزّز، اشمأزّ لكنّه واصل بحثه وبينما يلتفت يمينًا ويسارًا ويقلّب رأسه في كلّ الاتجاهات اصطدم بشيطانٍ يعبر الطريق ذاته وما إن لامسه حتى أُصيب الشيطان بصعقةٍ في موضع الملامسة. قال بصوتٍ أجشّ مشوبٍ بالوحشية:

– أووووه! ما بك أيها الأخرق؟ ألا تنظر أمامك؟.. انتظر لماذا صُعقتُ حين لمستك؟

كاد يُكشف أمره لكن نيوار تدارك الموقف قائلًا:

– أعتذر أنا متعطّش للدماء التي تحملها وطاقتي توشك أن تنفد لذلك صُعقت.

ردّ الشيطان بتعجّب:

– خذ هذا الكأس ستستعيد به بعض عافيتك.

ناوله كأسًا من الدم، اضطر نيوار إلى شربه متصنّعًا التلذّذ

بينما كانت أحشاؤه تكاد تنقلب.. العذر كان الضرورة القصوى.
واصل الهبوط في دهاليز تحت الماء، حتى وصل إلى ردهةٍ كبيرةٍ يتوسّطها مذبح.. الردهة خاليةٍ إلا من عاصفة لم يلمحها جيدًا؛ إذ كانت مستديرة لا يُرى منها سوى ظهرها.
حاول الاقتراب فيما كانت هي تؤدّي طقوسها حول المذبح مركزة و فاصلة استشعارها، تغرق في تمتمة تعاويذها.
وكان آسر مربوطًا بحبالٍ من ضبابٍ أسود. تنتظر اكتمال القمر ليحضر سيّدها وتقوم بذبحه في اللحظة ذاتها.
استغلّ نيوار غفلتها واقترب أكثر لكنها رفعت يدها فجأة وأطلقت عليه ريحًا مسمومة كادت تفتك بنظره وبحدسٍ خاطف ثبت مكانه وغرس سيفه في الأرض.
كان الصغير يصرخ صراخًا يخترق طبقات العرش السفلي وكلّما بكى اشتدّت الحبال عليه..
حين غرس سيفه تفجّرت حوله دوائر ضوءٍ سرعان ما تلاشت. لم يكن ذلك كافيًا فقد استعدت عاصفة من جديد ثم أطلقت صفيرا واندفع من بين الأمواج ثلاثةٌ من شياطين الجحور.
وقف نيوار مستعدًا وقاتلهم بصولجانه فيما نزل سيفه كصاعقةٍ شقّ الأول نصفين ثم تلقّى ضربةً من الثاني أصابته فتراجع مترنحًا..
انقضّ كإعصار يقاتل بضراوة من يعرف أنّ كلّ ثانيةٍ تعني أنفاسًا تُنتزع من طفله. طعن الثاني فذاب رمادًا ثم واجه الثالث الذي كاد يغرز شظاياه في عنقه.
ضرب نيوار الأرض بالسيف مرةً أخيرة فهاجمت الدوائر الشيطانة عاصفة، وامتصّت كالإسفنجة كلّ قوى الظلام الكامنة فيها. سقطت أرضا و ارتفع سيف نيوار عاليًا ليفصل رأسها عن جسدها.

ركض بعدها نحو صغيره وفكّ قيده، لم يكن ذلك سهلًا إذ كان عليه حلّ الطلاسم أولًا..
فعل ذلك بسرعة وحمله تحت ردائه. قبّل جبينه قبلة شوقٍ شحنت بعضًا من طاقته.
وفي طريق خروجه كان لا بد أن يقرأ ورد التحصين الذي يحميه من حراس البوابة أو أي شياطين تعترض طريقه:
«احتجبتُ بِنُورِ وَجْهِ اللّٰهِ الْقَدِيمِ الْكَامِلِ، وَتَحَصَّنْتُ بِحِصْنِ اللّٰهِ الْقَوِيِّ الشَّامِلِ، وَرَمَيْتُ مَنْ بَغَى عَلَيَّ بِسَهْمِ اللّٰهِ وَسَيْفِهِ الْقَاتِلِ..
يا غالِبًا عَلَى أَمْرِهِ، وَيَا قَائِمًا فَوْقَ خَلْقِهِ، وَيَا حَائِلًا بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ، حُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ وَنَزْغِهِ وَأَغْلِلْ أَيْدِيَهِمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَاجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ا مِنْ نُورِ عَظَمَتِكَ، وَحِجَابًا مِنْ قُوَّتِكَ وَجُنْدًا مِنْ سُلْطَانِكَ، فَإِنَّكَ حَيٌّ قَادِرٌ. اللَّهُمَّ أَغْشِ عَنِّي أَبْصَارَ النَّاظِرِينَ حَتَّى أَرِدَ الْمَوَارِدَ، وَأَغْشِ عني أَبْصَارَ الظُّلْمَةِ، وَأَبْصَارَ الْمُرِيدِينَ لِيَ السُّوءَ، حَتَّى لَا أُبَالِيَ مِنْ أَبْصَارِهِمْ.»
عاد نيوار إلى القصر حاملا صغيره بين يديه..
وقف عند بوابة القصر وأول ما لمحته عيناه "زلفى" التي كانت تتحدّث مع ابنها عن آخر ما بلغهم من الأخبار.. وما إن رأته حتى علت ترحيباتها العالية التي مزّقت سكون الفناء وجعلت الجميع يتهافتون نحوه.
رغم انتصارات نيوار المعهودة في الحروب والمعارك كانت هذه المرّة استثنائية، فقد أثبت للجميع أنّه أهلٌ للولاء والمسؤولية.
لكن هناك من كانت غائبة وغيابها كان فراغًا قاتلًا لم يخطئه قلبه.. سبأ التي أنهكها الحزن حتى قاع الوهن وما كان نيوار يعلمه أنّ عافيتها انهارت أثناء غيابه، خصوصًا بعد انكشاف خيانة نجمة.. انطفأت شموع قوّتها ونُقلت إلى جناح الأطباء، تصارع ثقل الأحداث.
أسرع إليها ليجدها خاوية القوى والحزن مخيّم على ملامحها.

وضع صغيره بين يديها لتفتح عينيها كأنّ الترياق قد أُلقي بين أحضانها.
ضمّته إلى صدرها بكل ما تبقّى فيها من عافية وأجهشت حمدًا لله، تتفقّده من كل جانب.
– لو تعلم ما فعله غيابك عنّي، يا قلب جدّتك...
دبّت في عروقها دماء العودة وبدأت العافية تتسرّب رويدًا رويدًا إلى تفاصيل وجهها.

♡♡♡

في تلك الليلة الهادئة، لفّ القصرَ سكونٌ لا يقطعه سوى خفق أجنحة الحرس عند باب الغرفة التي كانت تُحرس بأمرٍ من الملك.
آثار الجراح التي غلّفت جسده كان يلفّها برداءٍ داكن، دخل بخطاه المتزنة ليجد والدته سبأ تجلس على كرسيٍّ وثير تقابل الصغير النائم في مهده. كان رداؤها المطرّز يتدلّى من كتفيها وعيناها معلقتين بذلك الوجه القمريّ الذي غفا بسلام،صدره يعلو وينخفض بأنفاسٍ ليست من عالمٍ واحد.
ألبسوا جسده الصغير لباسًا أحمر يخصّ أطفال الأُمراء في عالمهم، وكانت هي تتأمّله كما لم تتأمّل شيئًا في حياتها، كلّ نفسٍ منه يُنبت وردًا في صدرها.
لا حرب، لا خيانة، لا شياطين، لا اختلافات...فقط هو وطاقته التي تمدّها بالسلام.
تقدّم نيوار وعلى وقع خطواته انتبهت له:
— نيوار.. تعال انظر إليه... كأنك تنظر إلى مرآتك، وكأنّي أراك طفلًا من جديد.
جلس بجانبها ونظر إلى الصغير، ثم مدّ إصبعه بلطف نحو كفّه فقبض عليه بعفوية.لاحظت سبأ المشهد الدافئ لتقول:
— أتدري؟ كلّما رأيته أنسى وجعي... هذا الصغير أعاد لي شعور الأمومة مضاعفًا.

لم تتلقَّ منه جوابًا، لذلك أضافت:
_كيف حال جروحك؟ هل ارتحت قليلًا؟
__ بخير يا أمي، لكن جروحي الباطنية أبدًا ليست على ما يرام.
تأمّلا بعضهما بحزن، لتردف بصوت مكسور:
_ أعلم يا بني أنّ فراقك عن إيليانا ليس بالأمر الهيّن، وإن قلت لك ستتأقلم فسأكون كاذبة. الأمر أشبه بالاختناق البطيء... لا يجعلك تعيش بسلام، ولا تموت فتنتهي.
هزّ رأسه إيجابًا:
__حرفيًّا كذلك، لكن الأمر لا يتعلّق بإيليانا فقط.
نظرت إليه تنتظر أن يُكمل، ليتابع بحرقة:
__ بكلّ شيء يا أمي... بكلّ شيء.. أوّلهم غدر نجمة وألاعيبها التي انطلت عليكم جميعًا. انظري إلى حالي لقد دمّرتني وكان دمارها شاملًا؛ لم تدمّرني أنا فقط بل دمّرت أبرياء آخرين دفعوا ثمن حبّها السام.
— ماذا تقصد؟
__ أقصد إيليانا وما عاشته معي وما تعيشه الآن بعدما فُرّقت عن ابنها.. هل تظنّينها تعيش حياةً عاديّة بعدما انتُزع منها فلذة كبدها؟.. كلّ واحدٍ منكم عاش القلق بسببها، وما أثارته من تهاويل وأخيرًا هذا الطفل... الذي سيكبر بعيدًا عن أبويه سيكبر يتيمًا ولن يعرف والديه.
حديثه جعل الغصّة تخنقها، ثم رفعت عينيها مندهشة وسألته:
_ ماذا تقصد بأن الطفل سيعيش يتيمًا؟ ألستَ أنت بجانبه! وبالنسبة إلى أمّه، اتفقنا أن نخفي عليه الحقيقة وأنا أمّه.
ثار نيوار في وجهها ولم يكن ليفعل ذلك لولا الضغوط وفكرتها التي رآها عقيمة:
__ أمي، أرجوكِ لا تزيدي الطين بلّة عليّ وعلى مستقبل هذا الطفل.. كيف تنوين إخفاء حقيقة أنّه وُلد من رحم إنسية؟ كيف؟.. هذا ظلم في حقّه.. اختلافه إن لم يلاحظه هو سيلاحظه الآخرون، وفي النهاية سيكون مضطرًّا لسماع

الحقيقة، فاجعليه يسمعها منكِ وبطريقتك حتى لا تؤثر عليه جهاتٌ أخرى... أرجوكِ يا أمي كفّي عن هذا الهراء وعديني حين يكبر آسر ويصبح قادرًا على التمييز، ستخبرينه القصة كاملة دون أيّ تزييفٍ.
سكتت قليلًا، ثم قالت وفي عينيها لمعةُ دموع:
_ لكن لماذا تتحدّث بهذا الشكل بينما يمكنك إخباره الحقيقة بنفسك؟
ضمّ يديها بين يديه وقبّلهما طويلًا:
— أمي أرجوكِ، عديني أنّكِ ستعتبرين آسر كأنّه ابنك وستقومين بحمايته على أكمل وجه.
قاطعته بحيرة:
_بل أكثر من ذلك وأعدك بحمايته والعناية به، لكن أخبرني... لماذا تتحدّث هكذا؟
ابتسم ابتسامةً موجوعة وحاول المزاح وسط الجوّ المشحون:
— لكنّي لم أتخلَّ عن مكاني بعد ليأخذه آسر... أم أنّ مساحة قلبك لم تعد تتّسع إلا له؟
ثم رفع يده وأشار إلى أنملة إصبعه قائلا:
— قيد أنملة... قيد أنملة فقط.. اتركي لي مساحةً لتضمّي اسمي إلى دعائك أثناء رحيلي.
_ رحيـلك؟
أومأ برأسه وعيناه غائرتان في عينيها الباكيتان:
_ ماذا تقصد يا نيوار؟ هل تمّ استدعاؤك إلى حرب؟
— لا هذه المرّة الغياب سيكون طويـــــــــــلاً جدًّ ا، أطول ممّا تتخيّلين.
انهمرت دموعها كالمطر بعد أن كانت تحبسها وضمّته بقوّة وهي تقول بصوتٍ مهزوز:
_ الحكم سينفَّذ عليك و ستُسجن!
حاول مواساتها عبثًا:

— أماه أرجوكِ لا تفعلي هذا بنفسك.. صحيح أنّي سأختفي عن ناظريك، لكنّي تركتُ لك آسر.. ألم تقولي أنّه يشبهني؟ ثم... ثم... ألم تخبريني قبل قليل أنّه أخذ مكاني، وأنّ قلبك لم يعد يتّسع إلّا له؟

خرجت همهمات بكائها من بين أحضان ابنها وهي تطلب منه الاعتذار عن كلّ شيء.

— أرجوكِ يالبّ الفؤاد لا داعي لاعتذاراتك.. أنا مدين لكِ بكلّ حياتي، ورضاكِ عنّي هو كلّ ما أحتاجه.. وأحتاج أيضًا وعدكِ بأن تخبري الحقيقة لآسر حين يكبر.

' سأخبره وعد... لكن على الأقل أخبرني كم سأنتظر عودتك؟ كم هي مدّة غيابك؟

— للأسف يا أمي، مدّة غيابي غير محدّدة كلّ القوانين التي خالفتها، بالإضافة إلى ما سأفعله تجعل مدّة سجني دون تحديد... قد يكون قرنًا، قرنين، خمسة قرون. اللّه وحده يعلم متى سيكون لقائي بك، أو حتى... لن يك...

قاطعته وهي تضع يدها على فمه ليصمت. لتقول:

_ لكن هذا ظلم! كيف لم تشفع لك رتبتك وحذاقتك في الحروب التي انتصرتَ فيها؟ ألم تكن دائمًا فخر المملكة؟ ألم تكن مصدر النجاح في ميادين القتال؟ ألم تُعرف بشهامتك وشجاعتك في كلّ المواقف المصيريّة؟

هزّ رأسه نفيًا:

— لا يا أمي. أنتِ أكثرُ من يعلم أنّ لا شيء يعلو على القوانين خاصّة في المحكمة النورانية العليا. كلّ من أخطأ يُعاقب طوعًا أو كرهًا ولا فرق بين أحد... سواء كان من العامّة أو من أصحاب النفوذ والرتب.

وقبل أن يمضي تاركًا إيّاها طلب منها العفو عمّا سيُقدم عليه قبل الخضوع للحكم. سألته عن ذلك الفعل لكنّه اكتفى بالصمت، ثم حدّق مليًّا في صغيره بعجز وخرج من الغرفة تاركًا إيّاها بين جدران الحزن ووداعٍ لم يكتمل.

اشتعلت نيرانُه حتى غدت خطواته كهدير البركان وانطلق مسرعًا نحو سراديب السجن، حيث كانت نجمة حبيسة مؤامراتها، تتآكل بصمتٍ مميت وتنتظر الحكم الذي سيُنفَّذ عليها.. دخل نيوار وصوت نعاله يطرق أذنيها كموسيقى الموت. رفعت رأسها بتثاقل وبصوتٍ شبه ساخر قالت:
— ما الذي جاء بك؟ أهو الشوق إلى الإنسية... أممم... دعنى أخمن... أو الشوق إلى ذكرياتنا؟
وقفت متثاقلة وعدّلت شعرها على استنفار، ليجيبها بصوتٍ متقد:
— أن أسألك عن إحساسك الآن بعدما وصلتِ إلى مبتغاك.
قهقهت، مترنحة، لتقول:
— أشعر بشيءٍ من الراحة... لكن الراحة الكاملة حينما تصدر براءتي وتستيقظ أنت من سباتك وتدرك أن كل ما فعلته لم يكن إلا لصالحك ولصالح حبنا الذي دفنته في مقبرة قلبك.
تلوّنت عيناه وتقدّم نحوها، شدّ شعرها وقرّب فمه من أذنيها الطويلتين:
— تصادفت كثيرًا في حياتي مع أناسٍ سُذَّج، ليسوا مُكرمين بالعقل لكن مثل حقارتك... أو لا أدري بماذا أسميها، لم تجمعني بهم الصدف.. ها قد نفّذتِ كل ما أردتِ، ووصلتِ إلى مبتغاك وشتّتِ شمل عائلتي، وسأُزجّ في السجن...
توقّف لحظة، ثم صوّب الكلام بقسوةٍ أكثر:
— لكن لم تربحي علاقتي بك ولم تربحي حبي... بل زاد كرهي لك ومقتي إلى درجة أن...
رفع سيفه وغرسه في جسدها ومع كل طعنةٍ كان يُردف:
— هذا لأنك دمّرتِ حياتي، وهذا لأنك جعلتِ ابني يكبر يتيمًا، وهذا لأجل حبك المريض، وهذا لأجل إيليانا.
أربع طعناتٍ طعنها بها وفي الأخير تدحرج رأسها.

وارتوى من رؤية دمائها...
شُفيٍ غليله لكن آثار ما فعلته لن تنتهي بموتها، بل ستمتد طويلًا.
نظر إليها وقال بصوتٍ حاد:
— هكذا تموت الخيانة بلا عزاء.
بيان المجلس النارى
ما فعله نيوار كان ما تخشاه سبأ طوال عمرها.. انقلاب قبيلة أهلها ضد مملكة زوجها أصبح على بعد خطوة.
ما فعله ليس مجرد اندفاع لقد خالف القانون وتجاوز القضاء وقتل أسيرةً كانت تحت الحماية داخل حدود السجن الملكي.
قبيلة الأزرق التي تنتمي لها نجمة ليست قبيلةً عادية لها حلفاء أقوياء، وإن علموا بمقتلها دون محاكمة فالحرب وشيكة.
استدعي نيوار للمجلس وافتتح كبير الجلسة الحديث بصوتٍ غليظٍ متماسك:
— ما فعلته يا نيوار لا يليق بوريث مملكةٍ تحكمها قوانين العدل.. كان الأجدر بك أن تتأنى وأن تنتظر كلمة القضاء، لا أن تُصدر الحكم بنفسك.. استعجالك لم يكلّفنا التخلص من خيانةٍ فحسب، بل قد يشعل فتيل حربٍ خمد منذ قرون مع قبيلة الأزرق.
تبعه آخر، بنبرةٍ أشد حدّة:
— لقد خرقت بروتوكولات المملكة، وداست قدماك على أمنها وهيبتها.. إن سُمح لكل أميرٍ أن يجعل من غضبه قانونًا، فما الحاجة إلى مجلسٍ أو محكمة؟
اشتد صمته حتى صار جمرةً في حلقه.. رفع عينيه فجأة كأنما شقّ صوته جدار الاتهام.

— إن كنتم قد فرغتم من صبّ اتهاماتكم، فسددوا وقاربوا وانقلوا ملفي إلى المحكمة العليا.. أنا مستعد للعقاب أما تبريري.. فليس في دين اللّٰه مكانٌ لمن يهاب الظالم فيصمت، أو يرى الباطل فيتوارى، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ومن حقي إن رأيت خطرًا يهدد أمن المملكة أو يطال كرامة أحد أمرائها، أن أرفع السيف قبل الكلمة.. نجمة لم تكن أسيرةً بريئة لقد زرعت خيانتها بيديها، واعترفت بجرائمها أمامي.. وبصفتي قائدًا محاربًا ووريثًا لهذه المملكة لم أرَ في فعلي إلا واجبًا تأخر كثيرًا.
_لكنك تصرفت دون أخذ الإذن وذلك يُعدّ كسرًا لهيبة الشورى التي تتصدر دستورنا!و السياسة لا تُدار بالقناعات وحدها.
صدر القرار: يُحال نيوار إلى المحكمة النورانية العليا للنظر في خرقه للقوانين منذ أن جاء بالإنسية دون إذن.
وفي المحكمة لم تُنظر دوافعه بقدر ما نُظر إلى أفعاله وكيف يتصرف دون أخذ الأعراف والقوانين في الاعتبار، صدر الحكم بسجنه في سجن الغياهب دون مدةٍ محددة؛ عقوبةٌ مفتوحة بقدر الخطر الذي قد يترتب على فعلته.
تم سجنه كما كان يتوقع فلكل فعلٍ ردةُ فعل ولا شيء في هذه الدنيا يأتي دون ثمن.

♡♡♡

في ظل الأجواء المتكهربة التى تسود القصر وصدى ما فعله نيوار، كان ضيغم منطويًا في جناحه الخاصٍ، يتنقّل بين الملفات وسرير المرضى يمارس مهامًا آليةً بلا نبض.
لم يكن يُبدِ اهتمامًا صريحًا بما يحدث من صراعاتٍ ومجالس غير ما يسمعه عابرًا من حديث والدته مع والده..
لم يسبق له أن تعامل مع البشر ولا أن اقترب من عالمهم

لكنه الآن ومنذ تلك اللحظة التي وطئت فيها إيليانا عالمهم تغيّرت وجهة نظره للأمر.. هي فكرةٌ واحدة بدأت تُراوده
ماذا لو تسلّل إلى عالمها!
ماذا لو تمكّن من عبور الفجوة ليراها ولو من بعيد؟
كان يحاول طرد الفكرة، لكنها كانت تُراوده بشدّة.

♡♡♡

بعد الشهور التي قضتها عقب عودتها، بدأت تتأقلم في أرضها تنعم بدفء العائلة وتعيش حياةً عادية.. عادت إلى حلقات الحفظ التي التحقت بها من جديد.
لكنّ الرفيقات لم يكنَّ أنفسهن والمعلمات لم يكنَّ القديمات وجوهٌ جديدة لحياةٍ جديدة، أمّا الوجوه السابقة فقد طُويت صفحتها مع صفحة نيوار.
والغريب حين راجعت الحفظ مع معلمتها الجديدة وجدت نفسها قد ختمت القرآن كلَّه حفظًا.. اغرورقت عيناها بالدموع؛ فهي تعلم جيدًا أنها لم تكن تحفظه كاملًا قبل انتقالها إلى عالم نيوار، لكنها أدركت حينها أنه أهدى لها هدية العمر.. كان القرآن راسخًا في ذهنها ثابتًا.
أُقيمت لها حفلة تكريم وانتقلت إلى حفظ الأربعين النووية وتعلّمت رواياتٍ جديدة ثم عُيِّنت معلّمةً للقرآن بعد أن كانت طالبة.. وهكذا عاد مسار حياتها مشرقًا بين التحفيظ والتسميع... لكنّ الحقيقة أن قلبها كان يسير في جهةٍ أخرى.
عيناها وإن ابتسمتا، كانتا تخفيان تحت ذلك البريق وجعًا صامتًا وحنينًا مدفونا وحين يخيّم الليل بجناحه على سمائها تتسلل الذكريات من بين النجوم: كيف يعيش ابنها بعيدًا عنها؟ وماذا عن نيوار؟ هل تأقلم على غيابها، أم كان الفقد عليه يسيرًا؟
لا شيء الآن.. لا صوت، لا رؤيا، لا حلم يطفئ ظمأها. انحجب عنها كلُّ شيء.
تيقّنت أن العالم الآخر قد أغلق أبوابه عليها إلى الأبد.

حقًّا رحلة الحياة قاسية؛ حين كانت في عالمهم كانت تشتاق إلى أهلها وعالمها والآن بات يحدث العكس، تتيه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.
تقضي لياليها في عزلتها المعتادة تتوسّد السكون وتحتضن أشواقها.
تربّعت على سريرها وكوب القهوة أمامها يبرد ببطء، ترتشف منه حينًا وتعود بعينيها إلى صفحات كتاب اللّه الذي كانت تراجعه في صمت.
لكن النافذة فُتحت من تلقاء نفسها.. كانت قبل قليل مغلقة والستائر تلفّها بانضباط، أما الآن فقد انسدلت الستائر إلى جانبٍ واحد!
حدّقت طويلًا في المشهد وعيناها تمتلئان بالدهشة:
__أيعقل أن الريح وحدها تفعل ذلك؟
أخذها الفضول للنافذة ولم يكن هناك شيءٌ غير شمس المغيب تتوارى خلف غيماتٍ رمادية، والشارع يكاد يخلو من الحركة سوى بعض المارة.
عادت إلى عالمها وانتهت قصتها إلا أنها أصبحت ضائعةً مشتتة تبحث عن نيوار في كل غريب وفي كل المواقف التي ليس لها تفسير.. لربما أصابها شيءٌ من الهوس! لكنها أبدًا لم تعد إيليانا التي كانت عليها.
في آخر الليل جلست إلى مذكرتها وأمسكت القلم لتكتب رسالة ليلية...

إلى ذلك الكيان المفرغ من الزمن، ذلك الذي لا تحمل ملامحه عمرًا ولا تكشف عيناه إلى أي عصرٍ ينتمي!

وداعًا شبحيَ المُفضّل..
ها نحن نعود غريبين كما كنّا لكن هذه المرة نحمل بيننا ذاكرةً لا يمحوها الزمن وأثرًا سيبقى شاهدًا على كل ما كان..

شكرًا لأنك كنت الوحيد الذي عرفني من الداخل قبل الخارج
شكرا لأنّك أطلعتني على بواطن الأمور وخلفيتها..لم يفعل ذلك أحد قبلك وأكاد أجزم بيقينٍ حزين أن أحدًا لن يفعل بعدك.
شكرًا لكل حضورك حين احتجت إليك، ولكل صمتٍ أصغيت فيه إلى ثرثرتي التافهة وكأنها أهم حديثٍ في هذا العالم رغم فهمك العميق مقارنة بفهمي السطحي.
أعلم أنني سأفتقدك ما حييت سأفتقد ضحكتك، رائحتك أحاديثك ومراوغاتك ومزاحك ومواقفك التي لا تُنسى.
بل سأفتقد حتى تلك اللحظات التي كنت تبدو فيها كيانًا مرعبًا بقدر ما كنت تأسرني.
سأفتقد كل ما يمتّ إليك بصلة؛ عالمك الغامض تفاصيلك الصغيرة وحتى الأشياء التي كانت تبدو للآخرين خارجةً عن المنطق، لكنها كانت بالنسبة إلينا منطقًا خاصا لا يفهمه سوانا، وأما عن حبي لك فقد أحببتك حبًا لا يُعد ولا تحدّه حدود ولا يعرف نهاية.. ومهما حملتنا الحياة إلى طرقٍ متباعدة، سيظل جزءٌ مني عالقًا بك كوجعٍ مزمن يسكن يسار صدري.
لقد كنت ملجئي الآمن وراحتي وذلك الدفء الذي يُشعَر به في الروح لا في الجسد.. و بعد كل ما عشناه سويّا لم يعد بوسعي سوى أن أحملك كذاكرة لا تصرخ لكنها لا تهدأ...
ربما وجعك سيخففه الزمن لكن لا أعتقد أنه سيُشفى.

♡♡♡

بعد مرور خمس سنوات

تقول إيليانا:
"اليوم أصبحت أمًّا لطفلين" نيوار و آسر" و هذه المرة كانا من نفس طينتي و عالمي. تزوجت وخاضت تجربةً مألوفة كأي امرأة.ومع ذلك أخبرتني سرًّا لم تبح به لأحد:
«بعض التجارب لا تُستبدل... بل تُحفَظ في طبقةٍ عميقة من الروح ثم نواصل الحياة فوقها.»"

تمّت بحمد الله ومنِّه وكرمه وما توفيقي إلا بالله، لا أحصي ثناءً عليه، كما أثنى هو على نفسه فله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

إهداء عام: إلى كل من وصل إلى هذه الصفحة ودخل عالمي، إلى كل من خصّص جزءًا من وقته لقراءة ما خطّه خيالي... أتمنى أن تكون رحلتكم بين كلماتي ممتعة. إهداء خاص: إلى نفسي التي ثابرت واجتهدت رغم الخيبات التي تعرّضت لها ورغم الصعوبات والتحديات التي واجهتها، لكنها أبت إلا أن تواصل حتى ترى هذا العمل بين يديها "أحبك أيتها العنيدة" (•_•)

إلى عائلتي الكبيرة والصغيرة فردًا فردًا، إلى والداي أغلى ما في الوجود.. وآخر إهداء سيكون لميشا، حلوتي التي دائمًا ما تُصرّ على أن تطبع خربشاتها وعضّاتها على يدي. إهداء خاص جدًا: إلى أغلى شخصين دخلا حياتي: «إدريس» و«حنين». ذكرتكما بهذا الترتيب، ليس لأن أحدكما يسبق الآخر في حبي له، بل لأن دخولكما إلى حياتي كان بهذا الترتيب. ستقرآن هذا يومًا، فاعلما أنني أحبكما بعدد النجوم في السماء.

إهداء إلى... ....

توقيع أميرة الأحمر: ﴿ حُلَّة حَجَر فَتَحَهَا حَقَّ ﴾